الموسوعة الشرباصية

في

الخطب المنبرية

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي

دار الجيل
بيروت

الموسوعة الشرباصية

في

الخطب المنبرية

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على أنبيائه ورسله . وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا ، وإليك المصير » . « ربنا هيىء لنا من أمرنا رشداً » .

تقـــديم

هذا هو الجزء الرابع من الخطب المنبرية التى ألقاها فى حياته أستاذنا الكبير الدكتور أحمد الشرباصى عليه الرحمة والرضوان . والتى قد جمعتها وأخرجتها على أجزاء هذا هو رابعها أقدمه تحت العنوان العام الذى اخترته لهذه الخطب كلها وهو « الموسوعة الشرباصية فى الخطب المنبرية » . أقدمه إلى كل مسلم يؤمن بكلمة التوحيد ، وتشريع الإسلام المجيد ، وإلى كل راغب فى طلب العلم والمعرفة .

وهذا الجزء يضم — كالأجزاء السابقة عليه — مجموعة أخرى جديدة من الخطب المنبرية التى تعالج كثيراً من أمور الدين وشئون الحياة ، وعلى المنهج الذى خرجت عليه الأجزاء السابقة .

والله تعالى أسأل أن ينفع به وأن يجزى مؤلفه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

هذا وبالله التوفيق

دكتور عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربية
جامعــة الأزهر بالقاهرة

اسلوب الدعوة الى الله[1]

الحمد لله عز وجل ، وهب أصفياءه الحكمة ، وكتب على نفسه الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .أشهد أن لا إله إلا الله،هو وحده العليم بالسرائر ، المطلع على خفيات الضمائر : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، منحة الرحمن، وصفوة الإنسان: « وإنك لعلى خلق عظيم » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لعل أهم صفة من صفات رسول الله أنه داعية إلى الله،ولذلك خاطبه ربه فى محكم تنزيله بقوله : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » ، فهو يشهد بالحق ويحث عليه ، وهو يبشر بالخير ويحبب فيه ، وهو يحذر من الشر ويباعد عنه، وهو حين يدعو إلى الله بإذن الله،ينير الطريق ويضيء المسالك ، ويفتح أمام المهتدين المحسنين أبواب الفضل الإلهى الكبير : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ومعنى هذا أن الدعوة إلى الله ليست لعبة يتلهى بها الغر والجاهل ، وليست أمراً يحسنه القاصر والغافل ، وليست شهوة يندفع إليها كل من عرف قشوراً من الدين ، أو أراد تظاهراً بين الناس ، وإنما الدعوة إلى الله كالحرم الربانى الزكى ، يدخله من تطهر وتدثر بالعقل والعلم والإخلاص والاعتدال على الصراط المستقيم بلا انحراف ولا اعتساف ولا إسراف ، ولذلك وكل الله

---

(١) القيت بالتليفزيون ١٣ جمادى الثانية سنة ١٣٨٥ هـ ـ ٨ اكتوبر سنة ١٩٦٥ م .

تبارك وتعالى هذه المهمة الجليلة فى نطاقها العام إلى أنبيائه ورسله ومن ورائهم ورثتهم والأخيار من أتباعهم الراسخين فى العلم ، البصراء بالحق ، الخبراء بطرق الهداية فى حذق ورفق ، ولذلك قال الله تعـالى لحبيبه ومصطفاه : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولجلال الدعوة إلى الله ودقتها رسم الرحمن الرحيم لرسوله الكريم أصولها وقواعدها، حتى تكون هدياً ونوراً ، وخيراً وبراً ، تجمع ولا تفرق، وتوحد ولا تمزق ، وتبنى ولا تهدم، وتعمر ولا تحطم ، فقال له : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وفى هذا النص الإلهى المجيد حدد الخالق سبحانه ثلاثة وسائل للدعوة هى الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ؛ وكأنه أراد أن يكون كل منها لمستوى من المستويات ، أو لحالة من الحالات ، فالحكمة هى القول العلمى الدقيق البليغ ، المشتمل على الحجة المقنعة والبرهان الساطع والدليل الواضح ، وكأن وسيلة الإقناع بالحكمة تناسب الذين يطيقونها ذهنياً وفكرياً من المتعلمين والمثقفين، والموعظة الحسنة هى الكلام الرقيق اللطيف ، الذى يقوى حوافز الخير وعواطف البر ومشاعر الإنسانية الرفيعة التى تعمر ديناها بالمحبة والمودة وحسن المعاملة ، وكأن هذه الوسيلة تناسب جمهور الناس الذين إذا جاءتهم الموعظة الحسنة اللينة أحيت موات قلوبهم ، وذكرتهم بربهم ، وحملتهم برقة ولطف على سواء السبيل ، ثم تأتى المجادلة بالتى هى أحسن ، وهى المحاورة الهادئة الرزينة التى تصور أحسن الطرق للمناقشة ، بلاعنف ولا تعنت ولا شطط ، وهذه الوسيلة تكون مع المخالف فى الاتجاه أو الاعتقاد ، وهكذا أراد الله جل جلاله بمن يصلح للدعوة ويقتدر عليها أن يعرف حدودها

وقيودها ، وأن يلتزم وسائلها الرشيدة من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فلا ينحرف عنها ولا يجور فيها ، ولا يجاوزها إلى ادعاء ماليس له من جموح أوتطاول ، بل هو يبين ويوضح ويدلل بأرق الوسائل وألطف الأساليب ، دون لجاجة أو مهاترة أو عدوان ، والله بعد ذلك هو المتصرف فى عباده ، المسئول عن هدايتهم ، العليم بالطوايا والنوايا : « إنه عليم بذات الصدور » ،وهو وحده صاحب الحق فى محاسبة الخلق على أعمالهم يوم لقائه ، وهو وحده مالك الثواب والعقاب ، ولذلك قال : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وإذا كان الله جل جلاله قد حدد وسائل الدعوة هنا بهذه الأمور التى جعلها بعيدة عن معانى الإكراه والإرغام والعدوان ، فقد ذكر لنا فى موطن آخر صورة من صور التطبيق للدعوة المسالمة، فإذا هذه الصورة تبدو وفيها اللين والرفق والرحمة ، وذلك حينما أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقال لهما : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى . فائتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنابنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » . وهكذا بدئت المحاورة مع فرعون — وهو فرعون وكفى — بالقول الهادى اللين : « فقولا له قولا ليناً » واختتمت بالسلام والأمان : « والسلام على من اتبع الهدى » . ولقد روى التاريخ أن جاهلا يدعى العلم أراد أن يتظاهر بالدعوة ليرضى غروره أو يستر نقصه ، فقال لأحد الحاكمين : أيها الأمير ، إنى سأسمعك كلاماً شديداً فاحتمله منى . فأجابه قائلا : لن أحتمله منك فلا تقله . فقال الدعى فى باب الدعوة : ولم ؟ . فأجابه : لأن الله تعالى أرسل من هو خير منك إلى من هو أسوأ منى ، ومع ذلك أمره باللين والتلطف ، لقد بعث

الله موسى وهارون وهما خير منك بلا نزاع ، إلى فرعون وهو أسوأ منى بلا جدال ،ومع ذلك أمرهما بقوله : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أويخشى » .

ومن بعد موسى وهارون وغيرهما يقبل شيخ الأنبياء وإمام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام فإذا هو القدوة الطيبة والأسوة الحسنة فى هذا الباب ، فهو الذى قال : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » ، وحينما طلب منه بعض أصحابه أن يلعن المشركين أبى وقال : « إنى لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت هادياً ورحمة » . ولما طلب منه أن يدعو على المشركين ليهلكوا أبى وقال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » . وترجم القرآن عن هذه المثالية الرائعة فى لين الدعوة ورحمة الداعية فقال للرسول : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » . وقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » أى الشريعة المعتدلة السهلة الميسورة ، وعماد هذا الدين الكريم هو الطهارة والصفاء ، والمحبة والإخاء ، والتناصح بالرفق والرحمة ، والدعوة إلى الخير بالحكمة ، « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

بين الرفق بالانسان والرفق بالحيوان :

كرامة الانسان[١]

الحمد لله ، دعا عباده إلى فضائل الأعمال ، وحثهم على مكارم الفعال ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدى إلى صراط مستقيم ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا تغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا تصب النقمة إلا على أذلهم وأخسهم ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جاء فأنقذ الإنسان من وهدة الضعف والهوان ، وأعزه بشرعة القوة والإيمان ، « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لانفصام لها والله سميع عليم » ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله المعتزين بعزة الكبير المتعال ، وأصحابه المتقربين إلى خالقهم بصالح الأعمال ، وأتباعه المهتدين بهديه فى سائر الأحوال : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

إذا عرف المرء العدالة فى حياته صار فى الكون ربانياً ، يبغى لنفسه الخير والفلاح ، ويشع على غيره بالسناء والضياء، ويستوى على طريق الهدى فلا ميل ولا ضلال ؛ ولذلك خاطب العلى الكبير نبيه مرشداً وموجهاً فقال له : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير » ؛ وأما إذا ركن الإنسان إلى شيطان البغى والإسراف ، فإنه يصبح لعنة قد يهابها الناس ويفرون منها، ولكنهم يعملون على إزالتها والفتك بها حينما تلوح الفرصة الممكنة ؛ وليس كالرحمة توثق الأسباب وتنشر السلام وتبث المحبة والإخاء، وكم من أمة سعدت بها فعلت وغلبت وكانت من الفائزين ، وكم من أمة

---

(١) ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٣٧١ هـ — ١٨ يناير سنة ١٩٥٢ م .

حرمت منها فضلت ضلالا بعيداً ، مهما خيل إليها أنها قد نالت نصيباً أو أنصبة من العلم والحضارة ؛ فإنما الأمم الأخلاق ! . . .

نشرت الصحف أخيراً أن رجال الشرطة فى جنوب أفريقيا قدموا إلى المحاكمة رجلا اسمه « جان بوسمان » ، لأنه قسا فى معاملة أسد ، بأن حبسه فى قفص صغير لا يتسع لتحركه ؛ وقالت النيابة إن تهمة هذا الرجل تهمة خطيرة يجب أن يعاقب عليها أشد العقاب ، لأنه امتهن حرية حيوان ، ولأن الأسد ملك من ملوك الغاب . . . يحدث هذا أيها الناس فى جنوب أفريقيا التى توصف بأنها همجية ومتوحشة ومتأخرة ، وكأن هذه المحاكمة وخزة أليمة تنقلها إلينا الأنباء لتشك جنوب قوم حرمت أفئدتهم من الرحمة ، وخلت صدورهم من الإنسانية ، وجفت عروقهم من ماء الرفق والعدالة ، ولتوقظ شعور أناس كأنهم الصخور فى بلادة العاطفة والإحساس ، فمنهم الذين يستضعفون خدمهم فيعتدون عليهم بالسب والضرب والحرمان من الراحة والطعام ، ويعذبونهم بالصفع والركل بالحديد المحمى بالنار ؛ ومنهم الجبابرة الذين اتخذوا من أنفسهم آلهة فى إقطاعيات الريف ومعاقل الضيعات والكفور ، فهم يسخرون أرقاء الأرض وعبيد السادة تسخير الكلاب والوبال والنكال لكل متحرر من هؤلاء العبيد يرفع وجهه فى وجوه هؤلاء الجبابرة ليقول لهم : رفقاً بنا أيها الطغاة الأشداء ؛ والواقعة السوداء تقع عاجلة على أية أسرة تخرج على إرادة هؤلاء الباغين ، إن مصيرها سيكون إتلاف مزارعها وإحراق منازلها وتشريد رجالها وامتهان كرامتها البشرية والاعتداء على حرمات نسائها وهتك أعراض رجالها بالقسر والإكراه ؛ ومنهم الذين يسيئون استغلال مراكزهم وسلطاتهم فيعذبون الأبرياء والمتهمين والمعارضين بصور تذكر بأصحاب الأخدود ، وبما كان من فرعون وهامان ؛ ولعنة الله على الظالمين ...

أفما كان من هؤلاء المظلومون أولى بالرفق والحنان عند بنى الإنسان من ذلك الحيون ؟... أوما كان من هؤلاء البغاة الذين يعيشون فى أمة تدعى أنها متحضرة وأنها متمدنة وأنها متدينة أولى بالعدل وإيثار المرحمة من الزنوج فى جنوب أفريقيا ؛ يا أمة ضحكت من جهلها الأمم ؟...

لسنا بهذا ننكر الرفق على الحيوان أيها الناس ، فإننا أصحاب دين يوصينا بأن نرحم كل ذى روح ، وأن يكرم المرء دابته فلا يحملها مالا تطيق ، ولا يهينها ولو بالسباب ، فلقد كان الرسول مسافراً مع بعض صحابته ومعهم رجل على بعير ، فلعن الرجل بعيره ، فقال له النبي : يا عبد الله ، لا تسر معنا على بعير ملعون . وذلك إنكاراً منه عليه . وكان أحد الصحابة مع الرسول فى سفر ، فرأى عصفورة معها فرخاها ، وأخذ الصحابى فرخيها ، فجاءت العصفورة تعرش حزناً على ولديها ، فقال الرسول : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها . وحرق بعض الصحابة قرية نمل . فقال الرسول : من حرق هذه ؟ـ قالوا : نحن . فأنكر عليهم ذلك وقال : إنه لاينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار . وكذلك روى الرسول أن رجلا كان يمشى فى فلاة فأدركه العطش ثم وجد بئراً فنزل وشرب منها ثم خرج ، فوجد كلباً يلهث ويأكل التراب من العطش ، فأدركته الرحمة به فنزل البئر وملأ خفه وسقى الكلب ، فغفر الله له ؛ فقال الصحابة : وإن لنا فى البهائم لأجراً يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فى كل ذات كبد رطبة أجر . وكذلك قال : دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض .

نعم نحن لا ننكر الرفق بالحيوان ، بل ندعو إليه لأن ديننا قد أمر به من قبل ، وإذا كان هناك جهلاء أو سفهاء يفخرون بأنهم ابتدعوا نظام الرفق بالحيوان فقد كذبوا ، فالإسلام سابق عليهم ومعلم لهم ، ولكننا ندعو إلى الرفق بالإنسان . ندعو إلى الرحمة بخلق الله فى بلاد القرآن . ندعو إلى نشر

العدالة والأمان بين الجميع بلا تفرقة بين عظيم وصغير فى دنيا الرحمن ، لأنه لا يرضى الخالق ولا المخلوق أن يستبد الأقوياء بالأذلاء ، فينتزعوا لقمة الخبز من أفواه الفقراء ، ويلهبوا بالسياط ظهور الضعفاء ، ويقيدوا بالسلاسل أيدى الطاهرين الأبرياء ، ويمتصوا الدماء من عروق المرضى والأصحاء ، مع أن الرسول يقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . ولقد كان أصحاب الرسول معه فى سفر ، فأخذ بعضهم من أخيه حبلا وهو نائم ، فاستيقظ فزعاً ، فقال الرسول : لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً . وروى مسلم أن الرسول قال : إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا . وقال الرسول : ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

فلتستح الأمة من الأمم أن تقول إنها أمة حتى تؤدى الحقوق فيها لأصحابها مهما كانوا ضعفاء ، وحتى تؤخذ الواجبات ممن وجبت عليهم ولو كانوا فى السماء ، وحتى يعم لواء المساواة جميع أفرادها ، فلا يكون هناك أناس يستحلون المحارم ويغترفون المغانم بلا حساب لأنهم أشداء ، وبجوارهم أناس تسلب منهم حقوقهم وكرامتهم وآدميتهم فلا ينتصفون لأنفسهم لأنهم ضعفاء مع أن الكل أمام الله سواء « إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم.

الراحلون الى الخارج[1]

الحمد لله ، جعل الحياء شعار عباده المؤمنين ، ووصم بالوقاحة جباه الفاسقين ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت تضاعف النعمة وتباركها لشاكريها ، وتصب النقمة وافية على مستحقيها ، وما ظلمهم الله ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جعل حب الوطن من الإيمان ، وجاهد بأهل الخير والفضيلة كتائب الشيطان ، فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله وأحبائه ، وأنصاره وأصحابه ، ومن دعا بدعوة كتابه : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا وجد الحياء فى نفس المرء منعه من الكثير ، وحال بينه وبين الحقير من الأمور ، وأما إذا خلع المرء برقع الحياء ، ولم يبق فى وجهه للمروءة ماء ، أتى السيئات وهو يظن نفسه محسناً ، وتجرأ على المنكر الشنيع وهو يحسبه هيناً ، والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه ، إذ يظهر أن عندنا عدداً ضخماً من الذين فقدوا الحياء وأسرفوا فى الاستهتار ، والدليل على ذلك أن البلاد المسكينة تشكو الغلاء ، وتبحث عن الغذاء والكساء ، ويتصارع الملايين من أبنائها مع الفقر والمرض ، وتحيط بها البلايا والمحن ، وتتهددها المخاوف والأخطار ، ثم نرى عشرين ألفاً من أغنيائها ومترفيها يضربون أسوأ الأمثال ، فلا يعملون لأوطانهم ، ولا يشتركون فى النعماء والبأساء مع إخوانهم ، بل يفرون من ديارهم إلى الخارج فى رحلات عابثة ماجنة كلها إسراف وإتلاف ، حتى إن الإحصاءات العاجلة تقول إن أربعة

---

(١) ٢ شوال سنة ١٣٧٠ هـ — ٦ يوليو سنة ١٩٥١ م .

ملايين ونصف مليون من الجنيهات خرجت على أيدى هؤلاء من مصر الحزينة إلى أيدى أعدائها والباغين عليها من الأوربيين ، وهذا الرقم المرعب هو ما يظهر عن طريق الرسميات فحسب ، وما خفى كان أعظم ، ومالا يخضع للرسميات والرقابة أدهى وأمر . . . وليت هؤلاء رحلوا حين رحلوا ، وأنفقوا ما أنفقوا فى سبيل الله والوطن ، أو من أجل الدفاع عن الحقوق المضيعة والحريات الشهيدة . ، ولكنهم رحلوا للهوى والشيطان ، وأنفقوا ما أنفقوه على اللذة الرخيصة والشهوة الوضيعة والترف المبيد ، حتى أظهروا مصر فى مظهر حقير مهين ، وأعطوا العالم عن المصريين صورة من أقبح الصور ، وحتى أخذت الصحف والمجلات فى الداخل والخارج تقول إن العالم العابث الفاجر يبحث دائماً عن صيده الثمين وضحاياه المليئة فى مصر وبين المصريين المغفلين الذين لا تفتنهم إلا هزة الرقصة وحلقة السكرة ، ومائدة القمار ومواخير الفجور ؛ وهذه إحدى الرحلات الذائعة تذكر أن مديراً لمكتب سياحة قال : « إن السائح المصرى يساوى ثلاثة من السياح من أى بلد آخر ، لأنه ميال للبذخ ، ويقيم فى أفخم الفنادق ، ويأكل فى أفخم المطاعم ، وينثر المال ذات اليمين وذات الشمال فى كل مكان ، وهو لذلك صيد ثمين جداً ، ويكفى أن تقول فى أى بلد من بلاد العالم إنك مصرى ليعتقد النـــاس أنك مغفل يبعثر المال بلا حساب » ! . . .

معذرة إليكم فليس هذا كلامى ، ولكنى أنقله عن عليم بما هنالك ، وحق له أن يقول ذلك ، لأنه يرى مثلا أحد المصريين المسلمين الراحلين إلى فرنسا الآن يستخدم فى تنقله مع زوجته فقط ثلاث سيارات فخمة يملكها ، كل سيارة بشكل ولون وطراز ، وقد اصطحب معه جياده ليشارك بها هناك فى ميادين السباق حيث تضيع الآلاف والملايين ، ولأنه يرى زوجة مصرى مسلم ترحل هذا العام إلى فرنسا لا لعلاج أو جهاد ، بل لتفتن أبصار الباريسيين

كما تقول الصحف بأنواعها البديعة الغالية التى تكلف كل منها مئات من الجنيهات . . .

هؤلاء فى الواقع هم دعاة الشيوعية المحرمة فى البلاد . . . لأنهم يرون بلادهم تصطلى بنيران الفقر والجهل والمرض ، ويرون إخوانهم فى الوطن يحترقون عناء وشقاء ، ثم يأبون إلا أن يبذروا أموالهم التى لا ندرى من أين جمعوها ولا كيف امتصوها ... وأين يبذرونها ؟ إنهم يبذرونها على موائد الخمر والقمار والفجور فى بلاد الأعداء والغرباء ، بينما تنعى مصايف مصر العديدة من بناها ، ويصب الوطن لعناته على الذين أغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فكانوا بها أول الكافرين ، فويل لهم مما اقترفت أيديهم ، وويل لهم مما يجرمون . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ملعون من اشترى عاجلا من لذته بحق من حقوق أمته ، وملعون من أنفق مالا فى غير حله أو وجهه ، وملعون من كفر بنعمة الوطن عليه فآثر بماله أو عواطفه وطناً سواه ، وملعون من امتلأ حتى أتخم وهو يرى إخوانه قد فرغوا حتى هلكوا جوعاً ، وملعون كل من رضى بهذا البهتان أو قدر على تغييره ثم سكت عليه ؛ والله أسأل أن يهب المسئولين رشاداً يهديهم لإزالة هذه البلايا والنكبات ، إنه على كل شىء قدير ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الذى نريد فى العهد الجديد[1]

لله الحمد ، هو يقول الحق ويهدى السبيل ، ويحب التناصح ويبغض التضليل ، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، تؤيد الحق ودعوته ، وتمحق الباطل وشيعته ، « الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم تضعفه البأساء والضراء ، ولم تغره النعمة والسراء ، بل كان خير الثابتين وأفضل الموقنين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ذوى التقى والرشاد ، وأصحابه الداعين إلى شرعة الهدى والسداد ، وأتباعه القائمين بالقسط بين العباد ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن للنصر لذة وللغلبة نشوة ، والفائز القاهر يستشعر هزة قد تلهيه أو تطغيه ، وهو لذلك أحوج ما يكون فى غمرة الانتصار ورجة الانبهار إلى صديق يذكره وشفيق يحذره ، ولا يراد بالتذكير أو التحذير إثارة عناد ، أو ذر رماد ، أو سعى فى فساد ، بل يراد بهما الإبقاء على ما يسر الله من خير ، واستثمار ما ساق القدر من نعمة ، حتى تتضاعف وتدوم ، « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . وقد شاء من لا راد لقضائه ولا معوق لآلائه ، أن تختار الأمة رعاتها وقادتها ، وأن تسلم إليهم مقاليد أمورها ، فى فرحة كمهرجان الفاتحين وموكب السائدين ، ولعل بعض الفائزين قد أخذ يداعب خياله ويسعد نفسه بتصور الأوشحة والأوسمة ، والحفلات

---

(١) ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٦٩ هـ — ١٣ يناير سنة ١٩٥٠ م .

الفخمة المنظمة ، والمرتبات الكثيرة والحظوظ المقبلة ، مع أن المجد له تبعاته المرهقة ، والسيادة لها تكاليفها القاسية ، ومن حمل أمر نفسه فقد هان عليه الخطب وسهل أمامه الطريق ، أما من حمل أمر الناس فقد نهض بالعبء الجليل وتعرض لمعاطب السبيل ، ولا يزال المرء فى فسحة من أمره حتى يلى شئون الناس فيلقى من الحساب العسير ! . . .

فهل لنا ونحن أمة إسلامية محمدية ديدنها التناصح والتواصى بالحق أن نسعى هادئين مخلصين إلى رحاب أولئك المختارين الممثلين لنحمد إليهم الله الذى لا إله إلا هو على ما ساقه إليهم من خير ونعمة ، ثم نحرضهم على حفظ العهد وأداء الأمانة ، بأن يوفوا بما عاهدوا الله والأمة عليه ، ثم نحذرهم عثرات الأقدام وشطحات الأوهام ، ثم نبتهل معهم إلى الحق تبارك وتعالى وهو ديان العالمين ، ورحمن الدنيا والآخرة ، وقيوم السموات والأرض ، بأن يكتب النجاح والفلاح لمن وفى واهتدى ، وجاهد لرفع كلمة الدين والتقى ، وأن يكتب اللعنة إلى يوم الدين على من طغى وآثر الحياة الدنيا !...

إن تغيير الاتجاه العام فى الأمة بذهاب دولة ومجىء أخرى معناه أن الماضى كان يلف فى طواياه المظلمة أخطاء وجرائم ، وأن أصحاب الكلمة فى إعطاء الثقة للرعاة وسحبها قد ضاقوا ذرعاً بما كان ، وآمنوا بأنه يجب أن لا يكون ، فخفضوا قوماً ورفعوا آخرين ، ولكن الماضى الأثيم قد خلف وراءه آثاراً لا تزال توقد ناراً وتولد أضراراً ، ولذلك نؤمن بأن أول واجبات الذين ملكوا أزمتنا هو واجب التطهير لحمى الوادى الكريم من الجرائم والأوشاب التى خلفتها شرعة الغاب وحياة الذئاب ، ولعله من البدهى الواضح أن وقف التيار ورد الإعصار وإطفاء النار ، أولى بالسبق من زيادة البناء وتجديد الرواء ، فنريد أن تمتد الأيدى المصلحة الحكيمة الرحيمة القويمة إلى جرائم التموينات ومخازى التعذيبات وعجائب التحقيقات

ومآسى الاعتقالات لكى تمسح بالإصلاح والتقويم والتعويض خطايا الاستغلال والاستبداد والضلال ، فكم من آمن شرد ، وضعيف ظلم ، وكريم هضم ، وبرىء عذب ! . . . وكم من أسر عزيزة شردت فهانت ، وبيوت عامرة عصف بها فخربت ، وعائلات شريفة كان النسيم يجرح كرامتها فديست ، وقلوب مؤمنة تآلفت على الله وكلمته فشتتت ؛ وكم من أواصر وروابط مقدسة قطعت وفصمت ، لأن الجاسوسية المجرمة والسعاية الخسيسة والمكايد الدنيئة أخذت سبلها الواسعة إلى دنيا اليأس ، فجعلت المشتركين فى الإنسانية والوطنية واللغة والدين ، يتربص كل منهم بأخيه الدوائر ، ويسوق إليه حتفه بلا رحمة أو إشفاق ؛ ولم لا والسلطة مطلقة والذهب كثير والضمائر رخيصة والقطيع مستسلم ؟! . . . وإذن فلابد فى مطلع هذا النور وبعد زوال ذلك الفجور من إعادة المياه إلى مجاريها ، وإعطاء القوس لباريها ، وتسليم التركة لجامعيها ، ولابد من إنصاف شامل كامل لكل مظلوم أو محروم أو مهضوم فيعوض سائر المصابين فى كراماتهم أو أسرهم أو مرتباتهم أو وظائفهم أو أماكن عملهم ، أو غير ذلك من جهات تعدد فيها العسف والبهتان حين استطال الغرور وضاقت الصدور ، ولأن ننصف المظلومين ، ونطلق سراح المأسورين ، ونعيد إلى الحياة الحرة بقية المعزولين خير ألف مرة من أن نسعد الطامعين ، ونستجيب لرغبات المؤملين ونضاعف الخير للمطمئنين ! ! . . .

ونريد من الرعاة الولاة أن يخرجوا على الناس شموساً قوية ساطعة لا يضيرها السحاب ولا يصدها الحجاب ، فهم لا يعملون فى الظلام ، ولا يخافون الحساب ، ولا يغضبون من صوت النقد أو همس العتاب ، بل هم يعتمدون على ذخائر قوية من مميزاتهم وأعمالهم وسجلات نضالهم ، وليسوا بحاجة إلى سواعد مفتعلة أو سواند شاذة أو حوافظ مصطنعة ، ولذلك يجب عليهم فى سرعة وحزم وصرامة أن يلغوا جميع النظم والأوضاع والقرارات

والتصرفات الجائرة الخاطئة التى نبتت خلال الأيام المظلمة والفترات المحرمة ، وأن يلغوا جميع ما ترتب عليها من آثار سابقة أو لاحقة ، وأن يعودوا بالناس إلى حياة المساواة الحقة والحرية الصحيحة والاحتكام إلى مألوف العدالة ومعروف القانون ، وأن يهيئوا لكل فرد فى ظل النظام أن يتمتع بحريته على أوسع صورة ممكنة ، فتلغى الأحكام العرفية ، ويزول التجسس والرقابة ، وتطلق الألسنة من عقالها ، ويباح الاجتماع والكلام والنقد والتوجيه ، فإن أخطاء الحرية الطفيفة أهون بكثير من أخطار الكبت والطغيان ! . . .

والدعوة الإسلامية أيها السادة ، الدعوة الإسلامية التى حوربت فى كل مكان ، والتى ظهر لمقاومتها فى كل جيل شيطان ، والتى تآمر الطواغيت على وأدها يوم رأوها تعم الآفاق وتطوق الأعناق ، إنها تناجيكم وتناديكم ، وما أنتم عنها بغرباء ، ولستم لها بأعداء ، فلكم فى الإسلام أجداد وآباء ، وما منكم إلا من يثور إذا نسب إلى غير دين الإسلام ، ولذلك ليس بغريب أبداً أن تنتظر منكم الدعوة الإسلامية ، وفى أيديكم الحل والربط ، أن ترفعوا كلمتها ، وتؤيدوا دعاتها ، وتعزوا شأن الذين أصيبوا فى سبيلها ، وتخلدوا ذكرى الذين سقطوا شهداء من أجلها ، وأن تخلفوهم بالرعاية والعناية والتكريم فى أسرهم العانية وأبنائهم المفجوعين ؛ وما أجدركم هنا بأن تبذلوا غاية الوسع والمجهود فى الانتصار لحقوق أولئك الشهداء المضيعين ، فإن فى طليعتهم من يمد يديه من عالم الغيب ليطبق بأظافره على عنق كل مسئول صارخاً فيه : أين دمى المضيع ؟ . وأين حقى المهضوم ؟ وأين الذين تكاثروا على قتلى بليل الدناءة والإجرام ؟... وما يجوز لأمة تريد أن تهدأ وتستقر ، ويأمن أفرادها على حياتهم وأعمارهم ، أن تغض الطرف عن ذلك الضلال البعيد ! ...

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

قولوا للمختارين منكم الممثلين لكم : إننا لا نريد منكم أن تستجيبوا لشهوة التشفى والانتقام ، أو تسرفوا فى التنكيل بقوم أصبحوا مجردين من السلطان ، ولو كانوا خاطئين ، وإلا تعددت المآسى وتكررت البلايا ، بل استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، فليكن منكم حساب دقيق لكل مفرط ، وتأديب رادع لكل باغ ، وإنصاف عادل لكل مهضوم ، فإنكم إن فعلتم نلتم عز الدنيا ونعيم الآخرة . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

هنا القاهرة[1]

هنا مرتع الإلحاد والزندقة ، والتطاول على العقائد والفضائل ، والوصول إلى الرتبة والشهرة بالمخالفة والمعارضة ، والشذوذ والابتداع ! . . .

هنا المجاهد المضطهد والوطنى المنكور والمحسن المجهول الذى يقدم الخير لدينه ولوطنه بلا إعلان أو ضجيج بل فى كتمان وإخفاء ، فتكال له التهم ، وينسب إليه التقصير ، وتحاك حوله الدسائس ، وتوضع فى سبيله العراقيل ويصوره الخصوم بصورة الخائن لوطنه المفرط فى حقوق بلاده ، فتنخدع العامة بذلك ، وتتابع فى التجريح ، والاضطهاد ويوم يقوم الناس لرب الأرباب يذوقون وبال أمرهم وجزاء اتهامهم وبغيهم ، قائلين متعجبين : ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ؟! . . بينما يفوز أولئك المجاهدون الصامتون برضوان ربهم ونعيم آخرتهم ، وذلك هو الفوز العظيم !. .

هنا حفلات الشاى ، ومآدب الغداء والعشاء تقام بمناسبة وغير مناسبة ، ولا يقصد بها فى أكثر الأحيان وجه الإخلاص والوفاء أو التعبير الصدق عن الشكر والثناء ، بل يقصد بها نيل الأوطار وتحقيق المآرب ، وناهيك بما يحدث فيها من كذب وادعاء ، ومدح بالباطل ورمى بالبهتان ، وتضليل للشعب المسكين . . . ثم تأتى الصحافة من بعد ذلك فتزيد الطين بلة ، وتبالغ فى التشويه وتكيل المدح للأحباب ، والتجريح للخصوم ، بلا مراعاة لحق أو شعور :

وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها أبو الطيب

---

(١) اول اكتوبر ١٩٤٦ م .

أمـــور تمــر ، وعيش يمــر ونحــن مــن اللهــو فــى ملعب
وشعب يفــــر مــن الصالحات فـــرار السليم مــن الأجــرب
وصحف تطــن طنــين الذبــاب وأخــرى تشن عـــلى الأقرب

هنا دنيا الأحزاب والطوائف التى تتحكم فى العباد ، وتسيطر على الأرزاق ، وتتصرف فى الشئون ، فتغمر أنصارها ومحاسيبها بالجاه والمال وتغرق أبناء غيرها من الطوائف فى العنت والشقاء ، والاضطهاد والابتلاء ، وكلما جاءت أمة لعنت أختها ، وهدمت بنيان سابقتها ، وأضاعت فى سبيل حزازاتها وانتقاماتها مصلحة المجموع وخدمة الوطن ، وهكذا أصبح الذى ينتفع بالحكم هو الحاكم وأنصاره ، مع أنهم خدام الأمة وأجراؤها ، والويل للشعب المحكوم ، إنه دائماً مطية الوصول وكبش الفداء ! ! .

هنا البلاد التى تزعم أنها زعيمة الإسلام والمسلمين ، ومع ذلك فهى تحكم أهلها بقانون وضعى من عمل رجل أجنبى ضعيف ، وتهجر كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، مع أن الله تعالى يقول : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » فأين نحن إذن من زعامة الإسلام والمسلمين ؟ .

هنا دنيا التماثيل الوثنية والنصب التذكارية والصحف التجارية ، والسينمات الخليعة والملاهى الوقحة ، كل هذه معاول تهدم بنيان الوطن وتقوض دعائم الأخلاق ، وتكتب على الشعب الذلة والهوان : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » !

هنا الوظيفة بلا موظفين ، والموظفون بلا وظيفة ، هنا المتظاهرون

بالطهر والصفاء ، وهم أخبث من الخبث وألأم من الثعالب ، هنا السياسى الخائن والحاكم الجائر ، والمدرس المهمل ، والجندى الهارب ، والزوج الفاسق ، والزوجة الخائنة ، والخادم السارق ، والشاب الماجن ، والطفل المشرد ، والعالم المتحلل ، والصديق الغادر ، والغنى الشحيح والفقير المعربد ، والتاجر الجشع ، والرئيس المتجبر ، والمرءوس المتملق ، والمرأة الراقصة ، والفتاة المسترجلة ، والفتى المخنث ، والأديب المتميع ، والصحفى المدلس ، والنائب المهرج ، والمصلح الذى يحتاج إلى إصلاح !

كم عالـــم مـــد العلـــوم حبائلا   لوقيعـــة وقطيعـــة وفـــراق
وفقيـــه قـــوم يرصـــد فقهـــه   لمكيـــدة أو مستحل طـــلاق
وطبيب قـــوم قـــد أحل لطبه   ما لا تحـــل شريعة الخـــلاق
قتل الأجنـــة فى البطون وتـــارة   جمـــع الدراهم مـــن دم مهراق
وأديب قـــوم تستحق يمينـــه   قطع الأنامل أو لظـــى الإحـــراق
عريت عـــن الحق المطهـــر نفسه   فحياته ثقـــل عـــلى الأعنـــاق!

هنا تخرج الفتاة من بيتها بلا حارس أو رقيب ، فتلقى من تلقى ، وترافق من ترافق ، وتأتى من الأمور ما ندرى وما لا ندرى ، وتعود إلى بيتها بعد منتصف الليل مخمورة منهوكة ، ومعها خليل جاء ليرعاها فى الطريق ! . . فإذا هم الأب أو الأم أو الأخ باعتراض قالت فى استهزاء واستهتار : أتريدون أن تحرمونى من الحرية ؟ بل أتريدون أن تمنعونى مما تتمتعون به ؟ .

هنا دنيا الخمر والحشيش والأفيون والبوظة والتبغ بأنواعه ، والشاى الأسود والمهيجات الجنسية القذرة ، يدمن على كل ذلك أو بعض ذلك

الرجال والنساء الكبار والصغار ، إن لم يكن أمام الأبصار ، فني الخفاء والإسرار ، ولا يستخفون إلا حين يرهبون سطوة القانون أو ظلمات السجون !

هنا حفلات الإحسان للفقراء ، وفيها الرقص الخليع ، والتهتك الفظيع ، والغناء الداعر ، والخمر تملأ الكؤوس وتصدع الرءوس ، والنساء معروضة أثداؤها وعفتها للبيع بأهون الأثمان . وثمة ترى طريق الشيطان والرذيلة ، يسمى بطريق الرحمن والفضيلة ! . .

هنا ملاعب القمار فى الأندية الخاصة والعامة فى البيوت والمقاصير ، وفى المقاهى والشوارع ، بل وفى أمكنة العمل أحياناً ، من الشيوخ والشباب ، من الرجال والنساء ، تدور المقامرة بين المعارف والأصدقاء ، بل بين الأهل والأبناء ، بلا خجل أو استحياء !

هنا شواطئ الاصطياف وفيها مدارج الفتنة والفجور ، ومسارح الفضائح والمخزيات ، ومذابح الأعراض والكرامات ومقابر العفاف والشرف ! .

هنا بلد المفارقات التى تجمع بين المتناقضات ، فتجد المسجد وبجواره المقهى والخمارة ، وبينما يقبل عباد الله على أداء الصلوات فى المحاريب بخشوع وجلال ترى أحلاس البارات ، ورواد الخمارات يفسدون عليهم عبادتهم وهدوءهم بعربدتهم وتهاترهم وإجرامهم الفظيع ! .

هنا القاهرة التى تستهين بلغتها العربية فلا تحرص على استعمالها فى مخاطباتها ومكاتباتها ، بل كثيراً ما تؤثر عليها الإنجليزية أو الفرنسية ، وها هو ذا أحد كبار المصريين يدعو إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، مما جعلت لغتنا تصاب ببوادر الضياع :

سرت لوثة الإعجام فيها كما سرى   لعـــاب الأفاعـــى فى مسيل فرات

فجاءت كثــوب ضم سبعين رقعة   مشكــــلة الألــوان مختلفات !

هنا من يفترش الدمقس والحرير ، وينام على الأريكة والسرير ، وعلى مقربة منه من ينام على الإفريز ! . .

هنا البلد الذى يصل فيه بعضهم إلى التخمة والاكتظاظ ، وبجوارهم من يقضى عليهم لقلة الغذاء والكساء !

هنا يحيا بعض الناس حياة الترف الفاحش والإسراف الزائد ، عن طريق السرقة والغش والاحتيال ، وبجواره ألوف تقاسى آلام الحياة ومصائبها أشكالا وألواناً ! . .

هنا ! . . هنا القاهرة ! . .

حياة قوية نافعة[1]

الحمد لله عز وجل ، استعلى بقوته ، ودنا برحمته « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل القوة والأمانة شعار المحسنين : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أيده ربه فكان خير الغالبين : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز » . فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كلما انبهم الطريق ، أو استبد الضيق ، أو غامت الفكرة ، أو طالت الحيرة ، فزع المؤمن إلى مائدة الرحمن ومبعث الأمان ونور الإنسان ألا وهو القرآن ، ليجد فيه الضياء والدواء والغذاء ، وليزداد إيماناً مع إيمانه بأنه « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » . وهذه مثلا آية معدودة الكلمات عديدة الإشارات ، نطالعها فى ذلك الكتاب الإلهى العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ومع قلة كلماتها نراها ترسم المنهاج فى الدين والدنيا ، وتحدد الخطة فى الحرب والسلام ، وتضع العلامات البارزة على طريق المجد والشرف ، فيقول فيها رب العزة : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز » .

لقد أرسل الله سبحانه رسله الأخيار الأطهار إلى بنى آدم بالحجج الظاهرة

---

(١) التليفزيون ٢٦ المحرم سنة ١٣٧٩ هـ — ٦ سبتمبر سنة ١٩٦٨ م .

والمعجزات الباهرة ، وأنزل مع كل منهم كتاباً ينطق بالصدق ويدعو إلى الحق ، وإمام هذه الكتب جميعها هو القرآن الكريم الذى انفرد بالعموم والخلود والبقاء : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وأنزل معهم الأمر بالتزام الميزان ، والميزان هنا فيه معنى الوزن والضبط والتحديد والعدل ، فهو يشمل كل ما تقوم به الأشياء ، وكل ما يبين مكانة الأشخاص ، وكل ما يحدد الحقوق والواجبات ، وكأن الكتاب إشارة إلى توضيح الخطة والمنهج ، والميزان إشارة إلى المتابعة والتقويم وإعطاء كل ذى حق حقه ، ومطالبة كل شخص بأداء ما عليه فى ضبط وقسط ، وهكذا نجد الآية فى كلمتى « الكتاب والميزان » قد أشارت إلى المنهج والخطة ، أو إلى المبدأ والتخطيط ، أو إلى الفكرة والتنفيذ ، أو إلى العلم والعمل . والهدف من وراء ذلك أن يتحقق العدل الكامل ، وأن يسود الإنصاف الشامل « ليقوم الناس بالقسط » ، وكأن الناس لا يحيون الحياة الصحيحة السليمة إلا بالتزامهم هذا العدل ، ومن هنا أكثر القرآن فى مواطن منه الدعوة إلى العدل والإنصاف مستخدماً كلمة الميزان التى تشمل الوزن الحى والوزن المعنوى ، فقال : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » وقال : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » وقال : « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وفى هذه الآيات الأخيرة المتوالية نرى أنه قدم ذكر مادة الميزان والوزن أربع مرات ، وليس وراء ذلك تأكيد لوجوب الحرص على العدل والقسطاس بين الناس .

ثم قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » أى أوجد الله الحديد وهيأه لعباده ، وليس المعنى أنه قد أنزله إنزالا من السماء ، بل هو على حد قوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » أى أوجدها وهيأها ، والبأس هو القوة والشدة ، أى جعل الله فى الحديد قوة قوية ، وحصانة

منيعة ، وذلك لأن آلات الحرب وأسلحة الوقاية تتخذ من الحديد ومشتقاته ، وهذه إشارة إلى ما يجب أن تكون عليه صناعة الأمة فى حالة الحرب إذ يلزم أن تكون صناعة حربية قائمة على القوة وعلى استخدام الحديد فى توفير هذه القوة ، وبعض المفسرين يرى أن البأس هنا هو السلاح نفسه ، والمراد على كل حال أن الله يخبرنا بأنه جعل الحديد سلاحاً رادعاً يجب أن يؤدب به من يأبى الحق أو يخرج على الإنصاف أو يعتدى على الحرمات ، إذ لا بد للحق من قوة ، وكل حق ليست إلى جانبه قوة تحرسه ، وسلاح يصونه ، وجنود يفتدونه ، حق سائر إلى الهوان والضياع ، والكتاب الإلهى الذى يتضمن أسمى المبادئ ، والميزان الذى يرمز إلى العدل ، يحتاجان إلى الحديد ذى البأس الشديد ، ليبقى المنهج قائماً ورائداً ، والميزان حارساً وضابطاً ، وهذا الحديد القوى الشديد هو الذى يمتن الله على أحد أنبيائه بأنه قد يسره له فقال : « وألنا له الحديد » وذلك ليصنع منه ما يريد ، وهو الذى جعل الله مادته أساساً لبناء السد الهائل على يد ذى القرنين ، الذى قال : « آتونى زبر الحديد » أى قطعه ، ومن هذه القطع ومستلزماتها نهض سد يأجوج ومأجوج الذى حدثنا عنه القرآن الكريم ، بل إن الله تبارك وتعالى وضع أمامنا إشارة بليغة تعلمنا أن الحديد هو الوقاية من شر الحديد نفسه ، فقال داود أحد أنبيائه : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » وهنا نتذكر المثل العربى الذى يقول : « إن الحديد بالحديد يفلح » أن يشق ويعالج . وهذا سيدنا رسول الله يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » ويقول : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » والسيف والرمح من الحديد ، ومن هنا نفهم أن القوة تقابل بالقوة ، وأن صيانة المقدسات والحرمات لا بد لها من عتاد وسلاح .

ثم قالت الآية : « ومنافع للناس » وهذه إشارة بليغة إلى الحياة المدنية السعيدة ، فللناس فى الحديد منافع غير محدودة فى معاشهم ومصالحهم ، ولو تلفت الإنسان متدبراً فى جوانب الحياة لوجد الحديد صاحب شأن كبير وخطير فى هذه الحياة ، من مفتاح الباب إلى الثلاجة والغسالة وصنابير المياه ، فالزراعة محتاجة إلى الحديد ، والصناعة والتجارة والعمارة والمواصلات محتاجة إلى الحديد ، والحضارة المعاصرة بمدنيتها قائمة على الحديد ، ولذلك استحق الحديد أن يذكره الله فى كتابه، وأن يمن به على عباده، وأن يسمى سورة من سور القرآن باسمه ، ويزداد إيماننا بإعجاز القرآن حين نتذكر أن هذه الإشارة بالحديد تقدمت بقرون وقرون على القرن الثامن عشر الذى ظهرت فيه العناية العالمية بالحديد ومشتقاته من الصلب والزهر والصاج والفولاذ : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ثم قالت الآية « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » وهذا تذكير بأن الله قد وضع بين أيدى المؤمنين هذا الحديد ليستكملوا به العدة للجهاد فى سبيل الله ، ونصرة مبادئ الحق ، وتأييد هدى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهذا الجهاد يكون صادقاً ومخلصاً إذا كان الإنسان يندفع إليه بعقيدة لا برياء ، ولذلك هو ينصر دعوة ربه بالغيب ، والله أقوى من كل قوى ، وأعز من كل عزيز ، فهو لا يغلبه غالب ، وهو حين يدعونا إلى خطة القوة والعزة لا يفعل ذلك لحاجته بل لحاجتنا نحن فهو غنى عن العالمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هل انتفعت الأمة المسلمة حقاً بهذا التوجيه العظيم ؟ هل درس أبناؤها

دين الله ليدركوا ما فيه من حق وصدق ؟ هل التزموا شريعة العدل ليسود بينهم الحق ؟ هل أعطوا كل ذى حق حقه حتى يقوم الناس بالقسط ؟ هل حصنوا أنفسهم بالبأس الشديد حتى لا يناموا على الدنية ولا يرضوا بالهوان ؟ هل آمنوا وأيقنوا فجاهدوا حق الجهاد فى سبيل الله ؟ هذه أسئلة يخشى المؤمن أن تبقى طويلا بلا جواب رشيد سديد ، فاتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الفجور فى دور السينما[1]

لك الحمد يا من نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ووعد الصالحين بخالد النعيم ، وأوعد الفاجرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، ملأت قلوب المؤمنين هداية ونوراً ، وأثقلت كواهل المفسدين ضلالا وثبورا ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، اعتز بالطيب القليل ، فمحق به الخبيث الكثير ، حتى جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله المستمسكين بالحدود ، وأصحابه المجاهدين للفتن السود ، وأتباعه الحاطمين للأغلال والقيود ؛ فعسى أولئك أن يكونوا من المفلحين . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

بعث إلى طالب جامعى مجهول برسالة ملتهبة ، يصور فيها بدعة جديدة أخذت تظهر وتنتشر فى دور السينما الفاجرة ، هى أن إدارة السينما تعرض على الجمهور فى أثناء فترات الراحة مناظر رقص فاضح ، تظهر فيه راقصات أجنبيات عاريات أو شبه عاريات ، ويقمن بحركات خليعة شنيعة ، مثيرة لأحط الغرائز فى نفوس المشاهدين والمشاهدات ، من الرجال والنساء والغلمان والفتيات ، والأغلب منهم — إن لم يكن الكل — على استعداد للسقوط والانزلاق ؛ وينادى الطالب الجامعى الغيور رجال الدين وهم حراس الملة وهداة الأمة وحفظة الشريعة والأخلاق ، بأن يكتبوا ويخطبوا ويغضبوا ، فقد طفح الكيل وتفاقم المصاب ! . .

ساءلت نفسى : ترى ما الذى دفع الشاب إلى كتابة ذلك الخطاب ؟...

---

(١) ٢٠ المحرم سنة ١٣٦٩ هـ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ م .

إنه لم يذكر اسمه ولا عنوانه ، فهو إذن لا يريد شهرة ولا يبغى تفاخراً ، وهو أيضاً لا يريد تجريحاً أو تطاولا ، فعبارته طاهرة وإن تكن ثائرة ؛ وقد كان المنتظر من مثل هذا الشاب الفتى المدنى ، فى مثل هذا المجتمع الفاجر الكافر ، المليء بالمحرضات والمنكرات ، أن يتابع الريح وينطلق مع التيار ، فيلهو مع اللاهين ، ويشرب مع الشاربين ، ويرحب بالفجور والفاجرين ، فالشاب قطعة من الفتون والجنون ؛ وإذن فلا بد أن يكون ذلك الشاب واحداً من آلاف الفتية الأطهار الأبرار ، الذين هيأت لهم الأقدار فى الماضى القريب توجيهاً دينياً ، ونشأة إسلامية ، جعلت الواحد منهم وهو يفيض بحرارة الشباب راهباً فى الليل وفارساً بالنهار ! . .

وما كادت النفس تسعد قليلا بصورة من هذه الشبيبة الناشئة فى روضة الرحمن وظلال الرضوان ، حتى صدمتها صورة أخرى سوداء معتمة ، إذ تذكرت شكاية نشرتها صحيفة يومية مشهورة منذ حين بقلم مدرس كبير ، يشرف على تخريج الشباب ، وتقويم رجال الغد المأمول ، فإذا به لا يشكو فساد التعليم ، ولا ضيعة الأخلاق فى عهد الحرية ، ولا ميوعة الشباب فى عصر الحديد والنار ، بل يشكو من عدم استطاعته الحصول على تذاكر للسينما وسط الزحام الشديد الكثيف الذى يوجد دائماً أمام دور السينمات ، حتى أدى ذلك إلى أن تباع تذاكر بعض السينمات فى السوق السوداء ، كما كان يباع الدقيق والزيت والغاز فى أيام الظلمات ، ويطالب حضرة المدرس الكبير بتنظيم بيع التذاكر ، ومضاعفة النوافذ التى تباع فيها ، وتكثير الموظفات لبيعها حتى يتمكن الجميع من الدخول ! . . .

إنها لمصيبة اجتماعية طامة ، يجب أن يفزع لها المصلحون ، وأن يثور من أجلها المسلمون ، وأن يعجل بإزالة وصمتها القادرون ، فقد صارت السينما بأفلامها الداعرة ومناظرها الفاجرة ، وشهواتها الثائرة وقصصها الجنسية الماكرة

كالوباء الشامل العام ، احتلت كل مكان ، وجذبت إليها الرشيد والسفيه ، والمتحرر والمحافظ ، والقويم والفاسد ، وتزاحم عليها الناس بصورة فظيعة مفزعة ، يضيعون فيها أموالهم وأوقاتهم وعواطفهم وأخلاقهم ، ولا يكفيهم أن يشهدوها فى الشهر مرة ، أو فى الأسبوع مرة ، بل لا بد فى كل أسبوع من مرات ، وأحياناً يغشونها كل يوم ، ولم لا وعدد السينمات أكثر من الجمعيات الخيرية والهيئات الإسلامية ، والمعاهد العلمية والأندية الأدبية ، ولم لا والسينمات تشتغل بالليل والنهار ، وفى الصباح والمساء ، تدعو إليها أربابها وأصحابها كل يوم أربع مرات ؟! . . حتى صارت كالغذاء والماء ، يستغنى الأطفال والبنات والشبان عن ثيابهم أو كتبهم أو وجبة غذائهم أو أجرة سيارتهم اليومية ، ولكنهم لا يستغنون أبداً عن مشاهدة ذلك الشريط ، أو دخول تلك الدار من دور السينما ! . .

ولو اقتصد الشعب فى ذهابه إلى دور السينما لهان الخطب ، ولو أحكمت الأفلام وهذبت ، وبنيناها فعلا على فكرة اجتماعية سليمة ، أو غرض أخلاقى قويم ، أو عرض تاريخى صادق ، أو استنهاض دينى قوى ، كما يحدث فى كثير من الأفلام الأجنبية الثقافية الراقية ، لكانت السينما والحالة هذه خيراً وبركة ، لأن السينما أداة جليلة عظيمة يمكن لو وجد فى الأمة هداة مرشدون ، وولاة مخلصون متدينون ، أن تكون أفضل وسيلة فعالة للتهذيب والتأديب ، وأهدى سبيل للتعليم والتقويم ؛ ولكن السينما اليوم مع شديد الأسف قد زادت فى عرض المفاتن النسائية والخدع الشيطانية والوسائل الإبليسية ، وصارت تجذب الناس عن سبيل الغريزة والجنس ، لا عن سبيل العقل والفكر ؛ وهى فى الغالب إما أن تصور ترفاً زائداً وتحللا مريعاً يغرى المشاهد الفقير بأن يغش ويخدع ويسرق ويحتال ليتمتع بمثل هذا الترف ، وإما أن تعرض صوراً للبؤس القاتل والشقاء الماثل فى الملايين الكادحة التى يسخرها

سادتها تسخير العبيد ، وفى هذه الحالة يثور المواطن ، وينحرف مزاجه ، ويكفر بالموازين المختلة والأوضاع المقلوبة ، وبذلك نخسره مواطناً صالحاً ، ونراه عاملا مقوضاً فى الأمة ، قد يضل ضلاله فيعتنق المبادئ الهدامة أو الأفكار المتطرفة الضارة .

ويزداد الويل حينما نرى السينما فى البلاد الإسلامية تتعرض مع شديد الأسف للمسائل الجنسية والمواقف الغرامية ، والصلات الجسدية ، والأسرار العاطفية بين الرجل والمرأة ، وبمبالغة وإسراف ، فيتلقى الشاب من الشاشة المجرمة السوداء — ولا أقول البيضاء — الدروس الأولى فى الحيوانية المنطلقة والبهيمية المجنونة ، وحسبكم أن تتلقوا على هذا بعض الأدلة من الغرب ، فقد نشرت جريدة : « إيفننج ستاندرد » أن قرية إنجليزية طلعت آمنة مطمئنة سالمة ، حتى عرض فيها شريط سينمائى فيه حديث عن المسائل الجنسية ، ولم يكد يراه الفتيان والفتيات حتى تقوضت بينهم الدعائم التى شيد عليها سلام القرية الهادئة ! . . .

وقد أجرى تحقيق بعد ذلك تبين منه أنه قد حدث نتيجة لذلك الشريط السافر سبعة وأربعون حادثاً أخلاقياً بين فتيان وفتيات دون سن العشرين ، وولدت فتاة سنها ثلاثة عشر عاماً ولداً من سفاح[1] !! . .

ولو أردنا أن نستقصى ونحصى المآسى والفضائح والنكبات التى سببتها عندنا الأفلام ودور السينما بتحللها وفجورها فى نفوس الشباب والشابات لتزلزلت خشبات المنابر ، واهتزت الجدران الصامتة التى لا تحس ، فكيف بمن يحسون من الأحياء ، ولعل الآباء والأمهات يعرفون من هذه المآسى ما نعرف ؛ وإذا كان القائمون بالأمر فينا قد شغلتهم أمور أخرى عن إصلاح

---

(١) جريدة المصرى يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٤٩ م .

هذه النواحى ، والضرب بيد من حديد ، أو بسياط من نار على أيدى أولئك العابثين بأخلاق الأمة ، النازلين بأعراضها وسمعتها إلى الحضيض ، فلا يزال الشعب يمسك بالزمام فى مثل هذا المجال ، ولو أن كل أب اهتدى بنور الإسلام ، واتقى الله فى ذريته ، لما أسلمنا فلذات أكبادنا إلى وباء السينما الذى لا يهدأ على هذا الوضع المسرف المشين ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار ، وزادوا عليه رضا الله ، وإن النعمة لتسعى فى أول أمرها إلى العبد طاهرة طيبة ، فلا يزال يفسد أمرها ويزهق خيرها ويبتعث شرها حتى تصير نقمة تؤذى وتهلك ، ولقد هجمت علينا من العالم المتحضر الناهض كثير من مظاهر الحضارة ووسائل المدنية ، فاستعملناها استعمال الضرير الأعمى لمصباح ساطع الضياء ، وإنه لمن الممكن إذا صدقت الهمم وتطهرت النفوس واستشعرت القلوب المؤمنة روح الإسلام ونزعة العروبة وحكمة الشرق ، أن تتخذ من السينما والمسرح والشاطئ وغير ذلك من أماكن اللهو والتسلية أدوات جليلة فعالة لتثقيف الجاهلين ، وإرشاد الحائرين ، وتقويم الفاسدين ، فلنسأل الله فى ابتهال عميق واتجاه صادق أن يمن علينا بهذا الإصلاح ، فقد صارت أمة محمد بحال تستحق الرثاء ويسأل منها الشفاء . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، ادعوا ربكم يستجب لكم . . .

حرمة العلماء[1]

الحمد لله عز وجـل ، يصطفى من يختار ، ويجتبي إليه من يشاء ، وهو العليم الحكيم، أشهد أن لا إله إلا الله ، أكرم بالنعمة ، وأعز بالحكمة، والله ذو الفضل العظيم ، وأشهد أن سـيدنا محمداً رسول الله ، مبلغ الذكر ومعلم الخير : « وإنك لعلى خلق عظيم » : فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى الآل والأصحاب ، والأتباع والأحباب : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسـه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

دعا الحق تبارك وتعالى إلى أن تكون فى الأمة المؤمنة مجموعة من أبنائها ، يتفقهون فى الدين ، ويدعون غيرهم إلى الحق المبين ، وجعلهم معادلين للمجاهدين فى سبيل الله ، فقال عز من قائل : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وأعز الله جل جلاله شأن هؤلاء حين قال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وأقبل الرسول العظيم بهديه الكريم ، فزكى سيرة هؤلاء حين قال : « العلماء ورثة الأنبياء » وقال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ». وقد تعارفت هذه الأمة المؤمنة منـذ فجر تاريخها الإسلامى على احترام علماء الدين وتوقيرهم ، لا لأنسابهم أو أحسابهم ، ولا لأشخاصهم أو ذواتهم ، بل لأنهم رمز إلى الشريعة وحملة لتعاليم الإسلام . ولكننا أخذنا فى مجتمعنا منذ حين طويل ثقيل نتعود السخرية والتطاول على كل

---

(١) أول جمادى الأولى سنة ١٣٩٣ هـ ــ أول يونية سنه ١٩٧٣ م
وعلق عليها السيد حسين الشافعي وايدها وقال : ان هذا المسجد قد صار مدرسة فكرية اسلامية يصل الدين بالحياة .

ما يتصل بالدين وأهله — إلا من رحم الله وقليل ما هم — ومن الشواهد المؤسفة المبكية الدالة على ذلك أن التليفزيون عرض منذ أيام مسرحية يظهر فيها قاض شرعى بملابسه الدينية — العمامة والجبة والقفطان — وهو يرقص ، وقد شاهد هذا المنظر ملايين من المسلمين وغير المسلمين عن طريق ملايين الأجهزة الموجودة فى مختلف البيوت والأماكن، وكذلك عرض التليفزيون تمثيلية أخرى يمسك فيها أحد الممثلين بالعمامة ، ويلقى بها فى سلة المهملات أو فى صفيحة الزبالة .

أهذا عمل يليق أن يصدر من مسلم صحيح الإسلام ؟ ولمصلحة من يكون هذا الاستهزاء بشعار علماء الإسلام ؟ أهو فى مصلحة الإسلام ؟ وهل من مصلحة الإسـلام أن يستهزأ بعلمائه وورثة أنبيائه . أهو فى مصلحة مصر؟ وهل من مصلحة مصر التى عزت بالإسلام وتزكت بالقرآن وشهرت بالأزهر أن نعرض علماءها على أنظار الملايين وهم يرقصون ، وأن نلقى بعمائمهم فى أماكن المهملات والقمامات ؟ . أهو فى مصلحة المعركة التى نبدئ ونعيد فى أننا نعمل لها ونعيش من أجلها ؟ وهل من مصلحة المعركة أن نأتى على أهم عامل لضمانها وهو عامل الإيمان والدين وروح الجهاد ، فنحطمه بتحطم الرمز الذى يشير إليه والصوت الذى يذكر به ؟ . ولقد تكررت الشكوى من مثل هذه « المساخر » فى الأفلام والمسرحيات ، كإظهار شخصية الشيخ أو المأذون وهو يشرب الخمر ، أو يرطن بالإنجليزية ، أو يغازل النساء ، وقيل ونشر أنه صدر أكثر من قرار بمنع ذلك ، ومع ذلك فالوباء هو الوباء ، والبلاء هو البلاء ، وكأن هناك تدبيراً خفياً موصولا لتحطيم كرامة الإسلام والمسلمين عن طريق السخرية بعلماء المسلمين ، لأن العمامة ترمز إلى أن صاحبها عالم من علماء المسلمين ، يقصده الناس بمجرد رؤيته للاستفتاء والتفقه

فى الدين ، فإذا تحطم هذا الرمز — ولو كان حامله مخطئاً — فإن المرموز إليه وهو الإسلام تتزلزل مكانته فى نفوس الناس .

والشعب المسلم يتحمل جزءاً كبيراً من التبعية فى هذا المجال ، لأنه شارك بهمة وعزيمة أثيمتين فى تضييع حقوق علمائه ، وفى تحطيم كرامتهم ، بالتندر عليهم والسخرية منهم والاستهزاء بهم ، وترديد الدعابات الحقيرة المنحطة حول عمائمهم وثيابهم وطريقة كلامهم ، ولا يوجد فى الدنيا دين يتعرض علماؤه للتضييع والاستهانة كما يتعرض عندنا علماء الإسلام بعمائمهم البيض ، حتى دعا ذلك أكثر طلبة الأزهر إلى الفرار من عمائمهم وثيابهم المعروفة إلى الثياب الإفرنجية ، كيلا تلاحقهم السخرية بهم فى كل مكان ، وهناك بلاد إسلامية لا يقبل شخص فيها — مهما كبرت منزلته وعلت مكانته — أن يتقدم عالماً معمماً من علماء الدين ، ولكنا رأينا فى بلادنا منذ أكثر من عشرين عاماً صورة منشورة فى صدر الصحف وفيها وزير شاب يتقدم فى السير شيخ الأزهر ، والشيخ يسير من ورائه كأنه أحد أتباعه ، وأخذ الخرق يتسع على الراقع يوماً بعد يوم ، حتى وصل إلى ما نرى ونسمع مما يتمزق له قلب كل غيور على الإسلام ، وذهبت فى خبر كان تلك الصورة الرائعة التى صورها شوقى لعلماء الأزهر وهو يتغنى بأمجاد الأزهر ، ويقول فيما يقول :

واخشع ملياً ، واقض حق أئمة ... طلعوا به زاهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطاناً وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه رحابهم ... حرم الأمان ، وكان ظلهم الذرا
من كل بحر فى الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

قد يقال — وهو حق حين يقال — إن بين المعممين من ينحرف فى القول أو العمل أو السلوك ، وإن بين العلماء من تؤخذ عليهم كذا وكذا من الأمور ،

ولـكن الكل لا يؤخذ بجريرة البعض ، وعلاج هذا الانحراف لا يكون بالسخرية والتندر على الرمز والشعار ، وهناك عيوب ليس من المصلحة أن تجسم وتنشر ، بل تعالج فى أضيق نطاق وأحكم أسلوب ، ونحن فى مرحلة لا يليق بنا أن نحطم كل المقومات الطيبة بهذا السبب أو ذاك ، بل نحن فى حاجة إلى تقوية جوانب الخير ودعم عوامل الصلاح والإصلاح ، ونحن على سبيل المثال سنلتقى بعد أيام ثلاثة فقط بالذكرى الأسيفة الحزينة المخجلة المخزية ، ذكرى نكبة الخامس من يونيه سنة ١٩٦٧ ، فلنتذكر مثلا أن أول من نظم العمل الفدائى فى النضال الفلسطينى ضد الصهيونية والإنجليز اللئام ، هو الشيخ المعمم عز الدين القسام أحد علماء الشام ، وما زال يناضل حتى نال نعمة الشهادة سنة ١٩٣٥ فقال الشاعر يتغنى بعمامته :

أولت عمامتك العمائم كلهـــا	شرفاً تقصر عنـــده التيجـــان
إن الزعامة والطريق مخوفـــة	غير الزعامـــة والطريق أمان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة	فى الخلد ، لا عنت ولا أحزان
شهـــــداء به والبقيع تهللت	فرحاً ، وهش مرحباً رضوان

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا كرامة لأمة إذا لم تحفظ كرامة علمائها ، وتسهر على حياتهم من الانحراف والاستخفاف ، ولا كرامة لأمة إذا لم يكن كل ما يتعلق بدينها فى موطن التوقير والاحترام .

رسالة الصحافة(١)

الحمد لله عز وجل ، يحق الحق بكلماته ، ويزهق الباطل بآياته ، « يسبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » أشهد أن لا إله إلا الله ، يثيب الصالحين ، ويعاقب الفاسقين : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من نصر الحق وخذل الباطل ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تعد الصحف من أخطر الوسائل فى التوجيه والتأثير ، لأنها تظهر كل يوم ، وتدخل كل بيت ، ويطبع منها عشرات الألوف من النسخ ، وهى فى الأصل سجلات يومية لوقائع الحياة وأحداث المجتمع ، ومنبر للتعبير عن الرأى العام ، وتوجيه أفكار الناس نحو الحق والخير ؛ ولشدة تأثير الصحافة سموها منذ زمن بعيد « صاحبة الجلالة » ، وما زال بعضهم يسميها كذلك ، مع أنه قد هوت عروش وسقطت تيجان . والصحافة الشريفة النظيفة لابد لها من عقيدة ومبدأ ، فهى تؤمن بتلك العقيدة وتستهديها ، وتدافع عن ذلك المبدأ وتناصره ، وتجند أقلامها ورجالها ، وصفحاتها وكلماتها ، لتمجيد ماتعتقد ، وتأييد ما ترى ، محاولة حمل غيرها على مبدئها فى حكمة وغيرة وإخلاص ، حتى يتحقق لها شرف الجهاد الذى أشار إليه القائل الحكيم حين قال :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً   إن الحيـــاة عقيدة وجهـــاد

فإن لم تكن الصحافة كذلك صارت صحافة تجارة ، أو صحافة نفاق ،

---

(١) ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٣٨٦ هـ — ١٢ اغسطس سنة ١٩٦٦ م .

أو صحافة انحلال ، أو أى شىء آخر سوى أن تكون صحافة قويمة كريمة ، ولقد وصف أمير الشعراء شوقى الصحافة الصادقة القوية النزيهة بأنها .

لسان البلاد ، ونبض العباد　　　وكف الحقوق ، وحرب الجنف

والإنسان المعاصر يسأل نفسه من حين إلى حين : هل الصحافة المعاصرة فى شرق الدنيا وغربها تترجم صادقة وأمينة عن مشاعر الناس وعواطفهم ، وتدافع عن حقوقهم ومصالحهم ؟ وهل هى حقاً تصلح الفاسد وتعدل المعوج وتقاوم الباطل ؟.. وكيف وفى مجال الصحافة أفراد يسيئون استغلالها ويتخذون من أنهارها مرتعاً وبيئاً لبث أفكارهم المنحرفة وآرائهم العليلة ، ويتسترون وراء بعض الحواجز والأستار ، وينشرون على الناس ما ينشرون بلا وازع أو رادع ، ناسين أن الله عز وجل وصف عباده الأخيار بأنهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ومعرضين عن هدى ربهم القائل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . ومعاذ الله أن ننكر وجود الخير المحدود وسط طوفان الشر الجارف ، فهناك من غير شك فى الميدان فضلاء وشرفاء ولكنهم وإن كان لا يخلو منهم جيل ولاعصر ، لأن الأمة لاتجتمع على ضلالة ولقد كان هناك مثلا من يجعل شعار صحيفة هذه الكلمات السواطع :

باسم الكنانة واسم شعب ناهض　　　لا باسم أحزاب ولا زعماء
كل يزول وينقضى ، أما الحمى　　　فوديعة الآباء للأبناء

وطريق الهدم سهل ميسور ، والتحريض على الرذيلة أو الانحراف أمر غير عسير ، والناس من عادتهم أن يستجيبوا بسرعة لما يرضى أهواءهم وشهواتهم ، ولكنهم يتلكأون أو يتباطئون عن الاستجابة لهواتف الخير ، لما تستلزمه من تبعات وواجبات ، ولقد كان نبى الرحمة وسيد الأمة محمد

عليه الصلاة والسلام حكيما غاية الحكمة ، خبيراً بالنفوس غاية الخبرة حين قال : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » وذلك لأن الالتزام بالمسئولية أمر شاق ، أما الانحلال والانحطاط إلى مهاوى الضلال والفساد فأمر قريب غير بعيد ، وقد نستطيع أن نمثل لهذا بصعود بيت مكون من طبقات والهبوط منه ، فإن الصعود يحتاج إلى مجهود وعرق وتعب ، وأما الهبوط فدحرجة خفيفة سريعة إلى أسفل يستسهلها القائم بها ولا يضيق منها ؛ ومن هنا قد يكتب الكاتب عدة مقالات إصلاحية فيها توجيه إلى الخير والاستقامة ، فلا يستجيب له إلا قلة ، ولكن كاتباً آخر يكتب قصة جنسية أو يصور عاطفة مخبولة ، أو يزين المفاسد والملذات ، فإذا الألوف تقبل عليه لتزداد من هذا السم الزعاف الذى يقدم فى غلاف براق وغطاء خداع ، ولكن الأمناء على دينهم وشرفهم لا يزلزلهم هذا ، بل يظلون على صراطهم مناضلين وبحقهم مستمسكين وبفضائلهم مزدانين، لأنهم يؤمنون بأن المآل وإن طال لكلمة الحق والعدل : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون »، « قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وقد تنشر الصحيفة خبراً صغيراً مسموماً فيتسع ضرره ويتفاقم شره ، حتى ولو قيل إنه على سبيل الفكاهة ، فهذه صحيفة مثلا تنشر داخل مربع هذه العبارة : « قالت الفتاة لصديقتها : كانت الحفلة ليلة أمس رائعة ، لم يكن الجميل فيها الزينات ولا الأطعمة الفاخرة ولا الألعاب ، ولكن جمالها أنه كان فيها شابان لكل فتاة » . فهل يستطيع عاقل أو فاضل أن يتقبل مدلول هذه العبارة ؟ وماذا يكون أثرها إذ قرأها البنات فى البيوت والمخادع ؟ ألا تكون الفتاة القارئة لهذه العبارة إحدى فتاتين : إما قادرة فتشتهى ، وإما عاجزة فتتمنى ؟ وما هى الرواسب الذهنية التى ترسب فى عقول القارئين

لهذه العبارة من الفتيان والفتيات ؟ خاصة وأنها لم تكتف فى إيحائها الفاجر بأن تجعل لكل فتاة شاباً واحداً ، بل جعلت لكل منهن شابين ، وكأن هذا إيماءة إلى تعدد الخلان للفتاة ، كأنها إناء مهيأ للواردين يلغ فيه كل من أراد . والعجيب أن عـــدد الصحيفة نفسه جاء فيه نص لحديث نبوى لعل أحد المعممين فى الصحيفة دسه بين موادها . وهذا الحديث يقول : « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله » ومن هؤلاء السبعة « شاب نشأ فى طاعة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فأبى وقال إنى أخاف الله » . فكيف يتفق معنى هـــذا الحديث الكريم على ماتوحى به العبارة المسمومة التى وضعتها الصحيفة داخل إطار وكأنها تقول لقرائها : هنا انظروا وطالعوا ؟ وكيف يستجيب الشباب الغض الفائر لتبعات الفضيلة والعفة والصيانة ، وهو يجد فيما يطالع سموماً كثيرة مغرية تتمثل أمامه بالصورة والقصة ، والخبر ، ونشر المهازل الأخلاقية الانحلالية التى تدفع إلى الرذيلة ، وتباعد عن الفضيلة : « ألا ساء ما يحكمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . :

إن للكلمة المقروءة أثراً عميقاً ، لأنها صـــالحة للبقاء أمام نظر الإنسان يستعيدها ويفكر فيها ، ولذلك كان من الواجب على أصحاب هذه الكلمة أن يتقوا الله فيها فلا يقـــدموها لقارئيها إلا طاهرة نظيفة موحيـــة بالخير والاستقامة ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أزمة التناصح[1]

الحمد لله عز وجل ، شرع أسباب الهداية ، ورسم معالم الطريق : « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لا معقب لحكمه ، « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من ذكر بربه ، وهدى إلى طريقه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله والمهتدين بأعماله وأقواله « فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هناك فى المجتمع الإسلامى ما نستطيع أن نسميه « أزمة التناصح » ، فقد قل الناصحون وقل كذلك المنتصحون ، وضاق كثير من الناس بالنصيحة الصادقة المخلصة ، إما لجهلهم وضلالهم ، وإما لبغيهم وعتوهم ، وإما لتحللهم وإعراضهم ، وتقاعس أهل النصيحة الصريحة عن قولها وإبدائها ، إما لعجزهم وقصورهم ، وإما لخوفهم وخشيتهم ، وإما لاعتقادهم أنه لا فائدة من النصح ، فلا داعى إلى التعب ؛ وأصبح الناس إذا سمعوا كلمة حق من إنسان عدوها أعجوبة ، ورددوا قولهم : « لقد قال فلان كلمة حق » بينما كان المسلمون فى عصور السلف الصالح يتعجبون كل التعجب إذا سمعوا كلمة مداهنة أو مرائية ، فيصيحون مستغربين : « لقد قال فلان كلمة باطل » ! .

ولو رجعنا إلى الإسلام الحنيف لوجدناه ديناً يقوم على التناصح وتبادل الرأى والمشورة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الدين النصيحة [ثلاثاً] ، قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم » والنصيحة لله هى طاعته حق الطاعة ، والنصيحة لكتابه هى العمل

---

(١) ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٨١ هـ — ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

بمافيه ، والنصيحة لرسوله هى الاقتداء بهديه ، والنصيحة لأئمة المسلمين هى طاعتهم فى الحق وتذكرهم به والنصيحة لعامة المسلمين هى حسن معاملتهم وإرشادهم إلى الخير وعن جرير قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة وأن أنصح لكل مسلم » . ولقد أصدر القرآن الكريم حكمه المبين الفاصل بأن الناس كلهم فى خسار ووبال إلا الذين يؤمنون ويظهر أثر إيمانهم فى عملهم الطيب وسعيهم المشكور ، ويتبادلون الوصية بالحق والصبر على الحق ، فيقول : « والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ولذلك جعل القرآن الكريم المجتمع الإسلامى قائماً على أساس المشاورة والمراجعة لتبين الحق والتمسك به فقال : « وأمرهم شورى بينهم » وقال : « وشاورهم فى الأمر » ففى الآية الأولى تقرير واضح لأن الطابع الأساسى للأمة المسلمة هو أن يتشاور أبناؤها ويتناصحوا لأن أمرهم شورى بينهم ، والآية الثانية تقرر أن على رأس الأمة وهو الرسول المعصوم الموحى إليه المؤيد من ربه لا يستعلى على المشاورة والمراجعة ، بل هو مأمور بأن يشاور قومه ، وذلك بنص القرآن الكريم .

وكلما علا الإنسان فى مكانته أو اتسع نطاق تبعته كان أحوج من غيره إلى النصح والتذكير بالحق والخير ،والتحذير من الخطأ والشر ،حتى لا يضل فيشقى ويشقى معه غيره ، ولذلك نجد من الصفات المأنوسة المألوفة للوالى الإسلامى أنه كان يرحب بالنصيحة فى كل مناسبة ، وإذا لم يجد من يقوم بهذه النصيحة ، جد هو فى البحث عمن يشير عليه ويحذره من الباطل ويحرضه على الخير ، وهذا عمر بن الخطاب مثلا كان لاينفرد بــرأى ولا بتصرف ، بل يطلب إلى الناس أن ينصحوا ويقولوا آراءهم مخلصين ، وكان يصرخ فيهم قائلا : « لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى ،

وقولوا الرأى الذى يحسبونه يوافق الحق » . ويأتى حفيده خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز فيقول : — وهو خليفة — لعمرو بن مهاجر : « يا عمرو ، إذا رأيتنى قد ملت عن الحق ، فضع يدك فى تلابيبى ثم هزنى ، ثم قل لى : ماذا تصنع » ؟ ! .

وكان الوالى فى المجتمع الإسلامى لا يتحرج من الاستماع إلى النصيحة والاستجابة لها صريحة كانت أم ملمحة ، وسواء أجاءت من الكبير أم من الصغير ، من الرجل أم من المرأة ، ونحن نعلم أن عمر وقف ذات يوم يعرض رأياً فعارضته فيه امرأة ، واستبان لعمر صواب رأيها . فنزل عليه ورجع عن رأيه ، وقال كلمة حفظها التاريخ ورددها لسان الدهر وهى : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! .. ولقد كان عمر يسير ذات يوم ومعه الجارود العبدى ، فنادت امرأة على عمر قائلة له : رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة . فوقف عمر متبسماً يصغى إليها ، فقالت له : ياعمر ، عهدى بك وأنت تسمى عميرا تصارع الفتيان فى سوق عكاظ ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله فى الرعية ، واعلم أن من خاف الموت خشى الفوت . فغضب الجارود وقال لها : لقد اجترأت على أمير المؤمنين . فجذبه عمر وقال له : « دعها فإنك لا تعرفها ، هذه خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهى تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى إلى الله ، فعمر والله حرى أن يسمع كلامها » ! ! . . .

وجاء ذات يوم رجل يحاوره وعنده بعض أصحابه فقال الرجل فى أثناء المحاورة : اتق الله ياعمر ؛ فقال له أحد الجالسين : صه فقد أكثرت على أمير المؤمنين ؛ فعارضه عمر وقال له : دعه فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها .

ولقد كان الخليفة فى المجتمع الإسلامى يدرك أن من ورائه أمة لها حسابها ولها عتابها ولها مراجعتها ، فهو يقدر هذه السلطة كل التقدير ، وهو يريد أن تظل حية قوية ، آخذة مجرها الطبيعى المستقيم ، لتجعل من الخليفة رجلا حصينا » متنائياً عن الشر مستمسكاً بالحق ، وبذلك يصلح فى نفسه ، ويقدر على إصلاح غيره ، ويحسن رسم الطريق لمن يأتى بعده ؛ ولقد صعد عمر المنبر يوماً فقال للناس على سبيل التجربة والاختبار : « يامعشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا هكذا » ؟ فنهض رجل من المسلمين ، ولوح بيده كأنها سيف يهوى ، وقال لعمر : إذن نقول بالسيف هكذا . فسأله عمر : إياى تعنى بقولك ؟ . فأجاب الرجل : نعم إياك أعنى بقولى . فتهلل وجه عمر وشرق بالشرور وقال : « رحمك الله ، والحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم اعوجاجى بالسيف » .

والجهر بالنصيحة لا يتعارض مع حق الولى الأمر الشرعى فى السمع والطاعة من الناس ، فالأفراد فى المجتمع الإسلامى يجب عليهم أن يخضعوا للخليفة ، وأن يأخذوا عنه وأن يأتمروا بأمره ، مهما كان لونه أو نسبه ، ولذلك يقول الرسول : « أطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » ، ولكنهم فى الوقت نفسـه يجب عليهم أن ينصحوا ويجادلوا ويعارضوا الباطل ويناصروا الحق ، ويغيروا معه المنكر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن الرسول يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » كما أن هذه الطاعة مقيدة بحدود النص الإلهى والأصل الإسلامى ، لأن الرسول يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كانت كلمة النصيحة الصريحة أمراً معروفاً مألوفاً فى المجتمع الإسلامى ،

لا يتقاعس عنها ناصح ولا يضيق بها منصوح ، ولكن هذه الكلمة صارت غريبة بين المسلمين ، وإذا كنا نؤاخذ الذين يفرطون فى قولها مرة ، فيجب أن نؤاخذ الذين يضيقون بها أو يعرضون عنها مرات ومرات ، ولو أن أهل الخير وجدوا استماعاً ممن يحتاجون إلى النصح والتذكير لما صعب عليهم أن يطيلوا الحديث ويكرروه فى التوجيه والتحذير ، فلنعمل معاً على أن نكون أهل الخير ، وأن ندعو إلى الخير ، وأن نستجيب لكلمة الخير ، وسبحان من لوشاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

النظام فى الاسلام[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أبدع الكائنات بقدرته ، وسوى أمور الخلائق بحكمته : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، الحق كتابه ، والعدل بابه : « وكل شىء عنده بمقدار » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربى قومه فأحسن تربيتهم ، وعلم أتباعه فأجاد تعليمهم ، فكان إمام الأنبياء وقائد الحكماء فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، فأولئك تحروا رشدا .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

النظام هو أساس هذا الكون الرحيب الواسع ، ولو فسد النظام فى الكون لفسد أمر السموات والأرض ومن فيهن ؛ وقد أبدع الخالق البارئ المصور ملكه على أدق نظام وأعمق إحسان ، وقال سبحانه : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقال : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . وقد أوجد الله الإنسان والمكان والزمان ، وألهمنا أن لكل إنسان فى الحياة عملا محدداً يقوم به ، وينبغى له أن يحسنه ، وأن لكل مكان أشياء تناسبه وتلائمه ، وأن الزمان يجب أن يكون فرصة للعمل والسعى ، وإلا انقلب غصة مهلكة ؛ ولا يمكن الانتفاع بهذا الزمن على وجهه إلا إذا عرف الإنسان له حدوداً ، وأخضعه للنظام والترتيب ولاءم بين زمانه وأعماله ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى مثل هذا الضبط والتنظيم فى قوله : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وقال : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم .

---

[1] (١) ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ ــ ٤ مايو سنة ١٩٦٢ م .

لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » .

والمشاهد بين الناس أن كثيرين منهم لا يحسنون العمل أو التصرف فى الحياة بسبب إهمالهم مبادئ النظام وقواعد الترتيب ، فهم يخلطون عملا بعمل ، وقد يقبلون على العمل فى غير إبانة . فلا يأتى على وجهه الحسن ، وقديؤخرون العمل عن أوانه ، فيجور على وقت غيره من الأعمال . وقد يسرفون فى العمل حيناً بلا ضرورة فيؤدى بهم هذا الإسراف بعد قليل إلى إسراف فى الركود والكسل ، إلى غير ذلك من مظاهر الفوضى والاضطراب .

والإسلام الحكيم القويم قد أعطى النظام حقه الموفور من العناية والاهتمام ، ليلفت الأبصار والبصائر إليه ، ويحمل أتباعه عليه ، فلا يقولون ولا يعملون ولا يسعون فى حياتهم إلا بنظام وإحكام ؛ وإذا نظرنا إلى القواعد التى بنى عليها الإسلام وجدناها تنهض بالنظام وعلى النظام ، فكلمة التوحيد : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » نظام فى الاعتقاد ، إذ هى إقرار بالعبودية لإله واحد لا يشاركه فى ملكه أو تدبيره سواه ، وإذا توافر الإخلاص فى هذا الاعتقاد اعتدل العبد على طريق واحد مستقيم ، ولم تتفرق به السبل عن سبيل ربه ، ولا شك أن توحيد الطريق حتى يكون معروف الغاية والنهاية نظام وأى نظام : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وهذه هى الصلاة اليومية المتكررة خمس مرات فى اليوم والليلة . قد أقامها الله عز وجل على النظام والتحديد ، ولم يتركها مبهمة غامضة لهوى المرء الذى قد يضل وقد ينسى ، بل قال تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » أى فرضاً ثابتاً ثبوت الكتابة فى الورق ، وموقوتاً

أى منجماً موزعاً فى أوقات معلومة محددة ، لابد من أدائها فيها بقدر الإمكان ، والله يطالب بها فى مواعيدها حتى فى مواطن عدم الاستقرار ، فهو يقبل الصلاة مقصورة فى السفر ، ومقسومة فى حالة الحرب ، وغير كاملة الهيئات والحركات فى المرض المانع من الإتيان بكل حركاتها ، فذلك الأداء المحدد فى الموعد المحدد خير من تأخيرها عن ميقاتها لتأديتها فيما بعد ، وهذا تنظيم بليغ ، وربط حكيم بين الوقت والعمل المخصص له .

وهذا هو الصيام ... لم يكتب الله تعالى علينا مطلق صوم ، ولم يكلفنا بمدة صوم مجهولة أو متروكة لتقدير كل إنسان ، بل نظم ذلك وحدده فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات » أى محدودات معينات بالعدد ، وهى أيام رمضان الذى ذكره عقب ذلك بقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وزاد الإسلام الصوم تنظيماً وتحديداً ، فجعل لبدايته حـــداً معلوماً هو الفجر ، ولنهايته حداً معلوماً هو غروب الشمس ، وتلى السنة القرآن فى تحديد الصيام ، فيقول الرسول عن الهلال : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً » .

والزكاة وهى نصيب الفقراء فى مال الأغنياء ، وهى الحق الواجب المعلوم للسائل والمحروم ، لم يتركها الله سبحانه غامضة مبهمة ، ولم يكلها فى مقاديرها ومواعيدها إلى النفوس التى قد تشح وقد تنجس ، بل حدد الإسلام مواعيدها ومصارفها ، وأحصت السنة الأشياء التى تجب فيها ، وفصلت الكثير من أمورها ، وفى القرآن الكريم قوله عن الزرع : «كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . فزكاة الزرع تجب يوم القطاف والجنى عندما يطيب المزروع ، وزكاة المال تجب

عندما يحول عليه الحول ، ويتم على حيازته العام ، والمقدار معلوم ، فهو فى زكاة الزرع إما العشر وإما نصف العشر ، وهو فى زكاة المال ربع العشر ، والمستحقون للزكاة ثمانية أصناف حددتهم آية التوبة والآية الكريمة السابقة تنهى عن الإسراف وتذم أمره ، والإسراف إما إفراط أو تفريط ، وليس بينهما إلا التوسط والاعتدال ، وذلك هو عين النظام .

ثم يأتى الحج ، ذلك الفرض الواجب فى العمر مرة واحدة . . . لم يدعه الله للهوى والاختيار ، بل حدد وقته ، ونظم عمله ، ورتب شئونه ، ودعا الناس إليه فى وقت واحد ، ومكان واحد ، وحول بيت واحد ، ولهدف واحد ، والقرآن الكريم يقول : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » . فيؤدى المسلم الحج فى أشهره المعلومات المحدودة ، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والوقوف بعرفة يجب أن يكون فى اليوم التاسع من ذى الحجة وبقية المناسك فى أيام العيد ، وبعد الآية السابقة بآيات يقول القرآن : « واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه . ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » . والأيام المعدودات هى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة ، وهى الأيام المعينة المحددة لرمى الجمرات ونحر الضحايا والهدى ، وقد جمعت الآية بين التحديد وبين التوسعة الخفيفة ، فمن فعل ذلك فى اليومين الأولين جاز ، ومن تأخر إلى الثالث جاز ، ولكنه لا يخرج عن الثلاثة ، وهذا تيسير من جهة ، وتنظيم من جهة أخرى .

ولو استعرضنا أمور الزواج والطلاق والنفقة والعدة والرضاع والحضانة والمعاملات المختلفة فى الإسلام ، لوجدناها مقامة على التنظيم والتنسيق ،

فلها شروطها وحدودها ومواقيتها وأوضاعها الخاصة المميزة ؛ وهذا كله يوحى إلى المسلم بأن يكون فى أمره كله على نظام ، لأن النظام يوفر المجهود ، ويضاعف الثمرة ، بينما تذهب الفوضى بالخيرات وتقضى على الثمرات : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أحوجنا فى حياتنا الخاصة والعامة إلى النظام ، فالمعلم محتاج إلى النظام كى يحسن التعليم والتقويم ، والعامل محتاج إلى النظام كى يتقن أداء واجبه ومضاعفة إنتاجه ، والتاجر محتاج إلى النظام لينسق سلعه ويرتب بضائعه ، فيصونها ويجيد عرضها ، ولا يخلط العسل بالخل ، ولا السكر بالملح ، ولا اللبن بالبصل ، والتلميذ محتاج إلى النظام ليؤدى واجباته المدرسية فى مواقيتها ولايؤخر عمل اليوم إلى غد ، والدولة لابد لها من النظام ليقوم كل موظف فيها بأداء واجبه فى موعده بلا تسويف أو تأخير [حتى لا يتركوا الناس « ملطوعين» على أبواب المصالح والمكاتب] فلنتواص بالنظام ، ولنحرص على النظام ، ولنصبر عليه ولنداوم فيه ، فإنه طريق الحق والخير : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصو بالحق وتواصوا بالصبر » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

التفاؤل سر النجاح(١)

الحمد لله عز وجل ، وزن الأمور بتقديره ، وأضاء الصدور بنوره ، « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لاهدى إلا به ، ولا نصر إلا منه « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام البشرية فى كل خير ، وهاديها إلى كل بر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الحياة كثيرة المتاعب جمة الشدائد ، والإنسان فى معتركها يجاهد ليسعد ، ويحيا حياة تليق بخلافته عن الله فى الأرض ، ولابد له من الكفايات والوسائل التى يواجه بها الحياة القاسية ليتغلب عليها ، ومن الواجب عليه أن يزيد فى هذه الأسباب يوماً بعد يوم كلما هداه التفكير أو ساعدته التجارب ؛ ولقد شاءت رحمة الله العلى القدير أن يأخذ بيد الإنسان ليعرفه سبيل الوصول إلى كثير من هذه الأسلحة والوسائل ، ولكن الإنسان — لضعف كثير من أفراده ، واستجابتهم لدواعى الأوهام والمخاوف — أعرض عن هذا النور إلا من رحم الله ، وأخذ يخبط حائراً فى الظلمات ، ويتردى خائراً فى مهاوى العلل والعاهات ، ولعلنا لو تروينا فى التفكير والاستعراض ، لوجدنا أن من أخطر هذه العلل التطير أو التشاؤم الذى حاربه الإسلام ونهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : « ليس منا من تطير » وقال : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل الصالح » أى الكلمة الحسنة .

---

(١) ٢٧ ربيع الثانى سنة ١٣٨٤ هـ — ٤سبتمبر سنة ١٩٦٤ م .

وعلى الرغم من هذا النهى الصريح نجد الكثيرين مازالوا يتشاءمون ويتطيرون ، فهم يتشاءمون من الزواج فى صفر أو المحرم ، ومن نعيق البوم والغربان ، ومن كسر الأوانى والأكواب والأطباق ، ومن اضطراب العيون ، ومن بعض الأرقام ، ومن رؤية بعض الأشخاص ، وغير ذلك من الأشياء . وفينا من يهلع لأقل بادرة ، ويضطرب من أتفه سبب ، ويتردد حتى فى الأعمال العادية والواجبات اليسيرة ، وإذا هم بعمل حسب له ألف حساب ، وخشى النتائج حتى ولو كانت سارة ، وإذا قابلته فى أول الطريق صعوبة تطير وارتد عن العمل، وبذلك التطير الخبيث ضعفت فينا همم وتقاصرت عزائم وتسابق الناس إلى المجد وتخلفنا على الطريق ، مع أن شريعة الإسلام الحكيمة المعمرة تباعد بين أهليها وبين التطير ، لأنه يسود الحياة فى وجوههم ، ويثبط العزائم فى قلوبهم ، ويجعلهم لا ينهضون بعزائم الأمور وجلائل الأعمال ، وهى تحببهم فى التفاؤل ، لأنه يوقظ العقل ، ويدعو إلى النشاط ، ويبعث على الإقدام ، ويحرر الإنسان من عبودية الأفكار السود والخيالات الكاذبة والاحتمالات البعيدة . ولذلك كان الرسول الكريم يتفاءل ولا يتطير ، حتى إنه لما قدم المدينة نزل على رجل من الأنصار ، فصاح الرجل على غلاميه قائلا : يا سالم ، يا يسار ، فسر النبى من ذلك وقال متفائلا : « سلمت لنا الدار فى يسر » . وكذلك أخبر صحابته أن سبعين ألفاً من أمته سيدخلون الجنة ، بغير حساب ، فقالوا : من هم يا رسول الله ؟ فقال : « الذين لا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » وحق لهؤلاء أن يدخلوها بغير حساب فهم يقدمون على الصالحات وجلائل الأعمال بلا تردد أو ضعف ، وهم يؤمنون بربهم ويعتمدون عليه فيبلغون أسمى الغايات .

بل ينبغى أن نتطلع طويلا إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يهيئ للإنسان طريق الأمن من الوساوس وأحاديث الشيطان ، فيوصيه بأنه

إذا رأى فى النوم رؤيا سيئة ألا يفكر فيها ، بل يحاول إبعادها عنه بأية وسيلة حتى لا تشغله ولا تبلبله ، فيقول ما معناه : « الرؤيا الصالحة من الله تعالى ، والرؤيا السيئة من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم فى منامه شيئاً يكرهه فلينفث من فمه حين يستيقظ ثلاث مرات ، ويتعوذ من شرها ، فإنها لا تضره » . وبعد ذلك قال أبو سلمة الصحابى : « لقد كنت أرى الرؤيا أثقل على من الجبل ، فما هو إلا أن سمعت هذا الحديث فما أباليها » . وجاء أتباع محمد عليه الصلاة والسلام خلال التاريخ يضربون الأمثال فى محاربة التشاؤم وفى الأخذ بالتفاؤل ، فهذا قتيبة بن مسلم يقف ليخطب على المنبر ، فيسقط من يده القضيب ، فيبدو التشاؤم على البعض ، وإذا بهمة قتيبة تقلب التطير تفاؤلا ، فيتناول القضيب قائلا : « وليس الأمر كما سار الصديق وسر العدو ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها ، واستقر بها النوى ... كما قرعينا بالإياب المسافر »

والمتشائم يبدو كالمدعى لعلم الغيب ، أو الذى يتنبأ بما سيحدث ، وفى هذا ما فيه من تطاول على العليم الخبير ، الذى تصير إليه الأمور وبيده المقادير ، وفيه إشراك لغير الله معه فى القضاء والقدر ، ولذلك يروى أن جليساً لعبد الله بن عباس سمع نعيب غراب فخاف وقال : « خير ! خير ! » فغضب ابن عباس من ذلك وقال : « وما عند هذا ؟ لاخير ولاشر » ! .

فإن قال قائل : كيف نحذر التطير مع أنه كالطبيعة للإنسان ، حتى لقد روى أن النبى قال : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة والظن والحسد . قيل : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ ، ولو تدبر المعترض هذا الحديث نفسه لعرف الجواب دون مجيب ، لأن انقباض النفس واشمئزازها من الأصوات المنكرة والحوادث الكريهة شىء من طبائع البشر ، وإنما ينهى الرسول عن الآثار

السيئة التى يأتيها الإنسان نتيجة لتطيره وانقباضه ، كرجوعه عن عمله ، أو بلبلة الفكر بالوساوس ، أو اعتقاد أن هذا الحادث أو ذلك الصوت سيكون سبباً فى الخيبة أو الفشل ، ولذلك أمر النبي أتباعه بألا يرجعوا عن أعمالهم إذا تطيروا وقال : « إذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » وقال : « لاينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيراً » . وإنما يريد الرسول بذلك أن يثبت الشجاعة والإقدام فى نفوس المؤمنين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنقبل على الحيـــاة بعزيمة وثابة وإرادة لا تلين ، ولنتعود أن ننظر الجانب المضىء من الطريق ، ولنفسر الأشـــياء التفسير الجميل الذى يبعث الأمل ويضىء الرجاء . ولنثق بأن يد الله العلى الأعلى تكون فوق يد المؤمن مهما ادلهمت الأحداث وتكاثرت الخطوب ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى ســـواء السبيل، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ابتلاء المرض[1]

الحمد لله عز وجل ، يكرم بالمنحة ، ويؤدب بالمحنة : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده المقادير ، وإليه تصير الأمور ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أضاء بإيمانه آفاق الدنيا ، وحاز بيقينه نعيم العقبي ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

« الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه المرضى » . هذا قول حكيم مأثور ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه حق الإدراك ، ولا أن يعرفه حق المعرفة إلا إذا جرب المرض بعد العافية ، وذاق العلة بعد أن تمتع بالصحة ؛ إنه حينئذ فقط يذوق المرارة التي كان يسمع عنها ولا يكتوى بها ، ويتطلع وهو عليل سقيم إلى أهل العافية وأصحاب القوة ، فيراهم يتمتعون بما يتمتع ، وينتفعون بما ينتفع ، فيعلم أن للصحة قيمة لم يقدرها قدرها ، ولم يعرف قيمتها ولا أثرها ، إلا حين رحلت عنه أو ابتعدت منه ، ولله في خلقه شئون . وكثير من الناس قد يتساءلون سراً أو جهراً عن حكمة المرض ، مع أن المرض قد يكون تذكيراً بقيمة الصحة ، حتى يعلم الإنسان قدر النعمة التي لا يحس بجلالها مادامت بين يديه فيغنى بها ، وقد يكون تأديباً على تفريط أو اعوجاج ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، وقد يكون تحذيراً من بغى أو إسراف ، حتى يرتدع آثم ويرجع متطاول ، وقد يكون تكفيراً عن معصية سبقت إليها النفس بلا عمد أو إصرار ، فتطهر العلة الحس والنفس كما يذهب الكير خبث الحديد ، وقد يكون ابتلاء للعزائم واختباراً للهمم ورفعاً للدرجات ،

---

(١) ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ — ٢ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م .

ولعل هذا هو بعض ما نفهمه من قول الله جل جلاله . « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . وبعض مانعيه من قوله عز من قائل : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » ، ومن قول رسوله عليه صلواته وسلامه: « من يرد الله به خيراً يصب منه » أى يبتليه ، وعلى هذا الأساس جاء الحديث الذى يقول : « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظر ماذا يقـــول لعواده ، فإن هو — إذا جاءوه — حمد الله وأثنى عليه ، رفعا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم ، فيقول : « لعبدى على إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحما خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه » . ولقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم على على بن أبى طالب وهو مريض فقال له : قل : « اللهم إنى أسألك تعجيل عافيتك ، أو صبراً على بليتك ، أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك ، فإنك ستعطى إحداهن » . وهذا سيد البشر وإمام الإنسانية تقول عنه زوجته السيدة عائشة: « ما رأيت أحداً أشد عليه الوجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وذلك لعلو مكانه ، « إن العظائم كفؤها العظماء » .

والعجيب أن الإنسان فى أثناء صحته وعافيته قد يكون غافلا عن واجبات ربه ، مهملا فى أمور دينه ، مغتراً بقوته وفتوته ، فإذا لوى عوده المرض ، وزلزل كيانه السقم ، أخذ يذكر ربه ، ويتوجه إليه بالدعاء ، ويلح فى الرجاء ، وقد يأخذ على نفسه عهداً بأنه إذا أفلت من هذه النازلة ، أو نجا من تلك العلة ، استقام على الطريق ، والتزم جادة الصواب ، ولم يرجع إلى التفريط أو الإهمال ، وقد يتحقق له الشفاء ، ويدلف إلى سوق الحياة رويداً رويداً ، ويجرفه تيارها الشديد قليلا قليلا ، وإذا هو ينغمر وينصهر ، وإذا

هو يمضى فيلهو ، وينسى ويعفو ، وكأنه ماعاهد ربه يوماً على الاستقامة أو الاعتدال ، وكذلك شأن أكثرنا نحن البشر : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

ومن خواطر المرض أيضاً أنه لا يزال فى المجتمع الإسلامى بعض الجاهلين الذين يهملون فى التداوى والعلاج ، ظانين أن ذلك يتعارض مع التسليم لله والتوكيل عليه ، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى قال : « لكل داء دواء » وفى رواية ثانية قال : « تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد وهو الهرم » أى الشيخوخة التى تسبق الموت ، وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم الصلاة والسلام يقول فى دعائه لربه كما يقص القرآن الكريم : « وإذا مرضت فهو يشفين » . وهنا لطيفة ينبغى أن نلتفت إليها ، فقد قال إبراهيم عن ربه : « الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين » . فنسب نعم الخلق والإطعام والسقى إلى الله تعالى ، ولكنه قال بعد هذا : « وإذا مرضت فهو يشفين » ولم يقل : « وإذا أمرضنى » وذلك لأن أكثر أسباب المرض تحدث بتفريط من الإنسان أو إهمال ، ومن هنا نسب إبراهيم المرض إلى نفسه ، ثم هناك أيضاً الأدب النبوى من إبراهيم ، وهو ألا ينسب شر المرض إلى ربه المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، وإن كان كل شىء يمضى فى الكون بإرادة الله جل جلاله .

والمرض تصحبه عادة الزيارة من الأصحاء للمريض . وهذه الزيارة هى المعروفة باسم عيادة المريض وهى سنة ولكن كثيراً من الناس لا يلاحظون آدابها ، فيثقلون بها أو ينحرفون عن صراطها ، والمريض مريض وكفى ، فهو ضعيف الاحتمال ، وهو لا يطيق الصبر على طول الزيارات وكثرة

الأحاديث ، وقد يكون به مالايحب أن يراه غيره ، وقد يحل عليه موعد دواء ، أو يريد أن يعمل عملا لا يستحسن إتيانه أمام من يعوده ، والإسلام قد جعل حالة المريض خاصة تستدعى التخفيف فى كل مجال ، فوضع عنه الجهاد ، وأجل له الصوم ، وأباح له التيمم بدل الوضوء إذا صعب عليه الماء ، وأباح له الصلاة من قعود أو اضطجاع ، ولذلك قال الحديث : « أغبوا فى العبادة » أى خففوها وباعدوا بين مراتها ، وقال طاوس : « أفضل العبادة أخفها » . وياويل المريض ممن لا يحسنون الحديث عنده ، وقد روى أن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان مريضاً بعلة ، فزاره شخص وسأله عن علته ، فلما أخبره عمر بها جعل الرجل الحمار يقول : بهذه العلة مات فلان ، ومات فلان ، ومات فلان ، فتضايق خامس الراشدين وقال له : ياهذا ، إذا زرت المرضى فلا تنع إليهم الموتى ، وإذا خرجت عنا فلا تعد إلينا ! ...

وما ألطف قول القائل :

عيادة المريض يوم بين يومين — وجلسة لك مثل اللحظ بالعين
لاتبرمن مريضــاً فى مساءلة — يكفيك من ذاك تسآل بحرفين

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الصحة نعمة كبرى بين أيدينا ، فلنشكر الله دائمــاً عليها ، ولنستخدمها فى خير العمل ، ولنحرص عليها بالصيانة والوقاية ، وإذا تعرضت يوماً لعلة فلنبادر بتلمس العــلاج مع معرفة الســبب لنحذره ، وبذلك نكون أهلا للإنعام والإكرام من رحمن الدنيا والآخرة ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

الدين وصفات العاملين[1]

الحمد لله جل جلاله ، هو الواهب المقتدر ، المالك المسيطر « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، الغالب الناصر « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوى عزيز » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وصحابته ، والذائدين عن دينه ودعوته « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من أهم واجبات المجتمع الفاضل أن يدقق فى اختيار طوائف العاملين فى مختلف المجالات والقطاعات ، حتى يضمن بذلك حسن الأداء للواجبات ، وبراعة الإتقان للأعمال ، ونحن نجد من المألوف أن كل قطاع واسع من قطاعات العمل يضع شروطاً معينة وصفات محددة لمن يريدهم من العاملين فى نطاقه ، وقد نبرع فى وضع الشروط وتعداد الصفات ، ولكننا عند التطبيق وتحكم الهوى قد نغمض العين عن كثير من هذه الأمور ، خدمة لوجه الشيطان اللعين .

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يركز الصفات الحسنة للعامل الممتاز فى أمرين أساسيين ، هما عماد كل خير يرجى من وراء جهد العامل ، وهذان الأمران هما القوة والأمانة ، ولذلك يقول القرآن عن بنت شعيب عليه السلام حين خاطبت أباها فى شأن موسى عليه السلام : « قالت يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين » . والمراد بالقوة هنا ما يشمل القوة

---

(١) ٩ ذى القعدة سنة ١٣٩٢ هـ — ١٥ دسمبر سنة ١٩٧٢ م .

الحسية والبدنية ، لأن المريض أو الضعيف أو الناقص حسياً لا يجد أداء الواجب على الوجه المنشود ، ويشمل القوة الذهنية . لأن هناك أعمالا تتطلب طاقة فكرية وعقلية خاصة ، ويشمل قوة الملاحظة والمراقبة والانتباه ، لأن بعض الواجبات يستلزم انتباها ويقظة ، وكذلك كل لون من ألوان القوة المتعددة الأشكال والأنواع ، بقدر تعدد الواجبات وتنوع الأعمال ولذلك قال الإمام ابن تيمية : « القوة فى كل ولاية بحسبها » . وأما الأمانة فيقصد بها الإخلاص فى العمل ، مع الحصانة فى الأخلاق ، مع الصيانة للتبعات والمسئوليات ، ومراقبة الله تعالى فى كل الأمور ، لأن هذه الأمانة هى التى تحقق مرتبة الإحسان الذى يقول عنه رسول الله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقد عبر يوسف عليه السلام عن هذين الشرطين الملازمين لمن ينهض بعمل له قيمته ومكانته ، فقال لحاكم مصر على عهده : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » . والحفظ للشىء يتحقق عن طريق الاقتدار عليه ، والاقتدار يستلزم القوة والعلم الصادق الناشئ عن المعرفة المستقيمة يؤدى إلى الإخلاص والتقدير الواعى للواجبات . ولقد اضطر يوسف عليه السلام إلى أن يقول هذا عن نفسه ، حينما رأى الموقف يستلزم وجود مثله على هذه الخزائن ، لا ليستغل وظيفته ، ولا ليبتز عن طريقها أموال غيره ، ولعله علم — كما يذكر بعض المفسرين — أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح فرأى ذلك فرضاً متعيناً عليه ، فليس ذلك تزكية للنفس أو حباً للذات ، ولكنه التطلب للإتقان ، والرغبة فى الإصلاح والإحسان .

وإذا تذكرنا الأمر وجدنا أن القوة فى العامل لا تغنى عن الأمانة ، كما أن الأمانة لا تغنى عن القوة ، فكم من قوى يعتذر حسياً على كثير من الأعمال ، ولكنه بخيانته يسىء ويفسد ، فيكون ضرره بخيانته أكثر من

فائدته بقوته ، وكم من أمين فى العمل ، ولكنه جاهل به أو عاجز عن إتقانه ، أو قليل التجربة فيه والتدرب عليه ، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتألم حين يرى رجلا أميناً ولكنه ضعيف ، وبجواره شخص قوى غير أمين ، فيدعو ربه قائلا : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف الأمين وقوة الخائن». ولقد تعب رضوان الله تعالى عليه فى اختيار العمال الأقوياء الصالحين فى بعض البلاد كالكوفة مثلا ، حتى قال : « أعيانى أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم ليناً استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه ، ولوددت أنى وجدت رجلا قوياً أميناً مسلماً أستعمله عليهم » .

ولا شك أن اختيار العامل للعمل مسئولية دقيقة يحاسب عليها القائم بها من شعبه ومن ربه ، فمن واجب الذى يختار أن يكون أميناً دقيقاً فى الاختيار ، فلا يدع الضعيف العاجز يتمكن من مجال العمل فيفسده ويتلفه ، وخاصة إذا كان العمل له خطورته وأهميته . ولقد سأل بعض الصحابة رسول الله أن يوليه عملا فى ولاية ، فرفض النبى ذلك لعدم صلاحيته وقال له : « إنك ضعيف ، وإنها [أى وظيفة العمل] أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخـــذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » . ولو أننا أبعدنا القوى الأمين عما يمهره من عمل أو واجب ، وأعطيناه من هو أضعف منه قوة أو خلقاً أو إنتاجاً أو صبراً على بذل الجهد ، لكان ذلك لوناً صارخاً من الانحراف والخيانة ، ولذلك يقول الرسول : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين ، فقد خان الله ورسوله » .

بل عد الرسول إسناد الأعمال لمن لا يحسنونها ، وإهمال من يمهرونها ، دليلا على قرب نهاية الدنيا ، لاضطراب الموازين واختلال الأوضاع . فقد قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : يا رسول الله، وما إضاعتها ؟

قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله [الجديرين به] فانتظر الساعة » . ولذلك لا يجوز شرعاً أن تكون هناك محسوبية أو مراعاة للقرابة والمودة فى اختيار العاملين لمختلف الأعمال تؤدى إلى الفساد والضياع ، ولذلك قال عمر : « من استعمل رجلا [أى ولاه عملا] لمودة أو قرابة ، لا يستعمله إلا لذلك ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . وينبغى أن ندقق طويلا فى قوله : « لا يستعمله إلا لذلك » ، لأنه ليس هناك ما يمنع من تولية القريب أو الصديق ، إذا ما توافرت فيه صفات العامل الصالح للعمل ، القادر على الصبر فى الإنتاج وأداء الواجب ، والرقيب هنا هو الله الذى يعلم السر والنجوى .

وكذلك نلاحظ أن الإسلام منذ عهد الخلفاء الراشدين قد عرف نظام التكليف بالعمل ، حيث يرغم العامل القوى الأمين على أن يؤدى الواجب القادر عليه إذا احتاج المجتمع إليه ، وإذا لم يوجد غيره يسد مسده ويؤدى الواجب مكانه ؛ فمن قواعد الإسلام أنه إذا تعين شخص لأداء مهمة لازمة للمسلمين ، كان مفروضاً عليه أن يقوم بهذه المهمة ، ولقد كان عمر يكلف بعض المسلمين بأعمال صالحين لها ، وقادرين عليها ، فكانوا لا يرغبون فيها خوفاً من المغريات التى يحسبون أنهم قد يتعرضون لها ، فكان يرغمهم على ذلك بقوة السلطان ويقول : « والله لا أدعكم . جعلتموها [يعنى الخلافة] فى عنقى ، ثم تتخلفون عنى » ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا كنا نحتاج فى مختلف الأعمال إلى الأقوياء الأمناء، فالطريق إلى ذلك هو أن يتربى أبناء الأمة على مبادئ الدين الداعية إلى القوة والأمانة، وبدون هذه التربية لابد من تكاثر الخونة وقلة الأمناء: فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟.

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

سبيل الهدى[1]

الحمد لله عز وجل ، رسم الطريق ، ويسر التوفيق : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى الهدى وأمر بالتقوى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، علم وقوم ، وأدب وهذب ، وتمم مكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من أجل كرامة الإنسان وسعادة الإنسان بعث الله تبارك وتعالى نبيه محمداً صلوات الله وسلامه عليه ليكون رحمة للعالمين ، وقال له فيما قال : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » . فنهض الرسول بالتبعة ، وهدى إلى الطريق السليم . وأرشد إلى الصراط المستقيم ، ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتى هى أحسن ، وربى أتباعاً له صاروا أعلاماً على الدهر ، حيث تلقوا منه ما تلقوا من هدى الرحمن ونور القرآن وتعاليم الإيمان ومراتب الإحسان ، فسمعوا وأطاعوا ، ثم عملوا فانتفعوا ، ثم علموا غيرهم فنفعوا ، وأبانوا قولا وفعلا أن الإنسان الذى يسلك طريقه إلى ربه يتدرج فى مراقى الفلاح ودرجات النجاح ، فهو أولا يسلم وجهه لله الذى خلقه فسواه فعدله فى أى صورة ما شاء ركبه ، فيشهد أن لا إله إلا الله ،

---

[1] (١) مسجد الرفاعى ٧ أكتوبر سنة ١٩٦٦ م .

وأن محمداً رسول الله ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، ثم يعمر قلبه بنور الإيمان فيؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، ثم يضىء ظاهره وباطنه بشمس الإخلاص فى العمل والإحسان له ، فيعبد ربه وكأنه ماثل بين يدى جلاله وكماله وجماله ، حتى تتحقق له مرتبة الإحسان التى عرفها رسول الإحسان بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وبذلك يصبح قلب المؤمن سليما ، وإلى ربه منيباً ، فيفوز صاحبه بالأجر العظيم والنعيم المقيم : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ودعوة الله لها منهاج يتضمن الكثير من التعاليم والأحكام والآداب ، ومصدر معرفة هذا المنهاج بتفاصيله هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الناس ليسوا سواء فى الاقتدار على الأخذ من هذين المصدرين ، فمنهم من لم تتيسر له أسباب التلقى المباشر من القرآن والحديث ، فهو بحاجة إلى معلم أو مرشد أو هاد يهديه إلى أوامر ربه وأحكام دينه وهدى رسوله على علم وبصيرة ، والقرآن الكريم يقول : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ومن هنا حمل العلماء والهداة والمرشدون مواريث النبوة ليبلغوها إلى الناس جيلا بعد جيل ، وليذكروا بها الغافل ، ويفقهوا فيها الجاهل ، ويقووا عزيمة الصالح ، ويكونوا عوناً طيباً للمصلح ، ومن وراء تلاقى العلماء بطلاب العلم والحكمة ، واجتماع الهداة بأهل الصلاح والهمة ، تتلاقى العقول ، وتتذاكر الأرواح ، وتتعاون الهمم ، ولذلك قال عيسى ابن مريم : « جالسوا من تذكركم بالله رؤيته ، ومن يزيد فى علمكم كلامه ، ومن يرغبكم فى الآخرة عمله » . وقال الإمام أحمد الرفاعى : « إذا كانت نفسك غير ناظرة إلى قلبها فأدبها بمجالسة الحكماء » . وبهذا التلاقى والاجتماع

أيضاً تتدانى أشباح كانت متباعدة ، فيكون تدانيها سبباً لتعارف أرواحها وتآلفها ، ما دامت هذه الأرواح قد تشابهت فيما بينها ، وتماثلت فى اتجاهها إلى الهدى ، ورغبتها فى التقوى ، وبذلك نرى المصداق العملى لقول نبى الحكمة ورسول الرحمة عليه الصلاة والسلام : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وما يزال هذا التعارف يقوى ويسمو ، وما يزال هذا التآلف يتوطد ويعلو ، كأن أصحاب هذه الأرواح المتشابهة فى الصلاح والخير والإخلاص ، روح واحدة وإن سرت فى عدة أجسام ، فكل واحد منهم يعرف أخاه وينجذب إليه فى كل مجال من مجالات الحق والعدل والإيمان والاستقامة ، وهنا نتذكر حديث سيد الخلق عليه الصلاة والسلام فيما يرويه البيهقى عن ابن مسعود : « لو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد ، لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقاً دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد ، لجاء حتى يجلس إليه » . وذلك لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، وإن الطيور على أشكالها تقع كما قال الأولون .

وهذا هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد حث الإنسان على أن يختار من يلقاه ويخالطه ، فيحذر أهل السوء والفساد والضلال ، ويقدم عليهم أهل الخير والصلاح والهدى ، لأن مجالسة الطاهر الصالح كمجالسة من يبيع الطيب ، فإما أن تأخذ من طيبه بيعاً أو هدية ، وإما أن تشم منه رائحة طيبة على الأقل ، وأما مجالسة الفاسد السيئ فهو كمجالسة النافخ فى الكير ، فإما أن تحترق منه ثيابك أو تتسخ ، وإما أن تشم منه ريحاً خبيثة ، « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ، وإذا كان من أدب النبوة السامى قد صور لنا هذا الفرق بين الجليس الصالح والجليس السوء ، فإنه قد قال لنا أيضاً : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ، وكأن هذا الهدى المحمدى

الكريم قد اعتمد فى استمداده واستلهامه على ضوء القرآن الكريم حين قال : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . يا عباد لا خوف عليكم اليــوم ولا أنتم تحزنون » فإذا تلاقى المتــلاقون فى الدنيا ــ ســواء أكانوا من العالمين أو المتعلمين ــ وكان تلاقيهم على حب لله وتناصح لله وطاعة لله ، فإنهم يكونون سعداء فى الدنيا ، ويكونون أحباء فى الآخرة ، تجمعهم جامعة التعاون على الخير والبر فى هذه الحياة ، وتجمعهم جامعة النعيم الإلهى العظيم يوم لقاء الله ، وأما الذين يتصادقون على إثم أو باطل أو جهالة ، فهم يهدمون كيانهم فى الدنيا ، ويتلاعنون فى الآخرة وهم يذوقون أشد العقاب ، ولذلك حذر القرآن الكريم من متابعة الإنسان لجاهل أو ضال ، فقال : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » وعلمنا القرآن أن المؤمنين من شأنهم الذكر الطيب الذى يعلمهم حقوق ربهم ، وحقوق مجتمعهم ، وحقوق عقيدتهم ، فهم إذا ذكروا ربهم ذكروه على وجه التمجيد والحمد ، وعلى وجه الاستجابة العاقلة ، وعلى وجه الاستمساك بما دعا إليه ، والابتعاد عما نهى عنه ، وهذا يقرب من المفهوم العام لقول الحق جل جلاله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الدين النصيحة، والنصيحة تكون عن علم ومعرفة، فمن استطاع إدراك الرشاد بنفســه فتلك نعمة كبرى من الله عليــه، ومن لم يستطع فعليه أن يلتمس ذلك عند أهله والصادقين فيــه ، ومن واجب الملتمس أن يخلص فى الطلب كما أن من واجب القادر على الإرشاد أن يخلص فيــه ، قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، وبهذا الإخلاص المتبادل تتوثق علاقات الحب والمودة بين الناس ، فيحب

كل منهم لأخيه ما يحب لنفســه ، وتشمل الجميع روح الصفاء والوفاء ، فيتم لهم الفوز والهناء، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الخطبة الثانيــة

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين ، اللهم إنا نسألك بفضلك أن تؤيد الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بحولك كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين العاملين ، وأن تتوب على العصاة المخطئين »

اللهم وفق ولاة المسلمين وحكامهم . . . إلخ .

عوامل النجاح[1]

الحمد لله عز وجل ، كتب العاقبة للمتقين الصابرين ، وجعل الخيبة على المبطلين المفسدين : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤثر برحمته المحسنين ، ويمن برضوانه على المؤمنين الصالحين : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف به الغمة ، وأسعد بهديه الأمة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المجاهدين : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقال إننا نعيش فى عهد المدنية والحضارة والتقدم ، وقد اخترع الإنسان فيه ما اخترع ، وابتدع فيه ما ابتدع ، واستخدم قوى البر والبحر والجو ، وطغى فى طموحه ففكر فى بلوغ السماء ، ومع هذا كله لم يسعد الإنسان ، ولم يشعر بالطمأنينة وراحة النفس ، وها هو العالم اليوم يعيش فوق بركان من القلق والفزع ، وفوق زلازل من الحيرة والاضطراب ، وما يكاد العالم يخلص من أزمة أو مشكلة إلا ليستقبل أزمة أدهى أو مشكلة أمر . . . وما ذلك إلا لأن هذا التقدم المادى الحسى لم يصاحبه ما يماثله من التقدم الروحى النفسى ، بل نحن نعيش فى عالم لا يدين أكثره بالمثل العليا ، ولا بالعقائد الروحية ، وقد انفصمت عرى الإيمان فى النفوس ، وقل عمل الخير بمعناه الصحيح ، وضعف سلطان العدل ، وضاع صوت الحق فى زحمة الباطل ، ولو أن شخصاً من السلف الصالح رجع إلينا من عالم الخلد لهاله ما يرى . . .

---

(١) ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٧٧ هـ — ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٧ م .

إذ سيرى النادر من الناس وقد استقام على الطريق وحافظ على الحقوق ، وتخفف من العيوب ، وسيرى فريقاً خلط عملا صالحاً بآخر سيئ ، ثم سيرى الكثير الغالب وقد تردى فى حمأة الخطأ واعوج منه المسير .

وهذا الشقاء الإنسانى بحاجة ملحة إلى العلاج ، وقد يتفلسف البعض ويتعمق فى وصف هذا العلاج فيطيل ويرهق ثم لا يأتى إلا بالفشل الذريع ، ولكن الحق تبارك وتعالى أنزل فى كتابه سورة تتكون من ثلاث آيات فقط ، ولا تستغرق أكثر من سطرين فى المصحف ، ومع ذلك يوجد فيها تشخيص العلة وتحديد الداء ، كما يوجد فيها طريق الخلاص ووصف الدواء ، وتلك هى سورة « العصر » التى يقول فيها الإمام الشافعى : لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت الناس ! . . والتى كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا اجتمع منهم اثنان لم يتفرقا حتى يقرأها أحدهما على صاحبه إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ، وذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما فى هذه السورة من منهج السعادة وطريق الفلاح . . .

ومن العجيب أن العامة من المسلمين قد اعتادوا إذا اتفقوا على صفقة ، أو افترقوا من اجتماع أن يقرأ سورة « الفاتحة » ، وهذه عادة لم تكن معروفة على عهد الرسول صلوات الله عليه ولا على عهد صحابته ، والأولى بالمسلمين أن يجعلوا سورة « العصر » مكان سورة « الفاتحة » فى مثل هذه المناسبات ! .

يقول الحق جل جلاله فى هذه السورة : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

أقسم الله بالعصر ، وهـــو الزمان الواســـع المبهم ، والله لا يقسم إلا بمـــا له منزلة ومكانة ، وكأنما أقسم الله بالعصر لينبهنا على قيمة الوقت

وكرامته ، وأنه يجب علينا أن نملأه بالسعي الحميد والفعل المجيد ، وأن نستغله أطيب استغلال وأن نعمره بالصالحات والطيبات حتى لا نخسره أو نغبن فيه ، فالرسول يقول : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » ؛ وكم من مستخفين بقيمة الزمان مستطيلين له حرموا فائدته وأصابتهم الخيبة والخسران :

ألیس من الخسران أن لياليـــا تمر بلا نفع ، وتحسب من عمرى؟!

وينبهنا كذلك إلى أن الزمن له طهارته وصلاحيته ، إذ لا عيب فيه ، لأنه صالح لكى نملأه بما نريد ، وإنما يصلح أو يفسد أهل الزمان :

نعيب زماننا ، والعيب فينـــا وما لزماننا عيب ســـوانا ! !

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر » ، أى فى ضلال ونقصان وحرمان ، لأنه بسوء تصرفه وقبح عمله يخسر الكثير ، ويفقد السعادة والطمأنينة ورضا الإله . . وقد خلق الله الإنسان وميزه بكثير من المواهب والملكات والعطايا ، وسخر له ما فى هذا الكون ، وهداه السبيل إما شاكراً وإما كفورا ، وأعد له امتحاناً هو هذه الحياة بتجاربها ودروسها وألوان الخير والشر فيها ، فرسب الكثيرون فى ذلك الامتحان ، وحكم عليهم ربهم بجزاء الرسوب وهو الخسران ، ونجح فيه أهل الخير الذين أحسنوا الاستعداد له ، واتصفوا بالصفات الكريمة التى تؤهل للفوز المبين فى هذا الميدان ، ولذلك استثناهم ربهم فقال :

« إلا الذين آمنوا » أى أيقنوا بوجود مبدع للكون مسيطر عليه ، يرضى الخير ولا يرضى الشر ، وأيقنوا بجمال الفضيلة فتحلوا بها ، وأيقنوا بقبح الرذيلة فتخلوا عنها ... « وعملوا الصالحات » أى ترجموا عن عقيدة الإيمان بأعمال تزكيها وتنميها ، والصالحات هى كل عمل جميل حميد جاء به الدين ،

وقبلته الفطرة الطاهرة ، واستحسنه العقل السليم ، وانتفع به الفرد أو الجماعة فى الدنيا أو الأخرى ، كالعبادات المشروعة ، وخدمة الناس ، وبذل الأموال فى وجوه البر والعدل فى الحكم ، والاستقامة فى التصرف ، والجد فى الحياة ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، وكلما اتسعت فائدة العمل الصالح فى الأفراد والجماعات ارتفعت مكانته عند الله عز وجل ... وإنما تظهر ثمرة الإيمان وقيمته بالعمل الصالح الملائم له ، ولذلك اقترن ذكر الإيمان فى القرآن بذكر العمل الصالح فى أغلب المواطن ، ولا تكاد تذكر كلمة « الذين آمنوا » فى القرآن ، إلا وتذكر معها كلمة « وعملوا الصالحات » ، حتى تكررت عبارة : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أكثر من خمسين مرة فى القرآن الكريم ...

وإليك جانباً من هذه المواضيع :

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » .

ويقول فيها أيضاً : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ويقول فيها أيضاً : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويقول فى سورة آل عمران : « وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين » .

ويقول فى سورة النساء : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، لهم أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » ، ويقول فيها أيضاً : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قيلا » ، ويقول فيها أيضاً : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ... » .

ويقول فى سورة المائدة : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » .

ومثل هذا جاء فى سورة الكهف ، الآيات ٢ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ١٠٧ .
وفى سورة الحج ، الآيات ١٤ ، ٢٣ ، ٥٠ ، ٥٦
وفى سورة العنكبوت ، الآيات ٧ ، ٩ ، ٥٨
وفى سورة الشورى، الآيات٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، إلى غير ذلك من المواضع !

« وتواصوا بالحق » ... أى أوصى كل واحد فى الأمة غيره بلزوم الحق ، وثبت هذا الحق فى نفسه ، وحضه على اتباعه والدعوة إليه والدفاع عنه ، والحق هو الشيء الثابت فى نفسه لاعتداله واستقامته ، وهو ضد الباطل، فالمؤمنون الفائزون يتبادلون الوصية والنصيحة والتوجيه ، كل منهم يكون ناصحاً ومنصوحاً ، وموجهاً وموجهاً ، ولا يستكبر موص منهم أن يوصيه غيره ، فالمسلمون كما قال الرسول تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ؛ وعمر الفاروق — وهو من هو — كان يدعو لمن يأتيه بالنصيحة والتوجيه ، فيقول : رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا ! ...

« وتواصوا بالصبر » ... أى أوصى كل منهم أخاه بأن يصبر على الطاعات ويجد فيها ، وبأن يصبر عن الرذائل بدوام هجرها والبعد عنها ، ولن يكون للتواصى بالحق والتواصى بالصبر قيمة إلا إذا كان من يوصى

بهما خاضعاً لهما داخلا فيهما ، فلا جدوى لوصية من ينصح بالحق وهو على الباطل مقيم ، ولا ثمرة لمن يوصى بالصبر وهو لا يتحلى به ...

يا أيها الرجـــل المعـــلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعـــليم ؟
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا
كيما يصـــح به وأنت ســـقيم !

وقد كرر القرآن كلمة (وتواصوا) فقال : « وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » ، وكان يمكن أن يقال : « وتواصوا بالحق وبالصبر » وإنما جاء التكرار للعناية بكل منهما ، ولأهمية كل منهما ، ولأن الحق وحده يحتاج إلى تواص ، والصبر وحده يحتاج إلى تواص . وقد جمع الله بين التواصى بالصبر ، لأن الحق لا يستغنى عن الصبر ، والصبر لا فائدة له — بل ضرره محقق — إذا كان على غير حق ؛ والحق له تبعاته وتكاليفه ، وهو ثقيل على النفوس إذا لم تصبر له ، والحق له أعداء كثيرون يقاومون من يتمسك به ، وما أكثر الحق فى هذا الوجود ... فالظلمة والجبابرة والطواغيت والفساق واللصوص كلهم أعداء للحق ولأهل الحق ، فلا بد لدعاة الحق من صبر جميل حتى ينشروا دعوته ، ولولا صبر أولى العزم من الرسل — وفى طليعتهم خاتمهم محمد — على الشدائد والمصاعب لما انتشرت دعوة الله فى العالمين !...

ونحن — أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام — أمة الحق ، لأن ربنا اسمه الحق ، وديننا دين الحق ، وقرآننا كتاب ينطق بالحق ، ونبينا رسول الحق ، وما قامت السموات إلا بالحق ، فلا كيان لنا إلا بهذا الحق ! ... والصبر هو شرعة الإسلام . وهو الذى يعطى الله صاحبه أجره بلا حساب ، وقد جاء ذكر الصبر فى نحو ثمانين موضعاً من القرآن ، وما ذلك إلا ليعلمنا الله الصبر الجميل ! ...

هى إذن أربعة عوامل للنجاح والسعادة الحية والنفسية فى الحياة والفوز برضا الله : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر..

الإيمان فى صدر الإنسان كشجرة ناضرة مورقة ، تحتاج إلى رى وغذاء موصول ، وهذا الغذاء هو العمل الصالح ، كما يحتاج الإيمان إلى تثبيت وتأكيد وهذا هو التواصى بالحق ، كما يحتاج الإيمان إلى حصانة وحفظ ، وهذا هو الصبر ! ... والله مع الصابرين .

فأين هذه العوامل فى دنيا الناس ؟ .

إن الغيور يتلفت يميناً وشمالا ليرى أضواء الإيمان فتصدمه ظلمات الإلحاد والكفران ، فقد شاعت أمراض الزندقة والتطاول على الدين ، وكثر جنود الدعوة إلى الإلحاد والسخرية من الأديان ، وظهرت الكتب والنشرات والصحف التى تهزأ بالألوهيـــة وتنكر وجود الله ، وتروج للوجودية واللادينية والتفسير المادى للتاريخ ، والقول بأن الإيمان بالقوة الإلهية لون من طفولة الفكر البشرى أو تخدير لعقول الشعوب ... وأين المجال لعمل الصالحات والقربات اليوم ؟ ... من منا يفكر حين يسعى برجله أو يبطش بيده أو يتحرك بجسمه أن يتقيد بالعمل الصالح المرضى لله ولرسوله ؟ ... ومن منا يستطيع أن يقول إن المقامرة والسكر والفحش والرقص والتبرج الوقح والرشوة وسوء الاستغلال والتحلل من الأخلاق والإهمال لحدود الله من عمل الصالحات ؟ ! ...

لقد أصبح الناس ولاهم لهم إلا التفنن فى الحصول على رغباتهم وشهواتهم مهما كانت الوسيلة ، ومهما وطئوا فى مسيرهم غيرهم من الناس ومهما سحقوا بأقدام ملذاتهم وشهواتهم رءوس مستحقين مساكين أو بائسين مظلومين ! ... وأين الحق فى العالم اليوم ، وكل من بيده سلاح يريد أن

يستعبد به المجرد منه ، أو يقضى عليه إن رفض العبودية ؟ ... أين الحق فى دنيا الناس وقد صار الهوى إلهاً معبوداً من دون الله ؟ ! ... ثم أين الصبر على إتيان مكرمة أو هجران مأثمة ، وقد أصبحت العجلة المأفونة والتقلب السريع شعاراً لكثير من الناس ؟ ! ... وما أبعدنا عن الصبر ، أو ما أبعد الصبر عنا فى كثير من الأمور . .. يطلب الشاب العلم حيناً ، ثم يضيق صدره بطلب العلم فلا يصبر عليه ، فينقطع عنه ، ويخرج إلى الحياة نصف متعلم أو بعبارة أخرى نصف جاهل ، فلا يكون له فى الحياة الفاضلة تاريخ ... ويقوم المرء بمحاولة فيفشل فيها أول مرة فلا يصبر ، ولا يكرر المحاولة مرات ومرات ، فلا يكسب إلا الفشل وعدم الوصول ... ويتعرض الداعى إلى الخير لبعض المتاعب ، فيضيق بها ، ولا يصبر عليها فتترك دعوته ، ويخلى سبيله ، ويركن إلى القنوط . ويوسوس الشيطان للرجل بارتكاب الإثم ، فلا يقاوم ولا يصبر ، بل يستجيب للوسوسة ويستسلم ، ملقيا القياد أمام الهوى فيوقعه فى الردى ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد رسم القرآن لكم المنهاج ، وأوضح النبى الطريقة وبقى علينا التطبيق .. فلنؤمن ، ولنعمل صالحاً ، ولنتمسك بالحق ونتواص به ، ولنلتزم الصبر وندع إليه ، نكن من الفائزين ، والله يهدى العاملين ... « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

أدب الخطاب(١)

الحمد لله ، يختص بفضله من يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم ، « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال » . نشهد أن لا إله إلا أنت نزلت أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، فكان فيصل الخطاب وأخلد كتاب ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جذب الناس بعذوبة لسانه ، وامتلك الألباب بسحر بيانه ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى أغصان دوحته الناضرة ، والسابقين إلى نور شرعته الظاهرة ، والموقنين بوعد ربهم فى الأولى والآخرة : « لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

حلاوة اللسان هبة من الرحمن ، يترجم بها الإنسان عن نور الإيمان ، ويهدى بها إلى رشاد ويصد عن فساد ، ويسكن بعذوبتها النفوس الثائرة ، ويصل الروابط المنقطعة ؛ وإن من رقة اللفظ الجميل ما يأسر العنيد ويحطم الجلمود ، كما أن الفظاظة والبذاءة والوقاحة فى الخطاب تؤدى إلى أسوأ النتائج والعواقب ؛ ولذلك اختار الله رسله على الدوام قوماً فيهم لين الرحيم وشفقة القويم وسهولة الكريم وعذوبة اللفظ النظيم ، وهاهو ذا سبحانه يقول لنبيه ممتنا : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ؛ بل هاهو ذا سبحانه يبعث الحليمين الكريمين العظيمين موسى وهارون إلى طاغية زمانه وشيطان أوانه فرعون المستبد الأثيم ، الذى كان عالياً من المسرفين ، ومع ذلك هو يوصيهما بالترفق به والحلم عليه واللين معه

---

(١) ٦ ربيع الآخر سنة ١٣٧١ هـ — ٤ يناير سنة ١٩٥٢ م .

فيقول : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أويخشى : قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

ويظهر أن أهل هذا الزمان قد تنكروا إلا أقلهم لهذا الأدب الربانى الرفيع ، فأنت تراهم لا يحسنون الأدب فى خطاب ، ولا يضبطون عواطفهم فى نقاش ، ولا يتورعون عن الأخذ فى الصخب والفحش لأتفه الأسباب ؛ وكثيراً ما ساءت علاقات ونشأت خصومات وتعقدت مشكلات بسبب كلمة نابية ، أو لفظ سخيف ، يتطاول به سفيه أو جاهل ، فيثير الحفائظ ويبعث الأضغان ؛ بل وكثيراً مانرى أو نسمع أن أناساً يتجاذبون أطراف الحديث ، فيكشفون الأستار ، ويهتكون حجاب الأسرار ، ويتبادلون ماتندى له جباه الأحرار من سيئ الأخبار ،وناهيك بما يرتكبون خلال ذلك من كذب وافتراء ، وغيبة وامتراء ، وتصريح بالعورات والمنكرات ؛ ولم لايستحلون ذلك كله ويستزيدون منه ، وهم يريدون أن يدخلوا السرور على أنفسهم ، أو يرضوا شهوة انتهاب الأعراض والحرمات فى طبائعهم ، وفى سبيل ذلك فلتذهب المروءة ولتضع الأخلاق ... مع أن الرسول صلوات الله عليه يقول : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » . وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبى ويقول : يالسان ، قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم ! .. فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله أم شيء سمعته ؟ . فقال : بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه ! ...

والقرآن الكريم أفضل دستور يعلم كل راغب أو طالب أصول الأدب فى الحديث والخطاب فهو أولا يرشد إلى التباعد عن لغو القول ، ويهدى إلى التحدث فيما ينفع ويفيد ، فيقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله

فسوف نؤتيه أجراً عظيما » ، ويأمر بطيب القول ويجعله تابعاً للأمر بتقوى الله فيقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » . وهو يحرض على أن يكون أسلوب الدعوة إلى صراط الحق متسما بالهدوء والرزانة والسهولة ، فيقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . ومن أدبه فى الخطاب إرشاده إلى لطيف التعريض ودقيق التلميح فى موقف الحوار مع الخصوم ، والأعداء فى الملة والعقيدة ، كقوله : « وإنا أوإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » وقوله : « فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

ومن أدب القرآن فى الخطاب أنه لم يصرح باسم امرأة — لأن مقام سترها وتحذيرها لا يناسبه عادة ذكر اسمها — فهو يقول : « قالت امرأة العزيز » وكان يستطيع أن يقول : زليخا . وقال : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط » وكان يستطيع ذكر اسميهما، وقال: « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » وكان يستطيع ذكر اسمها ؛ وإنما ذكر اسم مريم لأن الناس قد قالوا ما قالوا فى شأن عيسى ، فنسبوه إلى الله ، فرد الله عليهم زعمهم بتحديد أمه، ولأن عيسى لا والد له، فكان واجباً أن يقال « عيسى بن مريم » . . . وكذلك لم يصرح القرآن عن الجماع والوطء ، لأن هذا مما يستحى من التصريح باسمه غالباً ، ولذلك كنى القرآن عن الوطء بعدة كنايات ، فتارة يقول عنه : « أولامستم النساء » وتارة يقول: « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » وتارة يقول : « فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به » وتارة يقول : « ولكن لا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » وتارة يقول : « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » ؛ وهذه كما ترى كنايات ما أرقها وما أجملها عن الوقاع ؛

مما يوحى إلى المسلم بأن يكون عف اللسان نزيه البيان ، فيتحفظ ويتوقى فى الحديث والخطاب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما رأيت كهذا اللسان يجمع المتناقضات ؛ فهو عند اللبيب المهتدى آلة من آلات الخير والبر ، ومركب من مراكب البلوغ والفلاح ، وهو عند الوقح السفيه عقرب خبيثة ، تنهش لحم من تنال ، ثم ترجع على صاحبها فتورده المهالك والمعاطب ؛ وصدق رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام حين قال : « وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم »؟.. فهل آن للخابط بلسانه خبط العشواء أن يربط تلك الدابة العمياء التى تسمى اللسان ، حتى لا يسخرها إلا فى خير ، ولا يستعملها إلا عند اللزوم ؟ . . . إنه إن فعل فقد ابتغى لنفسه الفوز والسعادة وإن كانت الأخرى فعلى نفسها تجنى براقش ؛ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم.

الغنى غنى القلب[1]

الحمد لله ، يصب بركته فى القليل الضئيل فإذا هو كالبحر الوسيع أو الفيض العميم ، ويمحق بغضبه الكثير الدخيل فإذا هو كالهباء أو الهشيم « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، خاذل عزائم الفاسقين ، ومزكى قلوب المتقين : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كان لك فكنت له ، وأنت خير الغالبين ، فصلواتك اللهم وسلامك على آله وأحبابه ، وأصحابه وأتباع كتابه « فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » .

يا أتباع محمد عليه السلام :

لا شك أن فى العالم اليوم شقاء ملموساً فى مختلف الأرجاء ، والشكوى من ذلك تتردد بين الحين والحين ، وسبب هذا الشقاء أن أغلب الناس اليوم واحد من شخصين : إما غنى فيه طمع ، وإما فقير عنده قلق ؛ ولو أن الغنى اكتفى حين استوفى ، وشكر حين قدر ، وحارب الطمع بالرضا والقناعة ، لما وقعت مآسى الترف والفسق والاستئثار ؛ ولو أن الفقير لم يخرجه فقره عن رشاده ، بل أحسن الاحتيال للخروج من ضيقه ، والسعى فى طريقه ، ورضى بالله قسماً وحظاً ، لما حدثت نكبات الاعتداء والانتهاب والاضطراب ... وزلة العالم الكبرى اليوم أنه اعتبر مطالب الإنسان محصورة فى البطن والفرج ، وأما الروح والقلب فليس لهما عنده كبير حساب ؛ ومن هنا أسرف الغنى فكان حيواناً ، واضطرب الفقير فكان شيطاناً ،

---

(١) ١٧ مايو سنة ١٩٥٨ م .

ولو وجدت عند الجميع عواطف الإيمان والاطمئنان ، ومشاعر القناعة والرضا ، لخفت الأزمات وانحلت المشكلات ؛ وصلوات الله على رسوله يوم قال لأبي ذر : أترى كثرة المال هو الغنى ؟ . قال : نعم يا رسول الله . قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قال : نعم يا رسول الله ، فقال الرسول : إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب ... قال أبو ذر : ثم سألني عن رجل من قريش : هل تعرف فلاناً ؟ قلت: نعم يا رسول الله ؟ قال: فكيف تراه ؟ قلت : إذا سأل أعطى ، وإذا حضر أدخل . قال : ثم سألني عن رجل من أهل الصفة [وهم الفقراء الذين كانوا يقيمون بمسجد الرسول] فقال : هل تعرف فلاناً ؟ . قلت : لا والله . فما زال الرسول يحليه وينعته حتى عرفته . قال : فكيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة . فقال الرسول : فهو خير من ملء الأرض من الآخر ! .

ومن هذه المحاورة النبوية الكريمة نفهم بوضوح وجلاء أن الإسلام لا يقيم موازين الرجال بالأموال ، ولكنه يزنهم بالتقوى وصالح الأعمال ، فرب مفتخر بالمال الكثير أو الجاه الباطل أو المنصب الباهر لا يشق عند الله غبار رجل آخر قل ماله ولكن كثرت أعماله ، وخلا جيبه ولكن ازدحم قلبه بالهمة العالية والرغبة السامية ، وإن شئتم تأكيداً لذلك فاذكروا أن رجلا مر بالرسول يوماً فقال لصحابته : ما رأيك في هذا ؟ قال : هذا رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع . فسكت الرسول قليلا ، ثم مر رجل آخر فقال : وما رأيك في هذا ؟ فقال : هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حرى إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال لا يسمع لقوله . فقال الرسول : هذا خير من ملء الأرض من مثل ذاك !... وصدق رب العالمين : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

بل وأكثر من هذا ؛ إن الإسلام يزيد فى فضله وحسن تقديره للعاملين المتخففين من أثقال دنياهم وأوزار حياتهم ، الذين قد يكون لهم الجاه ولكنهم يذلون لجلال الله ، وقد يكون لهم المال ولكنهم يهلكونه فى طيبات الأعمال وقد يكون لهم القوة والسلطان فيسخرونهما لنصرة الفضيلة والإيمان أو قد يقضون حياتهم ممنوعين محرومين ، فلا يفزعون ولا يجزعون ، بل يصبرون ويصابرون ، فيجعلهم — على الرغم من فقرهم ، أو بسبب هذا الفقر نفسه — أول الناس دخولا إلى رحاب الفردوس ، تعظيماً لهم من ربهم وتكريماً ؛ يقول رسولكم صلوات الله عليه: « إن أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته :إيتوهم فحيوهم ؛ فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ، ونسلم عليهم ؟ ! . فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لا يستطيع لها قضاء ؛ فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب قائلين : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

ولا يحسبن غافل أو جاهل أن هذا تحبيب منا فى الفقر بلا غرض شريف أو مقصد نبيل ، أو أن هذا تسويغ منا للرضا بالمذلة والهوان ، فشعارنا فى الإسلام أنه لو كان الفقر رجلا لقتلناه ، ونعوذ بالله من الفقر والحاجة ، وأن الرضا بالمذلة كفران برب العزة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » وإنما نريد فى طوفان الحرص على الحياة والغرق فى مطالب البطن والفرج ، أن نتذكر الرضا والقناعة ، وأن نفىء

إلى واحة الروح والعاطفة ، نستمد منها الغذاء والعزاء ، إذا عز فى دنيا المترفين ظهور الدواء ، وأن نتذكر أن الجوع الذى يشكو منه العالم اليوم ليس جوعاً فى البطون فقط ، ولكنه بجوار هذا جوع فى الأرواح والقلوب ، جوع فى موطن العقيدة والإيمان ؛ ولو شبع المرء بيقينه ، وإيمانه أولا لعز فى دنياه ولو انصرفت عنه الجموع ، لأن الله سيقبل عليه حينئذ ، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين : « فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

يقول الفيلسوف الكندى :

وعنـــد مليكك فابغ العـــــــــلو ، وبالوحـــدة اليوم فاستأنس

فإن الغـنى فى قلوب الرجال وإن التعـــزز بالأنفس

وكائن تـــرى من أخى عسرة غنى وذى ثـــروة مفلس

ومـــــن قائم شخصه ميت عــــلى أنه بعـــد لم يرمس

فإن تطعم النفس ما تشتهى تقيـــك جميع الذى تحتسى !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد رأى معلمكم الأول صلوات الله عليه صحابياً اسمه حارثة فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال حارثة : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، حتى لكأننى أرى عرش ربى بارزاً ، وكأن الجنة عن يمينى ، والنار عن يسارى ، والصراط تحت قدمى ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار . فقال له الرسول : يا حارثة ، عرفت فالزم ... وما نريد اليوم أن نكون كحارثة ، فذلك قد

سبق بالفضل والوصول ، ولكن لا أقل من أن نتنسم رائحة منهجه ونحن نعب عب الهيم فى هذا المرتع الوخيم ، فإن الادكار والرجوع إلى العلى الكبير من حين لحين سبيل الرضا والأمان ، ولذلك قال سبحانه : « ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاسلام والربا[١]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يحل لعباده الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وهو اللطيف الخبير . أشهد أن لا إله إلا الله ، مهد للناس طرق الخير والرشاد ، وحذرهم معاطب الضلال والكفران : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الأمين على وحيه ، الصادق فى تبليغه : « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يحاول بعض المجددين أن يخضعوا دين الله للحياة ووقائعها ، وما يستحدثه الناس فيها من أوضاع الاجتماع والاقتصاد والمعاملات ، وهذا باب خطير من أبواب الفتنة والانحراف ، لأن الواجب هو أن نخضع الحياة لدين الله ، وأن نحكم أوضاعها بهذا الدين : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . والذى يملك حق التحليل والتحريم هو الله وحده ، ودينه هو الضابط الذى نقيس عليه كل ما حدث أو يحدث ، فما وافق هذا الضابط فهو حلال مباح ، وكل ما خالفه أو خرج عليه فهو حرام ممنوع . وهذا هو المفهوم من قول الله تبارك وتعالى : يخاطب نبيه « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . ويجب أن ندقق النظر فى قوله هنا : « ويسلموا تسليما » فمعناه أن ينشرح صدر المسلم لما أمر به ربه ، وأن يخضع له برضا واقتناع ولو خالف مصلحته الشخصية .

---

(١) ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠ هـ ــ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٠ م .

وسبب هذه المحاولات المتعددة لتطويع الدين وإخضاعه لما يستحدثه الناس من أوضاع الحياة ، هو أن كثيراً من الناس قد بهرتهم المدنية الأوربية المعاصرة والحضارة المادية الغاشية ، بلا تمييز بين حقها وباطلها ، أو خيرها وشرها ، فأراد المجددون أن يجدوا مسوغاً دينياً لأساليب هذه المدنية المادية التي عمت وطمت ، فأخذوا فى تأويل النصوص وتخريجها ، حتى توافق ما يجرى عليه الناس من خطأ وانحراف ؛ وكان الأولى والأجدر بهؤلاء المجددين أن ينتهزوا فرصة شقاء العالم بنظمه المادية وأوضاعه الاقتصادية التي تعربد فيها الشهوات والرغبات ، فيقدموا إلى الناس نظم الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، قائلين لهم : هذه هى قارورة الدواء ومضخة الإطفاء وزورق النجاة « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

هذا مثلا مجدد يريد أن يسوغ المعاملات الربوية فى البنوك والصفقات المختلفة فيقول إن الربا الذى حرمه الإسلام هو الربا الذى يستغل فيه صاحب المال حاجة المقترض المضطر إلى طعام أو علاج أو إسعاف ، أو غير ذلك من الضرورات الملحة ، وهو ما يسمى « بربا الاستهلاك » ، ويزعم أن الإسلام لا يحرم « ربا الاستغلال » وهو ما يكون فى المال الذى يقرضه صاحبه ليتجر فيه المقترض أو يستغله فى شئون أخرى . والواقع أن الإسلام قد حرم النوعين معاً ، حرم ربا الاستهلاك حتى لا يقع المحتاج فريسة لصاحب المال وتحكمه ، وحرم ربا الاستغلال حتى لا تكون هناك طائفة مالكة لرءوس الأموال ، فتكتفى بإقراضها بالربا ، وتبقى دون عمل فتكون فئة عاطلة بالوراثة ، وتكون عالة على المجتمع ، وتتقلص فيها دواعى السعى فى الحياة أو تزول ، مع أن الإسلام يدعو الجميع إلى العمل ويحرضهم عليه ، وأفضل الكسب عنده ما كان ناتجاً من عمل .

والله سبحانه وتعالى قد أصدر حكمه عاماً فى تحريم الربا فقال : « وأحل

الله البيع وحرم الربا » وقال : « وذروا ما بقى من الربا » وقال : « فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وهذه الآيات هى آخر الآيات نزولا فى شأن الربا ، وقوله : « وحرم الربا » حكم عام يشمل كل فائدة مالية تأتى زيادة على أصل الدين ، وإذا كان القرآن قد قال : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » فليس هذا نهياً عن أكل الربا فى حال المضاعفة فقط ، فيدل على إباحته فى غيرها ، بل هو نهى عن لون من الربا الذى كان فاشياً فى الناس ويتعاملون به فى كثير من حالاتهم ، فالتقييد بالأضعاف المضاعفة ليس للتخصيص والاحتراز عما عداه ، وإنما هو تصوير لما كان عندهم ، ثم كان التحريم العام بقول القرآن : « وأحل الله البيع وحرم الربا » .

وقد شدد الله جلا جلاله الإنذار والوعيد للذين يأكلون الربا أياً كان قدره ومهما كان نوعه ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . ولم يتوعد الله صاحب معصية بمثل هذا الوعيد ، وإذ لم يرد فى القرآن إنذار بالحرب من الله ورسوله لقوم غير الذين يأكلون الربا ويفسدون به العلاقات بين الناس ، ويعرضون أنفسهم بسببه لمقت الجبار ونقمته فى الدنيا والآخرة ؛ والناس هنا وهناك يتحدثون عن النكبات والمصائب التى تنزل بآكل الربا ، ولو بعد حين ، فيقولون عن علم ومشاهدة : كم من آكل للربا أصيب بالعمى ، وكم من آكل له نكبه الله بالشلل أو خراب البيوت ، أو فساد الذرية ، أو فضائح العرض أو غير ذلك من البلايا والنكبات فى النفس أو الأهل أو الولد أو المال وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فإن الله تعالى لم يقم المعاملات بين الناس على الأساس المادى والاستغلال المالى فقط ، بل جعل هناك الروابط الأخوية والصلات الروحية والتعاون على البر والتقوى ، فقال القرآن

« ولا تنسوا الفضل بينكم » وقال : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » وقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » ، وقال الرسول : « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً » .

[تذكر هنا بعض الأحاديث فى الربا]

ومن العجيب أن يتعالل هؤلاء بأن الربا قد عمت به البلوى ، وأصبح عرفاً شائعاً بين الناس ، وارتبطت بنظامه مصالحهم ، ومعاملاتهم ؛ ولا جدال فى أن الإسلام يقيم للعرف الصالح قيمة ومكانة ، ولكن ليس معنى هذا أن يصبح العرف هو الحاكم للإسلام ، بل إن الله تعالى نعى على أهل الجاهلية أنهم كانوا يريدون جعل الدين تابعاً لعاداتهم الموروثة وأعرافهم المنقولة عن آبائهم ، فإذا قال لهم الرسول : « اتبعوا ما أنزل الله » أجابوه : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » والعرف الفاسد الذى يحرم حلالا أو يحل حراماً لا يعرفه الإسلام ولا يقبله بحال ؛ وإذا كانوا يقولون إنه لا يمكن التخلص من الربا ، فهذا كذب واحتيال ، فهذه روسيا الكبيرة العدد التى صارت فى مقدمة الدول من ناحية الإنتاج ، لا يوجد فيها ظل للربا ، بل يأخذ بنظام الجمعيات التعاونية ، ومع ذلك تقدمت وصارت تتحدى غيرها من الدول ، ومن المؤسف هنا أن مبدأ التعاون مبدأ أصل فى الإسلام ، ونحن أولى به وأحق ، لأنه من ديننا نبع وفى ديارنا ظهر ، فالله تعالى يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، ولكننا أهملنا مبدأ التعاون الإسلامى ، وانسقنا فى ركاب الماديين الربويين ، حتى صدق علينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا ، قيل : يا رسول الله ، الناس كلهم ؟ قال : من لم يأكله ناله غباره !... »

هذا والواجب على رجال الدين فى زمن التحلل من الأحكام والازدياد من الشهوات ، ألا يتساهل أو يتهاون ، وألا يتوسع فى الفتوى وإلا اتسع الخرق على الراقع ، بل يلزمه أن يتمسك بأوامر الله ، وأن يحرض على الأخذ بالعزائم والتكاليف ، بدل الانحراف فى التأويل والتخريج ، لأن رجل الدين فى فترات التحلل يمثل جبهة المحافظة على قواعد الدين ، وحمل الناس عليها ، لا تجرئتهم على الاستخفاف بها : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . فلنتدبر جيداً قوله هنا « لينذروا قومهم » وقوله : « لعلهم يحذرون » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تذكروا أن الذين نشروا نظام الربا فى العصور الأخيرة هم اليهود،وهم أنفسهم الذين بثوه بين الناس فى القديم،والله تعالى يقول عنهم: « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما » ، واليهود أشد أعدائنا اليوم،ونظامهم الربوى هو السر فى تقطع الروابط الأخوية ، وانتشار المآسى الاقتصادية ، وخراب البيوت ، وضياع السعادة من الحياة ، فلنستجب لله فيما أمر ، ولنقلع عما نهى ولنذر ما بقى من الربا ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

تحية السلام[1]

الحمد لله عز وجل ، هو « السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، البارئ للخلق ، الهادى إلى الحق ، « والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سبب النعمة ونبي الرحمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، « لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لكل أمة من الأمم عادات وتقاليد تتعارفها وتصطلح عليها وتستمسك بها ، وترى فيها مظهراً من مظاهر شخصيتها الجماعية وملامحها العامة ، وأغلب العادات والتقاليد عند هذه الأمم تنشأ عن طريق الاصطلاح الاجتماعى أو الوضع البشرى ، ولكن الإسلام العظيم وضع للأمة المؤمنة مجموعة من العادات والتقاليد ، جعلها كجزء من تعليم دينهم وآداب شريعتهم ، فهم ينظرون إليها إذا استقاموا على الطريقة نظرة العناية والرعاية ، وبذلك تقوى شخصيتهم الإسلالية وتتأكد ملامحهم الإيمانية ، ومن بين العادات أن كل أمة لها عبارة تحية يرددها أبناؤها عند اللقاء وعند الفراق ، ونحن نتطلع إلى كل أمة من الأمم فنجدها حريصة على عبارة تحيتها الخاصة بها ، لا تهملها ولا ترضى عنها بديلا ، اللهم إلا الأمة المنتسبة إلى الإسلام فإنها تفرط فى التحية التى شرعها لها ربها ودينها ، وتستمرئ غالباً تقليد غيرها من الأمم فى هذا المجال ، مع أن الإسلام قد وضع لأبنائه فى التحية أجمل شعار وأطيب عبارة ، وهى : « السلام عليكم » ، وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام

---

(١) ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٨٤ هـ ـــ ٢ أبريل سنة ١٩٦٥ م .

بإيثار هذه التحية ونشرها ، فقال : « أفشوا السلام بينكم تحابوا » وقرر أن من أفضل الأعمال إطعام الطعام وقراءة السلام على من عرفت ومن لم تعرف ، وجعل الإسلام هذه التحية ختاماً مكرراً لكل صلاة ، والصلاة هى أكثر الفرائض تكرراً فى حياة الإنسان ، بل جعل القرآن الكريم السلام تحية للمؤمنين يوم لقاء ربهم : « تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجراً كريماً ». وكان الصحابة يفشون السلام بينهم ، حتى لو فرقت شجرة بينهم والتقوا سلم بعضهم على بعض ، ولكن خلف من بعد ذلك خلف فى الزمن الأخير أضاعوا الأصول والفروع ، حتى طغت تلك الإضاعة على تحية الإسلام : تحية السلام ، مع أن الله تبارك وتعالى قد اختارها لعباده للإشعار بأن دينهم هو دين السلام ، وأنهم أهل السلام ، وناشرو السلام ، وفى السلام معنى السلامة من العيوب ، والخلاص من الشرور ، والكراهية للحروب ، وهذا ما يتمناه كل عاقل فى هذه الحياة .

وأنت حينما تستجيب لهدى رسولك صلى الله عليه وسلم وسنته فتلقى السلام على غيرك ينبغى لك أن تستحضر معنى هذه التحية ، وهو أنك تتمنى من الله وتدعوه أن يكتب لهذا الإنسان السلامة فى حسه ونفسه ، وفى عمله وحاله كله ، ويلزم الطرف الآخر أن يجيب مؤمناً على هذا الدعاء ، ومتمنياً مثله أو أكثر منه للأول ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، إن الله كان على كل شىء حسيبا » فإذا قال الأول « السلام عليك » حسن بالآخر أن يزيد فى الرد فيقول : « وعليك السلام ورحمة الله » ، وإذا قال الأول : « السلام عليك ورحمة الله » كان من أدب الإسلام أن يقول الآخر فى رده : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإن استوفى الأول عبارة السلام فذكرها كاملة بما فيها من ألفاظ السلام والرحمة والبركة لم يكن أمام الآخر إلا أن يرد التحية الكاملة بتحية مثلها

كاملة . وقد يسأل سائل فيقول : لماذا كانت تحية السلام الكاملة مشتملة على هذه الأمور الثلاثة ، وهى السلام ، والرحمة ، والبركة ؟ . والجواب — كما قال الإمام ابن القيم — هو أن الإنسان لا يتم له الانتفاع بهذه الحياة إلا بثلاثة أشياء : أحدها سلامته من الشر ومن كل ما يفسدها حياته وعيشه ، والثانى حصول الخير له ، والثالث دوام هذا الخير وثباته ، ولذلك شرعت التحية الإسلامية متضمنة هذه الأمور الثلاثة ، فقول المسلم : « السلام عليكم » يتضمن معنى السلامة من الشر ، لأن السلام متى عم وشمل حقق لصاحبه السلامة والنجاة من السوء ، وقوله : « ورحمة الله » يتضمن معنى حصول الخير وتحققه ، وقوله : « وبركاته » يتضمن معنى دوام الخير واستمراره ، لأن لفظ البركة يدل على كثرة الخير واستمراره ، فكأن تحية السلام فى الإسلام يرجى بها أن يتوافر لأصحابها الحياة السعيدة التى تفيض بالخير والهناء .

ومن حرص الإسلام على إشاعة السلام أنه علم المسلم أن يرد السلام على من ألقاه عليه حتى ولو كان غير مسلم ، لا على معنى أن المسلم قد وافق غـــير المسلم فى اعتقاده الدينى ، بل على معنى الرجاء من الله تعالى أن يوفق كل ضال إلى سواء السبيل ، وأن يأخذ بناصية كل شارد إلى طريق السلام والرحمة والبركة ، ولذلك جاء فى القرآن الكريم قول الله عز من قائل : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » . وكذلك روى عن عبد الله بن عباس كما ينقل ابن جرير أنه قال : « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً ، فإن الله تعالى يقول : (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها) » . وروى عن الشعبى أن نصرانياً مر عليه وسلم فرد عليه الشعبى قائلا له : وعليك السلام ورحمة الله تعالى ، فقيل للشعبى :

إنه نصرانى ! فأجاب قائلا : أليس فى رحمـــة الله يعيش ؟ . وقد أبانت السنة المطهرة الحكمة فى تشريع تحية السلام وتعميمها بين الجميع ، فجاء فى حديث أبى أمامة قوله : « إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا ، وأماناً لأهل ذمتنا » ، فكأنك حينما تلقى السلام على غير المسلم الذى لايعاديك ولا يحاربك تريد أن تقول له إنك آمن فى ذمتى وجوارى ، لن أعتدى عليك ولن أظلمك ، ولن أروعك فى حياتك ، والسلام عليه ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الإمام النووى يذكر فى شرحه الصحيح الإمام مسلم جواز ابتداء المسلم لغير المسلمين بالسلام ، فيقول لهم إذا لقيهم : السلام عليكم . ونقل الإمام النووى هذا عن ابن عباس وأبى أمامة وابن محيريز رضى الله عنهم ، وليست هناك سماحة وراء هذه السماحة من الإسلام .

وقد وضع الإسلام لتحية السلام كثيراً من القواعد والآداب ، منها أن الراكب يسلم على الماشى ، والماشى يسلم على القاعد ، والقليل يسلم على الكثير ، والصغير على الكبير ، وروى أن الرسول كان يسلم على الصبيان ، ويجوز سلام الرجال على النساء مالم يكن هناك قصد سيئ من وراء ذلك ، واتسع نطاق هذه التحية فى الإسلام اتساعاً ملحوظاً ، حتى وجدنا القرآن المجيد يوجه أنظار المؤمنين إلى إلقائهم السلام على أنفسهم إذا دخلوا بيوتهم وليس فيها سواهم ، فقال : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » وقد قال المفسرون هنا : إذا دخل الإنسان بيته سلم على أهله ، وإذا لم يكن فى البيت غيره يقول لنفسه : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وكأن الإسلام يريد لأبنائه أن يصاحبهم السلام فى كل زمان ومكان .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه هي تحية السلام تحية السلام المضيعة بيننا أو بين الكثير منا على الأقل ، ونحن نسمع بدلها كثيراً من الكلمات ما بين عربيـــة وغربيـــة ، وفصيحة ، وعامية ، وقد يتسع صدر المجتمع الإسلامي لبعض هذه الكلمات أو الكثير منها ، ولكن بعد أن نتحلى بأدب الإسلام فنبدأ بتحية السلام ، فليتنا نتواصى جميعاً بإيثار هذه التحية الإســلامية التي تذكرنا بأجمل المعاني وأعذب الأماني ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فقدان الثقة[1]

الحمد لله ، يحيي موات القلوب برهبة المراقبة ، ويرقق غلظ الأكباد بدقة المحاسبة « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تبشر بالثواب وتنذر بالعقاب : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، وثق بك فكنت عند ظنه فيك ، وأنت خير الحافظين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ، وحزبه ورجاله ، والمهتدين بأقواله وأعماله « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ؛ ولا يكون بنو الإنسان إخواناً إلا إذا صفت ضمائرهم ، وتساوت بواطنهم وظواهرهم ، وشاع بين صفوفهم روح الوئام والإخلاص ؛ والأمة من الأمم لا يستقيم لها بنيان ، ولا يستقر لهنائها كيان ، إلا إذا كانت الثقة بين أفرادها شعاراً ، وتأكدت المحبة بينهم إعلاناً وإسراراً ؛ ولعل أكبر محنة أصيبت بها أمة محمد صلوات الله عليه فى عهودها الأخيرة المظلمة أنها فقدت الثقة بنفسها ، فقد أبناؤها الثقة بها ، وفقد كل منهم الثقة بالآخر ، وكأن روابط الإنسانية والوطنية واللغة والدين لم يبق لها مقام أو احترام عند هؤلاء ، فجعل سوس التزلزل والاضطراب ينخر فى عظامها ، حتى أحالها هيكلا محطماً ، ونهباً مقسماً ، وشبحاً تتهدده نذر التقوض والفناء . . .

نعم ، لم يبق بين أبناء الأمة الواحدة ثقة ، مع أن الثقة هى العماد والسناد

---

(١) ٢ رجب سنة ١٣٧١ هـ — ٢١ مارس سنة ١٩٥٢ م

فالصغار قد فقدوا ثقتهم فى الكبار ، واعتقدوا أنهم ظلمة جبارون ، أو على الأقل تجار مستغلون ، لا يهمهم إلا مصالح أنفسهم وشهوات بطونهم ونزوات فروجهم ، وفى سبيل ذلك يستغلون الظروف ويستحلون المحارم ، ويهضمون الحقوق ويستأثرون بالمغانم ؛ والكبار لا يثقون بالصغار ، بل يعتقدون أنهم نمال لا تستحق حياة الرجال ، أو حشرات يجب أن تداس بالنعال ، وأن هؤلاء الصغار — عند الكبار — ككلاب السوء إذا أجعتها اتبعتك وأطاعتك ، وإذا أطعمتها جحدت فضلك وأكلتك .. والمحكوم المأزوم قد فقد الثقة بحاكميه ، فهو يراهم طواغيت منكر وشياطين استبداد ، همهم أن يتحكموا فيه لا أن يحكموه ، وشغلهم الشاغل أن يسخروه لا أن يسعدوه ، ومهمتهم الكبرى أن يخدعوه لا أن ينفعوه ، وهو لذلك يرهبهم تارة ، ويخافهم تارة ، ويستثقل ظلمهم ويتمنى الخلاص منهم تارات ؛ والحاكمون الغانمون يعتقدون فى المحكوم أنه لئيم خبيث ، الإكرام يثير طغيانه ، والقهر يكبح جماحه ؛ وما أشبهه فى نظرهم بعفريت قد حبسوه فى قمقم محكم ، فإن تحطمت عنه القيود والأغلال ، انطلق العملاق الجبار ، فغضب وثار ، خلال الديار ...

وجمهور الشعب الذى يدعى إلى صراط ربه ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، لا يثق برجال الدين ، ولا يستجيب لدعاة الخير ، لأنه يحسبهم تجار دنيا قد أحكموا استغلال الدين ، أو مطايا بغى سخرتها أيد لا تراقب الله ، لتغرر وتخدر ، فتضيع بين رونق التغرير وسحر التحذير حقوق مقسومة وواجبات معلومة ؛ ورجال الدين لا يثقون بالشعب ، ولا يطمئنون إليه ، لأنهم يرونه يسمع ولا يستجيب ، ويستحسن القول ولا يعرف العمل ، ويعطى العهد والميثاق عند جيشان العاطفة من تأثير الصوت الصادق أو الغطة المؤثرة ، ثم يخون عهده ويخلف وعده ، وله فى ساحة الرياء والنفاق ميدان أوسع من

ميدان السباق ؛ وإذا ما ضيم الداعية أو سيم الخسف والهوان من أجل دعوته أو فى سبيل أمته ، خرست عن مناصرته الأصوات التى كانت تنعق وتنطق ، واختفت الحناجر التى كانت تهتف والأيدى التى كانت تصفق ، وخلا الفضاء من الطنين والعواء ! ...

وتستطيع أن تواصل ضرب الأمثال على ذلك المنوال . فترى أن الزوج قد فقد ثقته فى زوجته ، حتى إنه يظل ليله ونهاره يضرب أخماساً فى أسداس ، ويرسم له شيطان الظن ما يتقطع منه فؤاده حسرات ؛ والزوجة قد فقدت ثقتها بزوجها ، ولذلك هى تتعقبه وترقبه ، وتتجسس عليه وترتاب فيه ، وتحاول أن تقوض دعائم حيلته وقوته حتى لا يعرف سواها ؛ والمشترى لايثق فى البائع ولا فى الصـــانع ، والقراء لا يثقون فيما يطالعون ، فالمؤلفون عندهم كذبة غشاشون ، والصحفيون فى يقينهم متابعون متملقون ؛ وهكذا أصبحت الثقة معدومه فى كل مكان ، فضاع بانعدامها الوصف الأساسى لأمة محمد صلوات الله عليه ، وهو أن تكون متكاتفة متساندة ، كلها على قلب رجل واحد، مصداقاً لقول زعيمها الأول: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » بل استجابة لقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » ...

يا أتباع محمد عليه السلام ...

ذلكم هو الداء العياء، فما هو ناجع الدواء؟ الدواء هو أن يستيقظ الخوف من الله فى هذه الصدور الخربة والقلوب الجاحدة، فإن المرء إذا خاف ربه، وتذكر

مراقبته ، وخشى محاسبته ، انبثق نور الاستقامة فى نفسه ، فراجعها قبل أن يراجعها سواه ، وهنا يثق المرء بغيره ، ثم يضمن الخائف ثواب خالقه ، فهو القائل: « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى » ... ثم أخوة الإسلام أيها الناس ... إخوة الإسلام التى قضت عليها أخوة الكاس والطاس ، وأخوة البار والملهى ، وأخوة المرقص والماخور ، وأخوة الخمر كوالميسر ... أخوة الإسلام أيها الناس هى الأساس ومحور الارتكاز ، وصدق العلى الكبير : « إنما المؤمنون إخوة » . وصدق رسوله الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ... أفما آن الأوان ليقظة الضمائر فى الصدور قبل أن نصبح من أهل القبور ؟ وهلا تآخينا فى سبيل الرحمن بدل التآخى فى سبيل الشيطان ؟ « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » ؟ . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

الضمير فى الاسلام[1]

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، المؤاخذ لكل جارحة بما اجترحت : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » أشهد أن لا إله إلا الله ، يحاسب ويعاقب : « إن الله كان عليكم رقيبا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خاف ذنبه ، وأطاع ربه ، فكان قائد الغر المحجلين يوم الدين ، فعليه من ربه صلاته وسلامه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وجماعته : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نحن فى رمضان ، ورمضان شهر إحياء للروح وإيقاظ للضمير . كتب كاتب مأفون يقول إن الإسلام دين لا يعرف تربية الضمير ، واستشهد المأفون على ذلك بأن القرآن لم تذكر فيه كلمة « الضمير » ؛ وهذا القول لون من ألوان الحماقة فى التفكير ، وضرب من ضروب السخافة فى الحكم ، لأن المعنى من المعانى قد يؤديه صاحبه بأكثر من لفظ أو تعبير ، ولغة العرب — وهى لغة القرآن — لغة غنية ثرية ، قد نجد فيها للشيء الواحد عدة أسماء ، بل قد نجد له عشرات من الأسماء ، والإسـلام دين يقوم على تربية الضمير فى نفس المسلم ، وإن لم ترد لفظة الضمير بذاتها فى القرآن ، وإن الضمير كلمة تدل على الغيبة والستر ، فيقال أضمر المرء فى نفسه شيئاً إذا أخفاه وطواه ، ويراد بالضمير أن يستشعر الإنسان فى أعماقه قوة معنوية تصده عن العمل القبيح ، وتحرضه على التصرف الحميد ، وهذه القوة هى التى يعبر عنها فى الإسلام بالخوف من الله ، أو خشية الرب بالغيب ، أو محاسبة النفس ،

---

(١) ٤ ذى الحجة سنة ١٣٧٩ هـ ٢٦ أبريل سنة ١٩٦٠ م .

أو مراقبة الخالق ، وهذه أمور استفاض الحديث عنها فى الإسلام بصورة أخاذة رائعة فى القرآن وغير القرآن، وقال العلماء: إن كلمة « المسلم » نفسها تؤدى معنى كلمة « الضمير » لأن قول الإنسان : أنا مسلم ، معناه : أسلمت نفسى لله ، أى سلم له ضميرى ، وباطنى وظاهرى ، أى صرت عبداً خالصاً له : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » . والقرآن يقول : « إن كل نفس لما عليها حافظ » وقد فسروا الحافظ هنا بالرقيب ، وقال بعضهم إن المراد بالرقيب هنا هو الضمير . . .

ولو تبصرنا لعرفنا أن أساس الضمير ودعامته هو الإيمان بإله مسيطر قادر حفيظ على كل شىء : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، مطلع على ما تكنه الضمائر والسرائر : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »، محاسب على الكبائر والصغائر : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ولقد قال أحد الحكماء : « إن ضميراً بلا اعتقاد فى الله يكون كمحكمة ليس بها قضاة » !! . . . وإنما يوجد الضمير الحق عند الإيمان بالله مالك الملك ، لأن الله جل جلاله مطلع على كل شىء : « وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » ، « إنه يعلم الجهر وما يخفى » ، « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » ، « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ؛ وإذا أيقن الإنسان باطلاع الله على حركاته وسكناته ، وعلمه بخفى أمره وجليه ، أدرك أن الله معه حيثما كان : « وهو معكم أينما كنتم » فاستحيا من الله المرافق له الرقيب عليه القريب منه ، فخشيه بالغيب ، وخافه على كل حال ، ففاز بالخير فى أولاه وأخراه : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن

بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم » ، « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . . .

ومتى تحققت هذه الخشية تحقق الضمير الإسلامى المصاحب الدائم ، الذى لا يخون ولا يمن ، والذى يبلغ بصاحبه درجة الإحسان ، وهى أعلى مراتب العبادة فى الإسلام ، وقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا الإحسان ، بما نفهم منه أنه سيطرة الضمير الدينى على صاحبه حتى لا يدعه يهفو أو يغفو ، فيقول : « الإحســان أن تعبــد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ولقد سأل رجل النبى . كيف يزكى المرء نفسه ويصفيها ، فأجابه : « أن يعلم أن الله معه حيثما كان » . وفى رواية أخرى : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » . . .

وهذه المراقبة لله من الداخل وفى الأعماق هى التى تحسن قيادة الأعضاء والأطراف ، فلا يكون من الإنسان ما يسوء أو يعاب فى تصرفاته أو حركاته . ولذلك قال ابن مسروق الطوسى : « من راقب الله تعالى فى خطرات قلبه ، عصمه الله فى حركات جوارحه » . وحينما كانت هذه المراقبة متحققة فى أبناء الإسلام كان الحياء من الله يسيطر عليهم فيعصمهم من الخلل والزلل ، حتى فى حالة الانفراد وعدم اطلاع الناس ، وكان منهم من يبالغ فى ذلك فكان خيار المتعبدين مثلا يخجلون من كشف عوراتهم وهم منفردون ، لأنهم يتذكرون أن الله تعالى معهم ، لا يغيب عنهم ، ولا ينقطع عن الاطلاع عليهم ، فكل منهم يقول لنفسه :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ، ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفـــل ساعة ... ولأن ما تخفيــه عنه يغيب !

ويروى أن شاباً غراً راود فتاة مؤمنة عفيفة عن نفسها ، وقد أقبل الليل وانتشر الظلام ، فتأبت عليه قائلة : أما تستحى ؟ فقال لها : وممن أستحى وليس أمامنا إلا الكواكب ؟ فأجابته الفتاة زاجرة مؤدبة : فأين مكوكبها ؟!. أى فأين الله مبدعها جل جلاله . . . وقصة عمر مع بائعة اللبن مشهورة ، وسلطان الضمير الدينى فيها واضح لائح ، فقد سمع عمر وهو يتفقد أحوال الرعية بالليل امرأة تقول لابنتها داخل البيت : يا ابنتى ، قومى اخلطى اللبن بالماء ؛ فأخبرتها البنت أن منادى الخليفة عمر قد نادى بألا يخلط اللبن بالماء ، فقالت لها الأم : إنك فى مكان لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر . فأجابتها ابنتها : لا والله يا أماه ، ما كنت لأطيعه فى الملا وأعصيه فى الخلا ، إن كان عمر لا يرى فرب عمر يرى ! ! .

وقد يقال إن الثقافة العلمية المدنية وحدها تربى الضمير ، وهذا كلام يصادم الواقع فى كثير من الأحيان ، فهناك مثقفون وحاملون لشهادات عالية ودرجات رفيعة ، وهم مع ذلك لا ضمير عندهم ولا خلاق لهم ، فهم يعتدون على الأعراض باسم الحرية والتحرر ، وهم يختلسون ويغشون باسم المهارة أو الحاجة ، وهم يستغلون علمهم فى وسائل للدمار والهلاك باسم الغلبة والانتصار ؛ وقد نجد أشخاصاً غير مثقفين ، ولكنهم نشأوا فى بيئة دينية سليمة ، فنرى الواحد منهم يخاف العمل الأثيم والتصرف الذميم مخافته العقرب الخبيثة أو السم الناقع ، وكم من عوام نراهم أسلم صدوراً وأطهر تصرفاً وأحسن أخلاقاً من بعض الآثمين من المثقفين أو المتعلمين ، لأن العبرة هنا بسلامة الصدور وطهارة القلوب وحياة الإيمان : « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الذين يجهلون الإسلام لا يحسنون الحديث عنه ، وإن أعداء الإسلام يحاولون جاهدين أن يطمسوا محاسنه ويتجاهلوا فضائله ، ولا بد أمام هذا من اعتزاز أبناء الإسلام به ، يدرسونه حق الدرس ، ويعملون به أفضل العمل ، ويعرضونه خير العرض ، وبذلك يرضون ربهم ، ويسعدون أنفسهم ، ويحسنون إلى الناس ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

طريق الاعتصام بالله(١)

الحمد لله عز وجـل ، « ما يفتح الله للنـاس من رحمة فلا ممسك لهـا ، وما يمسـك فلا مرسل له من بعـده ، وهو العزيز الحكيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى موصول العمل ووثق الأمل : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسـول الله ، بنى وشيد ، ووطد وأيد ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسـلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أوجد الله عباده ، وكان بهم عليماً ، وفى توجيههم حكيماً ، وبفضله عليهم كريماً رحيماً ، ولو أنه تركهم وشأنهم لتفرقت بهم السبل ، وأعيتهم الحيل ، أو اغتروا بما بين أيديهم من طاقات ، وما فى نفوسهم من هبات وملكات ، فعتوا عن أمر ربهم ، وعلوا فى أرضه علواً كبيراً ، ولذلك شرع لهم من دينه ما به يهتدون ويسعدون فى الدنيا والآخرة ، ودعاهم أن يتركوا كل الطرق إلى طريقه ، وأن يسألوه فى كل حين إرشاده وتوفيقه ، فقال لهم فيما قال جل من قائل : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وأبان لهم أن هذا الاعتصام الزكى الأمين بحبل الله القوى المتين هو طريق النجاة ، فقال : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » وأكد ذلك فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . وهذا الاعتصام بحبل الله يستوجب منذ البداية إدراكا سليماً وعرفاناً

---

(١) التليفزيون ١٩ صفر سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٧ مايو سنة ١٩٦٨ م .

قويماً وإيماناً عميقا ، ثم يقتضى التزاما تطبيقيا لمبادئ الخير وفضائل البر ومكارم الأخلاق ، ثم يستتبع انطلاقا عازما مصمماً فى ميدان العمل ، بلا كلل أو ملل ، وثقة بالله لا تحد ولا ترد ، وإصرار على بلوغ الهدف مهما طال الطريق أو امتد ، وتطلعاً إلى بوارق الأمل من خلال الظلمات ، وكشفاً عن إشراقة الفتح والفوز وسط الشدائد والملمات ، وعلى هذا طبع الإسلام قومه ، فهم يعملون بإيمان ، ويمشون على بصيرة ، ويناضلون بثقة ، ويواصلون خطواتهم على طريق التوحيد والوحدة ، بلا انحراف أو إشراك : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

واللافت للنظر المثير للفكر أن الله تبارك وتعالى الذى دعا إلى الاعتصام بحبله ، والاستمساك بهديه ، قد علم الأخيار من عباده أن يستشعروا عزائم الجد وحوافز الأمل ومشاعر الرجاء ، حين تكون ظواهر الأمور أو وقائع الحياة محرضة على قليل أو كثير من الضيق أو اليأس ، ولعلنا نذكر أنه حينما قضت ظروف النضال والجهاد على سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام بأن يخرج مهاجراً ، ثبت الله قلب رسوله ، وزاده درجات لا تسامى فى يقينه ، فذكره بأمل العودة وهو فى طريق الهجرة ، وعلق همته بما لا يجوز أن يكون غيره للمجاهد الصادق الكامل ، وهو السعى قدماً ودائماً إلى النصر والفوز ، فأنزل عليه وهو ما زال فى خطوات هجرته قوله سبحانه : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد . قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين » . ولعلنا نذكر أيضاً أن سورة « الفتح » قد نزلت فى الموقف الشديد العصيب الذى قد يدعو ظاهره بعض النفوس إلى الرضا بالواقع أو التخاذل فى النضال . فجاءت السورة تستنفر الهمم وتثبت العزائم ، وتفتح الطريق الممتد أمام المعتصمين

بحبل الله وقوته . وتعدهم الوعد الأكيد من أصدق القائلين بأن النصر لهم ، وأن الفتح أمامهم ، فيأتى مطلع السورة على هذه الصورة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً »، وتعود السورة إلى الحديث عن الفتح ، فتكرره وتؤكده وتوطده ، فيقول مرة ثانية « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » ، وتعود السورة أيضاً إلى ذكر الفتح فيقول مرة ثالثة : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » . ثم ختم الله السورة ببيان الطريق إلى هذا الفتح ، وقيمة الثمن المطلوب لهذا الفوز ، من إيمان وقوة ، ووحدة وأخوة ، وعبادة وعمل ، وسعى وإنتاج ، وتنمية وتزكية ، فجاء ختامها على هذه الصورة : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذى آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » . وإذا كان القرآن هنا قد قدم البشرى أولا ثم ختم بالمطالبة بالثمن ، فإنه فى مقام آخر قد طالب بالثمن ، ثم ختم بالبشرى فقال : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

والقرآن بعد هذا يعاود النفوس المؤمنة المعتصمة بحبل الله القوى المتين ، فيحدثها من حين إلى حين حديث الفتح ، لتظل موصولة الأسباب بالأمل ، دائمة الجهود فى ميادين العمل ، عازمة على بلوغ الهدف مهما طال الأجل ، فيقول لها مثلا : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » ويذكرها بأن أنبياء الله علموا الناس بتوجيه ربهم أن يسألوه الفتح والنصر ، فهذا نوح يدعو ربه حينما عاداه المجرمون فيقول : « فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين » ، وهذا شعيب يقول حينما عاداه الكافرون : « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . ولقد وعى أهل القرآن هذه الدروس ، وانتفعوا بها فى إيمانهم وأعمالهم ونضالهم ، فلم يقنطوا ولم ييأسوا ، بل صبروا وصابروا ، حتى تحقق لهم الفتح الكريم والفوز العظيم ، فتلقوه بالشكر لربهم ، والتواضع لعظمته ، والثبات على طريقته وجاء قول الله جلا جلاله : « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن من أسماء ربكم سبحانه أنه الفتاح الذى يفتح أبواب التوفيق والفوز ، ومن أقوال رسولكم قوله : « أوتيت مفاتيح خزائن الأرض » وهذا كناية عما ييسره الله له ولأمته من منابع الخير ومصادر الفضل ، والقرآن يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » فلنكن من أهل الإيمان والتقوى ، لنكون من أهل الفتح والفوز ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

داء الافتراء[1]

الحمد لله عز وجـــل ، يؤيد الحق بقدرته ، ويمحق الباطل بنقمته ، وهو العــلى الكبير . أحمده ســبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، ناصر الصــادقين وداحر المفــترين : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » ، وأشهد أن ســيدنا محمداً رســول الله التزم الصــدق واعتز بالحق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وأصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول ربكم عز شأنه فى كتابه : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، ولا شك أن الماضى عبرة للحاضر ، وأن الأسلاف وضعوا المعالم على الطريق أمام الأخلاف ، ومن واجب الإنسان العاقل أن يأخذ الحكمة من أى وعاء خرجت ، وأن ينتفع بالدروس التى مرت على آبائه وأجداده ، وهذه عبرة وعاها التاريخ ، وإن جهلها أكثر الناس : توجد فى بلاد العجم قرية تسمى « سينان » ، وهى من قرى مدينة « مرو » وينسب إليها جماعة من أهل الدين والعلم والفضل ، ومنهم الشيخ العالم المحدث أبو عبد الله الفضل ابن موسى السينانى المولود سنة خمس عشرة سنة ومائة للهجرة ، وكان أحد أئمة الحديث : واسع الرؤية ، روى الحديث والآثار عن كثيرين ، وروى عنه كثيرون ، وكان من أقران العابد الزاهد المجاهد عبد الله بن المبارك ،

---

(١) ١٣ ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ — ٧ ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

بل قال عنه أبو نعيم الكوفى : هو أثبت من عبد الله بن المبارك ، وقال عنه وكيع : « أعرفه ثقة صاحب سنة » . وعاش السينانى نحو خمسة وسبعين عاماً وتوفى عام إحدى وتسعين ومائة[1] .

وعلى الرغم من أنه كان شيخ بلده ومحدثها تعرض لابتلاء شديد وجمود عنيد ، فقد ضاق بمكانته أهل الحقد والحسد ، بل أهل الخسة والدناءة فدسوا عليه امرأة استباحت لنفسها الكذب والافتراء . فاتهمته بأنه راودها عن نفسها ، فأصابه من الهم والغم ما الله به عليم ، حتى اضطر أن ينتقل إلى بلدة « راماشاه » من بلاد العجم ، وتصادف أن قدر الله جل جلاله ، بإرادته ومشيئته أن يبست جميع الزروع فى قرية « سينان » ذلك العام ، فسيطر على أذهان الناس فيها أن ذلك البلاء كرامة للشيخ السينانى ، فندموا على افترائهم وإساءتهم إلى الشيخ الجليل ، فجمعوا أنفسهم ، ورحلوا إليه ، يظهرون أسفهم ، ويبدون اعتذارهم ، ويلحون عليه فى الرجاء أن يعود إلى بلدهم ، وانتهز الشيخ الفرصة ، ليعطى هؤلاء المفترين درساً لا ينسونه ، فتظاهر بأنه قبل مبدأ العودة ، ولكنه لا يستطيع أن يعود وسيف هذه التهمة الشنيعة مسلط على رقبته ، وقال لهم : لا أرجع حتى تقروا وتعترفوا بأنكم قد كذبتم على فيما نسبتم إلى ، فجمعوا أنفسهم ، وعلى أعين الناس وأبصارهم اعترفوا بجريمتهم ، وهنا أعلن الشيخ قراره الحاسم الصارم ؛ فقال لهم على ملأ من الناس : لا حاجـــة بى إلى مجاورة الكاذبين ! وهكذا عرف كيف ينتصف لنفسه .

---

(١) انظر معجم البلدان ٣ / ٣٠٠ والعبر ١ / ٣٠٧ .

ماذا نفهم من هذا الحادث ؟ . نفهم منه أولا أن أخس ما تصاب به الإنسانية ، هو داء الافتراء والكذب ، وخصوصاً فى البيئات المنحطة التى تصدق كل ناعق ، وتستجيب لكل ناطق ، وتجد فى نفوسها الدنيئة لذة ومتعة عندما تسمع ألوان القرض للأعراض والتطاول على كرامات الناس بغير الحق والواقع . مع أن الحق جلا جلاله يقول فيما يقول : « تالله لتسألن عما كنتم تفترون » . ويقول : « وقد خاب من افترى » ، ويقول : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » . ولقد حمل القرآن الحكيم حملة صارمة قاصمة على الكذب والكذبة ، فقال : « إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » وقال : « إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » . وقال : « ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . ومن وراء القرآن أقبل سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يواصل الحملة على الكذب والكذابين فقال: « إن الكذب يهدى إلى الفجور ،وإن الفجور يهدى إلى النار » . وقال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » . وجعل الكذب أول صفة من صفات المنافقين فقال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » . بل لقد ذكر الرسول فى حوار له مع بعض صحابته أن المؤمن قد تعرض له هفوات أو زلات ، ولكن المؤمن لا يكون كذاباً .

ونفهم أيضاً من هذا الحادث التاريخى الأخلاقى أن كرام الناس معرضون فى كل زمان ومكان لمقاريض الافتراء والتطاول من لئام الناس وصغارهم ، ومن الشواهد القريبة على ذلك أن تاريخنا الحديث تتألق فيه أسماء عشرات من المجاهدين والمصلحين ، من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمدعبده

وشكيب أرسلان ورشيد رضا وسعد زغلول ، وكل هؤلاء تطاول عليهم أناس بالسباب والشتائم والاتهامات الطويلة العريضة بلا اقتصاد ولا حساب ، ولو تعمقنا فى الماضى البعيد لوجدنا أهل التفسير يذكرون أن قارون الطاغية أعطى امرأة بغيا مالا وحرضها على أن تتهم نبي الله موسى عليه السلام بأنه ارتكب الفاحشة ، وجاءت المرأة وذكرت ذلك والملأ ملتف حول موسى وهو يتلو عليهم ما أوحى إليه ، وارتعد موسى لهول ماسمع ، وأقبل عليها يقول لها بروحه قبل لسانه ، وقلبه قبل شفتيه : أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا ، إلا أخبرتنى بالذى حملك على قول ماقلت . واهتز كيان المرأة من نبرات موسى الكليم ، واستيقظ ضميرها ، وراجعت نفسها ، وتذكرت قدرة الله عليها ، فاعترفت أن الذى أغواها هو قارون ثم قالت : وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ... وكانت العاقبة بعد ذلك أن انتقم الله من قارون (فخسفنا به وبداره الأرض) .

ولم نذهب بعيداً وكتاب ربنا شاهد لنا ينطق بالحق وتقرير الواقع الحزين الأليم ، وهو أن المشركين تطاولوا على سيدنا رسول الله بأقذر التهم وأحط الافتراءات ، فقالوا عنه : شاعر نتربص به ريب المنون . وقالوا : ساحر كذاب ، وقالوا: كاهن مجنون . وقالوا : عن وحى الله إليه إنه أساطير الأولين ... إلخ . مع أنه هو الذى قال له رب العالمين : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، وقال له : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وكانت النتيجة أن أحق الله الحق بكلماته ، ودفع الباطل بآياته ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون .

ونفهم من هذا الموقف التاريخى كذلك أن الإنسان يجب عليه أن يصون كرامته ، وأن ينتصف لنفسه ، ممن افتروا عليه وشوهوا سمعته ، فهذا هو الإمام المحدث ، شيخ بلده وإمام قومه الفضل بن موسى السينانى يحرص أولا على تبرئة نفسه ، ثم يدفع المفترين الكذابين بقراره الحكيم ، وهو قوله : لاحاجة بى إلى محاورة الكذابين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليتنا نتعلم ، وليتنا إذ نتعلم نتقوم ، وليتنا نتقوم فنسلم ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

عقوبة الضرب[1]

الحمد لله عز وجل ، هو رب العالمين ، ومؤدب العالمين ، « و علمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » . أشهد أن لا إله إلا الله « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، شيخ الأنبياء وعميد الحكماء، فصلوات الله وسلامه عليه،وعلى آله وأصحابه ورجاله، والمقتدين بأعماله وخلاله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . كتب أحد الباحثين يقول :

نشرت إحدى الصحف أمس فى أولى صفحاتها أن النيابة : قد حفظت التحقيق فى قضية اتهم فيها مدرس بضرب تلميذه ، وقالت النيابة « إن التلاميذ فى هذه الأيام مدللون أكثر من اللازم ، وإن انحطاط المستوى الفكرى والخلقى عندهم يبيح ضربهم ، وإن الشريعة تؤيد ذلك »[2] . وسواء أكان هذا الخبر صحيحاً أم كان غير صحيح ، فإن الموضوع يحتاج إلى بحث ونظر ، خشية أن يساء الفهم لتعاليم الشريعة الإسلامية وأهدافها ، فروح الشريعة لا ترضى أن يكون الضرب أسلوباً معتاداً من أساليب التعليم أو التقويم ، بل ترى أن الضرب كالدواء الذى يستعمل عند الضرورة والحاجة، ويستعمل فى مواطنه فقط ، بشروطه المقيدة له ؛ وقد ذكر الفقهاء أن الوالد يأمر ولده بالصلاة وهو فى سن السابعة ، فإن عصى وبلغ العاشرة ضربه على تركها ليؤديها فتفيده حساً ونفساً ، وديناً ودنيا ؛ وضرب الوالد لولده لا يراد به الإيذاء أو التحقير ، بل يراد به التوجيه والتأديب ؛ وكذلك أجاز الفقهاء

---

(١) ١٥ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ ــ ١٢ فبراير سنة ١٩٦٠ م

(٢) جريدة الجمهورية ــ الخميس ١١ فبراير ١٩٦٠ م .

لمؤدب الصبي أن يضربه إذا أهمل تعلم القرآن ، بشرط أن يكون الضرب خفيفاً ، لا يسبب جرحاً ولا كسراً ولا ألماً باقياً ؛ وضرب المعلم هنا يراد به التعليم ولا يراد به الانتقام ، وهذا شأن من يحرص على مصلحة المضروب وفائدته .

فقسا ليزدجروا ومن يلك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم !

ولكن الإسلام مع هذا — أو قبل هذا — يفضل الحكمة والرفق فى التربية ، والتوجيه بالنصيحة ، واليقظة ، وحسبنا قول القرآن : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله : « وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً » وقوله : «فقل لهم قولا ميسوراً » بل نرى القرآن يخبرنا أن الله تبارك وتعالى قد قال لموسى وهارون : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

ولقد كان المعلم فى الزمن القديم المزهر صاحب مكانة عالية ومنزلة سامية ، وكان لا يجد نفسه محتاجاً إلى استعمال ضرب أو خشونة إلا نادراً ، لأن العلاقة بينه وبين التلميذ كانت كأحسن ما تكون العلاقات ، فالمعلم عالم عامل مخلص محب لتلميذه غيور على فائدته ، والتلميذ يجل أستاذه ويفى له ويعتبر إشارته أمراً ورمزه توضيحاً ، كما أنه يوقره غاية التوقير ، ولعلنا سمعنا أن الخليفة المأمون أحضر الشيخ النحوى « الفراء » ليعلم ولدى المأمون علوم العربية ، وذات يوم أراد الفراء أن ينهض من درسه فتسابق الولدان الأميران إلى حذائه ليقدماه إليه . وتنازعا على ذلك لحظة ، ثم اتفقا على أن يحمل كل منهما من الحذاء واحدة ... وأما العلاقة بين المعلم والتلميذ الآن فقد تقطعت أواصرها ووهت أسبابها ، لأن التلميذ أسرف فى التحرر والانطلاق ، وأخذ المعلم بتوالى الأيام وتتابع الإهمال ينسى تلك الرابطة الوثيقة التى كانت تربطه بتلاميذه ، وأصبح المدرس يرى نفسه مندفعاً فى بعض الأحيان إلى معاقبة

بعض التلاميذ بعقوبة بدنية ، لأن هذا الصنف من التلاميذ قد أبى إلا أن يكون كالدابة التى يسخرها الضرب ، ويصدها عن غيها إيجاع البدن والحس .

ويحسن أن نلاحظ هنا أن الإسلام قد شرع عقوبة الجلد فى بعض الحدود ـ والجلد نوع من الضرب وإن كان فيه لون من العنف ـ وهذا الجلد يكون عند إهدار الإنسان لكرامته ، واقترابه من حيوانيته ، فكأنه قد صار حيواناً يحتاج إلى التأديب الحسى حين لا يفيده التأديب النفسى ، وقد قال السابق :

والعبـد يقرع بالعصا   والحر تكفيه المقاله !

فشارب الخمر مثلا يضرب أربعين جلدة أو ثمانين ، لأنه قد جعل نفسه كالحيوان ، حين أفقدها عقلها ورشدها بما شرب من سكر يذهب بالعقل والرشاد، والزانى غير المحصن بالزواج يجلد مائة جلدة بقوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » ، وذلك لأن الاعتداء على الأعراض بلا خوف أو خشية هو من شأن الحيوانات أو من خصال الكلاب ، فكأن هاتك العرض يضرب ليتذكر أنه قد انحط بجريمته إلى مستوى الدواب ، والذى يقذف امرأة عفيفة مسلمة ، فيتهمها بالزنى يجلد ثمانين جلدة : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » وذلك لأن القاذف لم يحترم كرامة الإنسانية المشتركة بينه وبين بنى جنسه ووطنه ، فصار أحط منهم شأناً ونفساً ، فيأتيه الجلد ليقوم شأنه ، ويرده إلى صوابه ...

والإسلام قد أباح للزوج المستقيم العادل أن يضرب زوجته العاصية المتمردة ، وقد يبدو هذا غريباً عند بعض الناس ، ولكن الإسلام جعل هذا الضرب ضرورة نادرة يلجأ إليها الزوج حينما تصير المرأة شاذة التصرف فتقترب من درجة الحيوان ، فالزوج يبدأ أولا بحسن المعاملة لزوجته حتى

لا يوجد فرصة للنشوز أو العصيان ، ثم هو يحتمل الخفيف من أخطاء زوجته ويصبر عليها ، ثم ينصحها ويعظها إذا أسرفت واعتسفت ، ويخلص فى هذا النصح حتى يثمر ثمرته ، ثم يهجرها فى المضجع إذا استمرت فى سوء تصرفها ليشعرها بأنها لا تتحكم فيه من ناحية الفراش ؛ ثم يباح له بعد هذه المحاولات كلها إذا لم تثمر وأصرت الزوجة على إسرافها واعتسافها أن يضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح ، لأن المرأة حينئذ تصير كالحيوان ، إذا لم يؤثر فيها حسن المعاملة ، ولا احتمال الهفوة ، ولا إخلاص النصيحة ، ولا هجر الفراش ؛ فلم يبق إلا أن تتلقى ضربة خفيفة تذكرها بأنها كان يجب عليها أن تكون أكرم من أن تبلغ مرتبة التأديب بالعصا كالعبيد أو كالحيوان « الرجال قوامون على النساء ... » الآية ؛ فالضرب هنا لا يوجع ولا يجرح ولا يكسر ، حتى قال ابن عباس إنه يكون بالسواك ونحوه ، ولكنه للتأنيب والزجر فقط ، والكريمة الأصيلة من النساء لا توجد أمام زوجها فرصة لهذا التأديب أبداً ، لأنها حين تخطئ تكفيها الكلمة أوالعظة ، ولذلك قال الإمام القرطبى : « أدب الرفيعة العذل [اللوم] وأدب الدنيئة السوط » ! ! . . . ولنتمعن فى كلمة « الدنيئة » هذه .

ومن هذه الأمثلة نفهم أن روح الإسلام توحى بأن الضرب لا يستعمل إلا حين ينحط المضروب عن المستوى الكريم اللائق ببنى الإنسان ، وأن هذا الضرب لا يراد به التشفى أو الانتقام ، بل يراد به التهذيب والإصلاح ، وأن خير طرائق التعليم ما حاول بها أهلوها أن يبعدوها عن مجال الضرب والعقاب ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

لا شك أن أخلاق الكثير من التلاميذ قد ساءت الآن بسبب التدليل ، وسوء القدوة فى البيت ، وعدم الصلة بين المدرسة والمنزل ، وكثرة عوامل الانحراف كالفجور والتبرج والسينما وغيرها ، ومن الواجب على المربين والمسئولين أن يعالجوا هذا الفساد ، حتى يستطيع المعلم أن ينهض برسالة التعليم الشريفة السامية دون أن يحتاج إلى ضرب أو إيذاء ، ومن واجبنا أن نتقى الله فى هؤلاء الشباب الذين يتهكمون ويتقصعون وهم فى ربيع الحياة ، فلنحسن تربيتهم ، ولنحسن الإشراف عليهم ، لينشأ منهم الجيل الصالح الذى نريد وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

بين الجد واللهو[1]

الحمد لله ، يحق الحق بكلماته ، ويبطل كيد المفسدين ، « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » . نشهد أن لا إله إلا أنت تقبل الطيب من العمل ، وتثيب عليه أفضـــل الجزاء ، وتمحق الخبيث من المسعى ، وتجعل كثيره كالهباء ؛ ونشهد أنا سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أخلص إليك قصده ، وأوقف على رضاك جهده ، بلا رياء أو خيلاء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وذريته ، والفائزين بشرف صحبته ، والمستمسكين بشرعته ، « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

من شيمة الجد أن يتباعد عن التظاهر والطنين ، لأن صاحبه وراءه ما يشغله ، فليس عنده متسع من الوقت أو الجهد لينفقه فيما لا يجدى ، وأما اللهو فهو كالطبل الأجوف ، تسمع له ضجيجاً وعجيجاً ، وليس وراء ذلك نتيجة أو ثمرة ؛ وكم من أعمال عظيمة تتم فى الوجود دون جلبة أو ضوضاء ، لا يحس بها العامة ولا يشهدون مواكبها ، ولكنهم يشعرون بخيرها وعوائدها ، وكم من مظاهر عريضة طويلة مفتعلة ، تصدع الأسماع والأبصار والرءوس ثم ينجلى أمرها فإذا هى هشيم من الباطل يذهب أدراج الرياح : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

هذان مثلا خيران ، أما الأول منهما فخير صامت ، ولذلك لم يلق الناس

---

(١) ٢٧ ربيع الآخر سنة ١٣٧١ هـ ـ ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ م .

إليه بالا ، وكذلك الخير يكون دائماً غريباً فى دنيا الباطل ؛ وأما الثانى منهما فيظهر فيه قليل من الخير ، ولذلك أحدث ضجة واحتل مكانة فى السطور والصدور ، مع أنه لم يبلغ ما بلغه الخير الأول من التواضع والإخلاص . فقد نشرت بعض الصحف فى زاوية منها أن سيدة فاضلة تبرعت بمائة جنيه لكتيبة خالد بن الوليد من كتائب التحرير المجاهدة ، التى تعانى ما تعانى من قلة السلاح والمتاع ، وأخفت السيدة اسمها لأنها تريد بتبرعها وجه الله والوطن فحسب ، وقد تسلم قائد الكتيبة المبلغ ليتصرف فيه ... هذا الخبر الأول ، وأما الخبر الثانى فقد فتحت له الصحف صدرها ، وطنطنت حوله كثيراً ؛ وخلاصته أن بعض النسوة خرجن فى صورة « طابور عسكرى » بثياب ملونة عليها أشرطة زاهية ، وسرن فى الشوارع المزدحمة ، واصطففن أمام أحد البنوك الأجنبية يمنعن الرجال من الدخول إلى البنك ، وجاء الضباط ورجال الشرطة ، فنصحوا سرب النساء بالانصراف فأبين ذلك ، فقبضوا عليهن ومعهن خمسة شبان ، وقادوهن إلى قسم البوليس للتحقيق معهن ، ثم أفرج عنهن بعد ذلك ...

هكذا يكون الفارق بين الحق والباطل ، وبين الجد واللهو ، وبين الإصلاح والعبث ، وبين الجندية المجهولة والتظاهر الكاذب ؛ فى الموقف الأول نرى شباباً باعوا لله أرواحهم ، فأقبلوا يجاهدون فى سبيل بلادهم ودينهم ، واتخذوا لأنفسهم عنواناً هو اسم بطل من أعظم أبطال الإسلام وهو خالد بن الوليد الذى قهر المتجبرين ، وأذل العتاة الظالمين ، ورفع راية الدين المتين فى المشارق والمغارب ، ثم جاءه الموت هيناً ليناً فقال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ومافى جسدى شبر إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » ! ...

وهذه سيدة فاضلة مخلصة تريد أن تخدم بلادها ، وأن تؤيد وطنها فى معركة تحريره ، فتبرعت بذلك المبلغ الضخم ، لا للرياء أو السمعة أو نشر الإعلانات الطويلة ، بل لإرضاء الله رب العالمين ، وها هو ذا قائد كتيبة خالد يأخذ المبلغ ليقضى به شئوناً لأولئك المجاهدين الذين لا يجدون ما يأكلونه حتى لقد قيل إنهم يأكلون الحشائش والبرسيم ! .

وفى الموقف الثانى نرى مظاهرة ، يقوم بها نسوة لا يشغلهن بيت ولا زوج ولا أولاد ، ويخرجن إلى الشوارع متبرجات بزينة ، فى هيئة طابور عسكرى يتشبهن فيه بالرجال ، ثم يسرفن فى التظاهر فيسرن فى شارع مزدحم بملابس زرقاء وشارات ولافتات ؛ ثم يكون كل عملهن أن يمنعن بعض الناس من الدخول إلى بنك لمدة ساعة أو ساعتين ، وفى هذه الساعة تقضى بزعمهن كل شىء ، « وكفى الله المؤمنون القتال .... » فليت هؤلاء المتظاهرات فعلن مثلما فعلت تلك المتبرعة المجهولة ؛ وليتهن تبرعن للمجاهدين بثمن الثياب والشارات واللافتات ، وليتهن اقتصدن فى معاطف الفراء وأثواب السهرة ومساحيق الزينة وألوان العطور وفنون المآدب والحفلات وتكاليف التظاهر والإعلان، وقدمن أثمان ذلك لتشترى الأمة به سلاحاً أو عتاداً تدار به المعركة الحاضرة ؛ فذلك خير ألف مرة من هذه المظاهرة المحدودة الثمرة المظنونة الخطر ، فإن المرأة إذا خرجت من بيتها بلا تحفظ أو صيانة ، فقد استشرفها الشيطان ، وتعرضت لشر المعاطب ... وليت هؤلاء النسوة وجدن من رجالهن من يعلمهن أن الدين القيم والوطنية الصحيحة يريدان العمل المنتج والمجهود الصامت ، ويريدان أن يخرج الرجال إلى ساح الوغى يجاهدون ، وأن ترابط النساء والضعفاء فى الصفوف الخلفية للحراسة والإعداد والإمداد وماشابه ذلك من شئون ، ويريدان أن يكون المجهود خالصاً لوجه الله لا للسمعة وكاذب الصيت ، فقد سأل رجل رسول الله قائلا :

الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ . فقال الرسول : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . وقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر [أى الأجرة] والذكر [أى الشهرة] فما له ؟. فقال الرسول : لا شىء له . فأعادها الرجل ثلاث مرات فقال الرسول : لا شىء له ، إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، وابتغى به وجهه .. وقال الرسول : من سأل الله الشهادة بصدق [أى من صميم قلبه] بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه ...

يا أتباع محمد عليه السلام ...

إن الصوت الآن صوت الحديد والنار ، وإن الطريق الآن هو محاربة الأهواء والشهوات ، والاجتماع على التضحية والثبات ، وإلا كنا أضحوكة فى أفواه الأمم ، فلا خمـــر اليـــوم ولا قمر ، ولا لعب ولا صخب ، بل جهـــاد وجلاد ، وتحرير أو استشهاد ؛ ولن تحتمل الآن أبداً أن تكتوى بنيران الطغيان الأجنبي وهى تغالبه وتجاهده ، وبجوار ذلك تصلى مآسى من الاستهتار الداخلى الأثيم ؛ فليحذر اللاعبون ، وليثبت المجاهدون ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

لاياس مع الحياة[1]

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى النعمة ومصدر الرحمة إن رحمة الله قريب من المحسنين وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هو نبي الرحمة وقائد الملحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأصلى وأسلم على أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا شك أن أمتنا تعانى الآن حالة رهيبة مرعبة من دواعى اليأس والقنوط ، وذلك لتصدع وحدتها وتفرق كلمتها ، واشتداد بأسها بينها ، ولما أصابها من نكبة قاصمة فى عام ١٩٦٧ ، ولانتشار طوفان الفساد والتحلل بين أبنائها ، وصار الكثيرون يرددون الكلمات الدالة على التداعى والانهيار وانعدام الرجاء فى الصلاح والإصلاح ، وإذا سيطر اليأس على الأمة فقد فقدت إيمانها وثقتها بربها وحسن ظنها بخالقها ، وإذا بلغت ذلك المنحدر لم يبق لها من مقومات الأمة الجديرة بالبقاء شيء ينفع ويعوض ، ولذلك جعل القرآن الكريم اليأس صفة الكافرين ، فقال : « لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القـــوم الكافرون » ، وقال : « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

ولقد يستخف الإنسان الضعيف العزم القليل الحزم ترديد كلمات الخور

---

(١) ٩ صفر سنة ١٣٩٢ هـ ــ ٢٤ مارس سنة ١٩٧٢ م .

والاستسلام ، ويظن أنه بذلك قد وجد لنفسه عذراً يتخلص به من محاولة القيام بالواجب ، حتى ولو كان فردياً محدوداً ، ويحكم على نفسه وقومه ومجتمعه بالضياع والانتهاء ، ناسياً أن الله الحسيب الرقيب يعلم عباده أن حكمه الفاصل يأتى بعد كثرة الابتلاء بنعمة النصر للثابتين الموقنين ، وبنقمة الهلاك والعذاب على المجرمين الضالين ، فيقول جل جلاله : « حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجى من يشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » ، وينبغى أن نتذكر أن هذه الآية جاءت فى أواخر سورة يوسف ، بعد أن قصت السورة علينا ما قصت من أمر يوسف الذى تعرض لألوان البلاء التى لايحتملها إلا أولو العزم من عباد الله الأخيار ، فهو قد تعرض لحسد إخوته ، ولإلقائه وحيداً فى غيابة الجب ، وللأسر والاسترقاق وللبيع كالعبيد ، وللإغراء الفاتن المزلزل ، وللسجن بضع سنين ، وللاتهام بالسرقة مع أخيه ، ولاغترابه عن أهله حيناً طويلا من الزمان ، ومع ذلك ثبت ولم يقنط ولم ييأس ، فجاءه نصر الله ، وجعله على خزائن الأرض ، حتى شكر يوسف ربه فقال : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت وليي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً ، وألحقنى بالصالحين » .

إن الآية الكريمة تقول بعد عرض هذه القصة : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » أى حاول الرسل ماحاولوا ، وبذلوا ما بذلوا وناضلوا ما ناضلوا ، والكفر معاند ، والكفار متمردون « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، وبدت الدلائل أمام الرسل أن هؤلاء لن يؤمنوا ولن يستجيبوا ، فاهتداؤهم أمر ميئوس منه ، بل لقد ظنت الرسل أن الذين اتبعوهم قد أخذوا يترددون ويتشككون لكثرة ما نزل من بلاء ، ولطول الأمد والزمن . ولذلك تقول السيدة عائشة : « لم يزل البلاء بالرسل

حتى خافوا أن يكون من معهم قد كذبوهم »[1] . ويالها من حالة رهيبة تعطينا صورة واضحة عن الشدائد الموصولة المتراكمة المتوالية التى يتعرض لها دعاة الحق، حينما يتنمر الباطل ويستأسد البهتان ، ويطغى الكفران ، ويظل عدد المؤمنين قليلا ، وأهل الضلال فى كثرة وتزايد ، وكأن الرسل قد بلغوا مرحلة أدركوا معها أن الكافرين لن يرتدعوا فيئس الرسل من إيمان هؤلاء ، بل ظن الرســل أن الذين آمنوا بهم قد كادوا يضعفون عن حمل تبعات الإيمان الثابت الدائم .

هنا ، وعند تفاقم الخطب ، وتزايد الكرب ، « جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » يقبل نصر الله بعد طول انتظار ، فينجى الله بهذا النصر المبين من يستحقون النجاة ، ممن لا يفقدون إيمانهم ، ولا ينحرفون صراطهم ، فهم ثابتون صابرون ، وينزل الله عذابه ونقمته بالذين خانوا الأمانة ، وغدروا بالعهد ، وفسقوا عن أمر ربهم ، ولن تستطيع قوة فى الكون أن تدافع عنهم ، ولا أن تنقذهم ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وتلك سنة الله فى خلقه منذ القدم . يرسل إليهم رسله بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، فيعرض الكثيرون عن الهداية ، ويصرون على الضلال والغواية ، ويظل المؤمنون على إيمانهم حتى النهاية ، ثم يقبل حكم الله الفاصل ، فيجعل العاقبة للمتقين العاملين الدائمين ، وينزل نقمته بالمجرمين الفاسقين . كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت قوم هود ، والصيحة التى أجبرت قوم صالح ، والخسف الذى أباد قوم لوط .

ومعنى هذا أنه مهما طال الأمد ، أوامتد الليل ، أو تكاثف الظلام ، فإن أهل اليقين يستمرون على الطريق ، ليكونوا همزة وصل بين ماض تجلى

---

(١) لابن قتيبة تأويلات مشكل القرآن ص ١٣٧ .

فيه وعد الله صادقاً مشرقاً ، ومستقبل لن يخلف الله فيه وعده، وإن كان الله لا يعجل لعجلة أحد ، وكل شيء عنده بمقدار ، وعندما تضيق المسالك ، وتدنو المهالك ، تمتد يد الله لتنقذ وتنصر ، وقد يماً قال القائل الحكيم :

إذا اشتملت على اليأس القلوب　　وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكارة واطمأنت　　وأرست فى مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها　　ولا أغنى بحيلة اللبيب
أتاك على قنوط منك غوث　　يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات إذا تناهت　　فموصول بها الفرج القريب

والعجيب المثير للنظر والتدبر ، أن الله تعالى يقول : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن عن القوم المجرمين » وعقب ذلك مباشرة يقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » وكأنه يريد أن يقول إن القرآن الذى ساق إليكم هذه العبر من الماضى فحذركم، هو نفسه الدستور الذى يهديكم ويرشدكم ففيه تفصيل لكل شيء ، وفيه هدى لكل حائر ، وفيه رحمة للمؤمنين ، فلو رجعتم إليه وعكفتم عليه وعملتم به ، ووثقتم بوعده ، تحقق لكم النصر ولو بعد حين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا يليق بنا أن نستنيم لنزعة اليأس ، فالله موجود، ولا أن نقنط فالطريق مفتوح ، الله هو الذى يحيى الأرض بعد موتها ، وهو فالق الحب والنوى ، وهو المبدئ المعيد ، فهل لنا أن يستعيد كل منا أمله من جديد ؟ . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ماذا تنتظرون من الواعظين[1]

لله الحمد ، يحق الحق بكلماته ، ويمحق الباطل بآياته « فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، قولك الفصل وحكمك العدل ، وإليك تصير الأمور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم يخش فيك لومة لائم ، ولم يرهب فى سبيل الدعوة إليك طغيان غاشم ، وكيف وأنت القائل له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأجناده ، والناهلين من رحيق أمداده ، أولئك الذين « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

كانت عظة الواعظ — يوم ساد الإسلام وعز المسلمون — تطهيراً للنفوس وتعميراً للصدور ، وكانت صرخة مجلجلة مزلزلة تصادف الآذان المفتوحة والقلوب المشروحة ، وكان المسلم يأتى المسجد مثلا ليسمع العظة وقد أعد نفسه لحساب عسير عما سلف منه ، ولتلقى أوامر دينية جديدة توجه إليه ، فهو يسمع إذ يسمع بجسد راجف واجف ، خشية العقاب أو العتاب ، وبعزم جديد وحزم جليد ، رغبة منه فى مواصلة الاستجابة والتنفيذ ، ومن هنا كان قليل الكلام يجدى ، ويسير العظة يفيد ، فكثرت الأعمال يومئذ وقلت الأقوال ! .

---

(١) جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ هـ — فبراير سنة ١٩٥١ م

أما اليوم ، فقد صارت العظات لوناً من التسلية ونوعاً من قطع الفراغ ، يتباهى بها الناطق ، ويتنادر السامع ، فيعجب بفصاحة هذا ، وينقد أسلوب ذلك ، ويرضى عن تلك العظة لأنها وافقت هواه ، ويغضب من تلك لأنها خالفت مشتهاه . وهكذا بعد عن الجادة كل من القائل والسامع ، إلا قليلا ممن رحم الله ، وما أشبه الأمر هنا بما صارت إليه تلاوة القرآن فى مجالسنا ومحافلنا من ضلال وانحراف ؛ فلقد كان القرآن يتلى على أهليه بالأمس فكأنما على رءوسهم الطير من الهيبة والجلال ، والاستغراق فى التدبر والتفكير، تراهم وقد خشعت قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . ولذلك أثمر فيهم القرآن المجيد ثمرته ، وطبقوا فيما بينهم رسالته ، فسعدوا بها وفازوا .

أما اليوم فانظروا كيف يتلى القرآن وكيف يسمع ؟ .

إنه يتلى بمط وتطريب ، وتلحين وترجيع ، وغناء كغناء الرهبان أو النائحات . وخلط منكر بين القراءات واللهجات ، وتقطيع لحروف الكلمات ، حتى تخفى معانى الآيات ، ويزول جلال العبارات .

وإنه يسمع لا بخشوع ووقار ليزداد السامع إيماناً . بل بصراخ كصراخ السكارى ، وصيحات استحسان للتغنى واستعادة لنغمة التلاوة كصيحات المشعوذين أو المخبولين ، وضجيج بالثناء على القارئ لا على ما يقرأ ، وبتفضيله على سواه ، كضجيج السامر يلهو فيه اللاهى أو تعزف المعازف ، وليت هذا كله يصحبه اتعاظ أو إدراك للمعنى أو استشعار لجلال المقام ، إذن لخف المصاب ، ولكن الجهل بالمتلو سائد والإعجاب بصوت القارئ زائد ، والقارئ أشبه بالتاجر ، يحاول بما خفى أو بدا من الوسائل أن يزداد من حوله الأنصار والمعجبون . حتى إنك لتفتح المذياع فى إحدى الحفلات

التى يتلى فيها القرآن ، فيخيل إليك من التغنى والتصايح والسخف فى التعليق على طريقة القارئ وفتنة صوته ما يشعرك بأنك تستمع إلى ضجة فى سوق لا إلى كلام الله رب العالمين يتلى فى مسجد ، ومن هنا يذاع القرآن فى الصباح والمساء ، وتنقله جميع المحطات حتى ما كان منها مسيحياً أو يهودياً ، ويتبارى فى تلاوته عشرات المتجرين بإذاعته ، ثم لا تجد قلباً يخشع ، أو نفساً تخضع ، أو استجابة لهدى القرآن تكون ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج أيها الناس ؟ ! .

* * *

وكذلك جنت غفلتنا وإعراضنا عن ربنا وديننا على صلاة الجمعة وخطبتها ، فصارت كحفلة أسبوعية تقليدية ، يحضرها البعض لحب الاستطلاع والمقارنة بين الخطباء ، والحكم لأحدهم بالسبق على الآخرين ، والبعض للتجسس أو التلصص أو تسقط الزلات أو عد الهفوات ، أو غير ذلك من خسيس النوايا وتوافه الأغراض التى لا تليق بصالحى الرجال ؛ فأين ماكان للجمعة فى تاريخ الإسلام من عظمة وجلال ؟ وأين ماكان لصوت الداعية فى رحبتها من انطلاق وحرية بلا رهبة أو رغبة ؟ وأين ما كانت تعود به على المسلمين من نقد العيوب وتطهير القلوب ومحو الذنوب والاستعداد للغيوب ؟ وأين ما كان يتحقق فيها من تأليف للأرواح بعد تدانى الأشباح ؟ وتجديد العزائم والتواصى بالمكارم ؟ وأين ما كان فى وصاياها من صيحات حق وكلمات صدق ودعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ؟ وأين الذين يسعون إليها خفافاً مبكرين ، وقد تركوا بيعهم ولهوهم ، وتجملوا فى مظهرهم بعد أن تطهروا فى مخبرهم ، وجاءوا ليستمعوا القول من هاديهم فيتبعوا أحسنه ؟ . لكأنهم والله قد رحلوا إلى غير مآب ! ...

* * *

والعجيب الغريب المبكى فى أمر أكثر الناس اليوم وأنهم لا يعجبهم العجب ، ولا يرضون عن الواعظ مهما بذل ... وتراهم يسلقونه على الدوام بألسنة حداد ، وقد يلقونه مرائين أو مخادعين بكلمات المديح والإطراء ، فإذا انصرفوا عنه أو انصرف عنهم صرف الشيطان ألسنتهم القذرة إلى الفحش والافتراء . . .

إن غضب الواعظ للحرمات المهتوكة والحقوق المضيعة والمنكرات الشائعة قالوا : ياله من متطرف لا يحسن التصرف ، وهو يستحق العقاب والجزاء !..

فإن لان فى النصيحة ورق فى القول وتلطف فى إرشاد الآثمين قالوا : ياله من جبان به هوان يخاف أهل البطش والسلطان ! ! . . .

وإن دعاهم الواعظ إلى أن يأخذوا نصيبهم من الحياة ويتمتعوا بطيباتها ، ولا يحرموا أنفسهم من مناعمها ما دامت لم تحرم قالوا : ياله من متساهل يريد أن يصرف الناس عن العبادة إلى متاع الحياة الدنيا ! . . .

فإن لامهم على استهتارهم وتبرج نسائهم وفسق شبابهم قالوا متأخر جامد لا يساير ركب الحياة العجلان !

فماذا تريدون من الواعظ إذن ياهؤلاء ؟ ... تريدون أن يكون عصاً فى أيديكم تلعبون بها كما تشساءون ، فإن نفرت منكم أو تأبت عليكم كسرتموها وحطمتموها ؟... تريدون أن يكون مغنياً يمشى حسب هواكم، فيغنى لكم ما تشاءون من الألحان ، فإن أعجبكم طربتم واستزدتموه ، وإن لم يعجبكم قلتم له : إيت بلحن غير هذا أو بدله ! ؟ تريدونه بوقاً يردد كل أسبوع ما عرفتم وعرفنا من نصوص دينية أصبحت من طول تكرارها مع قطعها عن دنيا التطبيق والتنفيذ كأنها آثار ؟ ! ...

وكيف يؤدى الواعظ إذن واجبه وأنتم تريدون أن تخضعوه لهواكم

ورغباتكم ، مع أن الواجب يقضى بأن تخضعوا أنتم لصوته القوى الصريح الذى لايهاب ، لأنه لا يأتى بكلامه من بيته ولا من بيت أبيه ، ولكنه يذ كركم بكلمة السماء ، وهو يردد : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » وما الواعظ إلا رجل يريد أن يطبق شرعة الله على الحياة سواء أرضى المفتونون أم أبوا ، فيجب أن تكونوا معه ، لاأن تكونوا عليه ؛ وما هو إلا كالطبيب قد يعطيك الدواء وهو مر ، وقد يجرى لك « العملية » وفيها تشريح وتقطيع ، وقد يمنعك مما تحب من مطعوم أو مشروب ، فإن أبيت النصيحة والطاعة خسرت ، وإن عاونته وسرت معه كان الفوز للجميع .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

ألا إن قليل الكلام يغنى عن كثيره ، والحلال بين والحرام بين ، وما كثر كلام أمة وقل عملها إلا ذلت وهانت ، وقد خلت فينا المثلات والمآسى لطول ما غرقنا فيه من اللذة والباطل ، ولم يبق إلا أن نجرب دواء السماء من جديد ، لا على سبيل اللهو والتسلية والتغطية ، بل على سبيل الجد والعزم والإخلاص ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

أين نحن من الدنيا[1]

لك الحمد يا من ذلت لعظمته الجباه ، وتضاءلت أمام جبروته كبرياء العتاة ، « فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ترحم ولكنك أيضاً تحطم وتقصم ، وتعفو ولكنك أيضاً تحاسب وتنتقم : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » . ونشهد أن سيدنا مولانا محمداً عبدك ورسولك ، عف عن دنىء الخصومة حتى مع الأعداء الألداء ، وتعالى عن الافتراء والاعتداء حتى مع المعاندين الحقراء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وذريته ، وأصحابه وكتيبته ، أولئك الذين اعتزوا بدينهم ودعوتهم ، فعزوا فى دنياهم وآخرتهم ، « الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

أين نحن من الدنيا ؟ ... هذا هو السؤال الذى يردده المسلم الغيور اليوم ، فيحس به كأنه مكواة حامية تكوى لسانه وتلهب خواطره ، لأنه يتطلع يميناً وشمالا ، فيرى خلق الله يصعدون ونحن ننزل ، ويشاهد الناس يتقدمون ويتحضرون ، ونحن نتقهقر ونتوحش ، ويرى الدول تتعقل وتتطهر ، ونحن نتهوس ونتفحش ، وكأنما كتب الله على هذه الأمة التى تدعى لنفسها الصبغة الإسلامية ، أن يكيل لها الهوان بأوفى ميزان ، ليرى العالمين أنها حين كفرت بربها ، وباءت بذنوبها ، وحاربت دعوة السماء فى ديارها ، قد استوجبت غضب الله عليها ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ...

لقد أراد أصحاب « التقاليع » الرياضية فى بريطانيا ، أن يطلعوا على الناس

---

(١) ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م .

بنوع من اللهو جديد، فعمدوا إلى سبع من سباع البحر ، وهو حيوان متوحش كاسر ، ودربوه على سباحة بحر المانش فى ساعات قلائل ، وقد نجحت هذه المحاولة ، وتحدثت عنها الصحف وشركات الأنباء ؛ ولكن أذيع فيما أذيع أن أولئك المدربين قد وضعوا أيديهم على قلوبهم الوجلة خوفاً وخشية مما أشيع من أن رجال السلطات البريطانية سيحاكمون هؤلاء المدربين ، بتهمة القسوة على « سبع البحر » حين تدريبه ، وهى تهمة تستحق غرامة قدرها خمسون جنيهاً ... وقد اقتضى الأمر أن يدافع مدير لشركة إذاعة كبرى عن هؤلاء المدربين قائلا : إنه إذا كانت جمعية الرفق بالحيوان البريطانية قلقة بشأن « سبع البحر » فهى مخطئة ، لأن السبع لايحب شيئاً كحبه للسباحة !.

يالك من حيوان محظوظ سعيد ياسبع البحر البريطانى ، لقد وجدت جمعية للرفق بالحيوان تثور من أجلك ، وتغضب لتعذيبك ، وتحاول الانتقام ممن قسوا عليك ، فليت بعض الأمم تعطى أبناءها ما تعطاه ياسبع البحر البريطانى فتؤلف لهم جمعية للرفق بالإنسان ، تصد عن الضعفاء الأبرياء المظلومين ما ينزله بهم المستبد المقتدر من ألوان التنكيل والتعذيب بلا حسيب أو رقيب !.. ليتك ياسبع البحر تعطى هؤلاء الأحياء من الناس بعض بركتك وعظمتك ليجدوا من يدافع عنهم كيد الظالم الجبار إننى لا أقص عليكم هذه القصة أيها الناس لأحرضكم على الرفق بالحيوان ، أو أذكركم بما تعرفونه من أن النبى صلوات الله وسلامه عليه قد أخبر أصحابه بأن الله تبارك وتعالى قد غفر لرجل سيئاته وذنوبه لأنه سقى كلباً عطشاً ، فقال الصحابة : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : نعم ، فى كل ذات كبد رطبة أجر ! ... وأنه أخبر أصحابه بأن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وأن أحد الصحابة كان فى سفر مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فاصطاد فرخين لعصفور ، فجاءت العصفورة فجعلت

تحوم وتعرش حزناً على أخذ ولديها ، فجاء النبي فقال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها ! ...

لا أقص عليكم هذه القصة لأذكركم بهذه النصوص الكريمة العظيمة ، فإن من واجبكم أن تكونوا لها على الدوام من الذاكرين، ولكنى أقصها لأقول : إذا كان رجال الدولة والسيطرة فى بريطانيا قد غضبوا من أجل حيوان متوحش مفترس، قيل إنه عذب أو عومل بقسوة فى أثناء تدريبه، فماذا يقول الناس ، وما مبلغ الغضب الذى يثور فى ضمير العالم حينما يسمعون أن أمة من الأمم قد شاء لها الهوى الضال والتشفى الأثيم والعدوان الغشوم والاستبداد الظلوم أن تعامل طائفة من خيرة بنيها معاملة أحط من معاملة غيرها للوحوش الكاسرة والحيوانات العجماء ، فإذا بهؤلاء الأبناء يذوقون مالم يسمع أو يعهد من ألوان التشريد والتنكيل والتعذيب ، فضرب بالنعال ، وجلد بالسياط ، وحرمان من النوم والطعام ، ووضع فى الثلاجات ، وتهديد بهتك الأعراض وتشويه للوجوه والأطراف والأقدام ، وتهجم مفزع على النساء والأطفال ، وأخذ للقريب والبعيد بكل قسوة وفظاظة من أجل الاشتباه الظنين أو الغيظ الدفين أو الهوى المجنون ؛ ومع كل هذا لا يزال الشعب يأكل علفه كما تأكل الأنعام ، ولا يزال الذين اقترفوا كبائر الإثم والمنكر فى كرامات الرجال سعداء محظوظين ؛ وسيسألنى جهول أو متجاهل فيقول : ومن هى تلك الأمة ؟ فأقول : إننى مع الأسف لا أقدر أن أذكر أين تكون ! ! ...

يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أمثال ربات الحجال ، ويا خفافيش الهوى والضلال ، أيجد الحيوان المتوحش الكاسر فى بريطانيا من يدافع عنه ، ويطالب بحقه ، ويحاسب المعتدين عليه ، ثم تظل الآلاف المعذبة المضطهدة التى شردت وأبعدت ، وصودرت فى أرزاقها ، وحوربت فى كرامتها ، وشوهت فى سمعتها ، ونكبت فى قرابتها . تظل أسيفة كاسفة ، لا تجد كبيراً

أو صغيراً يقول للباغين عليهم : أيها الظالمون ، لقد جاوزتم المدى ، فتعالوا إلى ساحة الحساب ! ! ؟

ودعوا سبع البحر ينعم بعزته وحريته ، واسمعوا خبراً آخر... لقد حكمت إحدى المحاكم الأوربية أخيراً على رجل يبيع الجرائد اسمه« توماس روبرتسون» بغرامة قدرها خمسة جنيهات وبالسجن ثلاثين يوماً ، وذلك لأنه كذب على الجمهور فى أثناء ندائه على إحدى الصحف وقت بيعها،فقد أراد أن يروج هذه الصحيفة فادعى أن فيها حادث اصطدام خطير مع أنه لم يكن فى الصحيفة مثل هذا الخبر المزعوم ..

يحدث هذا فى أوربا،فما هوموقف الذين عاشوا شهوراً وشهوراً وشهوراً فى مجتمع كله كذب وافتراء ، كم اتهم فيه أبرياء ، ووصفوا بأنهم سفاكون للدماء ، ثم جاءت التحقيقات وكلمة القضاء ، فطهرت ساحتهم وجعلتهم أنصع من الضياء فى وسيع الفضاء ؟ ... وكم خرجت عليهم الصحف الفاجرة الداعرة ، الكاذبة التى لا تخجل ، وهى تفيض بافتراءات عريضة واتهامات مريضة ، وحوادث مخترعة ومبالغات مصطنعة ، وحملات ثائرة جائرة دمغت بالشين والعيب كثيرين ، ما كان لهم ذنب أو جناح ، وتأثر الأغرار بتلك الافتراءات فصدقوها ، إذ لم يجدوا من يصححها أو يفندها ، وكيف والآمر الناهى الذى لا يراجع بالمرصاد ؟ ... ومرت الشهور تلو الشهور ، والذين يكتوون بنيران ذلك الافتراء مغلوبون على أمرهم ، يحال بينهم وبين حقهم فى الحياة ، ثم أظهرت الأيام براءتهم ، بعد أن دمغوا بوصمة ذلك الاتهام الدخيل الثقيل ؛ ومع ذلك لم يفكر صاحب سلطة أن يقول للمتصرفين : ردوا إلى هؤلاء ما ضاع منهم من كرامة واعتبار ! ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أنحن أحياء ؟ هذا هو السؤال ؟ ... ألحرية الفرد فينا ميزان ؟ ... هذه هى

المعضلة ! . . . فإن استطعتم أن لا يتجبر فيكم طاغية حتى يلعب بحقوقكم ومقدساتكم ، وأن لا يضيع الضعيف بينكم حتى لا يأمن على حياته ، فقولوا إننا أحياء ، وإلا فبطن الأرض خير من ظاهرها ، واتقوا الله ربكم ، فإنما يتقبل الله من المتقين .

قال عليه الصلاة والسلام : من حمى مؤمنا من منافق بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نارجهنم ، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال .

وعن هشام بن حكيم قال: أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا . وقال عليه السلام : ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به .

عقيدة الثورة[1]

تنهض الثورات الإصلاحية عادة على أحد عاملين : القوة المقتدرة ، والعقيدة المسيطرة .. أو عليهما معاً ، تسبق أولاهما ، ثم تقبل الأخرى إليها ، فتشد أزرها وتسند بناءها .

وقد بدأت ثورتنا الميمونة المباركة بهيبة القوة ورهبة الاقتدار ، وقام بها رجال تجردوا من شهواتهم ، وأخلصوا لله نياتهم ، وحرصوا على رضا خالقهم وبلادهم ، ووضعوا أرواحهم على أيديهم وخرجوا يطلبون الحياة العزيزة أو الميتة الكريمة ، فقد كفاهم ما ذاقوه وذاقه إخوانهم من بلاء وشقاء، وما اصطبروا عليه كارهين من فساد وكبرياء ...

وقد أراد الله لهم النجاح ، وكلل مسعاهم بالفلاح ، فحققوا فى لحظات ما كان يعد خيالا يستعصى على الدهور ! ولا شك أن القوة كانت العامل الفعال فى هذا الأقدام وذلك النجاح ، لأن الحق الأعزل لا يستطيع الوصول ولا السيطرة إلا بالقوة . .

ثم إن النفوس كانت قد تحللت وتعفنت ، وتهدمت أركان العقيدة فيها ، وتزلزلت دعائم الإيمان فى نواحيها ، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وكانوا قوماً بوراً ، فلم يكن هناك مجال لبدء الثورة عن طريق الأسماع والإقناع ، والله إذا أراد شيئاً قضاه ، وقد أراد ولا معقب لحكمه أن يكتب النصر لعباده على أيدى كتيبة قل عددها وكثرت عدتها ، ففعلت باقتدارها مالا تفعله آلاف المقالات والخطب ..

واليوم لابد لهذه الثورة الكريمة العظيمة من تسويغ ، وترسيخ وتمكين .. لابد لها من ارتكان على أسس عريضة عميقة متينة ، من الفهم والهضم ،

---

(١) ٣٠ سبتمبر ١٩٥٢ م .

والاعتقاد والاقتناع .. لابد لها من رابط وثيق يربطها بجذور الإيمان فى القلوب والأرواح ، حتى يؤمن كل فرد بأن هذه الثورة ألزم له ولعقيدته لزوم الماء والهواء .

وإذن فتحتاج الثورة إلى مبشرين وحواريين ، وإلى كتاب وخطباء ، وإلى دعاة ومرشدين .. يفهمون المجتمع ماذا كان فيه ، وماذا صار إليه ، ومدى الفرق بين هذا وذاك .. ويوجهون القادة إلى ما يجب أن يكون ليرضى الله ويسعد الوطن ، ويرسمون الأهداف المقبلة للناهضين العاملين ، حتى يبصروهم بوسائل الغلب ، ويحذروهم من مهاوى العطب ، ويحكمون الاتصال أو الامتزاج بين القوة والعقيدة وبين الإصلاح والدين ، ليكون الدين مهيمناً على حركتنا فتباركها يد الله ، وحتى يستهدى الإصلاح بهدى الدين القويم ، فيأخذ إلى النفوس أعدل طريق ، بلا تردد أو تعويق ، وحينئذ يكون الصبر الجميل ، والثبات الموقن ، والنصر المبين « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » . « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » .

ولابد أن تسند القوة العاقلة هؤلاء الدعاة ، بعد اختيارهم والاطمئنان إليهم حتى يكون لهم اعتبارهم وكيانهم ، وحتى يسمع الناس بيانهم وتوجيههم بالتوفير والمسارعة ، فإنه من المؤسف أن يكون الداعية دعياً فيقول ما يقول وهو كالطبل الأجوف لا يؤمن بما يقول ، أو يقول وهو مرغم على ما يقول أو يقول ولا يجد السميع أو المستجيب . .

وقد مرت أيام كنا ندعو فيها فوق المنابر لمن لا نؤمن به . ولكننا مرغمون .. ومرت أيام حرمت فيها آيات من القرآن الكريم أن تتلى . لأن

فيها تعريضاً بالمجرمين الظالمين ، وهم الحاكمون المستبدون . . ومرت أيام حولت فيها همة الافتاء هنا وهناك وهنالك إلى « مصنع » لا ينتج إلا ما يشاؤه الجبارون بين العباد إلخ . .

وقد آن الأوان لإصلاح هذه العيوب . ولتمكين دعاة الفكرة الأطهار الأحرار من أداء واجبهم ورسالتهم ، فى قوة وعزة وانفساح، وبذلك يخدمون الثورة أكبر خدمة ، وهى صبغها بصبغة الإسلام الحنيف الذى جاء ليسعد لا ليشقى ، وليجمع لا ليفرق ، ولينشر السلام لا لينثر البغضاء ، وليحفظ للجميع جميع الحقوق ، لا ليوجد الشحناء والعقوق : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

أما بعد ، فقد يطعم المصلح مجتمعه سنة أو سنتين ، وقد يبهر عيونه بإصلاحات فى حياته المادية . ولكن المجتمع لا يقتصر عليها ، وإن كان يقدرها ويشكرها ويمجدها ، لأنه سيرجو بعد هذا غذاء لعقله وقلبه ، ونوراً لروحه ونفسه ، ونبراساً يشعل جذوة الإيمان والعقيدة فى صدره ، وبعدها يقول لمصلحه: لقد اكتفيت واشتفيت، فقدنى حيث شئت فى ميادين العمل والجهاد . .

فلنؤيد قوتنا بتثبيت عقيدتنا ، ولنسند عقيدتنا بسلطان قوتنا ، ومتى اجتمع الإيمان والسلطان ، فقد تمت علينا نعمة الرحمن . .

خطر الأفلام الرقيعة[1]

الحمد لله عز وجل، يمن بالبنعمة ، ويهدى بالحكمة : « ومن يضلل الله فماله من هاد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل لأهل الاستجابة له فضلا وكرامة ، ولأهل الإعراض عنه ذلا وندامة : « إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير » .وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى خير الطرق وتمم مكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ، ومن أى وعاء خرجت ، والمسلم رجل صاحب اعتبار وادكار ، يعتبر بما يحدث له ، ويتعظ بما يقع لغيره ، ويلمح العبرة هنا أو هناك فيتأثر بها ويستفيد منها ، دون نظر إلى محلها أو أصلها ، فهو يعنى بما قيل لا بمن قال ، وبالمعنى لا بالمبنى ، ورحم الله أسلافاً لنا كانوا يأخذون الحكمة ولو ترددت على شفتى مجنون ، حتى قال بعضهم : « خذوا الحكمة من أفواه المجانين » ... وهؤلاء الغربيون لهم عيوبهم الكثيرة ، وبيننا وبينهم الثارات القديمة والحديثة ، ولن ننسى لهم أفاعيل الاستعباد والاستبداد التى اصطلينا بها عهداً طويلا ، ولكنهم قد تصدر عنهم فى تصرفاتهم ما يستحق النظر والتأمل ، ومالا نجد حرجاً فى الاقتداء به والاتباع فيه ؛ فقد نشرت بعض صحفنا بالأمس أنه يوجد فى إنجلترا لجنة تسمى « لجنة أفلام الفساد » تضم بعض المستشارين ورجال الدين والمعروفين بغيرتهم على الفضيلة ، وهى لجنة أهلية ومع ذلك تعاون هيئة رقابة

---

(١) ٤ المحرم سنة ١٣٧٩ هـ ــ ١٠ يولية سنة ١٩٥٩ م .

الأفلام التى تصدر إلى بريطانيا، وقد اجتمت اللجنة أخيراً وشاهدت فيلماً يسمى « العشاق » قبل عرضه ، وقررت حذف ثلثه ، ووضعت هذا الثلث « بأن الرذيلة نفسها تخجل منه » ثم عقبت صحفنا بقولها : هل نحن فى حاجة إلى مثل هذه اللجنة ؟ ! ...

نعم نحن نحتاج هنا إلى لجنة بل إلى لجان ، يكون فيها علماء دين ورجال إصلاح وأهل غيرة على الأخلاق والحرمات ، حتى يغربلوا هذه الأفلام المليئة بالمناظر الخليعة والمعانى الفاسدة والثمرات المعطوبة التى تبث الداء وتنشر الجرائم فى مشاهديها ، والسينما اليوم قد أصبحت أداة خطيرة قوية التأثير شديدة الجاذبية ، وهى تستقبل روادها كل يوم أربع مرات ، وفى كل مرة يدخلها عدد كبير هائل ، ونحن نرى كيف تمتد الصفوف الطويلة أمام دور السينما لكى تحصل على تذاكرها ، وفى هذه الصفوف خليط مرعب من الرجال والنساء ، والكبار والصغار ، والمراهقين والمراهقات ، ولا يوجد مثل هذا الزحام ولا بعضه على دور العبادة أو العلم أو الثقافة أو الاجتماع ؛ والملاحظ أن الأفلام التى تصنع فى بلادنا تحوى فحشاً أكثر من غيرها مما يرد من الخارج ، حتى شاع بين الناس أن الفيلم المصنوع فى الشرق العربى لايكاد يخرج عن قصة حب رخيصة ، وغرام أثيم تنتهك فيه الأعراض ، ورقصات فيهم خلاعة وفجور ، وأغنيات هزيلة فيها تميع واتضاع ، ولذلك انصرف الكثيرون إلى الأفلام الأجنبية بحجة أنها ذات فكرة وموضوع ووقار ،وهذا لا يعنى أن الأفلام الأجنبية خير نستسيغه ، فقد يكون فيها الهراء الخبيث المكشوف أو المستور ، والغربيون يحاربوننا بالسينما كما يحاربوننا بغيرها ، لأنهم يبثون فينا عن طريق السينما مبادئهم وتقاليدهم وأفكارهم ، حتى يصطبغ مجتمعنا بصبغتهم ، فلا تكون لنا شخصية ولا قومية ، فتصبح لهم كالظلال أو الأتباع ...

إن الفن الصحيح سمو وعلو ، وسباحة فى ملكوت الله ، وسياحة فى كونه العريض ، وأخذ من كتابه المنظور وهو الطبيعة ، وتنسيق بين المخالفات حتى يتكون منها ما يمتع وينفع ، ولكن القوم حرفوا الفن وشوهوه ، حتى خرجوا به عن معناه ومغزاه ، ولسنا ندرى الحكمة فى ربطهم الفن — فى أغلب أحواله — بالمرأة وجسدها والاتصال بها ، فنى الغناء لابد عندهم من الحديث عن المرأة وجمالها وهواها ، وفى معاهد الرسم لابد عندهم من تقديم فتيات عاريات للراسمين حتى ينقلوا عن نماذج حية ، ولماذا يختصون الرجال وحدهم بنماذج حية من الفتيات ؟ ولماذا لا يسيرون على الطريق حتى نهايته أو حتى هاويته بأن يقدموا للفتيات الراسمات نماذج من فتيان عرايا ؟ وفى السينما لابد أن تدور قصة الفيلم حول المرأة وجسدها وتهتكها ... أفهذا فن أم شهوة ؟ أهذا تهذيب أم تخريب أيها الناس ؟ ! ...

وهم لايحسنون عملهم ، ولا يتقنون حتى فى موضوعاتهم المثيرة ، بل ترى صناعة ملفقة مهلهلة حسبها أن تثير غريزة لا أن تثقف عقلا أو تطهير قلباً ، ومن العجيب أن هؤلاء الأقزام الذين لم ينجحوا فى إخراج أفلام متقنة عن موضوعات عادية وشخصيات عادية ، يريدون أن يتوقحوا ويتبجحوا بمحاولة إخراج أفلام عن الأنبياء ، ولعلكم سمعتم بالذين يريدون إخراج فيلم عن سيدنا يوسف الصديق ، وهم لم يختاروا قصة يوسف لتكريمه أو تعظيمه ، بل لعلهم اختاروها ليعرضوا فقط مباذل امرأة العزيز ومراودتها ليوسف وغير ذلك من المناظر التى سيكيفونها بطبيعة الحال حتى ترضى رغبتهم فى إثارة الغرائز والنزول بالمستوى الأخلاقى بين الناس . والمصيبة الكبرى أيها الناس أن أفلاماً تخرج من بلادنا لتعرض فى بلاد إسلامية ، فترفض هذه البلاد عرضها ، لأن فيها غراماً مكشوفاً مبتذلا ، أو رقصات فاضحة ، أو مناظر مخجلة ، وتعيدها إلينا قائلة : إن هذا لا يليق بكم ، ولا بنا ،

وأنتم قدوة وفى مركز الزعامة والصدارة ، فكيف تبعثون إلينا ما يهدم فينا الأخلاق والفضائل ؟ ... يا هادى الطريق جرت ! ... بل لقد نشروا أن بعض الأفلام أرسلت من هنا إلى أمريكا ، وفيها رقصات مشهورة بخلاعتها ومجانتها ، فاستحيت منها أمريكا ، بلد النجوم والكواكب السينمائية ، وبلد التحرر والانطلاق ، وحذفت هذه الرقصات حتى لا تؤثر تأثيراً سيئاً فى الجمهور ! ! . . .

أرأيتم أيها الناس ؟ ... يرتفع مستوى السينما فى أوربا ومع ذلك يكونون اللجان لمقاومة أفلام الشر والفساد ، وينحط مستواها عندنا ومع ذلك نفسح لها المجال ... وهناك فى أوربا يحترمون رجل الدين ويقيمون لرأيه فى هذه الشئون وزناً واعتباراً ، وهنا يفقد رجل الدين مكانته وحرمته ، حتى أصبحوا يتخذونه مادة للسخرية والتندر ، ونحن نتطلع إلى البيئة الفنية فنجد فيها وسائل الإغراء والهدم كثيرة ، ويكن وسائل البناء التهذيب فيها قليلة ، فهى بحاجة إلى تشجيع وتأييد وهناك ألف محرض على التفكك الأخلاقى ، ولكننا محتاجون إلى محرضات على التمسك الخلقى والتسامى الروحى ، فهل من سميع قادر يستجيب لرغبة الإصلاح والتقويم ؟ ! ..

إن فينا أناساً يمثلون المقاومة والمحافظة ، فيحاربون السينما مهما كانت ، وعلى أى وضع صارت ، لأنها عندهم من عمل الشيطان ، ورجس من صميم الرجس ، وهناك فى الطرف الآخر أناس يمثلون التحلل والتداعى ، فيؤيدون السينما بفجورها وشرورها ، ويستبيحون باسم الفن وتحت ستاره كل كبيرة ، ونحن الأمة الوسط نريد أن نقف موقفاً فيه اعتدال وقسطاس ، فنقول إن السينما بوضعها الحاضر وفجورها الظاهر وباء وبلاء ، ولكننا نستطيع أن نجعل من السينما أداة إصلاح وتقويم وتسلية طاهرة ، لوأننا أخضعناها لقواعد الخلق الكريم والأدب القويم والفن السليم ، ويومها نجمع بين متعة النفس

وصفاء الحسن ، وإلى أن يأتى الله بذلك اليوم يجب أن نحترس كثيراً فيما نشاهد من هذه الأفلام ، وأن نحسن لأولادنا الاختيار ، فلا ندعهم يذهبون إلا إلى الأفلام النظيفة الممتازة ، والويل لنا من زمان لا نجد فيه الخير الخالص فنضطر إلى الأخذ بأخف الأضرار ، وفى الشر خياركما يقولون ؛ وتذكروا أن الهيئات الدينية المسيحية تنشر نشرات متتابعة لأبنائها تبين لهم فيها الأفلام التى يصح أن يذهبوا إليها والأفلام التى لا يصح لهم مشاهدتها ، وهى فى هذا النشر تجمع بين التوجيه الدينى والتهذيب الخلقى ، فهل تسمعون ؟ وهل تفهمون ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن شاشة السينما التى يسمونها الشاشة البيضاء قد جعلناها أشد حلكة من الظلمات نفسها ، بما حملناها من شرور وأقذار ، وقد نستطيع أن نجعلها مشرقة بيضاء كأجنحة الملائكة تفيض بالهدى والنور ، ومن قلب الأمة المؤمنة يجب أن تنبعث الصيحات المذكرة بالواجب ، المحذرة من الخصر ، المطالبة بما يجب أن يكون : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وسبحان من لوشاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حفلات للشيطان لا للاحسان[1]

لقد علمنا الدين الحنيف أن نتصدق من حر أموالنا وطيبات أرزاقنا ، فقال تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وعلمنا أن الإحسان الصحيح هو ماقدمه المسلم وهو يخاف الفقر ويخشى العيلة ويحذر الأيام ، حتى تتحقق بذلك التضحية ومجاهدة النفس والشهوات فى سبيل الله ، وعلمنا أن نشارك المحرومين حتى فى اللقمة والكسرة ، وأن نتقى النار ولو بشق تمرة ، وحذرنا من الرياء والنفاق فى هذا الإحسان ، وإلا فقد دخل الإشراك بالله فى العمل ، ومهما بلغ فى أنظارنا وموازيننا فى الثقل والكبر فإنه لا يزن عند الله جناح بعوضة ، لأن الله الواحد الأحد لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، طيباً فى ذاته ، شريفاً فى غايته ، طاهراً فى حقيقته .

هذه طائفة كبيرة من المصريين المسلمين ، تظاهرت منذحين بأن ضميرها قد استيقظ ، وبأن إحساسها قد انتبه ، وبأن البؤس المنتشر والطفولة الشاردة فى مصر قد حركت أشجانهم ، وأدمعت عيونهم ، وقلبت نعيمهم جحيما ، فهتفوا صائحين : لابد من تضحية نقوم بها حتى ننقذ هؤلاء البائسين ولابد من أن نكون جنوداً مجهولين فى تقديم الخير لهؤلاء المحرومين ! . .

وتفاءل بذلك المتفائلون ، وقلنا للتاريخ : تناول قلمك وأرخ هذه الأريحية الكريمة والنبل العظيم ! . فأجاب التاريخ : إنى على استعداد ، ولكنى أريد أن أرى مصداق هذه الأقوال فى جميل الفعال وصالح الأعمال !

فماذا كان من أمر هؤلاء ؟ . أرادوا نصرة الضعيف بضياع الشرف ، وأرادوا مساعدة المحروم بهتك الأعراض ، وأرادوا معونة الأسر الفقيرة

---

(١) ٢١ اغسطس سنة ١٩٤٤ م .

بتحلل الأخلاق ، وأرادوا الإحسان بالأموال فى مقابل التضحية بالكرامات والحرمات فلا مانع عند هؤلاء من أن تجمع القروش للفقراء ولو كانت عن طريق الاتجار بلحوم النساء ، ولا مانع عندهم من أن نتقرب إلى الله بجمع النقود من الميسر والقمار ، ولا مانع عندهم أن تجود ببعض مالك على أنه إحسان ، وتأخذ فى مقابله قبلة أو ضمة أو نظرة زانية من فتاة مسلمة أو سيدة متزوجة فى بلد تدعى زعامة الإسلام ! .

وكان من جراء هـذا التبجح أن أقاموا تلك الحفـلات التى ينسبونها للإحسان . ولو أنصفوا لنسبوها إلى الشيطان ، وكان من جراء هذا الفجور أن تتناول الصحف السيارة فى الصباح والمساء فتصطدم عيناك بتلك الإعلانات الضخمة التى تتحدث عن حفلاتهم المقامة فى البارات والصالات والجمعيات ، ويفاخر ناشروها بأن برامج هذه الحفلات رائعة جميلة لأنها تحتوى على ما يأتى : « رقص . مفاجآت . نمر مسلية . بار أمريكانى قهوة بلدى . روليت . بكاراه . مسابقة جمال . مسابقة أزياء . . إلى آخر ما هناك » .

هذا وإنى على ذكر من أننى تحدثت إليكم ذات يوم فى هذا الموضوع ولكن الشجا يبعث الشجا ، وقد طبع الله على قلوب هؤلاء فما يسمعون وعظاً ، ولا يصيخون لإرشاد ، ولا يقتصدون فى طغيان ، فالحفلات فى تزايد ، وإعلاناتها كل يوم تتكاثر ، ومنكراتها كل يوم تتجدد وتتنوع ، حتى ضج الناس هنا وهناك من هذا البلاء ، فكتب أحد الأدباء يقول : « يروى عن أحد الملوك الأقدمين ممن اشتهروا بالظلم والاستبداد أنه دعا إلى مائدته عالماً من علماء الدين ممن اشتهروا بالصلاح والتقوى ، فلما جىء بالطعام الفاخر وأخذت شفاه الحاضرين من بطانة الملك المستبد تتلمظ للطعام الشهى ، مد رجل الدين يده ، وقبض على بعض الطعام وضغط عليه فسال منه دم أحمر وتطلع إلى الملك وبطانته وقال : « هذا هو ما تطعمون ، إنه دم الشعب

الجائع » ولو شاء الله أن يبلغ بعض المال المجموع من حفلة « الأوبرج » إلى المحرومين من أبناء الشعب ولاح لأحد الصالحين أن يقبض عليه لتحلل بين يديه إلى دم أحمر ، بعضه دم الأعراض التى تداس ، وبعضه دم القمار الذى ينشرونه باسم الفضيلة والخير » .

ودعا ذلك الأديب شيخاً جليلا عرف بدفاعه الطويل عن الفضيلة والأعراض ، إلى أن يقول كلمته ويصدر فتواه فى ذلك المنكر الفاضح والغى الماحق ، فما كان أسرع الشيخ إلى الاستجابة فخرج على قومه بصيحة دامغة حملتها صحيفة سيارة ، وفيها يقول ذلك الشيخ الجليل .

« لا ريب فى أن ما ابتدعه القوم من إقامة المهرجانات باسم الإحسان — وقد ضمت ما ضمت ، من المخالطة والمراقصة وحانات الخمور ولعب القمار— منكر وإثم كبير ! . .

وليس يصح فى الأذهان أبداً أن ينقلب الحرام حلالا والخبيث طيباً ، فإن الحلال بين . والحرام بين .

أمن أجل مواساة العفاة المناكيد من العجزة والأطفال المشردين نقيم معارض وأسواقاً للملاهى . ونجمع الأموال من أبواب السحت ووجوه الغى والضلال . ويقال بعد هذا إننا صنعنا الخير . وفعلنا البر والإحسان ؟ .

يميناً برة . إن هذا الصنيع مقت وإن هذا المال سحت . وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ثم ما للمرأة المسكينة يقحمونها فى هذه المسالك المريبة . ويجعلونها أحبولة من حبائل الشيطان . تراقص الرجال مخاصرة . وتبيع الزهور . وتناول كئوس الحميا للشباب الحائر فى دلال وإغراء . وتوزع نظراتها هنا وهناك

وثمة تشيع الفتنة ويتيقظ الهوى ويكون من المباذل الرخيصة ما يندى له جبين الحر . ويخجل منه الحى الكريم ! .

شاهت الوجوه، إن القوم يخدعون أنفسهم ويحسبون أنهم يخدعون الله وهو خادعهم، وإنهم والله بهذا ليحبطون عملهم، ويحملون وزرهم ويهدمون تقاليدهم، وينتهون إلى أسوأ المصاير !

ما بالهم عفا الله عنهم لا يسخون بالمال خالصاً لوجه الله . ولوجه البائس العانى . فيجزون حسن المثوبة ويكون ذلك الإحسان وقاية لهم وجنة .

ومن المؤسف المبكى أن يتزعم هذه الحفلات الداعرة الخاسرة الجائرة بعض الأشخاص الذين لهم مكانتهم فى الدولة . إذ هم يحسبون بين كبارها وعظمائها . فهلا استحيا أولئك العظماء أن يقرن هذا الغى بتاريخهم فى الحياة وبعد الممات ؟ أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . .

لعل هؤلاء القوم يطالبوننا بأن نقدم إليهم طرقاً ووسائل لتنظيم الإحسان وجمع الصدقات ؟ وها نحن أولاء نقدم بين أيديهم بعض الطرق التى تجمع بين التقرب من الله وبين التباعد عن المعصية .

أولا — يستطيع الغنى الممتلئ بالشحم واللحم أن يصوم يوماً فى الأسبوع يستفيد جسمياً ودينياً . ثم يتبرع بطعام يومه لفقير أو مسكين .

ثانياً — تستطيع المرأة أن تترك وضع الأحمر والأبيض يوماً فى الأسبوع وتتبرع بثمن هذه الزينة للمحتاجين والبائسين .

ثالثاً — تستطيع الأسرة التى تذهب إلى (السينما) مرات ومرات فى

الأسبوع أن تستغنى عن الذهاب إلى السينما ولو مرة ، وتتبرع بثمن التذاكر لجائع أو محروم .

رابعاً — تستطيع الأسرة أن تضع على مائدتها كل يوم جملة ألوان وأصناف من الطعام أن تقتصر يوماً فى الأسبوع على صنف أو صنفين وتوزع الباقى أو ثمنه على الحفاة العراة المعدمين .

أفلا ينظر هؤلاء إلى ما كان من على بن أبى طالب وأسرته فى هذا الباب ؟ لقد روى أن مرضاً أصاب الحسن والحسين ابنى على رضى الله عنهم فنذر هو وزوجته البتول فاطمة وجاريتها فضة أن يصوموا ثلاثة أيام إن حقق الله لهما الشفاء ، فلما تجلى الرحمن الرحيم عليهما بلطفه وعافيته ، بدأت الأسرة العلوية فى الصوم ، ولم يكن بالبيت شىء من الطعام ، فذهب على واقترض من رجل يهودى ثلاثة صيعان من الشعير ، فخبزت فاطمة صاعاً منها ليفطروا به فى نهاية اليوم الأول ، ولما غربت الشمس ووضع الطعام بينهم ، طرق عليهم الباب سائل يقول : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا مسكين من مساكين المسلمين ، أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فأعطوه ما أمامهم وهم أشد الناس حاجة إليه وحباً له ، واكتفوا بشرب الماء وأصبحوا صائمين . فلما انتهى اليوم الثانى وضعوا خبز الصاع الثانى بين أيديهم . فوقف ببابهم يتيم يقول : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا يتيم فأطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فأعطوه ما أمامهم وعادوا إلى شرب الماء وباتوا صائمين ، وفى نهاية اليوم الثالث وضعوا خبز الصاع الأخير بين أيديهم ، فوقف ببابهم أسير يقول : أنا أسير فأطعمونى أطعمكم الله . فأعطوه ما أمامهم وباتوا على الماء وقد التصقت بطونهم بظهورهم وفى الصباح جاءتهم النجدة الإلهية وأتاهم

الجزاء الأوفى . إذ نزل جبريل على محمد يقول : خذها يا محمد هناك الله فى أهل بيتك . فقال : وما آخذ يا جبريل ؟ فقرأ عليه سورة (الدهر) وفيها يقول الله تبارك وتعالى عن على وأسرته : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) إلى آخر ما قال التنزيل الحكيم !

يوم الفتح[1]

الحمد لله عز وجل ، وهو ولى الأمر ومصدر الخير : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يداول الأيام بين الناس ، ويقضى بالعدل بين العباد ، وهو أحكم الحاكمين ؛ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أعز كلمة الحق والتوحيد ، ففاز بالتخليد والتمجيد ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى فروع دوحته ، وكوكب صحبته ، وجنود دعوته : « لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تطوف بنا فى هذه الأوقات ذكرى يوم من أيام الإسلام مشرق الصفحات باهر اللمحات عميق العظات ، وهو يوم الفتح المبين : فتح مكة الذى كان فى العشرين من رمضان فى السنة الثامنة للهجرة ، وهو اليوم المجيد المشهود الذى شاء ربكم أن يضع فيه حداً للضلال والتهاون ، وأن يمكن فيه لليقين والإيمان ، وأن يتم على دعوة الحق فتحاً مبيناً بلا قتال أو صدام ؛ فهذا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه يوقع قبيل الفتح عهد الحديبية مع قريش ، على الرغم مما فيه من شروط قاسية فى ظاهرها على المسلمين ، ولكن النبي يقبلها لأمر يريد الله أن يبلغه ، « والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ولأنه يريد توطيد السلام ونشر الإسلام ؛ وأخذت قريش لنفسها فى هذا الصلح ما أحبت من الشروط والاحتياطات ، ومع ذلك نقضت العهد وخانت الميثاق ، واعتدت على حلفاء المسلمين ، وقتلت

---

(١) ٢٢ رمضان سنة ١٣٧٧ هـ ـــ أبريل سنة ١٩٥٨ م .

منهم عشرين على حين غفلة ، كما يفعل المجرمون الأخساء الذين لا عهد لهم لا عاصم يعصمهم ولا هادى يهديهم من شرف أو وفاء . . . (السيرة لابن كثير ٣ / ٥٦) .

وأحست قريش بسوء ما فعلت ، وقدرت تبعات ما اقترفت ، وحاولت أن تخادع المسلمين والله خادعها وقامعها ، فجاء أبو سفيان إلى المدينة عقب ذلك العدوان — وقد كان لقريش زعيما يومئذ — جاء محاولا لقاء الرسول ظاناً أنه لم يعلم بالعدوان كى يؤكد المعاهدة أو يجددها ويزيد مدتها ، وهيهات . . . وكانت بنته أم حبيبة زوجة للرسول ، فأراد أبو سفيان أن يستغل هذه الرابطة والعلاقة ، فدخل على ابنته يريد أن ينتفع بها فى خداعه ومسعاه — وخاب فأله — فلقد أراد أن يجلس على فراش النبى وهو لم يطهر بالإسلام بعد ، فطوت أم حبيبة الفراش عنه فعجب منها وقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش [أى تكريماً لى عنه] أم رغبت به عنى [أى ارتفعت به على] . فأجابته إجابة المؤمنة التى تنسى فى سبيل ربها ونبيها وعقيدتها كل صلة وكل قرابة قالت : « بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فدهش أبو سفيان لهذه المفاجأة وقال لها : والله لقد أصابك بعدى يا بنيتى شر . . . وحاول أبو سفيان أن يحقق شيئاً مما جاء له فلم يفز بطائل وعاد إلى مكة بخفى حنين . . .

وانتهز الرسول الفرصة ليضرب ضربته الصالحة المصلحة التى يزهق بها روح الفساد ، ويثبت بها دعائم الحق ، فجمع الجموع بسرعة ، وخرج فى اليوم العاشر من رمضان ، فصام أول الأمر وصام الناس معه حتى إذا كان فى مكان « الكديد » أفطر (القصاصات) انظر السيرة لابن كثير ٣ / ٥٤١ و ٥٤٢)

وسار فى عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً يريد فتح مكة سراً وفجأة، وأوعب معه الناس، فلم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار، وكان يريد بهذه الكثرة أن يجعل المشركين أمام الأمر الواقع فلا يطيقوا مقاومته هذا الخميس العرمرم [الجيش الكبير] ، فيسلموا فلا يكون هنالك نزال أو قتال ؛ ولذلك أخفى الرسول مقصده ، وأمر قومه بالجد والتهيؤ ، وكان يدعو قائلا : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها ؛ اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة » . وتلك هى طريقة الحرب الخاطفة سبق إليها محمد قبل مئات السنين ، ولكنه لم يستخدمها كما يصنع طواغيت الحروب وجبابرة المعارك للتدمير أو الاستعباد، بل لنشر السلام وتحطيم الأغلال والأصفاد ، وتحرير العباد والبلاد .

وسعى ركب الرسول الحاشد ، وخرج أبو سفيان القوى العملاق يتحسس ويستطلع ، وفى ذهنه ما فيه من دهشة لتخاذل الكفر يوماً بعد يوم ، وسطوع الإيمان حيناً بعد حين ، وما هى إلا لحظات حتى يلتقى بالرسول ويسلم ويخضع للحق وما زال الركب على الطريق ، ويأمر النبى عمه العباس أن يقف بأبى سفيان عند مضيق الوادى « حتى يمر به جنود الله فيراها» ولما رأى أبو سفيان ما رأى من الجنود والحشود عجب وقال للعباس : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » . فصحح له العباس فكرته قائلا : « ويحك يا أبا سفيان إنه ليس ملكاً ، إنها النبوة » . فيذعن أبو سفيان ويقول : فنعم إذن ! . . . وبعد أن خرج أبو سفيان من مكة منذ قليل زعيما للمشركين عاد إليها يتقدم الركب وهو أحد المسلمين يخذل أهل مكة ، ويوئسهم من فائدة القتال ، ويدعوهم إلى التسليم ، وينادى فيهم بإكرام الرسول له الذى جمع فيه بين إرضاء فخره وتحقيق ما يريده من سلام ، وهو قوله: « من دخل دار أبى سـفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه

بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . ويا له من صنع إلهى أن ينقلب المحرض القوى ضد الإسلام داعياً قوياً يمهد الطريق للإسلام والسلام . . . والله يؤيد دينه من يشاء ، وسبحان مقلب القلوب وسبحان من يأخذ بنواصى العباد إلى ما أراد . . .

وقسم الرسول جيشه الضخم ، وأمر كل قسم بأن يدخـــل مكة من جهة ليتم المفاجأة والمباغتة ، فلا يجد الكفار أمامهم إلا التسليم بلا صدام ، ونهى النبى أن يقاتل أحد أو يريق دماً إلا مضطراً ، وحدث أن استبدت الحماسة بأحد المسلمين ، وكأنه لم يعلم خطة الرسول السلمية ، وكان يحمل راية من رايات المسلمين ، فقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً » ، فغضب الرسول لذلك ، ونزع الراية منه وأعطاها لغيره قائلا : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم تصان الحرمة ، اليوم أعز الله قريشاً » ؛ ويا له من قول نبى كريم ورسول عظيم ، تعالى على الأحقاد والأضغان ، وسما بمكانة الإنسان إلى ذروة الرحمة والحنان . .

ومضى الركب الهائل فى طريقه ، والرسول يخفض رأسه على راحلته تواضعاً وخشية من ربه وخضوعه لجلاله ، حتى يمس شاربه ظهر الدابة ، وعاد المهاجرون إلى أوطانهم ، ورجع الغريب إلى داره ، ودخل محمد مكة التى أخرجته دخلها بعد غيابه عنها ثمانى سنوات ، ورأى مشاهد الوطن الحبيب ، ورأى المسالك والدروب التى سار فيها طفلا وشاباً ورجلا رسولا ، وتطلع إلى الشباب والجبال حيث أوذى وطرد وعذب ، وتطلع إلى غار حراء حيث تعبد وتحنث وتلقى الوحى ، وتطلع إلى الكعبة الحرام التى حيل بينه وبينها زمناً طويلا ، فترقرق الدمع فى عينيه ، من جلال الذكرى وروعة اللقاء ! . . . ولعله تذكر قول ربه « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » .

وطاف محمد ومن معه بالبيت العتيق ، وسارع بالتطهير الكامل ، فحطم الأصنام المحيطة بالكعبة وهويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وأمر بلالا داعى السماء أن يؤذن فانطلق الأذان بكلمة التوحيد ودعوة الصلاة وهتاف الفلاح فى رحاب البلد الحرام ومن حمى الكعبة الحرام ، وفتح الرسول بيت ربه وطهره مما فيه من بقايا الجاهلية مردداً « لا إله إلا الله وحــده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » . وجاء موقف الجلال الرائع والنبل العظيم ، حين تعلقت عيون المكيين الخائفين بوجه محمد الذى قال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا فى إجلال ورجاء : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال الرسول السمح والنبي الفاتح والزعيم المتمكن قال لأعدى أعدائه فى الأرض : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! . . . وكأنما نشروا من القبور حين سمعوا ما سمعوا ، فقد كانوا ينتظرون الجزاء العادل تقتيلا وتشريداً فجاءهم عفواً كريماً وصفحاً حميداً ، فآمنوا بأن محمداً هو رحمة الله المهداة وأنه رسول هذه الحياة ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، وتحقق « نصر من الله وفتح قريب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنها لذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ، فلنذكر أيام محمد ، وجهاد محمد ، وفتح محمد ، ولنحسن الانتفاع بهذه الذكرى ، حتى نجدد بحوافزها مابلى من الهمم ، ونقوى ما ضعف من العزائم ، ونثير ما خمد من عواطف اليقين والإيمــان « فــذكر إن نفعت الذكرى . ســيذكر من يخشى » . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . . .

ذكرى غزوة بدر[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يؤيد بنصره المؤمنين الأخيار ، ويخذل بغضبه الفاسقين الفجار : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ». أشهد أن لا إله إلا الله ، يزكى القليل الطيب بفضله ورحمته ، ويمحق الكثير الخبيث بعدله ونقمته : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ولى وجهه شطر ربه ، ففاز بتأييده ونصره ، وسعد بثوابه وأجره ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى هذه الآونة التى نحياها تهب علينا من روضة التاريخ المضمخة بعبير الإسلام وشذا النبوة إحدى الذكريات الجليلة المجيدة ، التى لا تزال تعطى القدوة وتثير النخوة وتحرض على البطولة ، وهى ذكرى غزوة بدر التى يجب على المسلمين أن يتذكروها دائماً ، وأن يتدبروا مواقفها جيداً . ففى ذلك إحياء لحوافز الإقدام والإيمان فى نفوسهم ، وربط لحاضرهم بماضيهم ، ومدارسة لسيرة نبيهم وأجدادهم . واستلهام لمواطن الفخار والمجد فى تاريخهم ، واتصال بقرآنهم الذى خلد هذه الذكرى بينهم ، فهم يعرفون منه أمرها ، ويتلون فى آياته خبرها ما توالى الليل والنهار . وغزوة بدر قد سماها القرآن المجيد « يوم الفرقان » ، لأن الله جل جلاله قد فرق فى هذه الغزوة الأولى من غزوات الإسلام بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفران ، وبين

---

(١) ١٥ رمضان سنة ١٣٧٧ هـ — ٤ أبريل سنة ١٩٥٨ م .

أنصار الرحمن وأتباع الشيطان ، وبين القلة الخيرة من جنود الفضيلة والعدالة والكثرة الشريرة الماكرة من طواغيت الإثم والفساد : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » .

وغزوة بدر كانت أول صدام حسي بين قوى البغي والطغيان وكتيبة اليقين والإيمان ، فني صباح اليوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة وفي يوم جمعة ، وفي قلة من المسلمين المغتربين ، وفقر وجوع بينهم ، وضعف في سلاحهم ، وفجأة في خروجهم ، وفي زهو من قريش وكبريائها ، وزيادة في عددها وعدتها ، وتمكن من تجارتها وحياتها ... في هذا الجو الرهيب أخذت المعركة طريقها إلى الميدان ، وكان لكل قلب يومئذ شاغل من الهول ، ولكل عين لافت من الفزع ، ولكن عيناً ساهرة لاتنام ، يقظة لاتغفل ، ظلت تشهد وترقب ، وتحصي وتحسب ، هي عين قيوم السموات والأرض ، الذى « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وكان لكل من الفريقين يومئذ تفكير وتدبير ، وكان للحق جل جلاله فوق الجميع قضاء وتقدير ، فقد خرج المسلمون يوم بدر لا يريدون حرباً ولا قتالا ، وإنما يريدون الاستيلاء على قافلة التجارة التى كانت للمشركين ، كتعويض صغير عما فقدوه بسبب الهجرة ، ولكن القافلة أفلتت من أيديهم ؛ وقد خرج المشركون في جموعهم ليحموا القافلة أولا ، فلما نجت أبى لهم غرورهم وكبرياؤهم إلا أن يتباهوا بقوتهم وطغيانهم وأن يحاربوا محمداً وصحبه ، فكان لا مفر للمسلمين من إقدامهم على المعركة فى شجاعة وإيمان ، مع أن عدوهم يبلغ ثلاثة أمثالهم ، فهم نحو الثلاثمائة والمشركون نحو الألف ، وكان السلاح والعتاد متوافرين لدى المشركين ، والمسلمون في فقر وضعف وقلة حتى في دواب الركوب ، فكل ثلاثة منهم يتناوبون دابة ؛ وهذا على وأبو لبابة كانا شريكين للرسول في دابة ، فأرادا أن يفضلاه في الركوب ويمشيا بدله ، فرفض ذلك وقال

فى تواضع وحكمة : ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر ! ...

وياعجبا كل العجب ؛ إن الذين خافوا من الحرب ولم يعدوا أنفسهم لها ولم يحرصوا عليها جاءهم النصر العظيم والفتح المبين ، والذين أعدوا للحرب عدتها ، وأقسموا وأكدوا أن النصر حليفهم ، وأن الجولة كلها لهم ، وأنهم سيشربون الخمر وينحرون الذبائح ويسمعون غناء المغنيات ، جاءهم الذل والهوان ، وأتاهم من الله مالم يحتسبوا ، وقديماً قال الإمام على : « تذل الأمور للمقادير حتى يكون الحتف فى التدبير » . وانقلب الوضع تماماً ، فأصبح المغترون أذلاء ، وصار المستضعفون أعزاء : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » . وإنما كان ذلك لأن عناية الله وحدها هى التى كانت تصنع الأحداث وتدير الأمور يومئذ ، فالمسلمون لا يفكرون فى القتال ، والقافلة فيها ألف بعير مثقلة بالتجارة والبضائع ، وهى غنيمة طيبة طيعة لأن حراسها لا يزيدون على الأربعين ، والرسول يريد للمسلمين أن يأخذوا هذه القافلة تعويضاً عما فقدوا . ولكنه لم يفرض عليهم الخروج ولم يشدد عليهم فى المسير ، بل جعل الأمر اختياراً ، فخرج منهم ثلاثمائة هربت من أيديهم القافلة ، وليس هذا فقط ، بل خرج لهم ألف شيطان من عمالقة الكفر ، حتى قال الرسول عنهم : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ... وإذا بالمسلمين يرون أنفسهم وجهاً لوجه أمام العدو ، ويرون أن ربهم يسوقهم سوقاً إلى المعركة الفاصلة ليقفوا موقفاً من مواطن اليقين والكرامة ، فلابد لهم أن يكونوا رجالا ، وأن يكونوا أبطالا ، وأن يكونوا للإيمان مثالا ، وهاهو ذا الرسول يستشيرهم قبيل الصدام لكى يتثبت من

عزائمهم ، فإذا أمرهم استجابة وإنابة ، وطاعة وإقدام ، وثقة بالحى القيوم ، ورجاء واسع فى رحمن الدنيا والآخرة ، وإذا هم يقولون لنبيهم فيما يقولون : إنا لن نقول لك كما قال قوم موسى له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ؛ ولكننا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، فسر بنا على بركة الله تعالى ! ... وهنا يدرك صدر النبوة الكريم ما وراء هذا التصميم المؤمن من فوز ونصر ، فيحمل إليهم البشرى المطمئنة ، قائلا : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم ! » .

وبدأت المعركة ، وأقبل عليها الباطل بغروره وكبريائه ، والشرك بصلفه وعسفه ، حتى قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصف ذلك : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها تجادلك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فنصرك الذى وعدتنى » ! ... وأقبل المسلمون عليها فى فقر مع إيمان ، وفى قلة مع ثبات ، وفى احتياج شديد مع ثقة بالله لاتحد ، ويكفى أن يصور الرسول محنتهم وشدتهم حينئذ ، فيناجى ربه قائلا : « اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم » ! ... وتحقق وعد ربك الذى لا يتخلف ، فجاء للمسلمين النصر ، وفتح الله عليهم بيوم بدر ، وأعادهم إلى ديارهم بخير ، قد حسن إليهم بالجمع بين الثبات فى الجهاد ، والفوز على الأعداء ، والحصول على ما أذهب جوعهم وستر عريهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

إنما يصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أولها : من إيمان بالله ، ورجوع

إليه ، واعتماد عليه ، واستعانة به ، وستظل غزوة بدر برهاناً ساطعاً على تلك الحقيقة ؛ وإن الأمة المســلمة التى استطاعت أن تثبت أقدامها وترفع أعلامها وتنفذ أحكامها وعــددها قليل وعتادها ضئيل لا تعجز أن تفعل مثل هذا وقد كثر منها العدد وتضخمت العدد ، لو أنها صححت عقيدتها ، وجددت إيمانها ، واستلهمت قرآنها ، ووصلت أسبابها ببارئ الكون جل شأنه وعز سلطانه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

ذكرى غزوة بدر[1]

الحمد لله عز وجل ، ناصر أوليائه وخاذل أعدائه : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، جعل العاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم تصده القلة أو العيلة عن مواطن اليقين والثبات ، « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المهتدين بهم فى الظلمات ، وأصحابه المستخفين بالملمات » وأتباعه المنتفعين بالعبر والعظات : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

بالأمس كان اليوم السابع عشر من رمضان ، وفى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى التى نزل فيها القرآن والتقى الجمعان : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، ونحن فى أشد الحاجة إلى العناية الواسعة بمثل هذه الذكرى الواعظة الحافزة ومع كثرة الثمرات الكبيرة التى نجنيها إذا أحسنا الاحتفال والاستقبال لذكرى هذا اليوم الجليل الخالد فى الأيام ... فإن دراسة ما يتعلق بيوم بدر لون من التفقه فى دين الله (ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين) كما قال الصادق المصدوق عليه صلوات الله؛ فغزوة بدر لم تكن معركة بين طائفتين فحسب ، بل صارت كقطعة من الدين والعقيدة ، لأن الله تبارك وتعالى قد خلد سيرة هذه الغزوة فى سورتى الأنفال وآل عمران من القرآن ، والقرآن هو كتاب ربنا المتعبد به ، وهو يتلى بيننا كل يوم ، ونحن نرتله ونردده فى الصلوات

---

(١) ١٨ رمضان سنة ١٣٧٨ هـ — ٢٧ مارس سنة ١٩٥٩ م .

وغير الصلوات ، ونعبد خالقنا بهذه التلاوة ، ونثاب عليها منه سبحانه ، ومن عجيب صنع الله للمسلمين أن فرج لهم بين تاريخهم ودينهم ، فنى صفحات تاريخهم تتبدى ملامح الكثير من تعاليم هذا الدين ؛ فحين يتدارس المسلمون غزوة بدر يكونون كالمتدارسين للقرآن دستور الإسلام : (وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) .

ومن ثمرات العناية بذكرى غزوة بدر تحقيق معنى البر والوفاء ، لأنها استعراض لجانب من جوانب السيرة النبوية ، وفى استعراض هذه السيرة العاطرة تمجيد لصاحبها الرسول عليه الصلاة والسلام ، ذلك النبى الذى تعب لنستريح ، وجاهد لنسعد ، ومهد الطريق الصعب أمامنا لنسلكه هينا لينا مستقيما ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ... » ، ثم هؤلاء الصحابة الذين رافقوه وأخلصوا لدعوته ، وجاهدوا فى سبيل الله فأحسنوا الجهاد ، وبذلوا من نفوسهم ونفائسهم ... أليس من الوفاء لهم والعرفان لمكانتهم أن نتذكر تاريخهم ونستعرض سيرتهم ، وخصوصاً أن حياتهم قد ارتبطت منذ آمنوا أوثق الارتباط بحياة هذا النبى الأمى الكريم الذى أخرج الناس بفضل ربه من الظلمات إلى النور ؟ ...

وهناك ثمرة أخرى من مدارستنا لغزوة بدر وأمثالها من مواطن الجهاد ومواقف النضال . فالسابقون الذين ثبتوا فى هذه المواقف كانوا قد تعرضوا لأزمات عاتية وشدائد مزلزلة . فوفقهم ربهم فسلكوا فيها طرق الكفاح والنضال . ففازوا وأفلحوا ، ونحن اليوم يمر علينا ما يشبه هذه الأزمات ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، فالباطل يتنمر ، والبهتان يستأسد ، والحق غريب

مضيع ، والقابض على دينه أو حقه أو مبدئه كالقابض على الجمر ؛ ولو أننا أخذنا القدوة والأسوة من جلال هذه الذكرى ، وفعلنا مثلما فعل الأولون لنجحنا مثلما نجحوا ، وفزنا كما فازوا والأمر كما قال القرآن: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ... » إننا نرى اليوم صراعاً يدور بين الحق والباطل ، وكذلك كان الحال يوم بدر ، واليوم يتصارع الكفران والإيمان ، وكذلك كان الموقف يوم بدر ، حتى قال الرسول يدعو ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » ... واليوم يستبد الطغاة البغاة ، فيعتدون على الآمنين ، ويسلبون حقوق الضعفاء ، وغزوة بدر كانت انتصافاً من الظالمين للمظلومين ، ومن الباغين للمهضومين المجرمين ، ومن هنا دعا النبى ربه من أجـــل أتباعه يوم بدر فقال : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وإنهم عراة فاكسهم ، وإنهم جياع فأطعمهم » وحقق الله لرسوله دعاءه ، فعاد قومه بالمغنم والثواب معاً « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ... »

ومن العجيب الغريب أن المسلمين خرجوا مع النبى يوم بدر ، وهم لا ينتوون قتالا ، وإنما يريدون قافلة التجارة الخاصة بكفار مكة ، ليستولوا عليها فى مقابل جانب مما استولى المشركون عليه من أموال المسلمين وحقوقهم ، وليقطعوا الطريق على تجارة قريش إلى الشام ، وفى ذلك ما يجعل قريشاً تخضع وتلين ، فلا تكابر ولا تطغى ، ولم يفرض الرسول على أحد أن يخرج معه ، ولم يستحث متخلفاً تخلف ، ولذلك لم يأخذوا للمعركة أهبتهم ، ولم يعدوا للقتال عدتهم ؛ ومع ذلك شاء الله أمراً آخر ، إذ وجد المسلمون أنفسهم أمام العدو وجهاً لوجه ، وليس بأيدى المسلمين سلاح يكفى أو عتاد يغنى ، ومع ذلك أقبلوا على المعركة صابرين واثقين بنصر الله ، وثبتوا حتى صاروا هم

الغالبين ، وعلموا الدنيا أن الإقدام خير من الإحجام ، وأن المنية خير من الدنية ، وأن الله مع المخلصين .

وأمام الفئة القليلة المؤمنة التى سيقت إلى المعركة قضاء وقدراً ، ولم تكن تريد حرباً ،تكتل الجمع المشرك الباغى يحرص على العدوان فى زهو وخيلاء ، فهذا أبو سفيان يرسل لأهل مكة بأنه لاحاجة لخروجهم بعد أن أفلت ونجا بالقافلة ، ولكن الغرور الكافر المتمثل فى أبى جهل يأبى إلا الخروج ، ويصر على أن يذهبوا إلى مكان بدر ليأكلوا الذبائح ويشربوا الخمور ويسمعوا الغناء ويشاهدوا الرقص حتى يسمع بقواتهم الناس ؛ فماذا كانت العاقبة ؟ ... خذل الله الكافرين المغترين ، واذاقهم الويل والثبور وهم كثرة مسلحة ، وأعز الله المؤمنين الخاشعين وهم قلة عزلاء: « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

وكم فى غزوة بدر من دروس ، فهذا رسول الله نراه مع أنه معصوم ومؤيد بوحى السماء،ومقود بتوجيه العليم الخبير « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » ، نراه لا يستبد بالرأى ، ولا ينفرد بالتنفيذ ، ولا يجعل من نفسه طاغية فردا ، أو حاكماً بأمره ، بل يستشير قومه ، فيجيبه قائل المهاجرين : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنامعكما مقاتلون » . . ويعيد الرسول قوله : « أشيروا على أيها الناس » وهو يقصد الأنصار ليطمئن إلى موافقة الجميع ، فيجيبه قائلهم : (يا رسول الله ، امض لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد) . وهكذا لا يتعالى القائد ولا يتميز على جنوده ، بل يشاركهم الشدة والمحنة ، ولا يقبل هذا التميز إذا عرضوه

مختارين ، فهذا رسول الله يشترك معه اثنان فى ركوب بعير على التعاقب لقلة الدواب ، فيقولان له : اركب يا رسول الله ونحن نمشى عنك . فيأبى ويقول : « ما أنتما بأقوى على المشى منى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » ! ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هـــذا بعض الحديث عن يوم بدر الجليـــل الخالد فى التاريخ ، ونحن نحتفل بالكثير من الذكريات والمناسبات المدنية والاجتماعية ، وقد يكون بعضها غير أهل لمـــا نبذله فيه من عناية وملل ، أو مانحشد له من قوى وطاقات ، فكيف بنا نقصر فى الاحتفاء اللازم بيوم بدر ، ولو أدرنا حديثه والاحتفال به كما ينبغى ويجب لاســـتفدنا جلائل الدروس والثمرات فى نواحى حياتنـــا المختلفـــة « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » والله يهدى من يشاء إلى صراط المستقيم .

الاسلام ومعاملة الأسرى[1]

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الغالب ، القادر المحاسب « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يحكم بالعدل ، ويمن بالفضل ، والله أحكم الحاكمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان رسول الملحمة ونبي الرحمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته ، وأهل صحبته ، وأتباع سنته ، ومن دعا بدعوته « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

تناقلت الأنباء أخبار جريمة لجأ إليها الأعداء اللئام للاعتداء على كرامة الإنسانية والاستخفاف بالحقوق البشرية ،وهى أن بعض أطبائهم سمحت لهم دناءتهم أن يقوموا بعمليات جراحية ، ينقلون فيها أجزاء من أجسام بعض الجرى الأسرى لديهم إلى أفراد منهم يحتاجون إلى هذه الأعضاء ، فذكرنا هذا بما جاء فى بعض كتبهم المقدسة فى نظرهم أن القائد منهم إذا انتصر على مدينة واحتلها فعليه أن يقتل جميع ذكورها بالسيف وأن يأخذ كل النساء والأطفال والبهائم غنيمة له[2] وهذه الدناءة يجب أن تذكرنا بفضل الإسلام على العالمين ، لأنه صان كرامة الإنسان من العدوان حتى قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » ، ولأنه ضمن للأسرى حقوقاً يجب أن تكون قدوة للمتحاربين أجمعين ، وهذه الحقوق يجب أن نعيها وأن نعلنها ، ليستبين لكل عاقل أن فضل الإسلام على الإنسانية عنوان فخار واعتزاز به : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، « والأسير » كلمة

---

(١) ٢٩ شوال سنة ١٣٩٣ هـ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٧٣ م .

(٢) نص من كتاب حقائق الاسلام للعقاد ص ٣٢٢ .

مأخوذة من الأسر ، وهو الشد بالإسار ، أى بسير من الجلد أو نحوه ، وكان الأسير فى الأصل يقيد به حتى لا يفر ، ثم صار لفظ الأسير يطلق على المأخوذ فى الحرب ، سواء أكان مقيداً بالجلد أم غير مقيد .

وإذا كانت اليهودية تدعو المنتصر إلى قتل كل الأسرى من الرجال . وإلى استعباد النساء والأطفال فإن القرآن منع هذا العدوان بعد انتصار الحق وكسب المعركة بحرب صارمة لابد منها للمقابلة بالمثل ، ورد العدوان وردع الطغيان ، فيقول : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء » وأعطى الإسلام إمام المسلمين الحق فى أن يعفو عن هؤلاء الأسرى إذا رأى المصلحة العامة فى ذلك ، أو يأخذ منهم الفداء إذا احتاج المسلمون إلى ذلك ، ونحن لا ينبغى أن ننسى موقف العفو الرائع من الرسول بعد أن انتصر انتصاره الرائع فى فتح مكة ، حيث قال للمهزومين المدحورين من مشركى مكة (ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا طامعين راجين : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء) وكان قادراً على أن يعمل فيهم السيف كما تردد أقوال اليهود .

وعلم النبي أتباعه أن الانتصار مع التمكن من الأسرى لا ينبغى أن أن يدفعهم إلى الإسراف فى إسالة الدماء ، بل ذكرهم بالإنسانية وحقوقها المشتركة ، فقال لهم فى شأن الأسرى والأرقاء : « إن الله ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم » ، وقرر أن من سيطر على أسير وأعطاه عهد الأمان على حياته فلا يجوز أن يهدر عهد الأمان معه بعد ذلك [قصة الهرمزان] ، فقال : « من أمن رجلا على نفسه فقتله فأنا برىء من القاتل » : وزاد الإسلام فى كرامته وسماحته مع الأسرى ، فألزم المسلم الآسر أن ينفق على أسيره ، وأن يطعمه مما يطعم ، ويكسوه مما يلبس ، وأن لا يكلفه فوق طاقته من العمل ، وها هو ذا القرآن المجيد يصف الأخيار

الأبرار من عباد الرحمن فيقول عنهم : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » فالقرآن هنا يدعو المسلم إلى أن ينظر إلى الأسير نظرة العطف والرحمة لا نظرة التشفى والانتقام من أن صار أسيراً ضعيفاً . ولذلك عطفت الآية الأسير على المسكين واليتيم ، وهما ممن يستحقون المثوبة والإنفاق ، وقال معلم الإنسانية صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة » . وبلغت سماحة الإسلام مع الأسرى مبلغاً رائعاً باهراً ، حيث منع التفريق فى الأسرى بين الوالدة وولدها حتى لا يتعرض الولد للضياع والحرمان من جهة ، وحتى لا تتعرض الأم الأسيرة للقلق والخوف على ولدها من جهة أخرى ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم مهدداً من يفعل ذلك أقوى تهديد : « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة »[١] ، وزاد الإسلام سماحة حين علم أبناءه أن يكونوا مؤدبين مهذبين حتى فى خطاب هؤلاء الأسرى الأرقاء، فقال الحديث الشريف عنهم : « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى » فكأنهم أفراد من أسرة ذلك المالك الآسر .

وإذا كان التاريخ قد شهد ويشهد محاولات كثيرة من المجرمين الآسرين لحمل الأسرى على ترك عقيدتهم بطريق العسف والإكراه، والتهديدو الوعيد، والاعتداء بالتعذيب ، فإن الإسلام قد حرم هذا الإكراه ، وسد الباب فى وجه هذا العدوان ، فقال القرآن : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله[٢] ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » وجعل القرآن الهداية إلى الحق من عمل الله

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٦٨ . (٢) اى عن اقتناع واختيار .

الخالق البارئ فقال عقب ذلك : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ،والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وفى الوقت نفسه حرض القرآن العظيم على ترغيب الأسرى الشاردين عن طريق الحق فى الاهتداء إلى شريعة العدل والنور ليسعدوا ويفوزوا وتصير لهم كرامة الإسلام وحقوق المسلمين فقال : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم »[1] : وها هو ذا الرسول الحكيم العظيم يقول فى هذا المجال : « عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل » وهو يريد بهذا — والله أعلم بمراده — أن من الأسرى المقيدين بالقيود من يشرح الله للإسلام صدره ، فيسلم فيستحق رضوان الله عليه ، فيصير إلى نعيم الجنة ، وقد كان قبل ذلك مقيداً بسلاسل الأسر والاسترقاق . وقد اتسعت سماحة الإسلام فى هذا المجال حتى شملت عبيد المشركين أنفسهم ، فقد كان من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعتق عبيد المشركين إذا تركوهم وهاجروا إلى المسلمين مهتدين ، وقال فى شأنهم : « هم عتقاء الله عز وجل » .

ولكن ، ليس التسامح مع الأسرى أمراً يفيد معنى التخاذل أو التهاون أو الضعف فى مقاتلة الأعداء ،وإنما هو أمر يأتى مع القدرة وبعد إعطاء المعركة الواجبة حقها من الشدة والقوة والصرامة ، فالقرآن الكريم يطالب بالشدة فى أثناء المعركة إذا لزمت ووجبت ، حتى لا يطمع فينا الأعداء ، أويستخف بنا الطغاة المجرمون ، ولذلك قال الحق جل جلاله كما عرفنا : « فإذا لقيتم

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٠ ، وفى الوقت نفسه حذر هؤلا اللئام من الأسرى أن يخدعوا ويخونوا فقال عقبه ذلك : « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليهم حكيم » الآية ٧١ .

الذين كفروا [أى فى المعركة] فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ثم ماذا عقب هذا ؟ يقول الكتاب العزيز : « فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ، وذلك لأن الحرب فى نظر الإسلام ضرورة تقدر بقدرها – كما يقول بعض المفسرين – وليست الحرب فى نظره ضراوة بسفك الدماء . ولا تلذذاً بالقهر والانتقام ، ولاتوسعاً فى العلو والسيطرة ، ولذلك خيرنا الله تعالى : – بعد استكمال النصر على الأعداء بالقوة والكفاح – بين المن على الأسرى وإطلاق حريتهم بفك الوثاق وإطلاق السراح ، أوبالفداء بالمال أو تبادل الأسرى ، ولم يأذن لنا سبحانه فى هذه الحالة بقتلهم أوالتمثيل بهم أو القسوة عليهم دون مسوغ أو تبرير . ويقول القرآن فى موطن آخر : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »(١) . ويقول فى موطن ثالث : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »(٢) .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ادرسوا تعاليم دينكم جيداً فى الحرب والسلم ، وطالبوا العالم كله بأن يفتح عيون أبنائه ليروا الفرق الواسع بين سماحة الإسلام ودناءة أعداء الإسلام ، وكونوا أيها المسلمون دائماً كما أراد لكم ربكم أقوياء أعزاء عند القتال والصدام ، وكونوا شرفاء سمحاء ، بعد أن تستكملوا النصر ، ليتضاعف لكم الأجر ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى لكم .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٣

(٢) سورة التحريم الآية ٩ .

بين اللين والشدة مع الأسرى[1]

الحمد لله عز وجل ، هو صاحب الدين الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، خير من علم وقوم : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، العزة ميراثه ، والحق تراثه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته، وأبطال صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حدثتكم فى الأسبوع الماضى عن سماحة الإسلام فى معاملة الأسرى ، وعرفت معكم أن هذه السماحة لا تصدر عن الضعف والهوان . وإنما تأتى مع القوة والسيادة ، ويحسن بنا أن نعرف أن هدى القرآن يعلمنا أن هذه السماحة تنقلب إلى شدة وصرامة إذا كان إجرام الأعداء يتطلب الحزم والعزم ، وإلا استخفوا بنا استخفاف الطغاة اللئام بضعاف الأيتام : « كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولاذمة » أى إن يتمكنوا منكم ويظفروا بكم فسيعملون على سحقكم ، ولا يراعون فيكم قرابة ولا عهداً ، بل يسرفون فى التقتيل وإسالة الدماء .

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر . كوضع السيف فى موضع الندى

ولقد كانت غزوة بدر أول لقاء حربى بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، وكانت الكفتان غير متعادلتين ، فالمشركون ثلاثة أضعاف المسلمين ، وظروف المسلمين شديدة قاسية ، وظروف المشركين مواتية مساعدة ، ومع

---

(١) ٦ شوال سنة ١٣٦٣ هـ ـــ ٣ نوفمبر سنة ١٩٧٣ م .

ذلك انتصر المسلمون بالصبر والثبات والإيمان : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وكان من نتائج هذه المعركة المجيدة الخالدة أن أسر المسلمون نحو سبعين من المشركين البغاة الذين أذاقوا المسلمين الويلات ، ولو قدر لهم أن ينتصروا لأسرفوا فى الانتقام والإجرام مع المسلمين .

ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان القائد الأعلى، المسموع المطاع ، المؤيد بقوة السماء ، لم يشأ أن ينفرد بالرأى والتصرف فى أمر الأسرى بل أخذ بمبدأ الإسلام العظيم : « وأمرهم شورى بينهم » ، واستجاب لأمر ربه : « وشاورهم فى الأمر » ، فتحدث إلى أصحابه يطلب رأيهم فى الأسرى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، إنهم قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله ، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم . فعلق النبى على ذلك بقوله : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ولما رأى الرسول أن القلة تميل إلى قتل الأسرى ، وأن الكثرة تميل إلى أخذ الفداء منهم ، لشدة حاجة المسلمين آنذاك ، مال الرسول إلى رأى أبى بكر

فى أمر لم يسبق فيه تشريع من السماء فأعلن إطلاق سراح الأسير بالفداء ، أو بتعليم الأسير عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، ولكن الله جل جلاله أراد أن يعلم المسلمين منطق القوة ، وأن طريق الجهاد فى أوله يحتاج إلى صرامة وصلابة ، حتى يتم تأديب الأعداء ، وتقوى كلمة الإسلام والمسلمين فى الأرض أو بعدها تكون السماحة والرحمة ، فنزل قول الله عز شأنه : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ، أى ما كان من شأن نبي من الأنبياء ، ولا من سنته فى الحرب أن يكون له أسرى يتردد فيهم بين المن والفداء ، إلا بعد أن يقوى جانبه ويعظم شأنه فى الأرض ، وتتم له القوة والنصر ، والغلبة والقهر ، وفى هذا توجيه إلهى إلى أن المعركة يجب أن يديرها المسلمون مع أعدائهم الطاغين بقوة وشدة ، وألا يجعلوا همهم الإكثار من الأسرى ، بل الإكثار من القتلى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء » ، فإذا تم النصر ، وانتهت المعركة إلى سيادة المسلمين فى الأرض ، كان لهم حينئذ أن يطلقوا سراح الأسرى دون مقابل ، إذا كان فى هذا مصلحة ، أو بمقابل إذا كان فى هذا مصلحة ، وهكذا يضع الإسلام الرحمة فى موضعها ، والشدة فى موضعها ، تنزيل من حكيم حميد . ثم عرض القرآن بالطامعين فى المال فقال : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » أى تطمعون فى فداء الأسرى بالمال ، وهذا ليس شأن المؤمنين ، فعرض الدنيا هو متاعها الزائل الفانى ، والله يريد لكم ثواب الآخرة العظيم الباقى ، وثمن هذا النعيم العظيم هو الجهاد بالأموال والأنفس : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » . والله جل جلاله هو العزيز الحكيم : الغالب الذى لا يقهره قاهر ،

الذى يضع كل شيء فى موضعه المناسب له ، ولولا أنه سبق فى علم الله سبحانه ألا يؤاخذ إلا بعد تحذير ، وألا يعذب على اجتهاد الإنسان حتى ولو أخطأ ، لأصابكم فى أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم . وياله من تقويم ، وماله من توجيه وتعليم : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟

إن هذا الموقف الجليل نستطيع أن نفهم منه عدة أمور : نفهم منه أولا أن الشورى هى قاعدة الإسلام الحصينة الراسخة ، وأن يد الله مع الجماعة المؤمنة إذا استجابت لربها ، واهتدت بكتابها ، ونفهم منه ثانياً أن الإسلام فى مجال الجهاد يعلمنا منطق التصرف بالقوة عند بناء الدولة وتحقيق السيادة ، ويعلمنا العفو مع القدرة إذا كان هناك من يستحق العفو والمرحمة ، ويعلمنا أن نجعل غرضنا الأساسى إدارة معركة صارمة لتحرير الدار وغسل العار وأخذ الثار ، « حتى تضع الحرب أوزارها » ، أى حتى تنتهى بأثقالها ، فلا يبقى إلا مسلم أو مسالم ، وحتى يقضى على شياطين الغدر والعدوان ، ويعم السلام والأمان ، ومعنى هذا أن الإسلام يهدينا إلى منطق القوة الرشيدة الحميدة ، التى لا يعرف ليناً ولا هوادة فى تأديب الطغاة وردع الجبارين ، وهو يهدينا إلى منطق الرحمة العاقلة الفاضلة التى توضع موضعها ، ولا تتجاوز حدودها فتصبح ضعفاً وهواناً ، وصدق الله العلى الكبير إذ يصور الأمة المؤمنة بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

إن الله الرحمن الرحيم الذى يقول : « ورحمتى وسعت كل شيء » ، هو ذاته الذى يقول : « إن الله شديد العقاب » ويقول : « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد » ويقول : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار

وليجدوا فيكم غلظة » . فعلى أبناء الإسلام أن يستشعروا روح القوة والشدة ، حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

يوم الشجرة(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يحيي الجماد ويبعث الهامد : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » ، أشهد أن لاإله إلا الله ، واهب الحياة ورب الأحياء : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، شغله التعمير بعد التحرير ، فكان خيراً وبركة على الناس فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المستجيبين ، وأصحابه المجاهدين ، وأتباعه العاملين : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

لقد قاربنا أن ندخل فى موسم التشجير ، حيث يغرس الغارسون مختلف الأشجار فى مختلف الأمكنة ، ليكون هذا مزيداً من الخير ومن استثمار الأرض التى وهبها الله لعباده ، وجعلهـا أمامهم ذلولا يستخدمونهـا كما يستطيعون ، ويستنبتونها كما يطيقون ، فيقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وهذا الرزق المأكول خارج من الأرض فى النبات والشجر ، ولذلك يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » وما أكثر خبايا هذه الأرض ؛ ولكن أبهاها وأزكاها ما يتمثل فى النبات من كل زوج بهيج ... والتشجير أوالزرع سنة من سنن الإسلام ، وقاعدة من قواعد هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى إنه قال : « إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة [أى نخيلة صغيرة] فليغرسها » . وكأنه يطلب من الشخص ألا ينزعج من إتيان القيامة عليه ، فينسى زرع ما بيده ، لأن هذا شيء مفيد مثمر ، وهذا تصوير نبوى

---

(١) ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ هـ — ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٥٩ م .

رائع لشدة العناية بالزرع والتشجير وتعمير الأرض بزينتها وفائدتها من نبات أو ثمار ، ومن عجب أن يقول هذا رسول مبعوث فى أرض صحراء « وبواد غير ذى زرع » ، فماذا كان يقول إذن لو أنه بعث فى أرض زراعية مخصبة تحتشد بالجنات والمزروعات والمحصولات ... أليس هذا دليلا على عناية الإسلام ورسول الإسلام بالتشجير وتزويد الأرض بأسباب التعمير ؟ ...

ولقد ذكرت كلمات النبات والشجر والزرع والحرث عشرات المرات فى القرآن الكريم ، وهذا يرشدنا إلى جلال المكانة التى يعطيها الإسلام لتشجير الأرض بمختلف الأشجار المثمرة أوالظليلة النافعة فى شتى جهات الحياة . وحينما تحدث القرآن عن الماء سبب الحياة وعنصر الأحياء أشار إلى الشجرة كفائدة كبرى لهذا الماء فقال : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون » ، أى تفضل الخالق جل وعلا بالمطر فكان منه ما يستعمله الناس فى الشرب وكان منه أشجار مختلفة نافعة : « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيـــل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ... وفى موطن ثان يذكرنا بعظيم فضله ومنته ، لأنه هو الذى صان الزرع بعنايته ، وأنماه بقدرته ، ونحن فى عملنا أسباب ظاهرية فقط : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون » ، فلو أراد الله لجعل هذه الزروع والأشجار هشيما متكسرا حتى تتفكهوا أى تتعجبوا من شـــدة الحال وسوء المآل ، ولذلك استحب الفقهاء أن يدعو المسلم عند الزرع بقوله : « اللهم أنت الزارع والمنبت والحافظ ، اللهم ارزقنا ثمره ، وجنبنا ضرره ، واجعلنا لنعمتك من الشاكرين »... وفى موطن ثالث ينوه الله جل جلاله بفضل الشجرة ومكانتها وأنها سبب الوقود للنار التى لا نستطيع الاستغناء عنها ، فنحن نورى النار أى نوقدها عن طريق الأشجار القابلة للاحتراق والاشتعال : « أفرأيتم النار

التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » أى للمحتاجين إليها .

ولأن الشجرة مظهر من مظاهر قدرة الله ، ومعرض من معارض فضله ونعمته ، حدثنا القرآن بأن الأشجار الكبيرة والنباتات الصغيرة كلها تسبح بحمد ربها وتسجد له ، أى تنقاد وتخضع ، أو تحمل المتأملين فيها والمتدبرين لأمرها على التسبيح لربها والسجود لعظمته ، فكأنها هى التى فعلت ذلك ، يقول القرآن : « والنجم والشجر يسجدان » ، والنجم هو النبات الصغير الذى لاساق له ،والشجر ماله ساق «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ... »

ومن تعطير سيرة « الشجرة » فى القرآن الكريم أن الله جعل تكليمه لموسى آتياً من قبل شجرة : « فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة » ، كما جعل شجرة أخرى موطناً لموقف مشهود فى تاريخ الإسلام والمسلمين : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ». والله يشير هنا إلى بيعة الرضوان التى كانت فى غزوة الحديبية . وهى بيعة نزل بها روح القدس كما جاء فى بعض الأحاديث ، وقد بايع الصحابة فيها رسولهم على الثبات والاستشهاد فى موطن الجهاد ، وحسب هذه الشجرة فخراً وذكراً فى التاريخ أن تتم تحتها هذه البيعة ، وأن يقف الرسول تحت أغصانها الدانية وهو يبايع هذا العدد الكبير من أصحابه ، حتى روى أن بعض الصحابة كان يرفع أغصان الشجرة عن وجه النبي وهو يبايع ، وفى هذه الشجرة قال الرسول : « الشجرة من الجنة »[1] وفى أهل هذه البيعة قال

---

(١) فى النهاية لابن الأثير : « وفى الحديث الصخرة والشجرة من الجنة . قيل ارداد بالشجرة الكرمة [شجرة العنب] وقيل : يحتمل أن يكون أراد شجرة بيعة الرضوان بالحديبية ، لأن اصحابها استوجبوا الجنة » النهاية جـ ١ ص ٦٠٢ .

الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » وقال لهم أيضاً : « وأنتم خير أهل الأرض » ... وقريب من هذا أن الشجرة كانت يوماً من الأيام واقية لنبي منا لأنبياء هو يونس عليه السلام : « وأنبتنا عليه شجرة من يقطين » أى أنبت الله عليه بعد أن لفظه الحوت شجرة تين أو موز أو قرع لتظله بورقها وأغصانها . .

وهذه شجرة الزيتون يمجد القرآن ذكرها ويعطر سيرتها ، فيقول عنها : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » يقصد شجرة الزيتون المباركة التى ورد أنها أول شجرة نبتت على الأرض بعد الطوفان، وأن عمرها يطول حتى إنه قد يبلغ ثلاثة آلاف سنة ، والله يجعل زيتها جزءاً مما شبه به نوره جل جلاله : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور .. » [تفسير الآية من البيضاوى مثلا] . ولقد اشتهرت بلاد العرب بكثرة شجر الزيتون فيها فكان مصدر خير وبركة ، ومن الذكريات المؤلمة هنا أن تركيا عمدت إلى قطع أشجار الزيتون فى بلاد العرب ، وبخاصة بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى ، لكى تتخذ منها وقوداً للقطارات بعد أن نفد الفحم المستعمل لذلك . وقد بقيت مساحات كثيرة بدون أشجار الزيتون ، وهذا يجعل التشجير تعميراً واجباً صالحاً مصلحاً بعد هذا التخريب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

إن من أمثالنا الحكيمة : « إن جار عليك الزمان فجر على الأرض » أى اجتهد فى استخراج خيراتها وثمراتها ، ومن الشعارات التى يجب أن تسود وتهدى : « ازرع ولا تقلع » ، ولقد رئى شيخ طاعن فى السن وهو يزرع

زيتونة فقيل له : لم تزرعها ولن تدرك ثمرها ؟ فأجاب : لقد زرع لنا من كان قبلنا فأكلنا ونزرع نحن لمن بعدنا لكى يأكلوا . بهذه الروح الاجتماعية التعاونية يجب أن نعطى تشجير الأرض جانباً هاماً من عنايتنا ورعايتنا ، لأننا فى أشد الحاجة إلى التشجير بكل أنواع التشجير ، فليبارك كل منا يده بأن يغرس فى أية ناحية من نواحى الأرض ما يستطيع من شجر أو ثمر أو عمل ليكون ذلك جهداً مشكوراً من الناس مأجوراً عليه من رب الناس، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ...

الصداقة فى الهجرة[1]

الحمد لله عز وجل ، يؤيد الحق وأهله ، ويذل الباطل وحزبه : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . أشهد أن لا إله إلا الله جعل العاقبة للمتقين : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . كفله ربه برعايته ، ونصره بعنايته ، فكان قائد الغر المحجلين فى الدنيا ويوم الدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

تطالعنا الآن أضواء الذكرى العاطرة الماجدة ، ذكرى الهجرة النبوية الخالدة ، ومع تكرر هذه الذكرى فى كل عام نحن لانسأم الالتفات إليها إليها والاحتفاء بها ، لأنها من الزكريات الغوالى التى تتجدد آثارها وعظاتها كلما سلك المرء سبيله إلى الاعتبار والادكار . وما أظن أنا بحاجة هنا إلى سرد حادث الهجرة : لماذا كان ، وكيف كان ، وما الذى كان بعد ماكان ؟ فهذا شىء لعلنا نجده على سعته فيما تتداوله أيدينا من كتب ومراجع ، أو فيما يتردد على أسماعنا من أحاديث عن الهجرة ؛ فلنكتف بالحديث عن خاطر واحد من الخواطر التى تخطر فى تلك المناسبة الإسلامية الجليلة ، وهو خاطر يتعلق بالصداقة والصحبة ، فالإنسان فى هذه الحياة لا يستطيع أن يعيش وحيداً منفرداً ، بل لابد له من الصديق يلاقيه ويناجيه ويواسيه ، يشاركه مسرته ويشاطره مساءته ؛ وكلما علا كعب المرء فى مراتب الأخيار ازداد اعتزازاً بالصداقة المخلصة والصديق الوفى ، والأنبياء وهم النماذج العليا للبشر

---

(١) ٣ المحرم سنة ١٣٧٩ هـ — ٢٤ يونية سنة ١٩٦٠ م .

كانوا يعرفون للصداقة حقها ، ويحفظون حرمتها ، ولذلك كان من دعاء الرسول : « اللهم لا تسئ بى صديقى ، ولا تشمت بى عدوى » .

وللصداقة فى حادث الهجرة ذكر وسيرة ، وتتجلى هذه الصداقة الكريمة فى تلك الرابطة العميقة الوثيقة التى ربطت بين الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه وبين صديقه وصديقه أبى بكر رضى الله عنه ؛ فحينما أشار النبي على المسلمين بأن يهاجروا إلى المدينة ، أراد أبو بكر أن يتعجل مشاركتهم وذهب إلى الرسول يستأذنه فى ذلك ، فقال له : لا تعجل يا أبا بكر ، لعل الله يجعل لك صاحباً فى هجرتك ؛ وكان النبي يعنى بهذا الصاحب نفسه ، ولم يغب ذلك الفهم عن ذهن أبى بكر الشيخ المجرب ، فسر به سروراً بليغاً ،حق له أن يفعل ،فإنه شرف له أى شرف أن يصف الرسول نفسه بأنه صاحب أبى بكر ، وإنما أستمهله الرسول ليكون عوناً له ورفيقاً معه فى تلك الرحلة المحفوفة بالأهوال والمخاطر ،ولقد كان أبو بكرعند ظن الرسول به ، فأعد للهجرة ما تحتاج إليه ، وسخر فى ذلك أبناءه وبناته وأهل بيته ، وأخذ معه ماله كله ليخدم به الهجرة ومقاصد الدعوة التى كانت بسببها هذه الهجرة .

وبدأت الرحلة ، وبلغ الصاحبان الغار ليختبئا فيه ، وهنا يبدو أثر الصداقة ، ويتجلى وفاء الصديق ، أبو بكر يستمهل الرسول قبل الدخول ، ليستبرئ له الغار ، ويتأكد من صلاحيته للاختفاء فيه خشية أن تكون هناك حشرات أو هوام أو غير ذلك ... ويحتويهما الغار الضيق ، والله وحده هو الذى يعلم ما كان يدور آنذاك فى صدريهما وخواطرهما ؛ ثم يدركهما المشركون حتى يبلغوا باب الغار ، ويقفوا أمامه ولو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآهما ، ويلحظ أبو بكر ذلك ، فيخاف على حياة الداعية الذى يتمثل فيه الدعوة ، ويخشى على الرسول الذى يحمل الرسالة ، فيدنو منه كأنه يريد أن يلتصق به ، ويهمس إليه قائلا : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع

قدميه لرآنا ، فقال له النبي مثبتاً ومطمئناً : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا . ولم يترك القرآن الكريم هذا الموقف دون تسجيل وتنويه بشأن الصحبة والصداقة ؛وحسب أبي بكر شرفاً أن يظل وصفه بالصحبة لخاتم المرسلين مذكوراً فى القرآن مردداً على شفاه الملايين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يقول القرآن : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذهما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ».

ويضل الله المشركين ويبطل سعيهم ، فيعودون خائبين ، ويأمن الصاحبان فيخرجان من الغار ويواصلان الرحلة ، ولكن يا للعجب ، ما شأن أبي بكر : نراه تارة يمشى أمام النبي ، وتارة خلفه ، وتارة عن يمينه ، وتارة عن شماله ويسأله الرسول عن ذلك فيجيبه : يا رسول الله ، أذكر الطلب [أى الذين يلاحقوننا] فأكون وراءك ، ثم أذكر الرصد [أى الذين يختبئون لنا فى الطريق] فأكون أمامك ، ثم أخاف عليك فأكون مرة عن يمينك ومرة عن شمالك لأفديك بنفسى . فينشرح صدر الرسول بذلك ويدعو له .. ويمضى الرفيقان الكريمان نحو المدينة فإذا لقيهما أحد ممن يعرفون أبا بكر سأله عن النبي فيقول عنه : إنه هاد يهدينى الطريق ، فيفهم السائل ما يفهم من ظاهر القول ، وهو أنه دليل يرشده إلى طريق الرحلة ، وإن كان باطن القول يعنى أنه هاد يهديه إلى خيرى الدنيا والآخرة . . ويدنو المهاجران العظيمان من المدينة ، وتخرج الجموع للقائهما وأكثرهم لم يروا النبي من قبل ، ولذلك لم يستطيعوا التمييز بينه وبين صاحبه ، ولعل بعضهم سلم على أبي بكر ظاناً أنه الرسول ، وتمضى برهة وتدرك الشمس مكان النبي فيقف الصاحب الوفى

أبو بكر ، ويظلل النبي حتى يقيه حرارة الشمس ، وهنا يعرف الناس جميعاً من الرسول ومن صاحبه النبيل ؟

ولم يفت الرسول أن يقدر هذه الصحبة ، وأن يمجد هذه الصداقة ، فقد حدث ذات يوم خلاف بن عمر وأبى بكر ، واغتم أبو بكر بسبب هذا الخلاف ، حتى أقبل على مجلس النبي حزيناً كئيباً ، ولما عرف الرسول الموقف انتهزها فرصة لينوه بصداقة أبى بكر ومكانته فقال : « إن الله بعثنى إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لى صاحبى » ؟ . وفى مرة ثانية قال : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط كما نفعنى مال أبى بكر » ، وفى مرة ثالثة ، قال : « لو وزن إيمان هذه الأمة بإيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة » ، وهكذا رأينا الصداقة فى الهجرة ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

لقد أصبح أكثر العلاقات بين الناس تقوم لغرض أو مرض ، وتنهض على رياء أو نفاق ، مع أن الحياة قد صارت من الصعوبة والتعقد بحيث يحتاج الإنسان فيها إلى الازدياد من الأصدقاء الشرفاء وتجنب الأعداء الأخساء .

وما بكثير ألف خل وصاحب وإن عدوا واحداً لكثير

وما أحوج الإنسانية إلى عصبة أهل الخير ، التى تتصادق فى الله ، وتتناصر على تأييد الحق ، وتتعاون على البر والتقوى ، لتصح الصداقة وتثمر وتثاب من الله : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » « والعصر ... » وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

من دروس الهجرة[1]

أحمد الله تبارك وتعالى ، هو الدائم الذى لا يتبدل ، والباقى الذى لايزول : « هو الأول والآخر والظاهر والبــاطن وهو بكل شيء عليم » ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، « تولج الليــل فى النهار ، وتولج النهار فى الليــل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، عبدك فى ليله ، وجاهد لك فى نهاره ، فكان عبداً شكوراً ، فعليه صلواتك وسلامك ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الذاكرين المعتبرين ، وأتباعه المستمسكين بحبل الله القوى المتين « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

فى هذه الآونة الحاضرة من تاريخ الدنيا ومر الزمن ، يقف أبناء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وقفة الاعتبار والذكرى ، لأنهم يودعون من حياتهم عاماً مضى بما له وما عليه ، ولا يدرون ما الله قاض فيه ، وهم يستقبلون ببزوغ هلال السنة الهجرية بعد قليل عاماً جديداً لا يدرون ما الله فاعل فيه : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

وهم فى هذه الوقفة يتذكرون أعظم حادث فى تاريخهم ، كان نقطة التحول فى تاريخ البشرية ، وكان بداية الانتقال من الضعف إلى القوة ، ومن الحيرة والبلبلة إلى الاستقرار والاستعلاء ، ألا وهو حادث هجرة النبى

---

(١) ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٧٦ هـ — ٢٦ يولية سنة ١٩٥٧ م .

محمد عليه صلوات الله وسلامه من مكة إلى المدينة ، بعد أن فعل الكافرون به وبقومه الأفاعيل ، وبعد أن تربصوا بدين الله الدوائر ، ووقفوا لدعوة النور فى كل مرصد، يقطعون عليها الطريق ، ويعذبون أهلها العذاب الشديد، لا لشىء إلا لأنهم قالوا : ربنا الله ، وفوق أن هذه الهجرة كانت رحمة من الله لعباده ونجدة ، نراها قد انطوت على دروس كثيرة عميقة الدلالة دقيقة المغزى بعيدة الأثر فى نفوس الكرام ، ومن واجب المسلمين أن تحسنوا الانتفاع بهذه الدروس عن طريق تذكرها والتأثر بها : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

من الدروس التى نفقهها فى حادث الهجرة أن صاحب المبدأ القويم الكريم لايساوم فيه ولا يحيد عنه ، بل هو يجاهد من أجله ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهو يستهين بالشدائد والمصاعب تعترض طريقه عن يمين وشمال، ولكنه فى الوقت نفسه لا يصبر على الذل يناله ، ولا يرضى بالهوان يلحق دعوته ، فإذا أحس بشىء من ذلك نأى بدعوته عن مواطن إذلالها ، واغترب بها ليحفظ كرامتها ويصون حياتها ، ولو أدى ذلك إلى ترك البلد والوطن ، والأهل والسكن ، وها هو ذا محمد صلوات الله عليه يترك مع صحبه ديارهم وعقارهم ، ومساكنهم وأموالهم ، ويخرجون مغتربين فى سبيل الله ، مجاهدين لوجه الله ، فأعز الله شأنهم وكتب النصر لهم ، وزكى رسول الله شأن هذه الغربة حين قال : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ! ...

وإذا كان إمام الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام قد ترك داره ووطنه فى سبيل دينه ودعوته ، فليس معنى هذا أنه تنكر لهذا الوطن ، أو نسى حقه ، أو استهان بمكانته ؛ معاذ الله ؛ فإن الرجل الأصيل وإن اغترب يظل حافظاً عهد بلاده ، ذاكراً حقوق وطنه ، درب مغترب عن وطنه طوعاً

أو كرهاً يحب هذا الوطن أكثر من أناس كالبهائم يقيمون فيه ، ويرتعون فى واديه ، ومع ذلك لا يحفظون حقه ، ولا يصونون كرامته ؛ وهذا رسول الله يخرج من مكة مهاجراً مرغماً ، وما يكاد يبلغ ظاهر مكة حتى يلتفت إليها فى حنين عارم وشوق قاهر وحب عميق ويناجيها قائلا :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك قهراً ما خرجت » .

وكان كلما ألح به الشوق وبصحبه إلى مكة يدعو ربه قائلا : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة » وذلك لتخف حدة الشوق ؛ وترجم القرآن الكريم عن شوق محمد إلى مكة وتعلقه بها ، وعن تلطف الله برسوله فى هذا المجال فقال : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ، ولقد أمر الله نبيه عقب الهجرة بأن يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس، فاطاع الرسول أمر ربه وإن كان يحب فى نفسه التوجه إلى الكعبة فى مكة ، وجعل محمد يقلب وجهه فى السماء راجياً أن يعيد توجهه إلى الكعبة، ولما نزل القرآن بالتحول إلى الكعبة استدار محمد وهو فى صلاته فكان فى نصفها الأول متجها إلى بيت المقدس ، واتجه فى نصفها الآخر إلى الكعبة ، وليس وراء ذلك تقدير للوطن وحب له من الغريب الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن دروس الكفاح التى نأخذها عن الهجرة أن الشباب إذا نبتوا فى بيئة الصلاح والتقوى والتهذيب ، نشأوا على العمل الصالح والسعى الحميد والتصرف المجيد ، وهؤلاء هم شباب الإسلام قد رضعوا رحيق التربية الدينية الكريمة فكان لهم فى مواطن البطولة والمجد أخبار وذكريات ، وهذه طائفة منهم تشارك فى حادث الهجرة أفضل مشاركة . . . هذه عائشة الصبية تعد الطعام للمهاجرين العظيمين ، وطائفة منهم تشارك فى حادث وهذه

أسماء الفتية تحمل الزاد لهما وتربطه بنطاقها، هذا عبد الله بن أبى بكر الفتى يتجسس لهما ويحمل إليهما الأخبار وهما مختفيان فى الغار ... وهذا على بن أبى طالب الشاب يتعرض للتضحية الكبرى، ويقدم على الفدائية المثلى، فينام فى فراش الرسول ليلة الهجرة ، وهو يعلم أن سيوف المشركين تستعد للانقضاض على النائم فوق هذا الفراش ، ويظل على فى مكة بعد ذلك يؤدى الأمانات إلى أهلها ، غير عابئ بتهديد المشركين أو وعيدهم ، ثم يهاجر على الشاب منفرداً فى ثقة وإيمان .

ومن الدروس التى نأخذها عن الهجرة أن الله ينصر من ينصره ، ويعين من يلجأ إليه ويعتصم به ، ويكون للعبد المخلص الموقن حين تنقطع به الأسباب ، وحين يخذله الناس ، فهذه هى الهجرة يراها الأغرار الجهلاء فراراً وانكساراً ، ولكنها فى الواقع كانت عزاً من الله وانتصاراً ، وهذا محمد وصاحبه تجتمع عليهما قوى البغى والطغيان ، فتقبل عليهما عناية الرحمن : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

وبم نصر الله رسوله يوم الهجرة ؟ . . . نصره بأضعف جنده ، وما يعلم جنود ربك إلا هو . . . نصره بنسج العنكبوت « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ، ونصره ببيض الحمام ، وما أرق بيض الحمام . . . « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن المسلمين وهم بين العام الراحل والعام المقبل ، لابد لهم من نظرة

يلقونهـا على سجلاتهم وصفحات حيـاتهم لينظروا ماذا كسـبوا وماذا خسروا ، فيحمدوا الله جل جلاله على ما ربحوه، ويستغفروه مما اقترفوه أو صنعوه ، فلنقف بين العـامين وقفة المهاجر بنفسـه وإن لم يهاجر بحسه . . . فلنهاجر إلى الله بقلوبنا وعقولنا وأعمالنا ، ولنلجأ إليه حتى يكون لنا ومعنا : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخـذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . واتقـوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى الهجرة تضحية وفداء[1]

الحمد لله عز وجـــل ، علم عباده أن النضـــال كر وفر ، وإحجام وإقـــدام ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الأسلاف قدوة للأخلاف ، « والسابقون السابقون أولئك المقربون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، رائد المهاجرين الصابرين ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ، وأولئك هم أولوا الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نحن نقف الآن أمام عتبات عام جديد من أعوام الإسلام يذكرنا بالحادث الخالد الماجد والذكرى الدائمة المتجددة : ذكرى هجرة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، وهى الهجرة التى كانت فاتحة الأمل وبارقة النصر وطريق العودة : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين » . والهجرة حادث قرأناه وسمعناه ، وتكرر على ألسنتنا وأسماعنا ذكره وخبره ، ولكن ذكراه تعود كل عام ، فيتجدد التدبر والنظر ، ويتجدد الاعتبار والأثر ، والذكرى على الدوام تنفع المؤمنين ، والذكرى العاطرة الباهرة تعود هذا العام ونكبة الاحتلال الصهيونى الغادر تعصر قلوبنا وتمزق صدورنا ، وأمتنا وعقيدتنا وحرماتنا ومقدساتنا تطالبنا بتضحية وفداء وبذل ، والهجرة تعطينا فى هذا المجال قدوة وأسوة ، ففيها تتجلى دروس ودروس من التضحية والفداء ، فهذا رأس الدعوة وقائد الأمة رسول الله عليه الصلاة والسلام

---

(١) ٣٠ ذى الحجة سنة ١٣٨٧ هـ — ٢٦ مارس سنة ١٩٦٨ م .

يتحمل العبء الثقيل فى سبيل عقيدته ودعوته ، ويشتط المجرومون من أعدائه فى مقاومته والتطاول عليه بالسخرية والاستهزاء ، ثم بالكذب والافتراء ، ثم بتجربة الوعد والإغراء ، ثم بتسليط الغوغاء والسفهاء ، ثم بالتآمر الدنىء ينتهى إلى الإجماع على الاغتيال بلا إعواء ، « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك [ليقيدوك ويسجنوك] أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » والرسول ثابت كالطود ماض فى طريقه كالسهم يسدده القدر إلى غايته فلا يخطئ ولا يخيب ، ويأتى وقت التنفيذ للمؤامرة الخسيسة على أساس أن يختاروا من كل قبيلة شاباً قوياً ، وكل منهم يمسك بسيفه ، ثم يعمدوا إلى ضرب الرسول ضربة واحدة مشتركة منهم حين خروجه من داره عند تباشير الصباح ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع أهله أن يأخذوا بثأره من كل القبائل فيرضوا بالدية وهى سهلة ميسورة ، ولكن الرسول يمضى بهدى ربه وتوفيقه فى خطته وطريقته ، ولا ينال جمع الضلال منه شيئاً ، ويواصل خطواته على طريق نضاله وهو يردد : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ومن حول الرسول آخرون شاركوا فى الهجرة وضحوا لها وافتدوا نجاحها بكل ماقدروا عليه ، فهذا أبو بكر يشارك الرسول فيما يستطيع النهوض به من أعباء ، فيظل معه فى صميم المعركة وفى مركز المقاومة حتى يضمن مع الرسول سلامة المهاجرين من الضعفاء والنساء والفقراء ، ثم يحمل معه عند الصحبة فى الهجرة ماله كله ، ويأتى والده المكفوف البصر أبو قحافة إلى بيته ، فيجد الفتاة المؤمنة المناضلة الفدائية أسماء بنت أبى بكر ، ويسأل الجد حفيدته : أظن أن أباك قد فجعكم فى ماله كما فجعكم فى نفسه ؟ فتجيبه قائلة : كلا يا جدى ، إنه قد ترك لنا مالا كثيراً ، وتسارع بخفة وحذر ، وتجمع

أحجاراً وتضعها فى كوة [طاقة] ثم تضع عليها ثوباً. ثم تأخذ بيد جدها وتقول له : ضع يدك يا جدى على هذا المال ، فيحسبه الشيخ الضرير مالا فيهدأ ويقول : لا بأس ، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ، وتروى أسماء الواقعة فيما بعد فتقول : « والله ماترك أبى لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك » ، وأسماء هذه الفتاة العربية المؤمنة الفدائية هى التى تشهد الإعداد الأخير لهجرة الرسول وأبيها ، ومع ذلك تكتم السر وتصونه ، وهى التى يسارع إليها أبو جهل عقب خروج الرسول وصديقه ، فيسألها وقد طرق عليها باب الدار وهو كالثور الهائج : أين ذهب محمد وأين ذهب أبوك ؟ فتقول له فى ثبات : لا أدرى أين ذهبا ، فيلطمها الحيوان الشرس لطمة تمزق أذنها وتنزع قرطها ، ولكنها تصبر وتحتمل ؛ وهى تتعرض للمخاطر والمخاوف حين تحمل الطعام والشراب ليلا إلى المهاجرين العظيمين وهما فى الغار ، وهى التى لاتجد ما تربط به الطعام سوى نطاقها [حزامها] فتشقه وتربط به ليكون لها اللقب الخالد الباقى « ذات النطاقين » ، وهى التى ظلت تضرب أروع الأمثلة فى التضحية وتعلمها لأهلها ، حتى تقول لابنها عبد الله وهو يخشى أن يمثل به أعداؤه لو ظفروا به فى المعركة : امض يابنى إلى ما أراد الله لك ما دمت تؤمن بأنك على الحق ، فإن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها .

وإلى جانب الفدائية أسماء كان هناك فدائيون آخرون ، يقاومون ويضحون ، ويتعرضون للأهوال والأخطار . فهذا عبد الله بن أبى بكر يقوم بجمع المعلومات من داخل معسكر المشركين فى مكة ، ثم يمضى بها ليلا متخفياً إلى الغار ، ليطلع عليها المهاجرين العظمين حتى يحيطا علماً بكل ما حولهما من أحداث وتطورات ، وهذا عامر بن فهيرة راعى الغنم عند أبى بكر يظل نهاره راعياً غنمه ، ملاحظاً الطرق والناس ، فإذا جاء المساء ،

ذهب بغنمه فى حذر إلى الغار ، وسقى المهاجرين العظيمين ، وانتظر حتى يعود عبد الله جامع المعلومات ، وأسماء حاملة الزاد ، ثم يعود عامر بغنمه ليمحو بأقدامها آثار أقدام الشقيقين الفدائيين : عبد الله وأسماء . وهذا أبو سلمة الضعيف الفقير يسارع إلى الهجرة أول الناس ومعه زوجته وولده، فيهجم عليه الكافرون من أقارب زوجته وينتزعوها منه بالقوة ، ثم ينتزع أقاربه الولد من أمه ، ويمضى عام والزوج أبو سلمة فى المدينة ، وأم سلمة معذبة فى مكة ، وابنها بعيد عنها وعن أبيه عند أعمامه ، وهذا صهيب الرومى الذى حرره الإسلام وأعزه ، يحاول الهجرة ، فيحيط به الطغاة ويقولون له : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لايكون ذلك . فيقول لهم: أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ . قالوا : نعم . قال : فإنى قد جعلت لكم مالى ، وترك لهم كل ما يملك ومضى مهاجراً إلى الله ورسوله ، ولما بلغ الخبر رسول الله قال : « ربح صهيب ، ربح صهيب ! » .

وهناك فى حالات الهجرة من بطولات التضحية والفداء ماقد يؤخر ثم يذكر ليبقى ويؤثر ، فهو من روعته يأتى أولا وإن ذكر أخيراً ، وهو موقف على بن أبى طالب الشاب المؤمن الفدائى المضحى ، الذى لم يتردد فى أن ينام على فراش الرسول ، ويتغطى ببردته فى الليلة التى اجتمع فيها شياطين الكفر والغدر ليفتكوا برسول الله عليه الصلاة والســلام ويالها من نومه تحيطها المخاوف والأهوال ، ولكن علياً يمضى قدما فى سبيل عقيدته ، مؤمناً الإيمان كله بأن الله معه ، وهو خير الناصرين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هكذا تعطينا الهجرة اليوم ما يعظنا فى حاضرنا ، وينفعنا فى نضالنا ، وهناك اليوم من إخواننا مهاجرون أرغموا على ترك بلادهم فى فلســطين

وما حولهـا من ديارنا ، بعد أن استبد الصهاينـة وأخرجوهم ، وهؤلاء المهاجرون يلزمهم العون النبيل والصبر الجميل والرجاء العميق فى العودة الظافرة بعون الله جـل جلاله ، وهناك اليوم فدائيـون يقاومون فى الأرض المحتـلة ، بارك الله فيهم ، وبارك عليهم ، وأيدهم بروح من عنـده ، فهم يخاطرون بأنفسهم ليقلقوا نهار العـدو ويفزعوا ليله ، وهؤلاء يجـدون فى الهجرة النبوية قدوة وأسـوة ومن واجبنا نحن أن نستحى من أنفسنا فنؤدى واجبنا أيضاً نحو معركتنا المصيرية الفاصلة ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

في ذكرى الهجرة [1]

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعمة وملهم الحكمة : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل فى كر الأيام عظة ، وفى مراحل الزمان عبرة : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صنعه ربه على عينه ، وجعله القدوة العليا لخلقه : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته ، وأقطاب صحبته، وأنصار دعوته « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

بعض الحديث إذا أعيد وتكرر أحس المرء معه بملل أوسأم ، ومن هنا قال الشاعر : « واللحن المكرر يسأم » ، وبعض الحديث يحلو أو يعلو إذا أعيد وتكرر ، ومن هنا قال الآخر : « ما أحلى مذاق الشهد وهو مكرر » . ومن الموضوعات التى لا يمل حديثها ولا تسأم سيرتها حياة محمد إمام البشرية وسيد الإنسانية عليه الصلاة والسلام ... وفى حياة محمد الجليلة النبيلة أيام خوالد ، ما تزال تتضوأ على الأيام ، وتتألق فى غرة الزمان ، ولعل أسطعها وأروعها هو يوم الهجرة الذى تهب علينا نسمات ذكراه فى هذه الآونة ، وفى مطلع كل عام من أعوام المسلمين يتردد الحديث عن هذه الذكرى ، وتتعدد أماكنه وألوانه ، ومع ذلك لا يسأم اللسان المؤمن القول الكريم ، ولا تسأم الأذن الموقنة الاستماع الجميل ، ومن شواهد جلال الموضوع

---

(١) ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٧٨ هـ ــ ٣ يوليو سنة ١٩٥٩ م .

أن يزداد بهاء وسناء كلما تناوله العرض والبحث ، كالذهب الإبريز كلما عرضته على النار لتمحصه ازداد إشراقاً وصفاء : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

وأول عظة تتبدى لنا من حادث الهجرة أن صاحب العقيدة أو الفكرة يجب أن يضحى فى سبيلها ويشقى من أجلها إذا استلزم الأمر ذلك ، وهو يرى أن التعب فى سبيلها يريح قلبه ويشرح صدره ، وأن القلق عليها فيه استقرار لنفسه ، وثبات لخطته ، وهذا محمد يخرج من بيته مهاجراً فى سبيل ربه ، حرصاً على دعوته ، وطلباً للتربة الصالحة التى تنمو فيها وتزدهر ... ولم تكن الهجرة من مكة إلى المدينة يومذاك سفراً قاصداً ولا رحلة هينة ، بل كانت فى الظروف التى تمت فيها عملا محفوفاً بالمخاطر والأهوال ، وحسبنا إدراكاً لهذا أن محمداً لو وقع فى أيدى الطغاة من المشركين يومذاك لكان مصيره الهلاك بلا ريب ، فقد صمموا على قتله من قبل ، « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ... نعم خرج محمد من وطنه وسكنه ، وداره وقراره ، مهاجراً إلى دار جـــديدة ؛ فأية قوة دعت ذلك المهاجر الكريم إلى أن يركب متن الصحراء ، وأن يتعرض لحرها وسمومها ، وأهوالها وأخطارها ، وهو فى فقر من ماله ، وقلة من رجاله ، وضعف من عدته ، وكبر من سنه فقد تجاوز الخمسين بسنوات ؟ .. وما الذى حمله على ذلك وقد كان فى استطاعته أن يفوز لو أراد بالعيش الهنيء والمقام الطيب والنعيم الواسع فى داره ، فقد عرضوا عليه ذلك ؛ عرضوا عليه المال والجمال ، والرياسة والجاه ، فى سبيل شيء واحد ، هو أن يترك هذه الدعوة التى يدعو بها ، أو يترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، أو يقابلهم فى منتصف الطريق فيحترم دينهم هم ويحترمون له دينه ، ولكنه أبى واستعصم ، لأنه يدعو إلى الحق الخالص : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ، وهتف فيهم بما علمه ربه : « يا أيها الكافرون.

لا أعبـــد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ماعبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لـكم دينكم ولى دين » ... ! . « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ...

ولقد شرح الله صدر الفاروق عمر بن الخطاب ، وهداه بمشاورة المسلمين إلى أن يختار يوم الهجرة فاتحة للسنة العربية ومبدأ للتاريخ ، وهنا يلمح الذهن خاطراً من الخواطر ، هو أن ذكرى الهجرة قد صارت فاصلا بين مرحلة من الزمن ومرحلة أخرى ، لأنهـــا ختام عام يمضى وهلال عام يقبل ، وعند هذا الفاصل يقف المسلم وقفة المراجعة والمحاسبة ، فيراجع كشف حسابه خلال العام الماضى ، ويصفى هذا الحساب ويختتمه ، ثم يعد خطة العام المقبل ، منتفعاً بتجارب مرت ، ومتعظا بعبر تقدمت ، وراجعاً عن هفوات سبقت ، ومصمماً على اتباع خطة الفلاح والرشاد ... والعجيب فى هذا الخاطر أن الهجرة نفسها كانت فصلا بين عهدين ، عهد مكة الذى لم يكن للمسلمين فيه كيان ولا سلطان ولا مجتمع ، وكل نصيبهم من المشركين الجابرة هو العذاب والابتلاء ، وعهد المدينة دار النصرة ومركز القيادة ؛ وفيه صار للمسلمين دولة ومجتمع وكيان ؛ ولأن الهجرة كانت فيصلا بين عهدين ، وكانت خروجاً من بيئة الشرك المتجبر إلى بيئة الإيمان المتفتح ، دعا الرسول ربه فى أثناء الهجرة بقوله : « رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » . وكانت الهجرة فيصلا بين مرحلتين بارزتين فى حياة المسلمين الأوائل : فى المرحلة الأولى كانوا يتحملون ويصبرون ، وكانوا فى ضيق مما يفعله الطغاة ويمكرون ، وفى المرحلة الأخرى انتقلوا إلى الدفاع والجهاد والانتصاف والبناء والتعمير ، وما أجمل المسلم يوم يجعل ذكرى الهجرة نقطة تحول واعتدال ، فينتقل فيها من وضع

لايرتضيه. ومنهج لا يزكيه ، إلى مجال آخر يعلو فيه ويقوى ويتطهر ويتزكى « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

ونلاحظ فى الهجرة أمراً له أهميته ، فالرسول لم يدخر وسعاً فى إعداد ما يمكنه إعداده لإتمام هجرته ، ولكنَ الذى أعده برغم اجتهاده فيه لم يكن ذابال ... لقد خرج فى هجرته وليس معه جيش من الناس يحميه ، بل معه رفيق واحد ، وليس معه مدافع أو قنابل تصد عنه ، ولم يتحصن فى قلعة ، فى غار مفتوح . ولم تحرسه دبابات ، وإنما ظهر على الغار حمامة وعنكبوت ، ولم يستخدم فى هجرته الطائرات أو النفاثات ، وإنما هما ناقتان إحداهما له والأخرى لأبى بكر ... وماذا تغنى هذه الوسائل القليلة الضئيلة ؟ .. نعم إن الرسول لم يدخر وسعاً فى الاستعداد ، فلم يجد إلا هذه الأسباب ، ولكنه أيدها بالإخلاص واليقين ، والثقة بالله والاعتماد عليه ، بعد استنفاد الوسائل والطاقة ، وهنا كان لابد من نصر الله وتأييده ، فجعل الله القليل كثيراً ، والضئيل جليلا ، ومن وراء اليد المحمدية التى بذلت جهدها واستنفدت طاقتها جاءت يد الله القوى القادر : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذا هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » ... وهكذا تعلمنا الهجرة أنه لابد من العمل مع الأمل ، ولابد من العقل مع التوكل ، ولابد من بذل الجهد مع الاستعانة بالقدر ، وتعلمنا أنه قد ينهزم مغرور بحوله وطوله ، وسلطانه ومكانه ، وقد ينتصر متواضع مؤمن يبذل جهده وطاقته : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

إن الهجرة اليوم ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، وإذا كان الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه قد قال عن الهجرة الحسنة المعروفة فى سيرته : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » فإن باب الهجرة الروحية والمعنوية مفتوح حتى تقوم الساعة ، وقد قال الرسول : « المهاجر من هجر مانهى الله عنه » والذى يهجر المنهى عنه لابد له أن يلتزم المأمورية؛ إذ لو اقتصر على الموقف السلبي لما كان جديراً بمكانة الإنسان العاقل الذى يعرف السوء فيحذره، ويعرف الخير فيستمسك به، فلعل واهب القوى والقدر يوفقنا فى مطلع العام الهجرى الجديد إلى هجرة روحية وخلقية ونفسية نتزكى فيها ونتطهر ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ... واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ...

المدينة دار الهجرة[١]

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى، وأحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى النعمة ومصدر الرحمة « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة وقائد الملحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وأصلى وأسلم على أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ،ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين، وأستفتح بالذى هو خير : ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

نحن مازلنا فى شهر الهجرة ، فلم نبعد عن مواطن التفكير فيها والتدبر لها وأخذ العبرة منها ، وقد كانت الهجرة كما عرفنا معركة من معارك الخلاص بالحق إلى المكان الحصين الأمين ، وكانت درساً بارعاً فى التخطيط والتنظيم ، ومن بين الدلائل على ذلك اختيار الرسول للمدينة بالذات لتكون دار الهجرة . فقد كان هناك أكثر من سبب لهذا الاختبار ، فبيئة المدينة أولا بيئة زراعية ، والبيئة الزراعية يغلب على أهلها التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، والتدبر لقدرة الله على الإبداع والخلق ، لأنهم يرون أمامهم الأرض الهامدة الخالية يوضع فيها البذر ، ويسقى بالماء ، فإذا قدرة الله العلى الكبير تحيل هذا البذر شجراً وثمراً ، وقد أشار القرآن إلى ذلك مرات كثيرة ، فقال : « والله أنزل من السماء ماء فأحى به الأرض بعد موتها » وقال : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . فأهل المدينة إذن كانوا أكثر استعداداً لتقبل دعوة الله

---

(١) ١٧ المحرم سنة ١٣٩٢ هـ ــ ٣ مارس سنة ١٩٧٢ م .

الخالق من أهل مكة ذات البيئة التجارية التى يغلب عليها الانصراف إلى الكسب والربح وكنز المال .

واختار الرسول المدينة دار هجرة لأن الجو فيها كان قد تهيأ لاستقبال الدعوة الفاتحة بالهدى والنور ، فإن بيعات العقبة الثلاث قد أوجدت للإسلام فى المدينة ركناً ، وللرسول أتباعاً ، وللمسلمين أنصاراً ، وتردد فى بيوت الأنصار صوت القرآن وكلمة الإيمان ، فإذا هاجر إليهم رسول الله وجد لديهم المعاونة والنصرة ، وخاصة بعد أن أسلم مع أهل البيعات الثلاث عدد آخر من أهل المدينة ، بفضل الله أولا ، ثم بجهود الأنصار ثانياً ، وبجهود السفير الأول للرسول وهو مصعب بن عمير رضوان الله عليه ، فكأن إسلام هؤلاء قد صار ركيزة تستند إليها الهجرة ، فتجد روح الأمان والاطمئنان ، كما ينبغى أن نتذكر هنا أن أخوال الرسول من بنى النجار كانوا فى المدينة ، فإذا هاجر إليها لم تكن هجرته غريبة ولا عجيبة ، فإن التواصل بين الأرحام ، والتعاطف بين الأقارب ،مما لا تستنكره الإنسانية العاقلة الفاصلة فى أى عصر من العصـــور وعلى فرض أن هؤلاء الأقارب لن يكونوا بأجمعهم من أهل الدعوة الجديدة ، فإنهم لن يجحدوا حق القرابة والرحم فى حسن الاستقبال على الأقل ، ونحن نجد السيرة العطرة تحدثنا بأن طائفة من بنات بنى النجار استقبلن الرسول المهاجر على أبواب المدينة وهن يرددن نشيد التحية والاحتفال بالقادم العظيم عليه الصلاة والتسليم :

طلع البـــدر علينـــا   من ثنيات الوداع .... إلخ

واختار الرسول المدينة دار هجرة ، وكان من حقه أن يفعل ، ففى المدينة يرقد والده عبد الله الذى لم يره الرسول ، حيث رحل الوالد فى تجارة له ، وأدركه الموت هناك فى المدينة ، والرسول يومئذ جنين فى بطن أمه الطاهرة ، فكان من الطبيعى أن تتعلق ذاكرة الرسول بموت أبيه ومثواه ، وأن يهفو

قلبه إلى البقعة التى ضمته إلى الأبد ، كما أن هذه الذكرى توجد أمام الناس على الأقل تسويغاً لمحمد أن يرحل إلى المدينة فيجد فيها وفيما حولها من يقدر هذه الذكرى ويرعى حرمة صاحبها ، ويضاف إلى هذا أيضاً أن أم الرسول الطهور (آمنة بنت وهب) ترقد فى مثواها الأخير على الطريق بين مكة والمدينة ، فقد رحلت ذات يوم إلى المدينة وابنها مازال وليداً ناشئاً ، ثم عادت تريد مكة ، فأدركها أجلها وهى فى الطريق ، فدفنوها هناك ، فظل قلب الوليد النقى الزكى معلقاً بهذه الذكرى التى ترتبط بالطريق الممتد بين مكة والمدينة ، فإذا اتجه النبى بخطواته إلى هذا الطريق لغايته الكبرى فى حماية الدين وتبليغ دعوته ، لم يبعد أن يتذكر الناس وجود قبر أمه آمنة فى هذه الناحية ، فلا يستخفون بالمشاعر الإنسانية التى تنبعث فى صدر الإنسان فى مثل هذا المقام ، وقد يحسب كثير منهم أن خطوات المهاجر الأعظم — لو عرفوه — مرتبطة بأمر هذه الذكرى ، لا بالأمر الكبير الذى هاجر الرسول من أجله ، وهو إعلاء كلمة الله بين عباد الله فى الأرض .

واختار الرسول المدينة دار هجرة ، لأنها تتوسط الطريق بين مكة والشام ، ولأهل مكة المشركين ارتباط وثيق بالشام ، فإليها رحلتهم كل عام، وفيها تدور تجارتهم ونشاطهم الاقتصادى ، يصدرون إليها ويستوردون منها ، وهؤلاء هم الذين آذوا رسول الله والذين آمنوا معه ، وعذبوهم واضطهدوهم وأكلوا حقوقهم وأخرجوهم من ديارهم ، فالمدينة إذن موقع استراتيجى مهم جداً ، يستطيع المسلمون فيه أن يقطعوا الطريق فيه على المشركين ، ويهددوهم فى رحلاتهم وتجاراتهم ، ماداموا طغاة متجبرين ، والبادئ أظلم : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

واختار الرسول المدينة دار هجرة ، لأن اليهود اللئام كانوا يتجمعون فيها وحولها ، وكانوا يثيرون بين أهلها كثيراً من الجدل الدينى والحوار

الاعتقادى ، وكانوا يرددون بين أهل المدينة أنه سيظهر نبى جديد فى الجزيرة ، وأنهم – أى اليهود – سيؤمنون به ويتبعونه ، ثم يهاجمون أهل المدينة ليوسعوهم تعذيباً وتقتيلا ، فرأى أهل المدينة أن يسبقوا اليهود إلى الإيمان بهذا النبي ، حتّى يفوزوا ويفلحوا ، وكذلك كان ، وبذلك هيأ الله تعالى بين أهل المدينة جواً صالحاً لمتابعة هذا النبي الكريم ، حتّى يتخلصوا من لؤم اليهود وإجرامهم ، وليجدوا عند الرسول الأجوبة الشافية الكافية عن الأسئلة والاستفسارات الدينية التى كان اليهود يبثونها بينهم بنية التضليل والتمويه .

وأخيراً اختار الرسول المدينة دار هجرة ، لأنه كان يتطلع حوله فيجد ثلاثة بلاد ، هى مكة والطائف والمدينة ، أما مكة فقد ضاقت بالدعوة ، وتمرد أهلها المشركون عليها ، ولم تبق صالحة للمقام ، وأما الطائف فقد حاول الرسول أن يجذب أهلها إلى الصراط فأبوا وتمردوا واعتدوا على الرسول حتى أسالوا منه الدم ، وحتى لجأ الرسول إلى ربه يدعوه ويقول له : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يارب العالمين ، ويا أرحم الراحمين ، أنت ربى ، إلى من تكلنى . . . » إلخ فلم يبق إلا المدينة ، يوجهه الله تبارك وتعالى إليها ، ويؤيده بنصره وهداه حتّى يتحقق النصر والفتح العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين ، وإنها لعبرة والعبرة توقظ النائمين ، فلنتعلم ولنتقدم ، ولنعد إلى صراط الله ، وهدى رسول الله ، فهناك الدواء والشفاء ، والضياء والغذاء ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

التخطيط والسرية فى الهجرة(١)

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ه أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة « إن رحمة الله قريب من المحسنين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبى الرحمة وقائد الملحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وأصلى وأسلم على أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

منذ يومين اثنين أشرق فى كبد السماء الهلال الوليد لشهر المحرم الحرام ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عام هجرى جديد ، وتذكيراً بالحادث العظيم الجلل ، حادث هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة ، وهى الهجرة التى كانت بداية لتجديد الحياة وتطهير الأحياء ، وقصة الهجرة معروفة مألوفة ، ومن السهل علينا أن نسرد وقائعها فى اقتضاب أو إسهاب ، ولكن الأولى بنا أن نقف من الهجرة موقف المتدبرين ، لنأخذ عنها من العظات والعبر ما يتصل بحاضرنا ، ويفيدنا فى أمرنا ، والذكرى تنفع المؤمنين . وهناك ناحيتان مهمتان جداً من نواحى الهجرة، يجب علينا أن نتأملهما جيداً ، وأن ننتفع بهما كثيراً ، وهما ناحية التخطيط المحكم وناحية السرية الدقيقة ، والتخطيط فى تاريخ البشرية ليس أمراً مستحدثاً يفخر به أبناء العصر الحاضر ،

---

(١) ٣ المحرم سنة ١٣٩٢ هـ ــ ١٨ فبراير سنة ١٩٧٢ م .

بل هو توجيه إسلامى منذ نزل القرآن المجيد الذى يقول للرسول فيما يقول : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » أى خرجت من بيتك مبكراً توزع المجاهدين معك على مواقعهم ومواقفهم حسب تخطيط منظم ؛ ومنذ قال الرسول : « خذ من شبابك لهرمك ، ومن صحتك لمرضك ومن غناك لفقرك » ومنذ قال الأثر الإسلامى الحكيم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . ولقد كان من تخطيط النبوة للهجرة أن أعدلها قبل حدوثها بزمن طويل ، فعقد بيعات العقبة الثلاث ، حيث بايع فى الأولى منها ستة رجال من أهل المدينة على الإسلام ، وبايع فى الثانية اثنى عشر رجلا على الإسلام أيضاً ، وبايع فى الثالثة ما يزيد عن سبعين رجلا وامرأتين ، بايعهم على الإسلام وعلى الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاءهم مهاجراً ، وبذلك أصبح للإسلام فى المدينة نقطة ارتكاز متينة تستطيع أن تحمى ظهر المسلمين وتكرم وفادتهم إذا هاجروا إلى المدينة .

ومن التخطيط المحكم فى حادث الهجرة أن الرسول اقتصر فيها على عدد محدود لا يتجاوز ثمانية أشخاص ، هم : رسول الله ، وأبو بكر وعلى بن أبى طالب ، وعائشة وأسماء وعبد الله أولاد أبى بكر ، وعامر بن فهيرة راعى الغنم عنده ، وعبد الله بن أريقط الذى لم يكن مسلماً ، ولكن الرسول استعان به فى عمل محدد من أعمال الهجرة ، لأنه اطمأن إليه ووثق فيه ، ولقد قام النبى بتوزيع الواجبات والتبعات والاختصاص على كل واحد من هؤلاء ، فرأس الهجرة الكريم ، وقائدها العظيم ، عليه الصلاة والتسليم ، مهمته هى أن يخطط وينظم ويوزع ويشرف ، فيضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، ويحسن استغلال الطاقات والمواهب ، ويكل العمل إلى من يتقنه ويحسنه ، وأبو بكر الصديق وهو أول رجل أسلم ، وخير من آزر وعاون ، وضحى

بماله وراحته والذى أعطى مثلا فى التضحية والوفاء والفداء ، مهمته هى الرفقة والصحبة ؛ وعلى ابن عم الرسول ، وربيبه ، وزوج ابنته ، وصاحب الروح الفدائية والشبيبة المتوثبة ، هو الذى يناسبه أن يتعرض لموقف الخطر وموطن التضحية ، وهو النوم على فراش الرسول ليلة الهجرة ، إذ لا يليق أن ينام على هذا الفراش إلا فرد من بيت النبوة ، حتى لا يطلع غريب على أسرار هذا البيت ، وعائشة وهى الفتاة التى ما زالت فى نحو العاشرة من عمرها ، يناسبها أن تبقى فى البيت وتشارك فى العمل بأن تعد الطعام وتطبخه وتربطه وتعده لحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار ، ثم تأتى أسماء بنت أبى بكر التى كانت فى زهرة العمر وباكورة الشباب ، فتحمل الزاد والماء وغيرهما من الحاجيات إلى المهاجر الأعظم ورفيقه ، فى حذر ويقظة ، ولا عجب فهى البطلة أم البطل الشهيد عبد الله بن الزبير الذى قالت له حينما خاف أن يمثل أعداؤه بجثته بعد موته : يا بنى ، إن الشاة لا يضرها سلخ جلدها بعد ذبحها . وهذا عبد الله بن أبى بكر ، الشاب الذكى الواعى ، اليقظ الحس والعقل ، كانت مهمته فى حادث الهجرة أن يقضى نهاره فى مكة بين المشركين ، يجمع كل خبر ، ويعمل كل شىء ، فإذا أوغل الليل ونام الناس ، تسلل محاذراً إلى الغار ، وأبلغ الأخبار إلى المهاجرين العظيمين ، ويظل معهما حتى الفجر ، ثم يعود إلى بيته ، ويصبح مع الناس كأنه لم يخرج من مكة ، وعامر بن فهيرة راعى الغنم يقبل بغنمه إلى الغار ، ليشرب المهاجران العظيمان اللبن ، وهو الغذاء والسقاء والدواء ، ثم يعود بغنمه ليمحو من الرمال آثار الأقدام التى خلفتها أسماء ، وخلفها عبد الله بن أبى بكر ؛ وأخيراً هذا هو عبد الله بن أريقط الذى لم يكن مسلماً ، ومع ذلك استعان به الرسول صلى الله عليه وسلم ليدله على الطريق ، فقد كان ابن أريقط خريتاً ماهراً ، أى كان حاذقاً خبيراً بمسالك الصحراء وشعابها ، لا تغيب عنه حبة رمل

منها، وقد اختبره الرسول قبل ذلك فى مواقف كثيرة فاطمأن إليه ووثق به، ولذلك قال فقهاء الإسلام إنه يجوز شرعاً الاستعانة بغير المسلم مادامت هذه الاستعانة لا تمس العقيدة والدين .

هذا عن عنصر التخطيط فى الهجرة ، وأما عن عنصر السرية فقد كان فيها بارزاً واضحاً ، وكتمان الأسرار التى لا يحسن نشرها توجيه إسلامى أصيل ، ولذلك نجد القرآن يشنع على المنافقين المجرمين فيصفهم بأنهم لا يصونون سرية الأخبار ، فيقول عنهم : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » . والرســـول يقول: « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . ولقد بدأ النبي الحكيم دعوته سراً ، واختفى حيناً مع طلائع المسلمين فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وكان يخفى تفاصيل تحركاته فى الغزوات غالباً ، ويأخذ بالتورية والكتمان ، ولقد تجلت السرية بأدق معانيها فى حادث الهجرة ، فالرسول لم يطلع إلا عدداً قليلا كما رأينا على خبر هجرته ولم يطلعهم إلا قبيلها بقليل ، وخرج منفرداً إلى دار أبى بكر فى وقت غير منتظر ، وخرج مع أبى بكر ليلا من خوخة [باب مثل النافذة] فى ظهر البيت ، ثم اتجها جنوباً نحو اليمن للإيهام ، وهما يقصدان التوجه شمالا نحو المدينة ، ثم إن بيع العقبة الثـــلاث التى كانت تمهيداً مبكراً للهجرة ، تمت ليـــلا ، وفى حذر ، وكانوا يتسللون إليها تسلل القطا ، وكان الرسول يقول لهم : « ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم » ، والاختفاء فى الغار ثلاثة أيام كان أيضاً جزءاً من السرية والكتمان ، وتجنب الطريق المألوفة إلى الطريق الساحلى على البحر وهو غير مطروق ، جزء كذلك من السرية والكتمان ، وبالتخطيط والكتمان ، مع عناية الرحمن ، تمت الهجرة فكان خيراً وبركة على المسلمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الأمة التى لا تخطيط لها ، لا عزة لها ولا غناء فيها ، وإن الأمة التى لا تحفظ أسرارها، ولا تكتم خططها الحساسة المتعلقة بمصيرها ومعركتها لا تستحق النصر أو الفوز ، ولنا فى حادث الهجرة الخالد عظة وعبرة « إن فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

لماذا هانت ذكرى الهجرة[1]

الحمد لله عز وجل ، يثبت عزائم المؤمنين الصادقين ، ويضل أعمال المخادعين المرائين : « أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل ولايته لأهل اليقين والإيمان ، وكتب اللعنة على الغاوين من أتباع الشيطان : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص وجهه لربه ، وأقبل عليه بحسه وعقله وقلبه ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله أشعة الهدى ، وأصحابه أئمة الورى ، وأتباعه مصابيح التقى : « وإن للمتقين لحسن مآب » !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كان يوم الجمعة الماضى بدء العام الهجرى الجديد ، وموعداً لذكرى الهجرة النبوية الخالدة ، وقد مرت هذه الذكرى بأبناء الإسلام وكأنها يتيم يمر بقوم يجهلونه أو ينكرونه ، فهم لا يلقون إليه بالا ، ولا يولونه احتفالا ، حتى همت النفس أن تقول : لقد ضاعت ذكرى الهجرة بين المسلمين أو كادت ، مع أنه جاء حين على ذكرى الهجرة كانت تقبل فيه على المسلمين فتكون الشغل الشاغل لهم فى احتفالاتهم وأحاديثهم ، فالدولة والجماعات والهيئات والمدارس والمعاهد كلها تحتفل بالهجرة ، وتعنى بمقدمها ، ويكون لذلك دوى واسع وأثر واضح ، وكانت الأحفال الهجرية تتوالى حتى يصير شهر المحرم شهر احتفالات بالهجرة تقريباً . ثم نتلفت الآن لنبحث عن الذين احتفلوا بذكرى الهجرة أو شغلوا أنفسهم بمعانيها فلا نجد إلا القليل ، وهذا لون من التقاعس عن الخير بعد الإقدام عليه ، وقد عد الإسلام الرجوع عن

---

[1] ٨ من المحرم سنة ١٣٧٨ هـ — ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٨ م .

الخير بعد الاهتداء إليه مصيبة كبرى ، ولذلك يعاقب المرتد عن الإسلام معاقبة من أهدر دمه وأزهق نفسه ، والرسول صلوات الله عليه يجعل الثبات على العقيدة والطريقة إحدى ثلاث خصال توجد بها حلاوة الإيمان فيقول : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ هداه الله كما يكره أن يقذف فى النار » ويصور قيمة الثبات على إتيان ما يراه الإنسان حقاً فيقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

ولسنا نقول إن الاحتفال بذكرى الهجرة فرض من الفروض ، أو واجب دينى نص عليه الكتاب أو السنة ، فهو تقليد طارئ لم يكن فى صدر الإسلام ، وإنما نقول إن ذلك الاحتفال أصبح مظهراً إسلامياً ضخماً ألفناه حيناً من الزمان وتوسعنا فيه ، ثم انصرفنا عنه أوكدنا بلا سبب معقول أو داع مقبول . ولقد قيل مثلا إن الأزهر احتفل بالهجرة احتفالا عاجلا محدوداً ، ولعله كان احتفالا لسد الخانة أو حتى لا يقال : لماذا لم يحتفل الأزهر ، وإلا فأين احتفال الأزهر الجليل الذى يدوى فيه صوت شيخه وتحتشد له الحشود ، وتذيعه الإذاعة ، وتسجل ما يقال فيه لتعيد إذاعته ؟ . . وأين المحاضرات والخطب والقصائد والمقالات والمسرحيات والحفلات التى كانت تقام فى ذكرى الهجرة ؟ وهل يكفى منع تقديم الخمر فى نهار اليوم الأول من العام الهجرى ، كأن الخمر حلال فى كل يوم من أيام العام لا تحرم إلا فى اليوم الأول من العام الهجرى ؟! .

إن لكل أمة أعيادها ومواسمها التى تحتفل بها وتلتفت إليها ، ونحن نرى الأجانب يبذلون الجهود الكبيرة فى الاحتفال بعيد الميلاد المسيحى مثلا ، ويشغلون الدنيا به عدة أيام ، ويتخذون لذلك وسائل كثيرة أقلها سليم وأغلبها عليل ، مع أن عيد الميلاد عيد رمز إلى ذكرى شخصية هى ذكرى مولد

المسيح عليه السلام ، والذكرى الشخصية مهما عظمت وجل صاحبها ليست كالذكرى الروحية الإيمانية العامة ، وذكرى الهجرة هي ذكرى اهتزاز الدنيا هزة الخلاص من الشر والإقبال على الخير ، وهي ذكرى انتصار النور على الظلام ، والحق على الباطل ، والإيمان على الكفران ، ولذلك لم يشأ الله لعباده أن يختاروا ميلاد محمد أو وفاته حادثاً يؤرخون به ، بل اختاروا يوم الهجرة ، لأنه ليس يوم شخص ، بل هو اليوم الذى شهدت فيه الدنيا كيف تتخلص العقيدة السليمة من بغى أعدائها ، لترجع إليهم بعد حين ظافرة منتصرة ، رحيمة عادلة .

وقد يقال : إنه لن يضير الإسلام كثيراً أن نترك الاحتفال الواسع بالهجرة فى عام أو فى أعوام ، فقد يكون هناك من الواجبات الثقال ما هو مهم كالاحتفال بالهجرة أو ما هو أهم منه ؛ وهذا كلام مقبول فى ظاهره ، ولكن الواقع المؤلم أننا نفرط فى هذا وذاك وذلك ونهمل أكثر الواجبات الشرعية والتقاليد الإسلامية وأخشى ما نخشاه أن يستمر التفريط فى الأمور الدينية ، وأن يطول علينا الأمد فنستهين بكل ما يتعلق بالدين أو يمت إليه بصلة حتى يصبح فى طى النسيان ؛ وقد كان يسوغ عدم الاحتفال الواسع بالهجرة لو أن واجبات إسلامية أخرى استبدت بأوقاتنا وجهودنا فشغلتنا عنه ، أو لو أننا لم نظهر اهتماماً كبيراً بمثل عيد الميلاد ، أو أننا لم نشارك غير المسلمين فى أعيادهم التى لا علاقة لها بدين الإسلام ؛ فليتنا نعنى فى قصد واستقامة بأعيادنا ومواسمنا كما يعنى غير المسلمين فى إسراف وانحراف بأعيادهم ومواسمهم ، وليتنا إذ لم نعن بأعيادنا كما عنوا لم نشاركهم الاحتفال فيما هو ليس بإسلامى من الأعياد ، وليتنا إذا شاركناهم اقتصرنا على الفرحة البريئة والمجاملة القاصدة ، ولم نقع فى تلك السيئات والموبقات التى تستعلن وتشيع فى تلك الأعياد . . . وليتنا نسائل أنفسنا مساءلة الادكار

والاعتبار : كم عدد الأفراد منا الذين أشعروا بيوتهم فى بدء العام الهجرى أن ذكرى الهجرة قد مرت ، وأن العام الإسلامى الجديد قد بدأ ؟ . . . وكم عدد الهيئات والجماعات التى احتفلت بالهجرة ؟ . . . وكم عدد الذين تبادلوا التهنئة والمباركة والهدايا فى ذلك العيد الإسلامى المجيد ؟ . . . ليتنا نفكر ونتدبر ونعتبر ونستقيم فى تصرفاتنا مع ما لنا من مواسم وأعياد ! ! . . .

إننا لا نريد الاحتفال بذكرى الهجرة ليكون رسماً من الرسوم أو شكلا من الأشكال ، وإنما نريد فيه أن يتذكر المسلمون تاريخهم حق التذكر ، وأن يتصوروا الأحداث التى كانت قبيل الهجرة وأثناءها وبعدها ، ثم يقوى فى عقولهم وقلوبهم هذا التصور بقوة المذكرين لهم وخلاصهم ، حتى كأنهم يشهدون عودة التاريخ ورجعة الماضى ، فيكون ذلك لوناً من الربط الحميد بينهم وبين تراث أجدادهم،وتوثيقاً للعروة الروحية بينهم وبين طريق ربهم عز وجل وبين هدى نبيهم صلوات الله عليه،وإذا لم يستطيعوا أن يشاركوا محمداً وصحبه فى هجرتهم الحسية من مكة إلى المدينة ، استطاعوا أن يفوزوا بنعمة الهجرة الروحية والأخلاقية والفكرية فى أقوالهم وأعمالهم وتصرفاتهم وحيواتهم الفردية والعامة ؛ وقد فتح لهم رسولهم باب الهجرة الدائمة فى سبيل الله ، وإخلاص النية له ، وبالحرص على أوامره ، والابتعاد عن محارمه ، فقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » وقال : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » ! . . .

ونحن يمكننا اليوم أن نتعلم من الهجرة دروساً جليلة عظيمة فى المبادئ الكريمة القويمة التى تحفظ علينا كياننا ، وتصون لنا ديارنا ، وتدفع بنا إلى مواطن العزة ومواقف الكرامة والإباء ، إذ نتعلم منها دروس الجهاد والصبر والشجاعة والتضحية والحكمة فى التصرف والثقة بالله والإخاء فى الله والتعاون على البر والتقوى ، ونحن نرى اليوم أصحاب قوة باغية يطغون على آخرين

أصحاب ضعف وقلة ، ويسلبونهم ديارهم وأموالهم وأرزاقهم ، ولكن المسلوبين لا يرضون ولا يسلمون ، بل يعملون ويناضلون ، ويرتقبون يوماً ينتصرون وينتصفون فيه ، وحينما أخرج المشركون محمداً وصحبه من مكة خيل إليهم أنه خروج بلا عودة ، ولكن المسلمين بمبادئهم السماوية القوية الباقية لم يسكتوا ولم ييأسوا ، بل جاهدوا وعادوا بالفتح المبين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الهجرة هي ألمع حادث فى تاريخ نبيكم صلوات الله عليه ، ولو لم يكن فى الاحتفال بها إلا معنى الوفاء لصاحبها لكان ذلك داعياً للعناية بها ، وأسلافنا الصالحون رضوان الله عليهم كانوا يعنون بكل شيء يتصل بالرسول ، وهذا هو عمر بن عبد العزيز كان يحتفظ بالأدوات التى كان النبي صلوات الله عليه يستعملها ، وكلما دخل عليه جماعة من قومه أراهم إياها مذكراً لهم بأنها آثار من أكرمهم الله به ، وأعلى شأنهم عن طريقه . حدث محمد بن مهاجر قال : كان عند عمر بن عبد العزيز سرير النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه وقدحه وجفنته ووسادة حشوها ليف وقطيفة ورداء، فكان إذا دخل عليه النفر من قريش قال لهم : هذا ميراث من أكرمكم الله به ، ونصركم به ، وأعزكم به ، وفعل ما فعل ! . .

فليتنا نقدم لذكرى الهجرة ولذكرى صاحبها ما يليق بهما من إجلال واحتفال ، لنستفيد نحن من وراء ذلك فى وعينا الدينى وجهادنا الحيوى ، ونكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

التخطيط بعد الهجرة[1]

الحمد لله تبارك وتعالى . وهب العقل وحاسب عليه، وحث على التدبير ودعا إليه ، « فاعتبروا يا أولى الأبصار » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، جعل لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هاجر إلى ربه فحماه وآواه، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى عترته الطاهرة وصحبته الشاكرة وأمته الذاكرة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كأن عجب الإنسان لن ينقضى من أمر هذه الأمة التى تكاثر فيها التقصير والتضييع ، وكأنها تحفر قبرها بيديها ، أو كأنها تستوجب غضب ربها عليها وانتقامه منها ، فهى لا تنتفع بذكريات ماضيها ، وهى لا تتقن العمل لحاضرها ، وهى لا تحسب حساب غدها ، وهذه مثلا ذكرى الهجرة ، وفيها أقوى عظة وعبرة ، مرت عليها خافتة كابية ، ولولا كلمات قيلت هنا أو هناك ، واجتماعات آلية أقيمت كيفما اتفق ، لما أحس الناس بأن ذكرى تسمى « ذكرى الهجرة » قد مرت ، مع أن هذا الحادث كان تحولا خطيراً فى مسيرة الإنسانية كلها ، وكان بداية لإقامة دولة على أساس من الدين والدنيا ، والعلم والعمل ، والمادة والروح ، فلم تكن هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام تخلصاً من تبعة ، أو فراراً من واجب ، أو تطلباً لراحة ، بل كانت هذه الهجرة الخالدة نقلة تاريخية مشهودة لبناء مجتمع جديد ،

---

(١) ٦ من المحرم سنة ١٣٩٣ هـ — ٩ فبراير سنة ١٩٧٣ م .

وتشييد دولة تباركها يد الله ، وتضيء جوانبها أشعة الهدى والإيمان ، ولذلك لم تتم الهجرة مصادفة أو اعتباطاً أو كيفما اتفق لأصحابها ، وإنما قامت على التخطيط الدقيق قبلها ، والتخطيط الدقيق معها ، والتخطيط الدقيق بعدها ، وإذا كنا قد سمعنا وعلمنا حديث التخطيط للهجرة ، فمن واجبنا أن نعى حديث التخطيط بعد الهجرة ، لأن التخطيط هو صبغة العصر الذى نعيش فيه ، فكل الأمم الواعية تحرص على التخطيط للحاضر ، والتخطيط للغد القريب ، والتخطيط للمستقبل على المدى الطويل ، حيث يكون هناك تدبير موصول قائم على منهج منظم لتحقيق هدف مأمول .

وهناك كثير من الناس يحسبون خطأ أن هذا الاتجاه التخطيطى شيء من مبتكرات العصر الحديث ، مع أنه شيء موروث من حسنات الإسلام ومن نفحات العبقرية والإلهام فى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، والهجرة النبوية الماجدة كانت من أقوى الشواهد على ذلك ، فإن كل خطوة من خطوات المهاجر الأعظم كان يصحبها جزء من التفكير العميق فى رسم الخطة والإعداد للمستقبل ، وها نحن أولاء نرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بعد أيام شديدة عصيبة قضاها فى جوف الصحراء الرهيب ، وهو على طريق الهجرة ، يقف ليلتقط أنفاسه مع صاحبه أبى بكر عند « قباء » ، ولكنه فى أثناء التقاطه لأنفاسه ، لم يضع الوقت هدراً ، بل انتهز الأيام المعدودة التى قضاها فى قباء فأنشأ فيها أول مسجد أقيم فى الإسلام « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » . وكأنه يرمز بذلك أنه قادم من أجل الدعوة إلى الله ، ولتجديد العبادة لله ، « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ، فهو لا يشيد لنفسه قصراً ، ولا يبنى لاستمتاعه صرحاً ، بل يبنى بيتاً من بيوت الله عز وجل .

وانتقل الرسول من قباء إلى المدينة ، وهو يتذكر جيداً أن جوهر رسالته هو نشر كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، وإنشاء دولة دينها الإسلام حقاً وصدقاً ، لا مجرد كلام يقال أو يكتب ، ولذلك عاد الرسول عليه الصلاة والسلام فبدأ وجوده فى المدينة ببناء مسجد ، وقد بنى من قبل مسجداً فى قباء ، وكأن هذا التكرار تأكيد لقيام المجتمع الإسلامى على نقطة الارتكاز الأساسية وهى المسجد ، وعمل الرسول فى المسجد بيديه ، وعمل معه كذلك كل قادر على العمل من المهاجرين والأنصار ، لكى يكون هذا المسجد ملتقى أبناء الدولة الجديدة ، يلتقون فيه يومياً خمس مرات تحت شعار لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ؛ وتطلع الرسول فرأى مجتمع المدينة غير مجتمع مكة ، فنى المدينة الأوس والخزرج من جهة ، وفيها أمكر خلق الله وهم اليهود من جهة أخرى ، فكان لابد من تحصين الجبهة الداخلية — كما نقول نحن بلغة عصرنا — وتمثل هذا التحصن فى محاولة لاستقطاب هؤلاء اليهود فى هدنة تحفظ عليهم حقوقهم وأمنهم ، فإن أحسنوا وقابلوا الجميل بالجميل ، فبها ونعمت ، وإلا فالجزاء العادل موجود : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . وأما الأوس والخزرج فقد كان بينهما فى الجاهلية ما كان من عدوات ومشاحنات وصراعات ، فلا بد من صهرهم فى بوتقة الإسلام والإيمان ، حتى ينسوا حمية الجاهلية ويتدثروا بشعار الوحدة : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ، ولقد أقبل المهاجرون على المدينة بلا مال ولا عقار . وهذا الوضع يتطلب تكافلا وتضامناً وتعاوناً بين المهاجرين الطارئين والأنصار المستقرين ، وإذن فليكن العلاج إنشاء نظام المؤاخاة الإسلامية بين هؤلاء وهؤلاء ، وتقوية روح الإيثار والمشاركة فى نفوس هؤلاء المؤمنين ، فأقام الرسول صلى الله عليه وسلم بنيان الأخوة الدينية التى تشبه إخاء القرابة والنسب وحتى لو مات أحدهما ورثه الآخر كأنه أخوه

لأمه وأبيه ، وظل هذا النظام الرائع معمولا به حتى نزل قول الحق تبارك وتعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » . وضرب الأنصار أروع الأمثال فى الإيثار والتكافل حتى استحقوا قول أصدق القائلين : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . ولم يسئ المهاجرون استغلال هذا الفيض الغامر من المواساة والإيثار ، بل تعففوا وتخففوا ، وانطلقوا يعملون فى التجارة أو الزراعة حتى أغناهم الله من فضله ، وأصبحوا أفراداً صالحين قادرين يسهمون فى توطيد المجتمع الجديد .

ولم يكن من الممكن أبداً أن ينسى المسلمون وطنهم الذى أخرجهم منه البغى والطغيان ، ولا أن ينسوا أولئك الذين شردوهم فى الأرض كل مشرد واستولوا على أموالهم وديارهم وعقارهم ، ولا ذنب لهؤلاء المسلمين إلا أنهم قالوا : ربنا الله ، ولذلك وضع الرسول صلى الله عليه وسلم ضمن خطته وتخطيطه أن ينتصف المسلمون من المشركين ، بتعرض السرايا المؤمنة لقوافل التجارة المشركة ، لعلهم يحصلون منها على مقابل جزئى لما استولى عليه المشركون من أموال المسلمين ، كما كان من نظام هذه الخطة أن يواجه المسلمون العدوان بمثله ، حتى لا يضيعوا ضيعة الأيتام بين الأخساء اللئام ، وخاصة بعد أن جاء الإذن الإلهى برد العدوان بعد طول الانتظار والاصطبار : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ، « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . ومن هنا انطلق أبناء الإسلام يلاقون أعداءهم فى غزوات متلاحقة ثبتوا فيها ثبات الجبال ، وناضلوا خير النضال ، وصبروا صبر الرجال ، وضحوا تضحية الأبطال ، حتى جاء

الفتح وتحقق النصر وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . وإنما تحقق ذلك بعد أن صار كل مسلم جندياً من جنود الرحمن تحت راية القرآن .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

ليتنا نأخذ من الهجرة درساً فى التخطيط والتدبير والتطبيق . ليتنا نبدأ بخطوات على الطريق ، يحدوها التوفيق ، حتى نحرر الديار ، ونأخذ الثأر ، ونغسل العار ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

الكتمان فى حادث الهجرة[1]

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، هو نبى المرحمة وقائد الملحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله . وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين، وأستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اليوم يوم الهجرة ، فى مثل هذا اليوم ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، هاجر خاتم الأنبياء وإمام المرسلين محمد من مكة إلى المدينة ، وذكرى الهجرة تثير فى نفس الإنسان كثيراً من الخواطر والمعانى ، ولكننا تعودنا فى مرحلتنا النضالية الحاضرة أن نستخلص وجوه العبر التى تتصل بالكفاح والجهاد ، لعل ذلك يكون بفضل الله تعالى مدداً يبعث فينا الهامد ويحرك منا الجامد ويؤيد المجاهد: « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

ومن أهم الأمور التى تحتاج إليها معارك النضال والكفاح أن يتعود أبناء الأمة فيها فضيلة الكتمان وإمساك اللسان ، حتى لا يكون تدبيرهم مفضوحاً ، ولا يصبح سترهم مهتوكاً ، وإنما تتم جلائل الأعمال بالطى والكتمان ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . وإذا تطلعنا إلى الهجرة وجدناها قد سيطرت عليها صبغة الكتمان والسرية برغم

---

(١) أول المحرم سنة ١٣٩١ هـ – ٢٦ فبراير سنه ١٩٧١ م .

اشتراك الكثيرين فيها وهذه العبارة يلزمنا أن نلح فى الكلام عنها ونكرر الحديث حولها وأن نبدئ ونعيد فى التدبر لها وتوجيه الأبصار والبصائر إليها ، وينبغى أن نلاحظ أن الهجرة لم تكن بنت ساعتها أو يومها ، بل كان لها أكثر من تمهيد ، ولعل أكبر تمهيد لها هو عقد تلك البيعات الثلاث التى تمت بين النبى وطلائع المسلمين من أهل المدينة ، وهى التى سميت « بيعات العقبة » ، وقد تمت هذه البيعات فى كتمان وإسرار ، حيث كانت تعقد البيعة بعد ثلث الليل ، وفى مكان غير منظور ، وكان أهلوها يتسللون إلى موضعها تسلل القطا مستخفين ، كما تعبر السيرة العطرة ، والقطا طير يضرب به المثل فى استخفاء المسير والطيران ، ونرى الرسول يذكر القوم بأهمية الحذر والكتمان وقت المبايعة ، فيقول لهم : « ليتكلم متكلمكم ، ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم » .

وعندما هم الرسول بالهجرة أحاطها بالسرية والكتمان ، فأمر ربيبه وابن عمه وتلميذه على بن أبى طالب بأن ينام فى فراشه ليلة الهجرة ، وأن يتغطى ببرده الأخضر الحضرمى إيهاماً للمشركين المتآمرين بأن الرسول ما زال نائماً فى فراشه . ثم خرج عليه الصلاة والسلام من بيته فى وقت غير معهود كيلا تتطلع إليه الأنظار ، وتوجه وحيداً إلى بيت أبى بكر وهناك قال له : « أخرج عنى من عندك » فأكد له أبو بكر أن السر مصون ، وأن البيت مأمون ، لأن أهله أوفياء مخلصون ، فقال له : « يا رسـول الله ، إنمـا هما ابنتاى » يقصد أسماء وعائشة ، وكأن هذا إشعار بأن ابنتى أبى بكر قد بلغتا مستوى التبعة والمسئولية ، فصارتا أهلا للمشاركة فى جلائل الأعمال ، وبعد أن أخبر الرسول أبا بكر بإذن الله تعالى فى الهجرة خرج معه من خوخة فى ظهر البيت ، والخوخة باب صغير كأنه نافذة ، حتى لا تلحظهما العيون ، ويروى التاريخ أنه لم يعلم بخروجهما سوى على وعائشة وأسماء ، ولم يتجه الرسول جهة الشمال

حيث تقع المدينة » حتى لا يعرف المتتبعون لأثره أنه يقصدها ، بل اتجه جنوباً إلى ناحية اليمن ، و « الحرب خدعة » كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ثم اختبأ الرسول وصاحبه فى الغار أياماً ، والغار مكان مستور مهجور غير منظور ، وكأن عناية الله قد أرادت أن تعاون على الكتمان والإسرار لصيانة المهاجرين العظيمين من أيدى المطاردين الفجار ، فجاء العنكبوت فيما يروى ونسج خيوطه على فتحة الغار ليتأكد لدى الناظرين أنه مهجور مهجور ، وفضل الله على رسوله فى الهجرة كبير مشهور : «إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

وقد جمع حادث الهجرة بين الكتمان الحكيم والحذر الشديد ، فأخذ كل مشارك من المؤمنين فى هذا الحادث يؤدى مهمته فى حذر واستخفاء ، فأسماء بنت أبى بكر تحمل الماء والطعام إلى الغار بصورة لا تستلفت الأنظار ، وعبد الله بن أبى بكر — وقد كان ذكياً بصيراً واعياً — يجمع أخبار المشركين فى حذر ، فإذا جن الليل وأوغل الظلام مضى مستخفياً إلى الغار ليطلع الرسول العظيم على تحركات المشركين ، وعند السحر يعود الشاب الذكى إلى مكة فيصبح وكأنه قد بات مع قومه ، وعامر بن فهيرة — راعى الغنم لأبى بكر — يذهب إلى الغار ليشرب الرسول وصاحبه من اللبن ، ثم يعود الراعى بالأغنام لتمحو بأظلافها آثار الأقدام ، فلا يهتدى أحد إلى الغار عن طريق هذه الأقدام ، وهكذا يتمثل لنا فى حادث الهجرة تطبيق عمل متقن لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « المؤمن كيس فطن » .

ولقد جن جنون الكافرين الباغين ، فقامت قيامتهم للعثور على الرسول حياً أو ميتاً ، وجعلوا لذلك الجائزة الكبيرة المغرية ، وغربلوا رمال الصحراء فلم يجدوا حيلة ولم يهتدوا سبيلا ، وحفظت عناية الله رسول الله المهاجر المكافح المناضل ، وبعد أن انقطع البحث أو كاد ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه رفيقه وصديقه أبو بكر الذى ظل مع أهله يضربون به الأمثلة فى الوفاء والفداء ، وفى الاحتفاظ بأسرار الدعوة وأخبار الداعية ، فقد روى التاريخ أن أبا جهل جاء مغيظاً محنقاً إلى بيت أبى بكر بعد خروجه مع النبى إلى طريق الهجرة ، وطرق أبو جهل الباب ففتحت له أسماء ، فقال لها فى غلظة وفظاعة : أين أبوك ؟ وأين محمد ؟ فأجابتـــه فى ثبات : لا أدرى أين هما الآن ، فلطمها الشقى اللعين لطمة أطارت قرطها من أذنها ، ولكنها احتملت الأذى فى سبيل الله ، وفى سبيل الاحتفاظ بسر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . ولا عجب فهى بنت أبى بكر الذى ظل يحافظ على سرية الهجرة فى أثناء طريقها . حيث كان يقبل كثير من العرب يسألون أبا بكر مشيرين إلى الرسول : من هذا الذى يرافقك يا أبا بكر ؟ فيجيب : هذا هاد يهدينى الطريق . فيحسبون أنه يريد من يدله على مسالك الطرق وشعاب السبل . وهو يريد فى الحقيقة أن الرسول هو الذى يهديه إلى طريق الله رب العالمين . طريق الحق والنور واليقين .

وهكذا بالحرص على الكتمان ، والصيانة للأسرار . وبتوفيق الله أولا وقبل كل شىء ، تمت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام التى تعلمنا اليوم أن نكون أمناء على الأسرار . حراصاً على كتمان ما ينبغى كتمانه ، نطوى فى صدورنا ما نسمعه بحكم عملنا أو موقعنا ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « المجالس بالأمانة » فلا يجوز لنا أن ننقل ما نسمعه فيها ما دام هذا

أمانة بين أيدينـــا ، والقرآن الكريم يقول فى صفة المؤمنـــين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الكتمان لا يثمر ثمرته إلا مع الحذر البالغ والانتباه الواعى ، ونحن اليوم فى موقف نحتاج معه أن نردد فى اعتبار واتعاظ قول الحق جل جلاله : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الاسراء والمعراج[1]

الحمد لله عز وجل ، هو بديع السموات والأرض : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، تنزهت أسماؤه وتكاثرت آلاؤه ، وهو صاحب الفضل العظيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أشرف من سعى على قدم ، وأبلغ من نطق بالحكم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

فى مثل هذا الوقت منذ ألف وثلاثمائة وست وثمانين سنة كان الله تبارك وتعالى يعد نبيه محمداً صلوات الله وسلامه عليه لحادث فريد عجيب فى التاريخ تظهر به قدرة الخالق ، وكرامة الإنسان ، وصلة الأرض بالسماء ، واتساع ملكوت الله الفسيح الأرجاء ، وهو حادث الإسراء الذى افتتح الله بذكره إحدى سور قرآنه فقال : « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، والمثير للتفكير أن هذا الحادث التكريمى الجليل قد وقع لسيد الأنبياء وإمام المرسلين بعد سلسلة ثقيلة من الشدائد والمتاعب ، فقد دعا النبى القبائل بمختلف الوسائل ، فتأبى عليه أكثرها واعتدى عليه أفجرها ، وتواصوا بالإثم والمنكر ، فحاصروه مع قومه فى الشعب زمناً طويلا ، ثم مات عمه أبو طالب الذى كان يغضب له ويدافع عنه ، وكانت القبائل تحسب حسابه ، وكذلك ماتت خديجة الزوجة الرحيمة الحنون ، واست وآست ، وعاونت وناصرت ، حتى استحق عام وفاتهما أن يسمى « عام الحزن » . وماكان العم

---

(١) ٢٥ رجب سنة ١٣٩٣ هـ — ٢٤ اغسطس ١٩٧٣ م .

والزوجة يلحقان بربهما حتى انفجر طواغيت الشرك والكفر فى فنون الإيذاء والتعذيب ، واضطر الرسول أن يخرج من مكة إلى الطائف ، لعله يجد هناك من هم أرق قلوباً أو ألين أفئدة ، فإذا الكفر كله ملة واحدة ، وإذا المقابلة هناك تدل على لؤم وجرم ، فعاد الرسول جريحاً مهموماً مغموماً ، به من الآلام والأحزان ماالله به عليم ، ولسانه يردد من قلبه هذه الكلمات : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ،وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيـــد يتجهمنى ، أم إلى عـــدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليـــه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولاقوة إلا بك » .

فى هذا الجو المعتم المظلم ، ومن خلال هذه الشدائد والمتاعب التى أثقلت وألحت ، وألقت بكلكلها الحاطم على كاهل الرسول الرحيم المسالم ، امتدت يد الله العلى الأعلى،لتنقذه وترفعـــه وتمجده ، وتطلعه على ملكوت السموات والأرض ، وتريه الآيات الكبرى ، دون أن يزيغ الصبر أو يطغى ، فكان حادث الإسراء العظيم ، الذى أرادت به العناية الإلهية أن تظهر عن طريقة فضل الرسول الأكبر ، فتسبغ عليه آيات التكريم والتمجيد فى أعقاب تلك المشاق التى رآها وعاناها ، لكى يتعلم أصحاب المبادئ العليا أن طريق الحق مهما كان فيه من أشواك أو متاعب سيؤدى إلى الغاية النبيلة والعاقبة الجليلة ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » .

وإلى جانب هذا أرادت عناية الله تعالى أن تقوى روح الثقة والاطمئنان

فى صدر الرسول ، فإذا كانت الطرق ضاقت على دعوة محمد فى شعاب مكة ، فإن الله قادر على أن يفسح له الطرق فى رحاب الكون العريض الواسع، وإذا كانت الأرض بترابهـا لم تتمهد تحت أقدامه فإن آفاق الكون عن يمين وشمال تصبح ممهدة أمام ركابه ، يتنقل بينها وفوقها حيث شاء الله العلى الكبير ، وإذا كان الكافرون قد تقاصرت هممهم ، وضاقت عقولهم ، وسقمت نفوسهم ، وعميت أبصارهم ، فلم يروا ضوء الحق الساطع ، ولم يدركوا دليل الصدق الناصع ، ولم يفلحوا فى اتخاذ الأسباب لإصلاح أرضهم ، فإن الله تعالى قد هيأ الإنسان الكامل الماثل فى شخص محمد عليه الصلاة والسلام لكى يتغلب على الأبعاد والمسافات ، ولكى يربط أسباب الأرض بأسباب السماء ، ولكى يشف ويرف ، وبذلك يعلو ويسمو ، ويبعد ثم يدنو ، فإذا هو قد عرف من مشاهد الطبيعة وأسرار الكون وأبعاد الخليقة ما يعد قدوة عليا لكل طامح إلى المعرفة الواسعة أو راغب فى المزيد من العلم بأمور الحياة والأحياء ، فى الأرض والسماء ، من هنا قال القرآن وهو يتحدث عن الإسراء : « لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، وقال وهو يتحدث عن المعراج : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ! .

ومن اللافت للنظر أن الإسراء كان قبل الهجرة بقليل . وبعد سلسلة المتاعب التى عرفنا أمرها ، فإذا كان الله تعالى قد اختار وقوع الإسراء بعد تلك المتاعب ليكون تكريماً وتثبيتاً ، وتأكيداً لروح الرجاء والأمل فى صدور المؤمنين المجاهدين ، فإن الإسراء نفسه كان بالنسبة إلى كثير من العرب أمراً عجيباً ، وحادثاً غريباً ، اهتزت له المشاعر ، وثارت بسببه العقول حتى استغله جمع الكافرين ليثيروا شكوكاً أو أوهاماً فى صدور بعض الداخلين فى الإسلام على رقة أو ضعف ، وجعل هؤلاء الكافرون يقولون إن أمر محمد

بالأمس كان محتملا ، وأما اليوم ، وبعد أن يحدثنا بأنه أسرى به فى ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، مع أن قوافلنا تقطع ما بينهما فى شهر ذهاباً وشهر إياباً ، فدون ذلك ويذهب حلم الحليم – فيما يزعم هؤلاء ويتوهمون وهنا قد يتساءل الإنسان: لماذا اختار الله هذا الوقت بالذات لحادث الإسراء، وهو سبحانه يعلم أن المسلمين سيهاجرون بعد قليل إلى المدينة، تاركين أموالهم وديارهم وعقارهم؟ لعل الله قد اختار ذلك ليكون امتحاناً وابتلاء للجماعة المؤمنة المجاهدة ، حتى يتميز الخبيث من الطيب ، وحتى تعد هذه الجماعة نفسها لما هو أكثر من المعارضة والاضطهاد والتعذيب، فتكون صالحة للتضحية الكبرى المتمثلة فى الهجرة، حيث يتركون كل شىء ويخرجون مهاجرين إلى الله وحده بغير زاد ، إلا التقى وعمل المعاد ، متذكرين فى إيمان عميق ويقين وثيق قول رسولهم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ولقد نجح المؤمنون فى الاختبار ، وفازوا فى الامتحان ، فواصلوا التصديق للرسول ، وعلموا أن الإسراء تكريم للإنسانية الفاضلة متمثلة فى شخص أفضل إنسان ، وتوجيه من الله لعباده كى يدركوا أن الإنسان الذى يمشى على الأرض ، ويأكل منها ، ويرتبط بها ، يستطيع إذا واتته عناية الله أن يسموا بعلمه وشفافيته وروحانيته ، فيجول خلال الملكوت الأكبر ليرى ما يرى من آيات ربه الكبرى .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

ما أكثر العظات والعبر التى نلحظها فى حادث الإسراء ، وإذا كان هناك بالأمس أو اليوم من يشكون أو يستبعدون وقوع الإسراء ، فإن ماهدى الله

إليه الإنسان من كشوف علمية قربت الأبعاد وألغت المسافات من أقوى الأدلة على أن الإسراء ليس ببعيد على من أمره أن يقول للشيء كن فيكون ، وصدق القرآن حيث يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ؟ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

سنتانى ذكرى الاسراء[1]

الحمد لله عز وجل ، يحيي الأرض بعد همودها ، ويوقظ القلوب بعد ركودها : « إن الله فالق الحب والنـوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤدب بالنقمة ، ويعز بالنعمة ، وهو العليم الخبير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف الغمة ، وأنقذ الأمة ، فكان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ،وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

اليوم أيها الإخوة هو اليوم التاسع من شهر رجب الفرد ، ورجب كما تعلمون هو شهر معجزة الإسراء والمعراج ، ولكن هذه المعجزة وقعت فى ليلة السابع والعشرين من رجب ، فلماذا يأتى الحديث عنها مبكراً قبل ميقاته بأكثر من أسبوعين ؟ الواقع أنى لا أريد أن أحدثكم عن قصة الإسراء والمعراج بالذات ، ولكنى أود أن نتعرف ما ينبغى أن نستقبل به هذه الذكرى التى تعود لأول مرة واليهود يحتلون دولة فلسطين كلها ومعها سيناء من أرض مصر والقنيطرة من أرض سورية ، وهى نكبة — لونعلم — لا مثيل لها فى التاريخ . ولقد تعودنا كلما جاءت ذكرى الإسراء والمعراج أن نحييها بكلمات هنا أو هناك ، ولكنا فى عامنا هذا نحتاج إلى هزة إسلامية فى اليوم السابع والعشرين من رجب ، هزة تحيى الرفات وتحرك الجهاد ، لأن معجزة الإسراء والمعراج وثيقة الصلة بفلسطين المحتلة ، فقد كانت فلسطين وعاصمتها القدس نهاية رحلة الإسراء فى الأرض ، وبداية رحلة المعراج إلى السماء ، ثم كانت

---

(١) ٩ رجب ١٣٨٧ هـ — ١٣ أكتوبر سنة ١٩٦٧ م .

أيضا نهاية العودة من المعراج ، وبداية العودة فى رحلة الإسراء والأمر ما فعل الله ذلك واختاره ، فهناك بلا شك حكمة عالية وإشارة سامية ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فالمرتحل هنا هو رسول الله ، والمرتحل إليه هو رب الكون جل جلاله ، وبداية الرحلة من مكة المشرفة التى تضم الكعبة المطهرة أول بيت لله ، وواسطة العقد فى الرحلة هو أحد المساجد الثلاثة المقدسة التى تشد إليها الرحال بنية العبادة لله وهو المسجد الأقصى ، والطرف الآخر للرحلة هو الملأ الأعلى فى السموات حيث تتجلى قدرة الله ، فيجب أن تكون ذكرى الإسراء والمعراج موعداً لهزة تهزنا من الأعماق ومن كل الآفاق ، نوثق فيها عودتنا إلى الله وغضبتنا لحرمات الله وغيرتنا الإيجابية على تراث رسول الله عليه الصلاة والسلام ...

ومعجزة الإسراء والمعراج وثيقة الصلة بمعركتنا ضد الطغاة المعتدين، لأن هذه المعركة تتطلب نوعين من القوة : تتطلب قوة مادية سريعة دافعة رادعة ساحقة للعدوان فى أسرع وقت ممكن ، وتتطلب قوة معنوية تملأ الطوايا والحنايا ، وتطهر القلوب والنفوس ، وتسموبالأرواح والمشاعر ، ومعجزة الإسراء والمعراج ترمز إلى أسرع قوة مادية ، وإلى أعلى قوة روحية فالقوة المادية التى لا مثيل لها عند الإنسان فى السرعة تتمثل فى سرعة البراق الذى أرادت السيرة النبوية أن تقرب لنا سرعته فقالت إنه يخطو الخطوة فيضع حافره حيث ينتهى بصره ، فهو يعدو ويطير بأقوى من سرعة الصوت والضوء وغيرهما من الأشياء ، والقوة الروحية التى لا مثيل لها تتمثل فى المعراج الذى صعد بالرسول إلى الملأ الأعلى، وسما به فى مراقى الأنوار الإلهية، حيث تعلو النفس على الحس ، وتتغلب الروح على البدن ، وحيث تصير الحركة روحية قوية لا ضريب لها ، ولا عجب فالرسول الذى كان طهوراً قد تضاعف طهره حتى صار نوراً ، وبهذه الذخيرة الروحية النورانية القوية

استطاع أن يجتاز الآفاق وأن يخترق الطباق ، حيث لا يستطيع أسير لحسه ونفســه وشهواته أن يخطو أو يجول ، ولعل أمير الشعراء شــوقى قد أراد الإشارة إلى مثل هذا حين قال يخاطب سيد الخلق عليه الصلاة والسلام :

حتى بلغت سماء لا يطار لهــا ... على جناح ، ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبى عنــد رتبتــه ... ويا محمد هذا العرش فاستلم

خططت للدين والدنيا علومهما ... يا قارئ اللوح ، بل يالامس القلم

يجب أن يستيقظ كل مسلم صباح اليوم السابع والعشرين من رجب وكأنه قد جن بأرض الإسراء والمعراج ، فيكون أول مايردده على لسانه عقب استيقاظه : فلسطين ، القدس ، المسجد الأقصى ، سيناء ، أرض الإسراء والمعراج ، أولى القبلتين ، ثالث الحرمين ويجب أن تلقن كل أم أولادها درس الجهاد فى سبيل تحرير الأرض المحتلة ، ويجب أن يحدث كل أب أولاده عما ارتكبه اليهود من جرائم سود ، ويجب أن يملأ نفوسهم غيظاً وغضباً من أجل أرض الإسراء والمعراج ، فأقدام اليهود النجسة تصول الآن وتجول حيث أسرى الله بسيد الخلق ، وحيث صلى وركع وسجد ، وحيث أم الأنبياء والمرسلين لتكون هذه الإمامة مبايعة منهم بأن مواريث النبوات والرسالات — ما بين مادية ومعنوية — قد انتهت إليه ، فهو الخاتم وهو الجامع وهو سيد الأنبياء والمرسلين ، ويجب أن تسيطر ذكرى الإسراء والمعراج على الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات والنشرات، ويجب أن يكون كل دروس اليوم السابع والعشرين من رجب عن فلسطين فى المدارس والمعاهد والجامعات ، ويجب أن يكون هناك احتفال جاد هادف واع بصير مفيد عن ذكرى الإسراء فى كل مسجد ، وكل مصنع ، وكل معمل ، وكل وزارة ، وكل إدارة ، وكل مؤسسة جماهيرية ، لتمتلئ القلوب بمشاعر

التحرير ، وتتقد النفوس بشعل النفير ، وتحتشد العقول بتفاصيل الحق الضائع وتبعات الواجب الجليل نحو فلسطين وما فيها وما حولها من احتلال أثيم وضيع ، ويجب أن تكون تحيتنا عند اللقاء وعند الوداع هى أن نردد فى وعى وفهم وعزم وتصميم : لن ننساك يافلسطين ، لن ننسى دماء الشهداء يا فلسطين ، لن ننسى جرائم اليهود فيك وفيما حولك من بقاع غالية يافلسطين لن تتجمد قضيتك بطول المدة يا فلسطين ، لن تشغلنا ملاهى الحياة عن واجبك المقدس يافلسطين .

ولنتذكر هنا أن اليهود قد تعودوا منذ عشرات السنين أن الواحد منهم إذا فارق زميلا له بعد لقاء كانت آخر جملة يرددها هى قوله « قطعت يمينى إن نسيتك يا أورشليم » ، فإذا كانوا يحرصون على باطلهم هذا الحرص ، فكيف لا يشغلنا حقنا المضيع فنحرص عليه هذا الحرص ، وكيف يعاودنا التبلد من جديد — بعد أن كان ماكان — فنرجع سيرتنا الأولى نأكل ونشرب ، ونغنى ونطرب ، ونلهو ونلعب ، كأن اليهود ليسوا فى فلسطين ، وكأنهم ليسوا فى سيناء ؟ ! ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

يا طيبها من بشرى لو أن نفحة من نفحات الغيرة الإسلامية والغضبة الدينية ارتفعت بنا إلى مرتبة الرضا الإلهى فعمرنا يوم الإسراء والمعراج بخطوة حاسمة يكون فيها غسل العار ، وأخذ الثار ، وتحرير الديار ، وتأديب الفجار ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

آية الإسراء[1]

الحمد لله عز وجل ، رفع المخلصين من عباده إلى أعلى عليين ، ووضع الأشرار الأخساء إلى أسفل سافلين ، وربك يخلق ما يشاء ويختار . أشهد أن لا إله إلا الله ، بديع السموات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بالحكمة ، وهدى الأمة : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نحن الآن فى شهر رجب ، وفى الثلث الأخير منه ، وفيه وقع حادث الإسراء والمعراج ، ومن الخير أن نتنسم روائح هذا الحادث الإلهى العظيم ، قبل أن تمر علينا ذكراه ، لعل الله يوفقنا لحسن العظة وجميل الاعتبار ، أو لعلنا نكون من الموفقين الذين قال لهم رسولهم صلى الله عليه وسلم : « إن لله فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » . وقصة الإسراء والمعراج معروفة الوقائع والتفاصيل ، وقد أعيد فيها الحديث وأعيد ، فحسبنا اليوم وقفة أمام آية واحدة من الآيات الكريمة التى جاءت فى شأن الذكرى ، وهى قول الله عز من قائل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . فهذه الآية قد جعلها الله تعالى فى سورة سميت باسم « سورة الإسراء » ، تمجيداً للمعجزة ، وتنويهاً بها ، ولفتا للأبصار والبصائر إليها ، وجعلها الله فى مفتتح السورة كأنها شعار لها وهامة فوقها ، مع أن هناك سورة سميت

---

(١) ٢١ رجب سنة ١٣٨٦ هـ ـــ ٤ نوفمبر سنة ١٩٦٦ م .

باسم « البقرة » ، ولم تأت قصة البقرة فى أولها ، وسورة سميت باسم آل عمران ، ولم يأت حديث آل عمران فى أولها ، وسورة سميت باسم المائدة ، ولم يأت حديث المائدة فى أولها ، وكذلك يقال فى سورة الأنعام والأعراف والتوبة والكهف وغيرها .

وبدأت الآية بكلمة « سبحان» وهى تفيد معنى التسبيح والتنزيه والتقديس فالله جل جلاله منزه عن أن يكون عاجزاً أو غير قادر على فعل ما سيقصه علينا من الحادث العجيب حادث الإسراء ، وها هو ذا سبحانه يمجد ذاته ، ويعظم شأنه ، لقدرته على مالا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه : وهذا الإله العلى القدير هو « الذى أسرى بعبده » ، وكلمة « أسرى » تدل على الارتحال فى أثناء الليل ، وكأن الله تعالى قد اختار الليل زمنا للإسراء بنبيه ليشير إلى أنه الكوكب الدرى الساطع الذى يبدد بفضل ربه ظلمات الإنسانية ، وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر ، وأنه هو النجم الذى يعلو ولو تهاوت الكواكب والنجوم: « والنجم إذا هوى، ماضل صاحبكم وماغوى وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » .والمراد بعبده هو سيد العباد وإمام البلاد محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد اختار الله لنبيه صفة العبودية فى مواطن التكريم والتشريف ، ولذلك قال عنه هنا : « أسرى بعبده » وقال عنه فى حديث المعراج : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » ، وقال عنه فى موطن تبليغ الرسالة: « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » ، فدلنا هذا على أن صفة العبودية لله هى أشرف الصفات وأكرم النعوت ، ومن هنا قال القائل المؤمن :

ومما زادنى شرفا وتيهـا ... وكدت بإخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ... وأن صيرت أحمد لى نبيا

كما أن كلمة « بعبده » تؤكد لنا أن الإسراء كان بالروح والجسد ، لا بالروح فقط كما يزعم الذين بضيقون عن إدراك كمال القدرة الإلهية ، فكلمة « عبده » لا تطلق على الروح وحدها ، كما أن حرف الباء فى كلمة « بعبده » يشير إلى أن الله جل جلاله كان مصاحباً لعبده حين إسرائه ، لامصاحبة حس لحس ، فالله تعالى لا يشبه الحوادث ، « ليس كمثله شيء » ، بل مصاحبة العناية والرعاية من تكريم وتعظيم لمحمد الموصوف بصفة العبد ، فهو يجوز مايجوز من رضا الله ورضوانه ، ومع ذلك هو عبد الله ، وليس بإله ، فلا تجوز فى شأنه المغالاة : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » .

وقالت الآية الكريمة : « ليلا » أى فى جزء من الليل أوفى بعضه ، فقد بدأ الإسراء بعد العشاء وتم قبل الفجر ، وإن الله الذى أمكن عفريت سليمان من إحضار عرش بلقيس من المكان القاصى قبل ارتداد البصر ، والذى يقول للشيء كن فيكون ، قادر على أن يفعل ما يشاء . ومن أين كان الإسراء وإلى أين ؟ : كان « من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجاء التحديد المكانى بعد التحديد الزمانى ، وكانت الرحلة بين مسجدين ، والمسجدان معبدان ، وهما مكانان للصلاة والمفاجأة ، والاتصال بالله ، وأفضل الأماكن فى الأرض هى بيوت الله ، وأفضل بيوت الله فيها ثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ، وهناك فى هذا التحديد إشارة سياسية ، وهى أن فلسطين ، وعاصمتها بيت المقدس التى تضم المسجد الأقصى ، قد جعلها الله واسطة العقد فى حادث الإسراء والمعراج ، فهى نهاية الرحلة المحمدية فى الأرض ، وهى بدايتها فى الرحلة السماوية حيث دنا محمد « فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » وإذن ففلسطين يجب أن تبقى طاهرة مطهرة ، تعلوها كلمة الإسلام ، ولا تترك فى أيدى الأوغاد اللئام .

ثم قالت الآية عن ذلك المسجد الأقصى : « الذى باركنا حوله » أى بارك حوله بالدين ، حيث تنزلت من حوله آيات وانبعثت دعوات ، فهو مهبط قديم للوحى ومتعبد للأنبياء ، وبارك حوله بالدنيا، حيث زانه بالأشجار والثمار ، وإنما اقتصرت الآية هنا على مدح المسجد الأقصى دون المسجد الحرام ، لأن المسجد الحرام قد استوفى حظه من الثناء والتكريم فى آيات كثيرات ، مثل قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً » وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ، ولم يذكر المسجد الأقصى فى غير آية الإسراء .

ثم قالت الآية الكريمة : « لنريه من آياتنا » فالله صاحب العظمة والجلالة هو الذى يرى رسوله ، وهو الذى يريه رسوله، وهو الذى يريه آيات لا آية واحدة ؛ هو يريه من الآيات سرعة الرحلة فى الإسراء ، وسموها الفريد فى المعراج ، وهو يريه من مشاهد الأرض ومشاهد السماء ، وإبداع الخالق القادر ما يريه ، وكأن هذه الكلمة هنا فى سورة الإسراء تمهيد فى سورة النجم للإخبار بتحقق الرؤية لعظيم الآيات ، حيث قال هناك : « ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . ولم لا والله هو المحيط بكل شىء ، القادر على كل شىء ، « إنه هو السميع البصير » الذى لا يغيب عن علمه وسلطانه ومراقبته صغير فى هذا الوجود أو كبير ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟

يا لروعة التعبير ، ويالدقة التصوير . إن هذه الآية الوجيزة المعجزة حددت كل شىء نحتاج إليه ، فالله ذاته هو الذى أسرى ، والذى أسرى به هو عبده محمد بكيانه وجثمانه ، ووقت الإسراء هو جانب من الليل ، وبداية

المرحلة هي المسجد الحرام ، ونهايتها فى الأرض هي المسجد الأقصى . والحكمة موجودة هي رؤية الآيات ومشاهدة الدلالات ، والدليل على إمكان الإسراء موجود ، لأن فاعله هو الله ، وهو السميع البصير ، فماذا بعد هذا من جدال أو مراء عنــد أهل الجحود والنكران ؟ « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن لله فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ، كذلك قال لكم صاحب الإسراء والمعراج ، وقد سبق التذكير قبل حلول الذكرى بأيام ، لعل الله يأخذ بالنواصى المستجيبة له إلى مواطن الرشاد ، وهو ولى الهداية والتوفيق ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

إننا عائدون[1]

الحمد لله عز وجل ، « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل اليقين صفة المؤمنين ، وجعل اليأس خلق الكافرين : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ظن بربه ظناً جميلا ، فكان أقوم طريقة وأهدى سبيلا ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وشيعته ، وأتباعه وأنصار دعوته : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

بعد ساعات قليلة تعد على أصابع اليد تقبل ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ، وهى ليلة لها ذكرى مجيدة عاطرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، فنى مثل هذه الليلة أسرى الله الواهب الرزاق بحبيبه ونبيه ، ورسوله وصفيه ، محمد عليه الصلاة والسلام من مكة البلد الحرام إلى بيت المقدس بفلسطين بلد أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، ثم أشرقت الأرض بنور ربها فى اليوم التالى ، وغدا محمد على قومه يحدثهم بما أكرمه الله به ، ثم تنزل الوحى يؤيد هذا التكريم ويزكيه ، فيقول : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، وقد جرت عادة المسلمين إذا احتفلوا بالإسراء أن يقتصروا على ترديد قصة الإسراء ، ويبينوا : متى وقعت ، وكيف كانت ، ويوردوا الشواهد والدلائل على وقوع الإسراء وإمكانه ، ولكن المؤمن ابن وقته ، ولذلك يجب علينا اليوم أن نتخذ من ذكرى الإسراء

---

(١) ٢٦ رجب سنة ١٣٨٠ هـ ــ ١٣ يناير سنة ١٩٦١ م .

عظة تنفعنا فى ديننا ودنيانا ، وتثير هممنا وعزائمنا ، حتى نؤدى الدين المستحق فى أعناقنا ورقابنا نحو بلد الإسراء وهى فلسطين ! .

إنى أفهم أن الله سبحانه قد جعل بيت المقدس [وهى القدس عاصمة فلسطين] واسطة العقد فى رحلة الإسراء والمعراج ، ففى بيت المقدس انتهت رحلة النبى فى الأرض ، ومن بيت المقدس بدأت رحلته إلى السماء فى المعراج ، وكأن الله تعالى يريدنا بهذا أن نفهم أن فلسطين هى واسطة العقد فى وطننا الإسلامى ، فيجب ألا تهون علينا أو تضيع من أيدينا ؛ ولكن هذا الجزء قد ضاع مع الأسف من أيدينا ، ضاع بليل الخيانة والغدر ، واغتصبه منا العداة الدخلاء ، ولو استقمنا على الطريقة فى الاحتفال بالإسراء اليوم لجعلنا عماد الاحتفال هو الحديث عن فلسطين ، ولجعلنا شعار كل احتفال ذلك الهتاف الذى صار رمزاً لاسترداد فلسطين ، وهو « إننا عائدون » ، فمن اللازم المفروض علينا شرعاً ووطنية أن نؤمن بأننا عائدون إلى فلسطين لنردها إلى أهلها الشرعيين ، ونطرد منها البغاة المعتدين ، وأن نبذل كل ما نستطيع لتحقيق هذه العودة فى وقت قريب . . .

نعم إننا عائدون إلى فلسطين لأننا نؤمن بالله سبحانه ، والله جل جلاله من أسمائه « المبدئ المعيد » وكما أخرجنا جلت حكمته من فلسطين لنتأدب ونتدرب ، سيعيدنا إليها حينما نتخذ الأهبة ونصبح صالحين للنهوض بتبعات السيادة والقيادة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . ونحن عائدون إلى فلسطين لأنها موطن إبراهيم ومولد عيسى ومسرى محمد ، وفيها القبلة الأولى التى ظل الرسول يتجه نحوها فى صلاته وقتاً طويلا ، وفيها ثالث الحرمين وهو المسجد الأقصى الذى يقول فيه الرسول : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

ونحن عائدون لأن تدريخنا الإسلامى يوحى إلينا بالعودة ، فهذا رسول الله عليه صلوات الله يضطره الطغاة من المشركين إلى ترك مكة والهجرة إلى المدينة ، ولما صار النبى بظاهر مكة فى طريق الهجرة التفت إلى البلد الحرام وقال يخاطبها : « والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ، وأكرمها على الله ، وإنك لأحب أرض الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك قهراً ما خرجت » ، ويروى الرواة أن النبى لما بلغ مكان « الجحفة » فى طريقه إلى المدينة اشتد شوقه إلى مكة ، فأنزل الله عليه قوله : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين » . أى لرادك إلى مكة التى أخرجوك منها ؛ وتمضى الأيام متتابعة ، وتتوالى سنوات يتوالى فيها انتصار الكتيبة المؤمنة على الفئة الباغية ، ويصبح الضعفاء أقوياء ، ويذل الجبابرة بعد التعسف والكبرياء ، ويعود محمد إلى مكة بعد بضع سنوات فاتحاً منتصراً ، بينما لو قيل للناس يوم خرج من مكة إنه سيعود إليها منتصراً مسيطراً ، لسخروا من ذلك القول ، وعدوه من أضغاث الأحلام ، ولكن هذا هو الذى كان ، وعاد محمد إلى مكة بعد أن لجأ إلى المدينة ، فكانت عودته شاهداً على نصرة الله لعباده : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض » .

ونحن عائدون إلى فلسطين بإذن الله ، لأن ديننا قد علمنا أن نحيا على وطيد الأمل وعميق الرجاء ، وألا نفتح فى صدورنا أو عزائمنا باباً للخور أو الضعف ، وألا نعرف طريقاً إلى اليأس أو القنوط ، وكيف وقرآننا المجيد يقرع أسماعنا صباح مساء بقوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وقوله : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » ، وقوله : « لاتقنطوا من رحمة الله » ، وقوله : « فلا تكن من القانطين » ، وقوله : « وهو الذى

ينزل الغيث من بعد ما قنطوا » ، وقوله : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، والعربى المؤمن بربه وصدق وعده يقول :

إذا اشتملت على اليأس القلوب	وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره ، واطمأنت	وأرست فى مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها	ولا أغنى بحيلتـــه اللبيـــب
أتاك على قنـــوط منك غوث	يمن به االطيف المســـتجيب
فكل الحادثات إذا تناهـــت	فمـــوصول بها الفرج القريب

ومنذ قرون جاءت الصليبية الغربية الطاغية فاحتلت أرض فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام والعروبة ، وفعلت فيها الأفاعيل ، وظلت قرابة مائة عام ، حتى قيض الله للمسلمين البطل الإسلامى الفاتح صلاح الدين الأيوبى الذى نفض التراب عن جذوة الجهاد المتقدة فى صدور المؤمنين ، وأحسن الإعداد والاستعداد للقاء الغاصبين ، وأقدم فضرب ضربته الواثقة الموقنة ، فإذا الصليبية ترحل خاسرة مندحرة ، وإذا فلسطين تعود إلى أبنائها المسلمين ؛ وتردد فى ضمائر الناس قول ربهم الذى نهضت الدلائل على حقه وصدقه : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . وليس على الله بعزيز ولا بمستبعد أن يعيد التاريخ نفسه فتعود فلسطين اليوم كما عادت بالأمس : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

لن يسأم هذا الصوت تكرار الحديث عن فلسطين ، لأنها الجرح الدامى فى كبد المسلمين ، ولأنه لا قرار لنا ولا استقرار إذا لم تعد إلينا فلسطين ، ولو أنكم سمعتم المشردين من أبناء فلسطين وهم يقولون : « قسما بجموع

اللاجئين وعرى سكان الخيام » لتجسم أمامكم هول النكبة ، ولخطر ببالكم قول ربكم : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » . فلنتذكر عند الاحتفال بالإسراء بلدة الإسراء ، ولنتذكر المشردين من أبنائها فى آفاق الأرض ، ولنبذل كل ما نستطيع لنعد أنفسنا ليوم العودة ويوم الخلاص : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصرمن يشاء وهو العزيز الرحيم » .واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى ذكرى عاشوراء[1]

الحمد لله عز وجل ، تعالت كلماته ، وتنزهت صفاته ، لا يحده مكان ، ولا يغيره زمان ، يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . أشهد أن لا إله إلا الله يهب الفضل لمن يشاء من عباده وهو الحكيم العليم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كرم الله ذكره ، ورفع قدره ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله والمهتدين بأعماله وأقواله ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يأتى فى الغد اليــوم العاشر من شهر المحرم ، وهو اليــوم الذى تعارف المسلمون على تسميته باسم عاشوراء ، والكلام قد كثر ومازال يكثر عن هذا اليوم ، وقد وردت عنه فى الكتب والمصادر أخبار وأنباء ، فقيل إنه اليوم الذى تاب الله فيه على آدم ، وقيل إنه اليوم الذى ولد فيه إبراهيم وموسى وعيسى ، بل قيل إنه اليوم الذى ستقوم فيه القيامة ، إلى غير ذلك من الروايات التى نفوض إلى الله سبحانه العلم بحقيقتها وقيمتها . ولكن الذى نجده فى كتب السنة هو أن أهل الجاهلية كانوا يصومون اليوم العاشر من المحرم ، وروى أن سبب ذلك هو أن قريشاً أذنبت ذنباً فى الجاهلية ، فعظم فى صدورهم ، فقيل لهم : صوموا عاشوراء يكفر ذلك ، ففعلوا واستمر صومه . كما روى فى كتب السنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة مهاجراً وجد اليهود يصومون عاشوراء ، فسألهم : ماهذا اليوم الذى تصومونه ؟ فأجابوا : هذا يوم عظيم نجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه ، فقال الرسول : نحن أحق وأولى بموسى منكم ؛

---

(١) ٩ المحرم سنة ١٣٩١ هـ ــ أول فبراير سنة ١٩٧٤ م .

ثم صامه ودعا المسلمين إلى صيامه ؛ وقول الرسول هنا يشير إلى أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وقد انتهت إليه مواريث النبوات والرسالات ، لأنه لا نبي بعده ، وهو رحمة الله للعالمين .

ولعل أكبر معنى يوجد فى يوم عاشوراء ، وينبغى أن تتجه الهمم إليه ، وأن تطيل العقول التدبر فيه ، والقلوب التأثر به ، هو ذكرى استشهاد الحسين بن على رضوان الله عليهما فى يوم عاشوراء سنة إحدى وستين على أيدى الطغاة البغاة فى كربلاء ؛ والحسين هو أبو الشهداء وريحانة رسول الله فى الدنيا ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وهو الذى قال فيه سيد الخلق : « حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا ، حسين سبط من الأسباط » أى هو كأمة صالحة من الأمم ، فله عظيم القدر فى الدنيا ، وعظيم الأجر فى الآخرة ،وهو الذى ضرب مثلا رائعاً من أمثلة الثبات على المبدأ ، والثورة على الباطل ، وعدم الرضا بالهوان أو الضيم ، فلقد أبى أن يبايع يزيد بن معاوية لإيمانه بأنه لا يصلح للخلافة ، إذ لم يتوافر فيه ما يلزم لإمامة المسلمين من علم وتقوى وصلاح ، وكانوا يحاولون بكل وسيلة من وسائل الإغراء أو التهديد أن يحملوا الحسين على إظهار الطاعة أو البيعة ليزيد ، فيردد قوله : « والله لا أعطيكم يدى إعطاء الذليل ، ولا أقر لكم إقرار العبيد ، إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » . وحينما طفح الكيل وزاد الويل ، واستشرى الفساد بين العباد ، خرج الحسين مجاهداً محاولا إنقاذ الناس مما أصابهم من دولة البغى والطغيان ، حتى صاروا يتمنون أن يهيئ الله من ينقذهم مما أكرهوا عليه من ذل هوان ، ولذلك قال الفرزدق للحسين وهو خارج للجهاد : إن قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والنصر يتنزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ، وربنا كل يوم هو فى شأن .

وهناك فى كربلاء ضحى الحسين الشهيد بدمه وحياته ، ومضى إلى ربه شهيداً مجيداً ، تعطر ذكرى جهاده واستشهاده الآفاق والأرجاء.

ولقد تربى الحسين فى بيت النبوة الطاهرة ، ونشأ يتقلب فى حنان محمد العظيم ، ورعاية على الوالد الشفيق ، ورحمة فاطمة الأم البتول ، فتعود الطهارة والصفاء ، والعفة والإباء ، ولا عجب فعين الرسول تلاحظه ، ويد النبي توجهه ، فتصده عن الدنية ، وتحببه فى الرفعة ، ولقد حدث أن دخل الحسين وهو صغير غرفة الصدقات فأخذ منها تمرة فوضعها فى فمه ، ورآه النبي فكره ذلك وقال له ، ألقها يا حسين ، فإنا أهل بيت لا تحل لنا الصدقة . كما تعلم من جده وسيده وأستاذه ونبيه معنى التواضع مع الكرم ، فكان لا يفخر بنسب ولا حسب ولا قرابة ، ولقد مر ذات يوم على طائفة من الفقراء يأكلون طعاماً يســيرا ، فعزموا عليه قائلين : الغداء يا ابن بنت رسول الله ، فنزل وهو يتمتم بقوله : إن الله لا يحب المتكبرين ؛ ثم أكل معهم كأحدهم ، ثم قال لهم قولة الجواد الذى يسلك إلى الإحسان ألطف سبيل : قد أجبتكم فأجيبونى ودعاهم إلى الطعام فى بيته ، ثم قدم إليهم ما كان مدخراً فيه .

وكان الحسين بن على رضوان الله عليهما رجلا نبيلا ، تأسره الكلمة الطيبة الحلوة ، فينسى بها غضبه ، ويستجيب معها لأرقى ما توحى به مكارم الأخلاق ، فقد حدث ذات يوم بينه وبين أخيه لأبيه محمد بن الحنفية خصومة تهاجرا بسببها قليلا ، فكتب إليه أخوه محمد يقول : « أما بعد فإن أبى وأباك رجل واحد ، هو على بن أبى طالب ، لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأمى امرأة من بنى حنيفة ، وأمك هى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ملئت الأرض بمثل أمى ، لكانت أمك خيراً منها ، فإذا قرأت

كتابى هذا فأقدم على حتى تترضانى ، فأنت أحق بالفضل منى ، والسلام » .
وهو يشير فى قوله هذا إلى الحديث النبوى الشريف الذى جاء فيه : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليال : يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » . فلما قرأ الحسين هذه الرسالة من أخيه لأبيه سارع بالذهاب إليه وأرضاه ؛ ويقرب من هذا أن شيئاً من الخلاف الطارئ وقع بين الحسين وأخيه الحسن ، وكان الحسن أكبر سناً من الحسين ، فقال بعض الناس للحسين : قم فادخل على أخيك لتسترضيه فهو أكبر منك . فالتفت الحسين التفاتة ذوقية رقيقة لطيفة فقال : « إنى سمعت جدى صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر » فبلغ ذلك أخاه الحسن، فأتاه عاجلا وأرضاه ، وهكذا تأبى المحامد والمكارم إلا أن تصول وتجول فى بيت النبوة الكريم « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الغلو ديدن الكثيرين ، فهناك أناس يحيكون حول يوم عاشوراء ما يحيكون من أخبار أو أساطير ، وهناك من يسرفون فيجعلونه يوم لهو وأكل وشرب فحسب ، وهناك من يجعلونه يوم هم وغم وحزن وبكاء ، حتى إنهم يزعمون أن الزواج حرام فى هذا اليوم ، مع أن ذلك وهم لا أساس له من الصحة، ولو اعتدل الناس لجعلوا يوم عاشوراء يوم ذكرى يستعيدون فيه معانى البطولة والرجولة ، والجهاد والاستشهاد ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

رمضان شهر البطولات[1]

الحمد لله عز وجل ، جعل الدين نوراً وهداية ، وجعل التقوى قوة ووقاية : « وتزودوا فإن خــير الزاد التقوى ، واتقونى يا أولى الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، منه المبدأ وإليه المآب ، « ألا إلى الله تصير الأمور » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قدرنعمة ربه فشكر ، وجاهد فى سبيله فاحتمل وصبر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تعارف الكثير من الناس على أن يتخذوا من رمضان شهراً للتراخى والكسل ، والتخفف من الجد فى العمل ، مع أن رمضان فى تاريخ الإسلام شهر جد وجهاد واجتهاد، بل نستطيع أن نسميه شهر الأبطال والبطولات ، والبطولات ألوان وأنماط ، فهناك بطولة الصراع فى الميدان ، وبطولة اليقين والإيمان ، وبطولة التأبى على الشهوات وبطولة الترفع عن خسيس الملذات ؛ ولرمضان من كل هذه البطولات حظه الوافر فى الماضى والحاضر، فنى شهر رمضــان أنزل الله القرآن هــدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فاتصلت الأرض بالسماء ، فتعلم الناس التطلع إلى السمو والعلاء ، وشدت أنوار الملأ الأعلى أبصار الملأ الأدنى من الناس نحو رفيع القمم ونبيل المثل ، ليؤثروا الرفيق الأعلى على الحيــاة الدنيا ، وما عند الله خــير وأبقى ، ومازال شهر رمضان على توالى الأزمان شهراً للقرآن ، يقبل على المسلمين كل عام ، فيعكفون على كتاب ربهم أكثر من ذى قبل ، فيرونه يقص عليهم

---

(١) ٢٩ شعبان سنة ١٣٨٧ هـ ـ أول ديسمبر سنة ١٩٦٧ م .

أروع مواقف البطولة ، وأصدق قصص الكفاح والجهاد ، التى وقعت من المرسلين والأنبياء ، والصديقين والشهداء ، فيتأملون كل هذا ، فيوحى إليهم بخير القدوة وأفضل الأسوة ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

وفى السابع عشر من رمضان كانت غزوة بدر الكبرى ، وهى أول معركة وقعت فى الإسلام بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفران ، وثبت فيها القلة المؤمنة أمام الكثرة الباغية ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، بل زانوا شهر الصيام بأفضل ماتزان به الأيام ، فكانوا رجالا مؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، وسمى القرآن المجيد يوم غزوة بدر « يوم الفرقان » لأن الله جل جلاله فرق فيه بين الحق والباطل ، وتجلت البطولة الإسلامية المؤمنة من أولئك البدريين الغر الميامين ، فارتفعوا إلى مستوى من الصدق والدفاع عن الحق يجعلهم أصلا للاستمساك بالعروة الوثقى على الدوام ، والتزام صراط ربهم بعزم لا يلين وإرادة لا تهون ، ولعل هذا هو السر فى أن يقول الرسول عنهم : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » .

وفى العشرين من رمضان كان « فتح مكة »، وفتح مكة لون من ألوان البطولة الحكيمة البصيرة ، التى استطاع بها المؤمنون ، وعلى رأسهم سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، أن ينتصفوا لأنفسهم ، وأن يستردوا ما أخذ منهم ، وأن يعودوا إلى موطنهم « مكة » التى أخرجوا منها ظلماً وعدواناً ، وطهر رسول الله بلد الله الحرام من الشرك والكفران ، بعد أن طهر بيته الحرام من الأصنام والأوثان ، وأخذ يردد : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل

كان زهوقا،ووقف نبي الله على باب الكعبة وهتف بأعلى صوته: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده،ونصر عبده، وأعز جنده،وهزم الأحزاب وحده، وأقبل التنزيل الإلهى المجيد، يزكى هذا الفتح المبين وهذا النصر العظيم الذى تحقق فى بلد الله الحرام،وعند بيته الحرام،وفى رمضان شهر الصيام والقيام، فقال : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » . وفى شهر رمضان سنة ٦٥٩ انتصر المسلمون على التتار فى موقعة « عين جالوت » وخطب قطز سلطان مصر المؤمن وقائد الجيش المجاهد ، يوم النصر – وكان يوم جمعة ، فكان مما قاله : « وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم على المنابر فى الساعة التى حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم كانت أمضى على عدوكم من السيوف التى ضربتم بها ... » .

وفى شهر رمضان بطولة نفسية ، فهو شهر لتدريب الصائم على امتلاك زمام نفسه ، يقودها نحو الهدى ، ويصدها عن مراتع الهوى ، وليست هناك بطولة معنوية كبطولة الإنسان فى إحكامه بشأن نفسه حتى يقيمها على الصراط ، فلا تدعوه إلى ما يشينه أو يعيبه ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقوها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وقال سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام لأصحابه، وهو عائد معهم من إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ، قال : جهاد النفس » وجهاد النفس يحتاج إلى مناضلة وفعالية ، وإلى مقاومة ومصابرة ، وفى الصوم صبر على طاعة الله بالبعد عن الشهوات ، وصبر على مايحدث فيه للصائم من ألم الحرمان ، وصبر على إحياء المشاعر الكريمة والأحاسيس النبيلة اللائقة بمكانة الصوم

وجلاله ، ولذلك ورد فى الحديث أن رمضان شهر الصبر ، كما ورد أن الصوم نصف الصبر .

ولأن الصوم فيه هذه المغالبة الخاصة ، والمقاومة التى لانفاق فيها ولا رياء ، جعله الله بينه وبين عبده ، ووكل ثوابه إلى عميم فضله وعظيم ثوابه ، فقال فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » ، واحتمل هذا الحرمان الاختيارى برضا وقبول طراز كريم من البطولة النفسية ، والمجاهدة المعنوية التى تؤيد جوانب المجاهدة الحسية ، وتغرس شجرة الإيمان باسقة فى نفس الإنسان .

ولذلك يقول بعض الأئمة : « إذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ، ثم تركته لله عز وجل ، فى موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلا على صحة الإيمان ، فإن الصائم يعلم أن له رباً يطلع عليه فى خلوته ، وقد حرم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها فى الخلق ، فأطاع ربه ، وامتثل أمره ، واجتنب نهيه ، خوفاً من عقابه ، ورغبة فى ثوابه ، فشكر الله تعالى له ذلك ، واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله » .

ويزداد هذا المعنى وضوحاً وائتلاقاً حين نتذكر أن المجاهدة فى رمضان لا تقتصر على ترك المفطرات الحسية ، فإن الأخيار من عباد الله يعرفون فى الصوم كيف يصومون عن سيئات معنوية وخلقية ونفسية عديدة ، ولذلك قال جابر : « إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة ، يوم صومك ويوم فطرك سواء » . وفى ذلك يقول القائل الحكيم أيضاً :

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون ... وفى بصرى غض ، وفى منطقى صمت
فحظى إذن من صومى الجوع والظما ... فإن قلت إنى صمت يومى فما صمت

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

رمضان هو شهر الجهاد من كل جانب ، فيه جهاد للمعدة بالحمية والجوع ، وجهاد للأعضاء بالعمل المسالم أو الجهد المقاوم ، وما أبرك النضال فى مواسم الطاعات ومواطن البركات ، وجهاد للعقل بالمزيد من العلم والمعرفة فى شهر نزل فيه كتاب كل علم وكل معرفة ، وجهاد للقلب بإحياء عواطف الخير والطهر والبر فيه ، وجهاد للنفس بسحق شهواتها وتصعد رغباتها ، وجهاد للروح بسبحها فى آفاق السنا والسناء خلال شهر أيامه صيام وطاعة ، ولياليه قيام وعبادة ، فما أجدر أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام بأن يتخذوا من رمضان دورة تدريبية إلهية حازمة صارمة يكون فيها إيقاظ قوى كامل شامل لكل معانى الجهاد والاستعداد : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

شهر التهذيب[١]

الحمد لله عز وجل ، هو خير من ربى العباد وأصلح القلوب ، وأعظم من هذب النفوس وقوم العيوب : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو الذى يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير العابدين ، وأخلص القانتين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه السابقين ، وأتباعه الموقنين : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

إن الله الحكيم العليم يصطفى من الأيام ما يشاء ، ويجعل فى بعض المواسم نفحات من تعرض لها واقتبس منها سعد وفاز ، فإذا حل موسم من هذه المواسم شد الخيرون عزائمهم ، وبسطوا هممهم ، فجدوا واجتهدوا ، وتعبوا وتقربوا ، حتى ينالوا فى الزمن القليل أضعاف ما ينال فى الزمن الطويل ، وبذلك تظهر الميزة لأوان النفحة على غيره من الأحيان ، ومن أعظم ما نفح الله به عباده فريضة الصوم التى سجلها الحق تبارك وتعالى فرضاً ثابتاً باقياً فى قرآنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . وجعل الله تعالى أداء هذه الفريضة فى أكرم الأوقات ، وهو « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . ولعل أصدق وصف يطلق على رمضان أنه « شهر التهذيب » ، لأن الله يمنعنا فيه من الطعام والشراب ، واللغو والسباب ، وشهوة الفرج وبغى الجوارح ، إذ يريد لنا أن نكون أئمة

---

(١) ٢ رمضان سنة ١٣٨٥ هـ – ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٥ م

نهدى إلى الخير وإلى سواء السبيل ، ومن كانت رسالته فى الحياة كذلك، فلا بد له من نفس صافية وروح عالية ، وأخلاق ثابتة وعزيمة قوية ، ولذلك نهض الصوم على أساس التأديب والتهذيب ، فهو تأديب بمنع الطعام ليتحمل الإنسان ألم الجوع ، ويتعود الصبر والانتظار ، وتأديب بمنع الماء ليعتاد المرء معالجة الظمأ وجفاف الحلق والعروق ، وتأديب بمنع الفرج من شهوته ليستعلى الإنسان حيناً من الزمان على هذه الغريزة القوية فلا يكون على الدوام لها عبداً ، وتأديب بمنع الجوارح من السعى نحو الحرام ، ليتعلم المرء كيف يترك ، ولو كان قادراً على أن يدرك ، وليرتفع بإنسانيته نحو مسابح الملائكة الأطهار .

ولذلك رأينا البصراء من علماء هذه الأمة ، يحرصون على أن يذكروا الناس بأن الصوم ليس مجرد العطش والجوع ، فسيد الخلق يقول : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ، فالواجب على المسلم إذا أراد أن يصوم حقاً ، وأن ينتفع بثمرات هذا التأديب الإلهى الحكيم أن يترقى صاعداً فى درجات الصائمين المخلصين ، وأن يتذكر أنه كلما ازداد إيماناً وإخلاصاً زاده الله هداية وتوفيقاً : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ؛ » . وأن يتذكر أن رمضان إذا كان شهراً للتهذيب ، والتهذيب متعب شديد ، وشهراً للتأديب ، والتأديب مر ثقيل ، فإن الرحمن الرحيم قد حبب فيه حين حاطه بأطواق من التكريم والتعظيم ، فجعل فيه نزول القرآن ، وجعل فيه يوم الفرقان ، وجعل فيه يوم الفتح ، وجعل فيه ليلة القدر ، وجعله سيد الشهور ، وقال سيد الأنبياء عن فريضته : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع طعامه وشرابه من أجلى » . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال :

قلت يا رسول الله ، مرنى بأمر ينفعنى الله به ، قال : عليك بالصيام ، فإنه لا مثيل له . ويقول الرسول : « ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » . ويقول : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب ، منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان » .

ولو تبصر المرء هنا لرأى الجزاء الكريم على الصوم معجلا ومؤجلا ، أما المعجل فهو ما يستفيده الصائم المستقيم فى جسمه من صحته ، وفى عزيمته من قوة ، وفى قلبه من طهارة ، وفى جوارحه من صيانة وبراءة ، وأما المؤجل فهو ما ينتظر الصائم يوم القيامـــة من تكريم ومثوبة . يقول الرسول : « إن فى الجنة باباً يسمى الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل معهم أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ، فيدخلون منه ، فإذا دخل آخرهم أغلق فلم يدخل منه أحد » . ولقد قال كثير من المفسرين إن المراد بقوله تبارك وتعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » هو أيام الصيام التى ترك فيها الصائمون الطعام والشراب والمتاع إطاعة لربهم واستجابة لدينهم ، فأسلفوا ذلك عند من لا يضيع عنده أجر من أحسن عملا ، وعند من يقول وهو أصدق القائلين : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » فالله تعالى يضع يوم القيامة بين أيديهم كل متاع وكل مستطاب ، ويدعوهم إلى أن يأكلوا ويتمتعوا بما أسلفوا فى الأيام الخالية .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليكن شهر رمضان فرصة لتأديب البطن حتى يستقيم ، وصيانة الفرج حتى يعف ، وحفظ الجوارح حتى تسلم ، وإحياء القلب حتى يسمو ،

وبذلك تستحقون أن تدخلوا ضمن العباد الذين إذا دعوا استجاب الله لهم ، والذين يتحدث عنهم ربهم فيقول عنهم عقب آيات الصيام : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ؛ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . نضر الله باليمن أيامكم ، وعمر بالصالحات أوقاتكم ، وجعلكم خير الأخلاف لخير الأسلاف ، وأعز بكم دينه ودنياكم ، وأعاد عليكم مواسم الخير وأنتم فى شأنكم ، وثبات من يقينكم : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حساب رمضان [1]

الحمد لله عز وجل ، هدى بالفطرة ، وعلم بالعبرة ، « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أحيا ضمائر عباده بالمراقبة ، وقوم خطواتهم على الطريق بالمراجعة والمحاسبة ، « بل الإنسان على نفسه بصيرة » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سعى إلى الحق فوصل ، وواصل ربه فاتصل ، فكان خير الموقنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يحسن بنا — وهذا أول لقاء لنا بعد انتهاء رمضان — أن نقف وقفة واعية ، لاستعراض سجل هذا الشهر الكريم ، بماله وما عليه ، وتقويم جهودنا وأعمالنا فيه ، ومراجعة حسابه وصفحاته ، لكى نتبين موقفنا بين ماضينا ومستقبلنا ، فقد كان رمضان الماضى أول رمضان بعد العدوان ، ونرجو الله أن يكون آخر رمضان يمر علينا فى ظلام النكبة التى لم يشهد تاريخنا الحديث نكبة مثلها ، وهى نكبة تدنيس أرضنا الطيبة بالاحتلال الصهيونى الخئون الذى يجب أن يكون القضاء عليها شغلنا الشاغل فى غدونا ورواحنا . وفى مسائنا وصباحنا ، فإنه مما صدع القلوب المؤمنة أنه مع هول ما أصابنا وجثم على صدورنا بسبب هذه النكبة مضى كثيرون وكأنهم قد سيطر عليهم شيطان النسيان ، فأخذوا يعبون ما يعبون ، ويلهون ما يلهون . دون أن يستشعروا روح الحياء أو الخجل مما نحن فيه . وإذا ردد غيور قوله : اليهود فى سيناء ، ضاع صوته بين الصخب والضجيج ؛ ولا ينبغى مع هذا أن نظلم الحقيقة . فرمضان قد صحبه هذا العام لون جديد من العناية والاهتمام بالجانب الدينى . فعنيت الصحف

---

[1] (١) ٥ شوال سنة ١٣٨٧ هـ — ٥ يناير سنة ١٩٦٨ م .

بإبراز الزاد الإسلامى فى صفحاتها وموادها ، وبعض الصحف خصصت صفحتين للدين طيلة أيام رمضان، وبعضها لم تكن تظهر عناية بالجانب الدينى ، وكان هناك من يلومها على ذلك ، فخصصت صفحة كاملة للناحية الدينية ، وعلى الرغم من أن المولعين بالتأويل أساءوا الظن بهذه العناية ، فقالوا : إنها نزعة المنافسة الصحفية التجارية بين الصحف طلباً للمزيد من توزيع النسخ ، فقد كان هذا مظهراً طيباً من مظاهر الالتفات إلى الناحية الدينية ، وحبذا لو كتبتم إلى هذه الصحف تقترحون عليها أن تجمع كل منها ما نشرته على صفحاتها فى كتاب ليدوم به الانتفاع .

ومن مظاهر رمضان الطيبة أن تنظيمنا السياسى عقد لقاءات شعبية كبرى فى المحافظات والأقاليم ، وكانت هذه اللقاءات تجمع بين التوعية السياسية والتوعية الدينية ، وكان هذا الجمع مزجاً طيباً ، ظهر فيه أن الدين عماد الحياة ، وأنه الرائد الذى يزكى قضايانا مادامت تهتدى بضيائه وتستطب بدوائه ، ولقد تنقلت خلال شهر رمضان فى أقاليم وطنى من أسوان حتى الإسكندرية ، مشاركاً فى هذه اللقاءات ، ورأيت أن علماء الأزهر الشريف قد أسهموا بجهد كبير مشكور فى التوعية الدينية ، حيث انتشروا انتشار النور خلال المدن والقرى ، يحاضرون ويخطبون ويعظمون ، وقدموا إلى الناس زاداً طيباً كريماً من هدى الكتاب والسنة ، ودل هذا على أن رجل الدين الإسلامى لا يتخلف عن أداء واجبه إذا تهيأت أمامه العوامل والظروف المناسبة لأداء رسالته السامية ، وينبغى أن يستقر فى أذهاننا أن رجل الدين فى عصرنا الحاضر لا يتمكن من إتقان قيامه بواجبه فى يسر وتوفيق إلا إذا توافر له الاحترام . وطالعته شواهد الإقبال والجسد ممن يتحدث إليهم هنا وهناك .

وفى الثلث الأخير من رمضان بدأت الاحتفالات بالذكرى الكبرى

والمناسبة العظمى ، ذكرى مرور أربعة عشر قرناً من الزمان على بدء نزول القرآن الكريم ، وأخذت هذه الاحتفالات ملامح شعبية وحكومية ، فعمرت المساجد الجامعـة ، وعلى رأسها الجامع الأزهر الشريف باجتماعات ضخمة حول هذه المناسبة ، وأقامت المحافظات فى عواصمها حفلات أخرى ، ونشرت فصول ومقالات . وأذيعت أحاديث وخطب ، وتوجت هذه الاحتفالات كلها بالاحتفال الجامع الخاتم فى الأزهر الشريف بحضور رئيس الجمهورية وقادة الشعب وأبنائه ، وفى هذا الاحتفال قلت إن مصر كنانة الله فى أرضـه هى « مصر القرآن »، وكررت عبارة « مصر القرآن » ثلاث مرات لتؤكد أننا مازلنا نعقد الأمل على مصر ، ونرتجيها لخدمة القرآن والاعتزاز بالقرآن، لتعطى مثلا صالحاً لغيرها من البلدان، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً كما قال الصادق المصدوق سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

هذه هى الجوانب المشرقة المضيئة التى لفتت الأبصار والأفكار فى رمضان ، ومن واجبنا أن ننوه بها ونشكر عليها ونطلب المزيد منها . فإن أخوف ما نخافه أن ترحل هذه الجوانب مع رحيل الشهر . فتساء بنا الظنون ولكن . وليت كلمة « ولكن » هذه لم تجد لها مكاناً هنا . ولكن لابد من « ولكن » هذه . ولكن هذه الجوانب الخيرة النيرة . كان إلى جوارها فى رمضان شر كثير ، ويظهر أن هناك تواطؤا خبيثاً بين قوى شريرة مختلفة لانتهاز المواسم الدينية — وبخاصة رمضان — لتشويهها بما لا يتفق مع جلالها وجمالها ، وإلا فما السر فى هذا الحشد الكبير الخطير من المسرحيات التى تحمل ما تحمل من تميع وتخلع ، ويساق هذا الحشد تحت عنوان « الاحتفال بشهر رمضان المبارك » ؟ . وهناك حفلات راقصة قدمت باسم رمضان المبارك . وأفلام لا تتفق مع آداب الإسلام قدمت باسم رمضان المبارك ، ومسلسلات

إذاعية تنقصها الجدة والحشمة قدمت باسم رمضان المبارك ، ويالك من مسكين يا رمضان ، وكم من منكرات وسيئات ترتكب باسمك أيها الشهر المبارك . وحينما قرب العيدان : عيد الفطر وعيد رأس السنة امتلأت أعمدة فى الصحف اليومية بأسماء المواخير التى ستقام فيها الحفلات الساهرة الحمراء والسوداء هنا وهناك ، وامتلأت أعمدة بصور الممثلات والراقصات والمغنيات اللواتى سيقمن بإحياء ليلة العيدين بهز البطون ولفت العيون وإثارة الغرائز ،وتنافست أندية الليل فى تحديد سعر العشاء واحتساء ما يحتسى ومشاهدة الرقصات والأمور الأخرى تلك الليلة ، فبدأ السعر من سبعة جنيهات للفرد الواحد ، ووصل تسعة جنيهات ، وأين ؟ فى مصر الجريحة التى تحتاج إلى اقتصاد الحرب ؛ ولو كان الخير فى رمضان أكثر من الشر لقلنا : فلنحتمل القليل الخبيث فى مقابل الكثير الطيب ، ولكن ماذا نصنع والأشعة التى تهدى إلى الخير قليلة معدودة ، والمحرضات على الشر كثيرة متمكنة !

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ثم ماذا بعد رمضان ؟ إن من ظن أن التوعية الدينية تحقق هدفها أو تؤتى ثمارها بجملة محاضرات تلقى ، وطائفة من المقالات أو الأحاديث تكتب ، ثم ينفض بعدئذ الموكب ، ويقف عن المسير المركب ، فقد توهم ضلالا وخبالا ، لأن التوعية المثمرة لابد أن تكون وعياً وهدياً ، وقولا وعملا ، وشعاراً والتزاماً ، ومبدأ وتطبيقاً ، ولابد أن تكون التربية الدينية قدوة فى الأسرة ، ومنهجاً فى المدرسة ، وأدباً فى السلوك ، وأداء للفرائض ، ونظاماً فى المعاملة ، وإذا لم تكن كذلك فإن كثرة الحديث عنها فقط قد تؤدى إلى إفقادها قيمتها ، فتصير لحناً مكرراً مسئوماً ، فتسىء إلى الدين نفسه ، لأن الأعداء له أو الجهلاء به سيقولون بعد انقضاء اللفة وانفضاض الزفة : هذا

هو دواء الدين الذى تحدثتم عنه قد استعمل فلم ينفع ولم ينجع ؛ ويالها حينئذ من فتنة يصير فيها الحليم حيران .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا بعض الحديث عن حساب رمضان ، فماذا يكون بعده من ربح أو خسران ؟ إن واجبنا أن نحرص على سلامة الاتجاه ، واستمرار الخير ، ومداومة الإصلاح ، فهدى الدين جاء لكل زمان ومكان ، والدين اعتقاد وعمل ، والله تعالى يقول : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

على ابواب رمضان[1]

الحمد لله عز وجل له الخلق والأمر وإليه ترجعون وأشهد أن لا إله إلا الله : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير » الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من دعا وأفضل من هدى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله وصحبه ورجاله « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا ونحن على أبواب الشهر الجليل العظيم الكريم المبارك شهر رمضان ينبغى لنا أن نستحضر أمام أبصارنا وبصائرنا ثلاثة أمور كبيرة لها مكانتها وجلالتها وعلى رأسها القرآن الكريم ،وثانيها الجهاد فى سبيل الله ،وثالثها فريضة الصيام ،وإنما نتذكر كتاب الله المجيد فى مطلع هذا الشهر لأن رمضان كما أخبر الحق جل جلاله هو شهر القرآن : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وإذا كان شهر رمضان هو شهر القرآن نزولا فإنه شهر القرآن استجابة وتلاوة وتدبراً ، ففيه يزداد إقبال المسلمين الطائعين على مائدته يتزودون منها خير الزاد ، وينهلون من منبعه أطهر الشراب ، والقرآن هو الرائد الذى لا يكذب ، والهادى الذى لا يضل والقائد الذى ينصح ففيه النور والضياء « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » وفيه الدواء والشفاء « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » وفيه روعة التأثير وبلاغة العبرة « لو أنزلنا

---

(١) ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ م .

هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » والقرآن هو كتاب الجهاد بألوانه وأنواعه : جهاد النفس « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » وجهاد اللسان: « وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً » وجهاد المال والذوات والأجسام : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

ونحن أيضاً نذكر الجهاد فى رمضان لأن رمضان هو شهر الجهاد بألوانه كلها فهو جهاد للنفس بقهرها وقمعها ومنعها مما تشتهى وترغب وتجريدها لطاعة خالقها فى سرية بينه وبينها ولذلك قال الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع طعامه وشرابه من أجلى » وهو جهاد للسان بتطهيره من الخوض فيما لا يفيد وتنزيهه من نشر الشائعات المغرضة وإذاعة الأسرار التى تمس كيان الأمة فمن صمت نجا ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » وجهاد بالمال والأرواح ففى شهر رمضان جاهد الأسلاف والأجداد ففيه كانت غزوة بدر وفيه كانت غزوة الفتح وفيه كانت غزوات ومعارك أخرى كثيرة وكما ترك المؤمنون شهوات الدنيا فى صومهم من أجل ربهم تركوا الحرص على حياتهم وتطلعوا إلى الشهادة فى سبيل ربهم فأعزهم ومكن لهم فى الأرض وحقق فيهم قوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ونحن أيضاً نتذكر على أبواب رمضان فريضة القيام وهى الفريضة التى أرادها الله تهذيباً للنفس وتطهيراً للروح وتسامياً بالقلب وتصفية للجسد من كدراته وجمحاته وبذلك يصلح الإنسان للجلوس فى رحاب ربه يقرأ آياته ويتلقى نفحاته ، ويتهجد له فى ليله ويخلص له فى عمله لأن أساس الصوم هو

مجاهدة الهوى وتحقيق التقوى بالمجاهدة وبالتقوى يكتسب الإنسان المؤمن الحصانة النفسية والمناعة الخلقية والعزيمة القوية فيصبح صالحاً للإقدام على ميادين الكفاح والنضال لا يبالى أوقع على الموت أو وقع الموت عليه وبهذا الإيمان يستحق المجاهد العابد القانت الذاكر لله جل جلاله أن تكون يد الله معه وأن يتحقق معونة الله له ، وأن يقبل نصر الله عليه ولذلك قال الحق عز من قائل : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقال : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » وما دام اليقين يعمر صدور المجاهدين المناضلين فإنهم لن يخافوا من تعب أو نصب أو أذى بل يصدقون فى التوكل على ربهم والثقة بوعده والرضا بقضائه ولا يخافون العاقبة لأنها إما نصر أو استشهاد « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » ويقول الرسول فيما يرويه عن ربه : « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو منازل قرنه » أى هو مقاتل عدوه وهذا هو عمر رضى الله عنه يوصى سعد بن أبى وقاص مشيراً إلى أن مجاهدة النفس هى أساس التغلب على العدو فيقول : « واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم » . .

وهكذا تحيط بنا الدروس الواعظة والعبر الهادية منذ بدايته حتى تمامه وهى دروس نتعلم فيها الكثير ونكسب بها الكبير لو بلغت بنا العبرة مبلغها من حسن التلقى وصدق الاستجابة والإخلاص فى التطبيق « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

إن رمضان يمر علينا الآن ونحن فى مرحلة حاسمة من مراحل نضالنا ضد

أعدائنا الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال ، والذين استباحوا حرماتنا واستهانوا بمقدساتنا فلنعد أنفسنا بالعلم والعمل والعبادة والقوة والذكر والصبر والاتحاد والاستعداد والبذل والعطاء حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

إن العالم فى الشرق والغرب يحتفل هذه الأيام بذكرى إصدار الوثيقة العالمية المتعلقة بحقوق الإنسان وإذا كنا نرى من مقتضيات تعاوننا مع المنظمات الدولية أن ننوه بهذه الذكرى فإن واجبنا يقتضينا أن نؤمن بأن الإسلام هو أول من قرر حقوق الإنسان وصانها ، وأمر بالدفاع عنها ، إذا تعرضت لانتهاك أو عدوان فالله جل جلاله يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه » وقال : « الناس بخير ما تعاونوا » ودعا القرآن إلى الجهاد من أجل الذين يضامون أو يهضمون فى حقوقهم فقال : (وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا

أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا) .

وإن من أوجب الواجبات على العالم الذى يحتفل بذكرى حقوق الإنسان أن يتذكر أن هناك فى فلسطين المغتصبة وفى الأرض العربية المحتلة أناساً بغوا فى الأرض وأهدروا حقوق الإنسان وهم عصابات الصهيونية فى إسرائيل ولن يصدق العالم فى احتفاله بهذه الذكرى إلا إذا تعاون عملياً وتطبيقياً على قمع هذا البغى وردع ذلك العدوان . الدعاء . . .

فى الجمعة اليتيمة[1]

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو ولى الصالحين المصلحين ، وخير الواهبين المانحين ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، صاحب العطاء المحمود والرزق الممدود : « إن هذا لرزقنا ما له من نفاد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اليتيم معز الأيتام ، وناشر لواء الأمن والسلام ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الآل والأصحاب ، والأتباع والأحباب « إن للمتقين لحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تعارف المسلمون على تسمية الجمعة الأخيرة من رمضان باسم « الجمعة اليتيمة » ، لأنها لا أخت لها ولا نظير ، فهى لا تتكرر ولا تعود فى شهرها ، وهى كالدرة اليتيمة الفريدة التى لا نظير لها ولا شبيه ، فهى خاتمة الجمع فى شهر يتيم فريد ، لو أدرك الناس مكانته وقدروا فضله لتمنوا أن يكون السنة كلها ، فيوم الجمعة الأخيرة من رمضان يوم يتيم ، فى شهر يتيم حرص عليه نبى يتيم رعى حقوق اليتيم .

وإذا كان يوم الجمعة اليتيمة يذكرنا بقرب انتهاء موسم الخير ، لنضاعف الجهود ، فإننا نتذكر المعنى الآخر لليتيم ، وهو من فقد أباه ، فصار عرضة للضياع وقلة المتاع ، حتى نحرك فى صدورنا معانى العطف والرعاية لأولئك الصغار الذين فقدوا آباءهم وهم فى بداية الحياة ، والإسلام المجيد دين قد عنى بهؤلاء وحرص عليهم ، وشدد فى المطالبة بتعليمهم وتقويمهم وتكريمهم ، ولعل إرادة الله قد اقتضت ، وهو أعلم بمراده — أن يجعل رسوله يتيما ،

---

(١) ٢٥ رمضان سنة ١٣٩٤ هـ — ١١ أكتوبر سنة ١٩٧٤ م .

حتى لا يكون له نظير ، فهو النبى اليتيم الفريد العديم الشبيه والمثيل ، وهو ينشأ فى رعاية الله وعنايته ، حتى يمن عليه بنعمته الكبرى من جهة : « ألم يجدك يتيما فآوى » ، وحتى يطالبه برعاية اليتيم من جهة ثانية : « فأما اليتيم فلا تقهر » وكأن الله قد جعل رعاية اليتيم عملا من أعماله القدسية ، وطالب الأخيار من عباده أن يتقربوا إليه بمثل هذا العمل على مستواهم فيرعوا اليتامى حق رعايتهم طاعة لأمر خالقهم .

ولذلك شغل الحق جلا جلاله جانباً من كتابه الحق بالحديث عن حقوق اليتامى ، فقال تبارك وتعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم » أى لا تتركوا شيئاً تعلمون فيه صلاحاً لهم فى أموالهم وأحوالهم ، وتربيتهم وتهذيبهم ، وإذا خالطتموهم أو عايشتموهم فاجعلوهم إخوة لكم فى الله والإسلام ، وجعل القرآن من علامات التوفيق فى قطع الطريق الصعب إلى رضا الله إطعام اليتيم صاحب القرابة فى يوم الجوع : « أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة » . وجعل من صفات عباد الله الأبرار أنهم « يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » . وشدد القرآن فى مطالبة المؤمنين برعاية أموال اليتامى وصيانتها ، فقال : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » ، وقال عز شأنه : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيرا » أى إثماً خطيراً وظلماً مبينا ، وجاء رسول الله عليه صلوات الله وسلامه يتابع تأكيد هذه العناية باليتامى وتنمية أموالهم وحفظ ثرواتهم ، فقال : « اتجروا فى أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة » ، وقال أيضاً : « ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه » لأن هذا المال لو تجمد ولم يتحرك فى استثمار طيب فإن حق الزكاة سيجب فيه عاماً بعد عام ، فيؤدى ذلك إلى تناقصه سنة بعد أخرى ، فيتأذى بذلك

اليتيم المسكين ، ويزكى الرسول رعاية اليتيم أجمل تزكية فيخبرنا بأن خير البيوت هو بيت فيه يتيم يحسن أهلوه معاملته ، وشر البيوت هو بيت فيه يتيم يسيء أهلوه معاملته .

وبعد أن يعطر القرآن ذكر أولئك الصالحين المصلحين الذين يزينون فضائلهم بفضيلة رعاية اليتيم ، يلتفت إلى أولئك الغافلين المهملين لليتيم ، فيقول لهم منددا ومعرضا بهم : « كلا ، بل لا تكرمون اليتيم » فأنتم من سوء تصرفكم وضلال خطتكم تنسون اليتيم وتغفلونه ، فلا تحسنون رعايته ، ولا تحققون وقايته ، ولا توفرون ما ينبغي له من معانى التكريم والإبعاد عن المذلة والهوان ، وكان عليكم أن تفعلوا ذلك التكريم حتى لا يشعر ذلك اليتيم بأنه إنسان وضيع بين قوم طاغين مهملين ، ينالهم عذاب الله يوم الدين . ويشتد القرآن الحكيم فى الحديث عن أولئك المجرمين الذين يضيعون اليتيم المسكين ، فيقول : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم » .

فجعل دع اليتيم ، وهو العنف عليه والقسوة معه أولى العلامات الدالة على التكذيب بالدين ، وكأنه يريد أن يقول إن المكذب بالدين هو الذى يغمط حق غيره الضعيف تعززا بقوته ، وهو الذى يزجر اليتيم زجرا عنيفا إذا جاء يطلب المعونة والنصرة ، حيث يهمله الغنى القوى ويحتقره ، لأن اليتيم ضعيف فاقد للنصير ، مضيع ليس له بين اللئام مجير ، ومن استهان باليتيم فقد استهان بكل ضعيف ، واحتقر كل محتاج ، وهذا وصف من لا يؤمنون بدين الرأفة والرحمة الذى يقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ، ثم يحذر القرآن تحذيره الوجيع وينذر إنذاره الرادع ، ويخوف تخويفه المرعب، فيقول : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتيم ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون

سعيراً » . والنبي صلى الله عليه وسلم يذكر فى حديثه الصحيح أن أكل مال اليتيم هو إحدى الموبقات السبع أى إحدى كبائر الذنوب المهلكات ، فأين التهديد والوعيد من ذلك الوعد الجميل الرائع الذى يعبر عنه النبي بقوله : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا ذكرنا الجمعة اليتيمة فى رمضان فتذكرنا واجبنا نحو انتهاز فرصة الخير قبل أن تذهب ولا تعود ، فمن واجبنا أن نتذكر الطفلة اليتيمة والطفل اليتيم ، حتى لا يضيع اليتامى فى حنايا المجتمع ، ولنذكر أن بين هؤلاء لو أخلصنا فى رعايتهم وكفالتهم لتخرج منهم عمالقة صالحون لتقديم الخير العميم فى كل مجال كريم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

على مائدة الآداب الاجتماعية[1]

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا هو الجميل الذى يحب الجمال ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله زينة البشر وخيرة الرجال ، اللهم فصلواتك وسلامك عليه وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه السادة المهذبين ، وأتباعه القادة العادلين ، ومن دعا بدعوتهم إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . .

أما بعد فيا طالبى الرشاد . . .

نحن الآن فى شهر كريم تتنزل أثناءه الرحمات ، وتتزايد البركات وهو شهر عبادة وقيام ، وقنوت واستسلام ، وصمت وتفكير ، ونظر وتدبير ؛ فيه تقل الحركات ، وتطول السبحات ، ويقصر العمل والكلام ، وتحيا القلوب وتطهر الأحلام ، وقد ذكرت لكم فى عظتى السابقة أن يحسن بالصائم أن يقنع بالقليل عن الكثير ، وبالقصد عن التطويل ، فيوجز فى حديثه وعمله ، ويحدد من خياله وأمله ، واتباعاً منى لهذه النصيحة سأوجز معكم فى الحديث اليوم لأننى صائم مثلكم فأكتفى بالإشارة عن العبارة ، وبالتلميح عن التصريح ، وبالرمز عن الشرح والبيان . .

إن الصائم محتاج بجوار تطهيره لنفسه وتهذيبه لجسمه وإقباله على ربه وتعمير ما بينه وبين خالقه إلى طائفة من الآداب العامة والأخلاق الشعبية التى يحسن بها السير والمعاملة مع إخوانه فى الدين أو الإنسانية ، والتى تجعله مثلا صالحاً لأهل الإسلام دين السماحة والكرامة ، والنبل والشهامة ، والسمو فى

---

(١) ٦ رمضان سنة ١٣٦٣ هـ ــ ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٤ م .

الطباع والعبادات : فلنقبل على مائدة الآداب الاجتماعية وهى حافلة بهنىء الشراب ومرىء الطعام ، لنتزود منها بخير زاد ، ولنطعم عليها ما نشتهيه دون أن يفسد لنا صيام ، حتى يجعلنا هذا الزاد أعزة أئمة ، ويجعلنا بفضل الله ومشيئة خير الوارثين .

عندما تجلس إلى هذه المائدة الشهية أيها المؤمن ستجدها تقدم إليك الأدب اللائق بك فى معاملة الناس فتوصيك بأن تكون ظريفاً ، لك رقة الظل وحلاوة الحديث وحسن المعاشرة ، فلا تثقل على أحد بمطالبك ، أو تطيل الجلوس مع من يكره ذلك ، أوتطيل التردد أو تفشاه مفاجأة فى وقت طعامه أو نومه أولهوه مع أهله على من تشغله أعماله ، وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله قال : اللهم اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أو تحاول الاطلاع على الأسرار أو الأمور الخاصة بسواك ، إذ كل ذلك مما يجعلك مبغوضاً مكروهاً ، لا يطمئن إليك صديق ، ولا يأنس بك صاحب ، وقد قيل للشعبى : هل تمرض الروح ؟ قال : نعم ، من ظل الثقلاء ؛ فمر به بعض أصحابه وهو بين ثقيلين معروفين فقال له : كيف روحك الآن ؟ . . فتأوه ثم قال : هى فى النزع الأخير . . وقال شريك سمعت الأعمش يقول : إذا كان عن يسارك رجل ثقيل وأنت فى الصلاة فتسليمة عن اليمين تجزئك .. ولست أدرى ماذا يكون الحل لو كان الثقيل عن اليمين ، أيخرج المصلى بلا تسليم ، أم يهجر الصلاة ؟ . . ألا لعنة الله على هؤلاء الثقلاء الذين يصدون الناس عن الخير ، ويكرهونهم فى طيبات الحياة . .

وعندما تجلس إلى هذه المائدة أيها المؤمن ستقول لك : إن الواجب عليك أن لا تتبع ماليس لك به علم ، وألا تدخل فيما لايعنيك كى لا تلقى ما لايرضيك ، وألا تسأل عن أشياء إن تبدلك تسؤك ، وألا تحاول تعجيز من تسأله ، وألا تغالط من تستفتيه تريد بذلك التعالم عليه أو إحراجه ، فقد كان ابن سيرين

إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل : أمسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس ، وقال على بن أبى طالب: « من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة ، وتجلس قدامه ، ولا تشر بيدك ، ولا تغمز بعينك ، ولا تقل : قال فلان خلاف قولك ، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تلح عليه فى السؤال، فإنما هو بمنزلة النخلة المرتبطة لا يزال يسقط عليك منها شيء » وقالت الحكماء : إذا جلست إلى العالم فسل تفقها ولا تسل تعنتا .

واحذر أن تسألها الأسئلة التافهة الباردة التى لا تقدم ولا تؤخر ، فإنك بذلك تدل على وهنك وضـآلة عقلك، فقد جاء إلى الشعبى رجل وسـأله عن المسح على اللحية فى الوضوء ، فقال له : خللها بأصابعك ، فقال الرجل : أخاف ألا تبلها . قال فانقعها إذن من الليل فى الماء .

وســأل رجل عمرو بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان فى ثوبه أو فى خفه أو فى جبهته من حصى المسجد . فقال له : ارم بها ، قال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد . فقال : دعها تصيح حتى ينشق حلقها . فقال الرجل : سبحان الله ، وهل لها حلق؟. فقال عمرو : سبحان الله، سبحان الله ، وهل لها فم تصيح به ! ؟ .

وإذا ضحكت عليك نفسك الأمارة بالسوء وقالت لك إن هذه الأسئلة من باب التوفيق فى الدين ، والحرص على أمور العقيدة ، والتورع عن الشبهات ، فخالفها وقل لهـا : ما أضلك من شيطانة فتانة ، وهل فعلت جميع ما وجب عليك من فروض وأركان ولم يبق إلاهذه التوافه ؟.. تذكرى أيتها الخبيثة أن رجلا على عهد عمر رضى الله عنه لقى تمرة فادعى الورع وسار بين الناس يقول : يا من ضاعت له تمرة ؛ فلقيه عمر فسخر منه وقال: كلها يا صاحب الورع البارد ! فاحذرى أيتها النفس أن يكون ورعك من هذا النوع البارد الذى لا يخف ولا يثقل فى الميزان .

وستقول لك هـــذه المائدة عندما تجلس عليها إنه يجب عليك ألا تفضح المذنب،أو تشهر بالمسيء، بل واجبك أن تحاول تقويمه برفق ويسر، وأن تستر عليه حتى لايخجل إذا كشف أمره،ويروى فى ذلك أن عمر بن الخطاب كان جالساً بين صحابة له فيهم جرير الشاعر ، فأخرج أحد الحاضرين ريحاً شمها عمر ، فقال : ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ ، فاستحيا الرجل ، ثم قال عمر : ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ فإن الله لا يستحى من الحق ، فقال جرير : أرى أن يتوضأ القوم كلهم يا أمير المؤمنين . [كى لا يخجل صاحب الريح] فقال عمر موافقاً : نعم السيد كنت فى الجاهلية ، ونعم السيد أنت فى الإسلام .

واحذر أن تنحى باللائمة على عاص تريد بذلك فضيحته وتزكية نفسك، فإنك لا تدرى من المقبول عند الله غداً ، فقد توفى رجل فى عهد عمر بن ذر ممن أسرف على نفسه فى الذنوب وجاوز فى الطغيان فتباعد الناس عن شهود جنازته ، فحضرها عمر بن ذر وصلى عليه ، فلما وضع فى قبره قال : يرحمك الله أبا فلان ، صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت وجهك بالسجود ، فإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وذى خطايا ؟ ! . .

وستعلمك هذه المائدة ألا تكون مرائيا خداعاً ، تظهر الصلاح وتبطن الفسوق ، وتبدو أمام الناس ملاكاً وأنت شيطان ، كذلك الرجل الذى نصب فخاً وضع عليـــه بعض الحب ، فجاءت عصفورة فوقفت بالقرب منـــه وقالت : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة عبادتى انحنت قامتى . قالت : فمالى أرى عظامك بادية ؟ . . قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ . قال : لزهدى فى الدنيا لبست الصوف . قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى بها حوائجى ، قالت : فما هذا الحب ؟ . . . قال صدقة . إن مربى مسكين

ناولته منها . قالت : فإنى مسكينة . قال : خذى ماشئت . فالتقطت الحب فاحاط الفخ بعنقها ، فتحسرت قائلة . . . لا غرنى ناسك مراء بعدك أبدا ! .

وستحبب إليك هذه المائدة أن تبكى على ذنبك تتهم نفسك وتحاسبها الحساب العسير ، ولا تفتر باقبال الناس عليك ومدحهم لك وإعجابهم بك وحبهم دينك ، فتكون كداود الطائى الذى يتحدث عنه ثابت البنانى فيقول : دخلت على داود فقال لى : ماجاء بك ؟ . قلت : أزورك ؟ . قال : ومن أنا حتى تزورنى ؟ أمن العباد أنا ؟ . لا والله ! . . أم من الزهاد أنا ؟ لا والله ! . . ثم أقبل على نفسه يوبخها ويقول : كنت فى الشبيبة فاسقاً ثم تبت فصرت مرائيا ، والله إن المرائى شر من الفاسق ! وقد سئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ .. قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ . قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين . . أى يتظاهرون بالصلاح والتقى ، والزهد والورع ، ليقضوا حاجاتهم ويبلغوا أمورهم يطلبونها .

أظهروا لله دينـا وعلى الدينـار داروا
ولـه صـلوا وصلوا وله حجوا وزاروا
لوبدا فـوق الـثريا ولهم ريش لطاروا

وسنقول لك أخيراً — وليس آخراً — إنه يجب عليك أن تحبس هواك عن الفواحش ، وأن تطلق نفسك فى ميدان المكارم ، وأن تحاول أن تنفع نفسك وتنفع غيرك ، وتحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وتستجيب داعى الهدى ، وتتمسك بعروة الله التى لا انفصام لها ، وتمسك بتلك النصيحة التى أوصى بها أحد الأعراب أخاً له مسافراً فقال :

أثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك قيادك ، وليكن عقلك وزيرك ، الذى يدعوك إلى الهدى ، ويجنبك من الردى ، واحبس هواك عن الفواحش ، وأطلقه فى المكارم ، فإنك تبر بذلك سلفك ، وتشيد به شرفك ! ! ..

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا أيها الإخوان طائفة من الألوان التى تقدمها إنا مائدة الآداب الإسلام الاجتماعيـــة ، وقدكنت انتويت الإيجاز كما ذكرت إشــفاقاً بنفسى وبكم فأبى الحديث إلا أن يستفيض ولم آت عليه رغم ذلك الطول إذ لا تزال له بقايا وذيول ، فليت شعرى ، أنستطيب ذلك الطعام ونستمرئه ، أما إنا لا نألف إلا ما يهلكنا ويردينا ؟ . يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، وسبحان من لو شاء لجملنا بالأدب الرفيع والذوق السليم ، فإنه ولى الهداية والتوفيق .

الهلال رمز المسلمين[١]

الحمد لله الذى دبر الكون بعلمه ، وقدر الأمور بحكمته ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة عبد يؤمن بعظمته ، ويرى آثار قدرته ، فى ملكوته وآياته ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله ، الذى شرفه ربه فجعله خير هداية ، وأفضل دعامة ، وخاتم أنبيائه ، وأقرب أصفيائه ، فعليه صلاة ربه وسلامه ، وعلى أغصان شجرته ، والصادقين من صحابته ، والتابعين لسنته والمهتدين بهديه ، مادامت الأرض والسموات . .

أما بعد : فيا أبناء الإسلام . . .

بعد أيام ممدودة يرحل عام من تاريخ المسلمين ويقبل عام ، وبعد لحظات قصيرة يتجلى فى صفحة الأفق ذلك الهلال الوليد ، الذى يعود بخاطرنا وأذهاننا وعواطفنا إلى الماضى البعيد ، حيث كان العصر الإسلامى الأول المجيد ، وحيث كانت البطولة تفخر بأهليها ورجالها الصيد ، وحيث شهدت الدنيا ووعت الأيام ذلك الحادث الجليل ، والموقف الحاسم والرحلة الفاصلة بين حملة النور وخفافيش الظلام ، وبين أنصار الحق وأتباع الباطل ، وبين قوة الإيمان وعنت الجحود ، ممثلة فى هجرة سيد الوجود من مكة البلد العتيق إلى المدينة دار النصرة ومقر القيادة وحصن الإسلام . . .

فأى ذكريات تثور ، وأى عبر تقوم ، وأى نجوى تخاطب بها هذا العام الهجرى الجديد . . بل أى عظة نستلهمها من رؤية ذلك الهلال الوليد ؟

---

(١) ١٦ نوفمبر سنة ١٩٤٥ م .

إننا إذا نظرنا إلى كبريات الأمم المعاصرة التى تتظاهر بالحول والقوة ، والطول والفتوة ، وجدناها تتخذ لنفسها رمزاً ترمز به إلى معنوياتها ومشخصاتها وتلخص فيه مبادئ وطنيتها ، فهناك مثلا رمز « الأســد » لبريطانيا ، ورمز « النسر » لأمريكا ، ورمز « الدب » لروسيا و « الصقر » لألمانيا و « التنين » لليابان ، وغير ذلك من الرموز التى تشعر بالقسوة والوحشية والسيطرة والاستعباد فما هو رمز الإسلام دين الهداية والرحمة والسلام ؟ . . .

نستطيع أن نجعل رمز الإسلام هو ذلك الهلال الصغير الذى يبدو فى صفحة السماء ، فينير الطريق ، ويهدى الضال ، ويعلن انتهاء مرحلة من الزمن وابتداء مرحلة أخرى ، حتى تستيقظ القلوب الغافلة وتنشط الهمم الوانية ، ويراجع المرء حسابه ليعرف ما قدمت يداه ، فإن كان أحسن ازداد إحساناً ، وإن كانت الأخرى تاب وأناب ، واستدرك الفائت وأصلح الفساد ، واستقام على الصراط ! . .

نعم رمزنا نحن المسلمين هو ذلك الهلال الوليد الذى يزين صفحة الأفق والذى يطالعنا بين الحين والحين ، فنعرف منه معنى النظام فهو دائماً يأتى مع الليل ، وهو دائماً يعقب الشمس ، ويبدو بعد اختفائها « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ونجدد عند رؤيته العزائم ونضبط بوساطته الحساب كما قال الله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقال : « هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

والهلال رمزنا لأننا نتطلع إليه فنراه يسبح فى أجواز الفضاء ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، ويبرز من جهة ويختفى بعد رحلته

الطويلة أو القصيرة فى جهة أخرى فنتعلم منه عند ذلك كيف نعنى بأمر الله لنا أن نسير فى الأرض وننظر بعين التدبر والتفكر ، والاختبار والاعتبار ، إلى مافى مناكبها وأقطارها من آياته وعلاماته ، وآلائه ونعمائه ، فنزداد بذلك علماً وإيماناً ، ونكسب من ورائه ثقافة وحضارة تهيئ لنا نعمة الرخاء :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر » .

والهلال رمز الإسلام لأنه يأتى حينما يحتاج الناس إليه ، فيخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى سواء السبيل ... فالبحار حينما تختفى أمامه المعالم ، ويصبح أسير الدياجى ، يخرج عليه الهلال فيرشده ويلهمه الصواب : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . . . وأصحاب الحاجات فى الليل تعوقهم الظلمة عن أداء واجبهم حتى يخرج القمر فيسدد خطاهم ، ويعصمهم من الضلال ، فنتعلم منه عند ذلك أن نكون نحن أيضاً مصابيح تضىء وتنير ، فنحذر من الشر ونهدى إلى الخير ، « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير : ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

والهلال رمز المسلمين لأنهم ينظرون إليه حين شروقه فيرونه وقد تسيطر على العلاء ، وتربع فوق السماء ، عالياً عن كل أرض ، رفيعاً على كل منخفض فيتعلم المسلمون منه عند ذلك الكرامة والإباء ، والترفع عن الصغائر ، والاعتزاز بالله الذى لا يعز من عاداه ولا يذل من والاه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

والهلال رمزنا لأننا ننظر إليه فنراه يمثل لنا تاريخ الحياة الدنيا ، وعمر

كل إنسان ، فالهلال يبدو فى أول الأمر ضئيلا صغيراً ، كالعرجون القديم ، ثم يكبر بتتابع الأيام حتى يصير نصف دائرة ، ثم يكبر أيضاً حتى يصير دائرة إلا قليلا منها ، ثم يكبر أيضاً حتى يتسق ويصير بدراً كاملا ، ثم يدركه القانون القائل :

ما طار طير وارتفع　　　إلا كما طار وقع ! !

فيعود مرة أخرى إلى النقصان والضعف حتى يصبح كما بدأ ضئيلا صغيراً ، ثم يختفى نهائياً فيكون محاقاً . . .

وهكذا الإنسان : طفولة ضعيفة ، ثم شباب فتى ، ثم رجولة كاملة ، ثم شيخوخة هزيلة متداعية ، ثم الموت المحتوم : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير » فمن الواجب على الإنسان أن يذكر هذه التطورات ويحسب لها حسابها ، ويقدم للخاتمة زادها ، « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

والهلال رمزنا لأننا نتعلم منه الصبر الجميل ، فقد تحجبه عنا السحب ، فلا يزول ضوؤه ، ولا تنقطع حركته ، بل يظل كطبيعته وعهده مضيئاً مجاهداً سائراً فى منازله وأبراجه حتى تزول الحجب فيعود كما كان ، وهكذا يجب أن يكون الإنسان لا يضيره القيد ولا السجن ولا الاضطهاد ولا الانفراد ولا القوة ولا الضعف ولا يغريه وعد أو يحمله وعيد على التلون والتغير أو التقهقر والخذلان ، بل يوقن بنصر الله ، ويظل على عهده لله ، لأن الكريم لا يخون ، ولأن الأصيل لا يتبدل ، مهما كانت الظروف :

إن الجـواهر فى الـتراب جـواهر

والأسـد فى قفص الحـديد أسود

والهلال رمزنا لأننا نتعلم منه الجهاد والعمل فى صمت وبلا تظاهر ، فهو يجود بنوره على العالمين ، ويهدى جميع الحائرين ، دون أن يمن عليهم أو يفتخر ، ودون أن يميز فريقاً على فريق أو مكاناً على مكان ، وهكذا يجب أن يكون المسلم ، يجب أن يعمل لله وللناس بلا ضجيج ، فمن فوقه خالقه يعرف أعماله ويقدر حسناته : « وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

إيه أيها الهلال ! . . .

ها أنت ذا ستشرق علينا فى بداءة العام الهجرى الجديد ، وها هو ذا بعض ما توحيه رؤيتك إلى النفوس الذاكرة المستبصرة من الخواطر والذكريات فكيف تطلع على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أيها الهلال الجديد ؟ . وماذا وراءك مما يضمره الغيب وتكنه الأيام لهم ولدينهم ؟ . . وما الفوارق التى تلحظها بينهم وبين أسلافهم ؟ . وهل وجدت اليوم من يستقبلك كما استقبلك الهداة الفاتحون ، والمؤمنون العاملون فى العصور الماضية حين كنت مبعث خير ورشاد ، ورمز عزة وسؤدد للكتائب المظفرة المجاهدة فى سبيل الله ؟ . .

مهلا أيها الهلال ومعذرة إليك ، فإن وجدت مناماً يؤلمك أو يخجلك ، فلا تسرع بالأفول لئلا يعم الظلام ، بل واصل الشروق والازدهار ، فقد ينهض نائم وينشط كسلان ! ! .

أما أنتم يا أبناء الإسلام ، فحتام حتام الهوان ؟ . اذكروا أن عين الأيام لا تنام ، وأن كلمة التاريخ لا تتبدل ، وأن الفائت لا يعود ، وأن الحاضر

على وشك الرحيل ، وأن المستقبل غير مضمون ، وأن ربكم بالمرصاد ، فلا تؤجلوا أو تسوفوا ، بل انهضوا وتداركوا ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل !

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال : « اللهم أهله علينا باليمن والإيمان ، والسلامة والسلام ، ربى وربك الله » ، أى أنت مثلى مخلوق لله فلا تعبد . وقال عليه الصلاة والسلام :

العبد بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى مالله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فو الذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ! .

بمناسبة أول السنة الهجرية :

نجوى وشكوى[1]

أيها الهلال الوليد ، فى ذلك العام الجديد ! يا باعث الذكريات ، ومحرك الخطرات ، وموقظ الأرواح ، ومحرك الأشباح ، ولافت القلوب والعقول إلى مرحلة من الزمان تقصت بما لها وما عليها ، ومرحلة أقبلت بما معها وما وراءها ! . . . لقد عودناك أيها الهلال أو عودتنا أن نراك فى بداءة العام الهجرى الجديد ، فنناديك ونناجيك ، ونساجلك ونقاولك ، ونقف أمامك وقفة الاعتبار والادكار ، ونستلهم منك آيات العظة لأنفسنا ولإخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولقد ألهمتنا فى الماضى أحاديث وأحاديث لا ندرى ماذا كان لها من آثار ، فعلم ذلك عند مقلب القلوب والأبصار . . . وها نحن أولاء نراك مرة أخرى ، فنجد بأنفسنا حنيناً طاغياً وشوقاً زائداً إلى معاودة المناجاة والمناغاة ، ولسنا ندرى متى ينتهى هذا الشوط الطويل من الكلام والحديث ! ! . .

لقد قال قائلنا منذ حين أيها الهلال الوليد : إن المسلمين قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وتحجرت عواطفهم ، ونسوا أكثر مبادئهم وتعاليمهم ، فهم فى أشد الحاجة إلى من يبصرهم بدينهم ، ويذكرهم بكتابهم ، ويصلهم بسنة نبيهم ، ويفتح عيونهم على أنوار تعاليمهم ، ويعرض عليهم تاريخ آبائهم وجدودهم ، فآمنا وصدقنا ، ونظمنا الكتائب ، وأخرجنا الهداة والوعاظ والمرشدين ، وبعثنا فى كل طائفة نفراً من خيرة الواقفين على أسرار شريعتهم وتاريخهم . فانبث أولئك المرشدون فى المدائن والقرى ، وألفوا الجماعات ، وشيدوا النوادى والجمعيات ، وأقاموا المحافل والمؤتمرات ،

---

(١) ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ م .

وألقوا الخطب والمحاضرات ، وأصدروا الصحف والنشرات ، وطبعوا الكتب والمؤلفات ، ولم يدعوا باباً من أبواب الإسلام إلا فتحوه ، ولا مغلقاً إلا كشفوه ، ولا تشابهاً إلا وأولوه أو قربوه ، ولا موقفاً تاريخياً إسلامياً إلا عرضوه ، حتى ضجت الأصوات بالشكوى من هذا الطوفان اللسانى الغامر ، وشكا الشاكون قائلين : إننا أمة أصبحت لا تعرف فى حياتها غير الكلام ! . .

فرأينا حينئذ قائلنا الأول يقف ويقول : حسبكم ما عرفتم به الأمة من أمور دينها وكتابها ، وحسبكم ما أبدعتموه من فنون القول المنظوم والمنثور ، فعليكم بعد هذا أن تبصروا هذه الأمة الإسلامية بعيوبها ، وتقفوها على نقائصها ، وتعددوا لها سيئاتها ، فإن الشعور بالنقص أول خطوة فى طريق الكمال كما يقول الحكماء ! . . . فما أسرع ما رأينا المئات بل الألوف من المتطوعين والمحتسبين الذين أخذوا يعددون للأمة وجوه ضعفها وتفرقها ، وفسقها وفجورها ، وتحللها وعربدتها ، ورأينا مرة أخرى طوفاناً غامراً من تعداد المعايب والنقائص ، حتى خشى بعض المصلحين أن تموت عواطف الأمة الإسلامية ، ويتبلد إحساسها من كثرة ما سمعت عن نقصها وضعفها وهوانها ، فإذا بقائل يقول : حسبكم تنديداً وتقريعاً . . حسبكم تبكيتاً وتأنيباً . . لقد عرفت الأمة الإسلامية ماضيها وما كان فيه من عز زاهر ، ومجد ناضر ، وبطولات مجيدة ، وعزة شاملة ، ولقد عرفت الأمة كذلك حاضرها وما فيه من ذل وهوان لا يليقان بالأمة التى جعلها الله وسطاً ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس . وكتب لها إذا تمسكت بدينها أن يستخلفها فى الأرض ويجعل أبناءها أئمة ويجعلهم الوارثين . . . عرفت الأمة كل هذا ، ولم تعد فى حاجة إلى كثير من الكلام ، ولكنها أصبحت فى أمس الحاجة إلى كثير من العمل والتنفيذ ، فليقدم أولئك الذين حملوا المشاعل فى أول

الأمر ، وأولئك الذين تحمسوا للإصلاح ، وأولئك الذين أطالوا الكلام . . . ليتقدم هؤلاء الذين يلون الأمور هنا وهناك ، وأولئك الذين يملكون السيطرة والسلطان ، بخطوة عملية واحدة ، وعندها سيجدون الأمة تسارع خلفهم ، وتمشى فى ركابهم ، وتضحى بأعز ما تملك فى سبيل أن تحقق لنفسها حياة الرفعة والعلاء ! . .

وانتظرنا، ثم انتظرنا، حتى طال الانتظار، فلم يتقدم أولئك المصلحون المتشدقون بالكلام الطويل العريض إلى ميدانى العمل والتنفيذ ، بل ظلوا يسوفون ويماطلون ، ويتعللون بأوهى العلل والأسباب حتى كادت الجماهير تفقد ثقتها بهم ، وتتحول بوجهها عنهم ، وتحاربهم بدل أن كادت تعبدهم . .

فهل لك أيها الهلال الجديد أن تخبرنى بالسر فى هذا الموضوع ؟ . . هل عندك من نبأ تكشف به أمر هذه الأحاجى والألغاز ؟ . . وهل أنت مخبرى عن حال هذه الأمة الإسلامية المسكينة ؟ . . ألا تزال تنطوى على خصائل البطولة والرجولة التى كانت بارزة واضحة فى الآباء والأجداد ، أم أنها فقدت هذا المعنى الكريم ، وسيستبدل الله بها غيرها ثم لا يكون ذلك الغير مثلها ؟ . .

وماذا تخبئ الأقدار لنا أيها الهلال ؟ . . أيقظة وعمل ، أم موت وفناء ؟ . . ومتى يكون السير على طريق الوصول ، ومتى نبلغ ما نريد ، أيها الهلال الوليد ؟ !

أيها المسلمون فى المشارق والمغارب ! . . لم يبق لنا مجال لطويل الحديث والشكوى ، بل بقيت لحظة العمل والإقدام ، فدعوتكم دعوة الحق ، وأنبياؤكم بذلوا كل شىء فى سبيل الحق ، وآباؤكم وأجدادكم الأكرمون باعوا

لله أنفسهم رخيصة لنصرة الحق ، ونساؤكم السابقات المؤمنات قدمن ما قدمن ، وضحين بما ضحين فى سبيل الحق ، فماذا أنتم فاعلون من أجل هذا الحق ؟ .

إن هذا اليوم يوم مشهود ، وفاصل بين عهد وعهود ، فما هى التحية التى تقدمونها لوطنكم ودينكم وخالقكم فيه ! . . والله إن التحية الحقة لهذا اليوم المجيد لن تكون خطبة تلقى ، أو مقالا يكتب ، أو احتفالا يقام ، أو رغبة تقدم ، وإنما التحية الحقة أن تقدم على العمل ، وأن يبدأ الخطوة الأولى فى ذلك الميدان أولئك الذين يملكون الأسباب من القادة والكبراء ، فهل هم فاعلون ؟ . . إنها أمانة فى أعناقكم أيها السادة ، والله سائلكم عنها فمدقق فى الحساب ، ولتعلمن نبأه بعد حين . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ! !

شعبان وتحويل القبلة[1]

الحمد لله عز وجل . هو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، أشهد أن لا إله إلا الله ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من تعبد وتهجد ، وأفضل من استجاب وأناب ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « والعاقبة للمتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أجمل أن نعود إلى الحديث عن شهر شعبان ، فذكرياته كثيرة وعبره غزيرة ، ومن أكبر ذكرياته وأخلدها تحويل القبلة فيه من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام ، فقد وقع ذلك يوم الاثنين نصف شعبان ، بعد نحو سنتين من الهجرة ، وقد يسارع متعجل فيقول : إن الإسلام دين التوحيد والتجريد ، فلماذا شرع الاتجاه فى الصلاة إلى بناء كالكعبة أو المسجد الأقصى ؟ وهل معنى ذلك تعظيم ينطوى على معنى العبادة لهذا البناء أو ذاك ؟ . والجواب عن ذلك أن الله جل جلاله هو المعبود وحده وهو المقصود دون سواه بكل عبادة أو تقديس : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » ، والاتجاه إلى الكعبة ليس تعظيما عبادياً لها على الإطلاق ، وإنما هو وسيلة لجمع صفوف الملايين من المصلين على وجهة حسية واحدة ، ليكون من ورائها جمع على وجهة اعتقادية واحـــدة ، فالقبلة فى الأرض ما هى إلا رمز تلتقى عنده الأبصار لترتقى من حوله العقول والبصـــائر ، موحـــدة ممجدة لله جـــل جلاله ، الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وتزداد إيماناً بالله الذى لا تدركه

---

(١) ٢١ يوليو سنة ١٩٧٨ م .

الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . وإذا كنا نؤمن بأن الله تعالى يقول : « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » فيجب علينا أن نتذكر أنه لو اتجه كل مسلم فى صلاته إلى جهة يريدها ويهواها لظهر المسلمون فى صورة المتفرقين والمختلفين ، وياله من موقف مضحك أو مؤسف حين تقام صلاة جمعة أو جماعة مثلا ، فنرى كل شيء فيها وقد ولى وجهه إلى ناحية يرتضيها ، والله جل جلاله يريد عباده هؤلاء وجهة واحدة ، ويداً واحدة ، وخطة واحدة ، وهو الذى قال لهم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » ورسوله هو الذى قال لهم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

كما أن عماد الصلاة هو حضور القلب فيها ، وهذا الحضور القلبى لا يتيسر إلا مع السكون وقطع الحركة ، حتى لا يشغل الإنسان شاغل حسى ، وهذا السكون لا يتحقق إلا إذا ظل الإنسان فى صلاته مستقبلا لجهة معينة واحدة ، ومن أجل هذا لم يرض الإسلام للإنسان الحركة التى تخرجه عن معنى السكون والخشوع فى الصلاة والإقبال على الله ، وكأن الحق جل جلاله يقول لكل مسلم مصل قانت : أنت عبدى ، والكعبة بيتى ، والصلاة تحيتى ، فاتجه نحو بيتى ، وأظهر عبوديتك لعظمتى ، واتجه بقلبك ومشاعرك إلى توحيدى وتمجيدى ، فأنا الذى خلقت فأوسعت ، وأنا الذى اخترت وخصصت ، وأنا الذى حددت الوجهة وعينت ، فأطعنى بمادتك وحسك ، ثم تجرد لى فى قلبك ونفسك ، فأنا الذى أقول : « إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » وأقول : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » .

وهكذا أمر الله عز وجل نبيه بالاتجاه إلى بيت المقدس فى الصلاة ،

ليكون ذلك اختباراً وتمحيصاً : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » ، وما كاد محمد عليه الصلوات والتسليمات والبركات والرحمات ، ما كاد يؤمر بهذا حتى خضع وخشع ، واستجاب وأناب ، مع أنه كان يحب فى نفسه أن يكون توجهه إلى الكعبة ، فعندها وطنه وسكنه ، ولديها ما لديها من ذكريات ونجويات ، ولكن الله جل جلاله هو الذى أمر فيجب أن يطاع ، وما خطر ببال رسول الله يوماً أو لحظة أن يعصى خالقه ، أو يخالف عن إرادته ، ومع ذلك كان ينظر فى السماء هنا وهناك ، وكأنه يتجه إلى بديع السموات والأرض يكاد يترجم عن حاجة فى نفسه ولكنه لا يستطيع إظهارها ، لأن مشيئة الله فوق الجميع ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، وقد صور القرآن الكريم هذه الحالة خير تصوير حين قال : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وتمت إرادة الحكيم العليم ، وتحولت القبلة إلى الكعبة فى مكة المكرمة لتكون وجهة النبى فى صلاته ، ووجهة جميع المسلمين على مر الدهور والعصور ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهناك أكثر من حكمة أو سبب لهذا الاختيار ، فالكعبة فى وسط العالم ، وكأنها مركز الدائرة منه ، حتى قيل إن الكعبة سرة الأرض ، وكانت هذه إشارة إلى التوسط المحقق للعدل ، ولعل هذا هو بعض السر فى أن الله تعالى قد قال وهو يتحدث عن تحويل القبلة إلى الكعبة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . والكعبة هى التى بناها إبراهيم مع ولده إسماعيل ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء وخليل الرحمن وولده جد نبينا محمد عليه وعليهما أفضل الصلاة والسلام ، وببناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة

كان ميلاد أمة العرب وقيام مجمع العرب ، فقد كانت الكعبة أولا ، ثم توالى من حولها البنيان والعمران فتكونت الأمة التى حملت مشعل الإيمان ، والكعبة كان إلى جوارها مولد صفى الله ونجيه ، وحبيبه وخيرته من خلقه محمد عليه الصلاة والسلام ، فنى الاتجاه إلى هذا الموطن عند الصلاة تذكر لمولد الهدى والنور الذى أرسله ربه رحمة للعالمين ، وما بكثير على فضل الله الواسع أن يكرم نبيه بما يشاء ، وأن يحقق له ما يرضاه ، وقد أشار قرآنه جل جلاله إلى أنه قد حقق لنبيه ما يرضاه فى الدنيا حيث قال له : « فلنولينك قبلة ترضاها » ، وإلى أنه سيحقق له ما يرضاه فى الآخرة حيث قال له : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لله الأمر من قبل ومن بعد ، وقد شاءت إرادته ، واقتضت حكمته أن يجمع أبناء الإسلام وأمة الإيمان على قبلة واحدة : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ، وهذا الجمع لا يراد منه المظهر الحسى فقط ، بل يراد منه ما هو أجل وأعظم ، وهو أن تتلاقى النفوس والهمم والعزائم على طريق الحق وكلمة الصدق : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

يوم النصف من شعبان[1]

الحمد لله عز وجل ، بيده ملكوت كل شىء ، وإليه تصير الأمور ، وهو الذى يخلق ما يشاء ويختار . أشهد أن لا إله إلا الله ، أعز المؤمنين بعزته ، وضمن لهم الخلود فى جنته ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعله الله أفضل قدوة وأكرم أسوة ، فكان خير الهادين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اليوم هو الخامس عشر من شهر شعبان ، وقد تعارف كثير من المسلمين على أن يتحدثوا عن هذا اليوم المبارك عن تحويل القبلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم إعادتها كما كانت إلى الكعبة الحرام التى يقول عنها القرآن : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا » . وقد درج هؤلاء المتحدثون على القول بأن التوجه إلى بيت المقدس كان استمالة لليهود ، ولكنى أكاد أفهم معنى آخر من أسباب هذا التحويل ، وهو أن الله جل جلاله أراد أن يزيد عزيمة نبيه صلى الله عليه وسلم قوة وأن يجعله قدوة فى إيثار أمر الله تعالى على كل أمر ، وسحق هوى النفس ورغبة الذات بالفناء فى حب الله وطاعته ، فما كاد الرسول يستقر فى المدينة عقب الهجرة حتى أمره ربه بأن يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس ، مع أن هواه كان معلقاً بوطنه الأول « مكة » حتى رأيناه يعبر عن حبه وهيامه لهذا الوطن عند الهجرة . فما يكاد

---

(١) ١٥ شعبان سنة ١٣٨٧ هـ — ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٧ م .

يبلغ ظاهر مكة حتى التفت إليها ، وقال يخاطبها : « والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، والله إنك لأحب بلاد الله إلى ، والله لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » . فهو إذن يحب مكة ، ومتعلق بمكة ، وحريص على مكة ، وواسطة عقد مكة هى الكعبة ؛ ويمضى الرسول فى خطوات هجرية ، وكلما قطع من الطريق مرحلة تلفت إلى مكة ، تعبيراً متجدداً متكرراً عن حنينه وشوقه وتعلقه بمكة ، وكأنه يحاول أن يستبقى فى بصره الكريم كل ما يستطيع من ملامح البلد الأمين ، ليتعلل به ، ويطفئ به جانباً من لواعج شوقه ، حتى أنزل الله عليه وهو فى طريقه قوله : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » فتخف حدة الشوق نوعاً ما ، ويغالب الرسول عاطفته ، ويمضى فى طريق هجرته نحو المدينة ، ولكنه لا ينسى مكة أو الكعبة ، وفى المدينة يعاوده ويصحبه الحنين حيناً بعد حين ، والشوق مرة بعد مرة ، حتى يفزع إلى ربه بالدعاء قائلا : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة » .

ولكن هذا المحب المستهام الوفى لوطنه ، البار ببلده ، يتلقى أمراً من ربه بأن يطوى وجدانه ، ويكتم أشجانه ، ويقدم إرادة الله على إرادته ، وطاعة الله على رغبته ، وأن يجعل مكة خلفه فى صلاته ، ويتجه إلى بيت المقدس ، فلا يتوانى الرسول ولا يتقاعس ، بل يبادر بالطاعة ويسارع إلى الامتثال ، ويظل سبعة عشر شهراً ، وفيها مئات من الأيام ، وهو يتوجه فى كل يوم منها خمس مرات على الأقل نحو الجهة التى عينها له خالقه جل جلاله ، والتى تجعله يترك موطنه الذى ولد فيه ، وعاش فيه ، وتعلق به ، وعبر بكل ما استطاع عن شوقه إليه ، وكأن الله تبارك وتعالى أراد أن يقول لأهل الدنيا بأسرها : هذا هو حبيبى ومصطفاى ، وخيرة خلقى ، وأقرب الناس منى ، قد جعلته لكم قدوة ومثلا ، فى إيثار إرادة الله على كل إرادة ،

وتقديم حب الله على كل حب ، وتفضيل طاعة الله على كل رغبة أو هوى ، فهو يتحمل آلام الغربة من أجلى ، وهو يغالب الشوق إلى داره فى سبيلى ، وهو يكتم عواطفه لمرضاتى ، وهو يصبر على تنفيذ ما أردته منه ، لا يوماً ولا أسبوعاً ولا شهراً ، بل يصبر عليه سبعة عشر شهراً ؛ ثم يشاء الله له بعد هذا الاختبار والتمحيص والابتلاء أن يحوله إلى القبلة الدائمة الباقية ، قبلة جده أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فيقول له : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون » .

وما يكاد النبي صلوات الله وسلامه عليه يتلقى هذا التوجيه الكريم من ربه الكريم ، وهو قائم يصلى الظهر مع أتباعه ، وقد أدى نصف الصلاة وبقى نصفها — كما فى بعض الروايات — حتى يظهر الحب المكنون والهوى المستور ، فيستدير النبي وهو فى الصلاة ليؤدى نصفها الباقى مع المؤتمين به نحو الوطن الحبيب ، والبلد الأمين ، والكعبة المشرفة ، استجابة لأمر الله عز وجل الذى يتضمن فيما يتضمن تكريماً لرسوله الذى اجتاز الامتحان الإلهى بفوز وتوفيق ونجاح ، فكما بادر محمد صلوات الله وسلامه عليه ، بلا تمهل أو إبطاء ، إلى تنفيذ أمر الله ؛ أولا مع أنه يعارض هواه وحبه لموطنه ، بادر أيضاً إلى تنفيذ ما أمر الله به ، متمتعاً مع الطاعة والاستجابة بما هيأه له فى أمره هذا من إرضاء لعاطفة الحب الكريم عند محمد لبلده وقبلة جده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وهذه الصلاة المشتركة التى أداها الرسول فى الموضع ذى القبلتين ، ونصفها إلى بيت المقدس والنصف الآخر إلى مكة ، تذكرنا بمعنى آخر له قيمته ومكانته ، وقد ذكرنا به من قبل حادث الإسراء والمعراج وهو ذلك الربط الإلهى بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وكأن الله تعالى

يريد أن يقول لعباده إن المسجد الأقصى يجب أن يظل وثيق الصلة الدينية والارتباط الإسلامى بالمسجد الحرام ، وهذه هى أعلى صورة للربط بينهما ، فليس أدل على ذلك من اشتراك صلاة واحدة فى الاتجاه إلى هاتين القبلتين : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

كما أن تحويل القبلة كان كشـــفا للؤم اليهود وفضحاً لخبث نواياهم ، وفحش طواياهم ، فقـــد كانوا يدسون للإسلام منذ ظهر ، وكانوا يحرضون المشركين على توجيه الأسئلة المتعنتة للرسول ، بل كانوا يقولون عن عبدة الأصنام والأوثان : « هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » ، وحينما هاجر الرسول ومنهم جمع فى المدينة ، ضمن لهم حياتهم وأملاكهم ، وشرط عليهم أن يكونوا شرفاء أوفياء ، ولكنهم كانوا غدرة أخساء ، وكانوا يروجون بين الناس أن محمداً لو اتجه إلى بيت المقدس فى صلاته لدخلوا فى دينه واتبعوه ، ومع ذلك نشهد أن الرسول توجه فى صلاته سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ، لما عرفنا من حكمة ، ومع ذلك لم يسلموا ولم يؤمنوا ، فانكشف للناس عوارهم ، وتجلى فجورهم ، وأقبل القرآن يقول : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، ومابعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعل أكبر عظة نخرج بها من هذا الحديث هو أن نقدم إرادة الله على إرادتنا ، وأن نقهر فى سبيل مرضاته هوانا وشهواتنا ، وبذلك يهدينا سواء السبيل ، ويهيئ لنا الخير الجزيل ، ومن يطع الله ورســـوله فقد فاز فوزاً عظيماً ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ليلة النصف من شعبان[1]

الحمد لله عز وجل ، جعل مرور الأيام عبرة للايام ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لايحب الظالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الصابرين ومثيب الشاكرين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أصدق من عبد ، وأفضل من جاهد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وجنوده وحزبه : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى خلال هذا الأسبوع تمر علينا ليلة النصف من شهر شعبان ، وهى إحدى الليالى الإسلامية المباركة ذات الذكريات والنجويات ، ولكن الكثيرين من المسلمين — وبخاصة من لم يتفقهوا فى الدين — قد اعتادوا أن يتعبدوا فيها بأمور ظانين أنها مشروعة لازمة ، مع أن هذه الأمور لم يقطع بها نقل ، لم يوقن بها عقل ، كاجتماعهم فى المساجد عند الغروب أو بعده على هيئة خاصة ، وقراءتهم سورة يس بكيفية خاصة ، وصلاتهم مائة ركعة يقرءون فى كل ركعة منها سورة « الإخلاص » عشر مرات ، وكترديدهم الدعاء المعروف الذى يقولون فيما يقولون فيه : « اللهم إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقياً محروماً ، أو مقتراً على فى الرزق ، فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى وإقتار رزقى » . وهذا كلام لا يستقيم معناه ، لأن أم الكتاب — وهى اللوح المحفوظ أو علم الله سبحانه — لا يقبل المحو أو التغيير . وهم أيضاً يقولون فى هذا الدعاء أن ليلة النصف هى الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، وهذا غير مسلم ، لأن الصحيح أن الليلة التى يفرق فيها كل أمر

---

(١) ألقيت بمسجد التليفزيون سنة ١٩٦٨ م .

حكيم هى ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن المجيد . وهم يفعلون هذه الأمور بحرص ومبالغة ، وبعضهم يعتقد أنها مما فرضه الله وأوجبه ، وبعضهم قد يظل طيلة العام أو أكثره غافلا أو لاهياً ، فإذا ما أقبلت هذه الليلة حسب أنها كافية لكى يردد فيها كلمات ودعوات ، ويصلى فيها ركعات ، وبذلك ينتزع من سجل الأشقياء ويقيد فى سجل السعداء ، مع أن القرآن الحكيم يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سـعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

وليس معنى هذا أننا نستخف بليلة النصف من شعبان ، فشعبان كله شهر له مكانته وكرامته فى نظر الإسلام ، وليلة النصف فيه من الليالى التى يستحب إحياؤها بالعبادة والذكر والاستغفار وتطهير القلوب ، وإن كان لا يشترط فيها الاجتماع فى المساجد، أو التقيد بأوضاع خاصة فى التعبد ، أو الاقتصار على أدعية معينة فى الاستغفار ، وقد ورد فى فضل هذه الليلة قول سيد الأنام : « إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن » أى أن الله تبارك وتعالى يتجلى بفضله على خلقه ، ويمن عليهم بالمغفرة ، إذا أقبلوا عليه وتابوا إليه واستغفروه ، وأما الذين يشركون أو الذين تنطوى قلوبهم الخبيثة على الشحناء والعداوة والحقد والحسد للناس ، فإن الله لا يغفر لهم ماداموا على شركهم وشحنائهم ، ولعل السر فى تكريم ليلة النصف من شعبان أنه حدث فيها حادث إسلامى له قيمته ومكانته ، وهو تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، ولقد كان هذا التحويل اختباراً وامتحاناً من الله عز وجل للمؤمنين ، حتى تظهر طاعتهم واستجابتهم كما كان فضحاً لليهود الذين عصوا وتمردوا ، فنقل الله تعالى مواريث النبوة من أيديهم إلى أيدى حفدة إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وأقر ما أراد أن يظل دائماً إلى الأبد ، وهو الاتجاه إلى الكعبة بيت الله الحرام الذى بناه

إبراهيم وإسماعيل : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وخير ما نفعله فى ليلة النصف من شعبان ويومه أن نهتدى بهدى سيد المرسلين محمد ، فقد قال : « إذا كان ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها » وقيام ليلها يكون بقراءة القرآن وذكر الله والاستغفار والتهجد بصلاة التطوع بقدر ما يستطيع الإنسان ، والدرجة الخفيفة لهذا القيام هى أن يصلى المغرب والعشاء فى جماعة ، وأن يأتى بسننهما ، ويقول أى مقدار من الذكر والاستغفار . ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من الصيام فى شعبان ، وكأن هذا تهيؤ فيه لشهر الصوم المفروض وهو شهر رمضان الذى يقبل عقب شعبان ، وفى بعض الأحاديث أن شهر شعبان ترفع فيه الأعمال إلى الله رب العالمين ، وأن النبى أحب أن يرفع عمله وهو صائم ، ولذلك كان يكثر الصيام فى شعبان كما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها رأت النبى يطيل السجود فى ليلة النصف من شعبان حتى ظنت أنه قد قبض ، وسمعته يقول مناجياً ربه : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولما سألته عائشة فيما سألت قال لها : أتدرين أى ليلة هذه ؟ قالت الله ورسوله أعلم . فقال : « هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عزوجل يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد » وإذا كان المعلوم من الدين أن الله تبارك وتعالى لا يغلق باب فضله وقبوله أمام أحد صدق فى استغفاره وأخلص فى متابه ، سواء أكان ذلك فى شعبان أو غيره من الشهور والأيام ، فإن الله جل جلاله قد اصطفى أوقاتاً وأياماً لها مزيد من الفضل والمكانة ، لهذا السبب أو ذاك ، فجعلها كالمواطن التى تكون أكثر ملاءمة لمزيد من الفضل عند

توافر مزيد من الطاعة والاستجابة ، وذلك مثل يوم عرفة وليلتى العيدين وليلة القدر وهكذا ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » .

وكذلك روى عن أنس أنه قال : « كان المسلمون إذا دخل شعبان انكبوا على المصاحف فقرءوها ، وأخرجوا زكاة أموالهم ، تقوية للضعيف والمسكين على صيام رمضان » وهذا يفيد أنهم عرفوا لشهر شعبان مكانة خاصة لفتهم إليها رسول الله عليه صلوات الله الذى ذكرهم بأن شعبان ينبغى ألا ينسى بين شهر رجب الذى كانت تعظمه الجاهلية بضلالة وعماية فقضى الإسلام على هذه العماية ، وشهر رمضان الذى كرمه الله أعظم تكريم لنزول القرآن فيه هدى للناس وبينات بين الهدى والفرقان ، وكأنهم يعكفون على القرآن استعداداً لمزيد من الاهتداء به فى شهره المنزل فيه ، فهم يصومون من شعبان ما يقدرون ، ويتلون فيه من كتاب الله ما يتلون ، ويقومون فيه ما أوجبه الله فى أموالهم من حق معلوم للسائل والمحروم ، وكل هذه أمور مشروعة ولم يبتدعوا فيها ، ولم يخرجوا به عن هدى الرسول الأمين الذى قال: « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن شعبان مقدمة لرمضان ، ورمضان هو مدرسة الإسلام الربانية الكبرى التى تجدد حياة القلوب والأرواح ، فلنحاول أن نحسن الاستعداد له ، ولنحرص على التقيد بما شرع الله ورسوله ، ولنحذر الابتداع فى الدين نكن من المفلحين ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

خطوات على الطريق[1]

إن الإنسان المؤمن تغمره البهجة والفرحة حين يرى أمته تهتدى إلى شعب من شعاب الخير ، أو تأتى عملا من أعمال البر ، أو تصحح وضعا من أوضاع الاختلال ، أوتزيل عن أكتافها سيئة من السيئات ، أو تضيف إلى زاد تقواها حسنة من الحسنات ، وهذا الشعور النبيل قد جعله سيد البشرية محمد عليه الصلاة والسلام علامة من علامات الإسلام فقال : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . ولقد كانت أحوال أمتنا إلى عهدها القريب مما يسر العدو ويسوء الصديق ، فالخلاف والفرقة والصدام والتدابر علل نبتت على طريقها بتوحش وفجور ، فملأت عليها دنياها بالأسى والشجن ، ثم تأذن العلى الأعلى ببصيص من النور ، فإذا النيام يستيقظون ، وإذا المتدابرون يتقاربون ، وإذا المتخاصمون يفهمون أن الخصومة بينهم لا يرتضيها لهم دين ولا عقل ولا مصلحة وكأنهم قد فهموا قول الشاعر الذى قال :

شــواجر أرماح تقــطع بينهم	شــواجر أرحــام ملوم قطوعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها	تذكرت القربى ففاضت دموعها

وإذا محاولات لجمع الإخوة وتوحيد الكلمة ورسم الطريق نحو العزة والقوة ، وكان من أبرز هذه المجالات عقد مؤتمر القمة لملوك العرب ورؤسائهم من أجل فلسطين وبقية قضايا العروبة والإسلام ، وكان يوم الجمعة الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ (الموافق ١١ سبتمبر ١٩٦٤) ختام هذا المؤتمر ، وفى هذا اليوم نفسه دعانى التلفزيون العربى لألقى منه خطبة حول الموضوع يذيعها فى حينها هنا وهناك ، وبرغم ما كان هناك من مرض وألم استجبت للدعوة شاعراً بجلال المناسبة ، آملا أن يكون من وراء الحاضر

---

(١) ٥ جمادى الأول سنة ١٣٨٤ هـ ــ ١١ سبتمبر سنة ١٩٦٤ م .

المشرق غد باهر رائع ، وقد نقلت عدسات التلفزيون كما سجلت أشرطته الخطبة التالية التى أسجلها هنا تنويهاً بالجهد المبذول من جهة ، وتذكيراً بالواجبات التالية من جهة أخرى ، ولعل الله يحقق الآمال ويبارك الأعمال :

« الحمد لله عز وجل ، شرع لعباده طريق العزة والسيادة ، وجعلهم أهل التوجيه والقيادة : « ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل ميراث المؤمنين اعتماداً عليه واستمداداً منه واعتزازاً به : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، علم أتباعه طريق الرفعة والمنعة ، فكان خير الهادين فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى مطلع هذا الأسبوع اجتمع قادة الأمة العربية المؤمنة على صعيد واحد ، ليتبادلوا الرأى فيما بينهم ، ويوحدوا صفوفهم وكلمتهم ، ويجمعوا أمرهم على العمل الجماعى المشترك ، من أجل توطيد الوحدة التى تباركها يد الله عز وجل ، وتحرير الوطن المغصوب فى فلسطين : أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومهد عيسى ومسرى محمد عليهما الصلاة والسلام ؛ وإزالة الفضلات المنتنة للاستعمار الفظ فى جنوب الجزيرة المحتل وغيرها من بلاد العروبة والإسلام ؛ وما كاد هذا المؤتمر يلتئم شمله حتى أحاطت به أبصار الأمة وبصائرها واشرأبت نحو قلوب أبنائها ، يدعون من طواياهم وعلى سجاياهم أن تلحظه عناية الله تعالى بتوفيقه وتأييده ، حتى تنصهر الاتجاهات والرغبات والاختلافات فى بوتقة الإخلاص لله ، والغيرة على الوطن ، ونسيان الذات فى سبيل المجموع ، وحتى يتبايع القادة — ومن ورائهم شعوبهم

على كلمة الحق وشرعة الصدق ، متخذين لهم فيما نرجو من بيعة الرضوان شعاراً ، ومن مثلها الأعلى رائداً ومناراً ، ففيها قال الحق جل جلاله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » ؛ وما أسعدنا إذا اهتدينا بهدى القرآن المجيد .

وقد أثمر هذا اللقاء المشهود كثيراً من الثمرات التى ينبغى لنا أن نقدرها قدرها ، وإن تبين على المدى القريب والمدى البعيد أثرها ؛ فمن ثمراته أنه كان فى مظهره كما نأمل أن يكون فى مخبره صورة للصبغة الكريمة الأصيلة التى تميز الأمة المؤمنة ،وهى صبغة المشاورة التى أمر بها القرآن المجيد حين قال: « وشاورهم فى الأمر » ، وزكاها حين قال : « وأمرهم شورى بينهم » وجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم أساساً للدين فقال : « الدين النصيحة » وغالى بقيمتها فقال : « المؤمن مرآة أخيه » . . وما من فترة من الفترات فى تاريخ هذه الأمة نسى أبناؤها خلالها فرديتهم وأهواءهم ، وتلاقوا على كلمة الشورى ، مخلصين النية فى تلمس الطريق السوى ، واستنباط الرأى الرشيد ، واستلهام الخطة الحكيمة إلا آتاهم الله تعالى هداهم وتقواهم ، وأخذ بنواصيهم إلى صراط الحق والعدل ، وبوأهم مراقى العزة والنصر ، مصداقاً لقوله عز من قائل : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . وقول رسوله : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ إلى النار » .

ومن ثمرات هذا اللقاء التاريخى العظيم أنه خطوة ميمونة لتجميع الصفوف وتوحيد الأهداف ، وتأليف القلوب ، وطى صفحات الماضى بما له وما عليه: وفتح سجل جديد للأمة العربية ينبغى ألا يكتب فيه إلا ما ينظفها ويشرفها ، ويرفع قدرها من العالمين ، ويقضى على الفرية التى أشاعها الأعداء فى مختلف

الأرجاء ، وهى أننا أمة لا تتفق إلا على أنها لا تتفق ؛ وهذا هو قرآن خالقنا وبارئنا يذكرنا بأن نعمة تأليف القلوب من أكبر النعم فيقول الله للرسول : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . كما أن هذا التنزيل الإلهى يحثنا على أن نعرف قدر هذه النعمة ، ولا نفرط فيها ، وأن نشكر خالقنا عليها حق شكرها لنكون أهلا للمزيد منها ، فيقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . نعم إنها خطوة على الطريق نرجو أن يكون من ورائها خطوات وخطوات .

ومن ثمرات هذا اللقاء تعرف الطريق ، ورسم الخطة ، ووضوح الرؤية لما يوجد أمام الأمة من تبعات وواجبات ، ومن أخطار ومشكلات ، وما فى ديارها من طاقات وإمكانيات ، وما تستطيع النهوض به من أعمال ومهمات ؛ ولا شك أن اتضاح الطريق أمام السائرين عنصر من عناصر الاستقامة عليه ، وقطع المراحل المتوالية فيه ، ولذلك جاء فى القرآن قول الله تعالى : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وجاء فيه قوله : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » . وجاء فيه : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . وكل مؤمن يكرر فى صلاته رجاء لربه يدرك أن فيه خيراً كبيراً ونفعاً عظيما وهو قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » .

إنه لا يجوز فى شرعة الحق ولا فى حكم العقل ولا فى منطق القومية أن تختلف أمة أقام الله بنيانها على التوحيد ، ووهبها كل أسباب الوحدة ،

وحذرها فى كل مناسبة من الخلاف والفرقة : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . وإنه لا يجوز فى شرعة الحق ولا فى حكم العقل ولا فى منطق القومية أن تغتصب فلسطين — وهى كبد العروبة — فى ليل الخسة والدناءة ، وتعطى للأفاقين والأفاكين ، ويطرد منها أصحابها وأهلوها ليصبحوا لاجئين مشردين ، ودون ذلك يذهب حلم الحليم وعقل الرشيد :

وقالوا قد جننت ، فقلت : كلا ... وربى ما جننت ، ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكدت أبكى أقضى ... من الظلم المبين ، وما بكيت
فإن المـاء ماء أبى وجـدى ... وبئرى ذو حفرت وذو طويت!

وإنه لا يجوز أن نترك أجزاء من وطننا الكبير فى عمان والجنوب العربى لتظل حتى اليوم ملطخة بأقذار المحتلين الذين أذاقونا بالأمس ألوان العذاب عشرات السنين ، ولا يجوز أن نجعل أى جزء من أرضنا مناطق نفوذ أجنبى أو أماكن لقواعد دخيلة تشعرنا بتبعيتنا لغيرنا أو تستغل يوماً لإشعال الحرب فى ديارنا ، ونحن دعاة أمن وسلام ، مع كوننا مجاهدين أولا وقبل كل شىء لاسترداد حقوقنا وتحرير أوطاننا والتخلص من أعدائنا ، والله يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » والرسول يقول : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الدنيا ترى ، وإن التاريخ يسجل ، وإن الموقف مشهود مجموع له الناس ، والمؤمنون عند شروطهم ، والله العلى الأعلى قد دعا إلى الكفاح المشترك الذى يتكتل له الجميع ، ويترابط فيه الجميع ، فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ونرجو أن نكون

من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم » .

هذه هى الكلمة التى أرسلتها عبر الأثير وعفو الخاطر ، أرصدها هنا كما رصدتها هناك أشرطة التليفزيون ، سائلا الله رب الأرباب ، ومهيئ الأسباب ، وقادر المقادير ، ومالك الأمور ، أن يأخذ بنواصى الأمة قادة وشعباً إلى ما يرضيه ، ويعلى كلمته ، ويعز ملته ، ويسيد عباده ، إنه أفضل مأمول وأكرم مسئول .

أهداف الثورة[1]

الحمد لله ، يفيض الخير بلا تعويق أو إبطاء ، ويسحق ظلمات القنوط بأنوار الرجاء « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ارتضيت الإسلام لنا ديناً ، وجعلت الثقة بك شرعة ويقينا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أصلح وهذب ، وعلم وأدب ، فكان رحمة الله للعالمين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وأتباعه الهداة الفاتحين ؛ أولئك لهم عقبى الدار . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يشهد المجتمع الآن آثار ثورة مباركة ، يرجو كل مخلص لله والوطن أن يصاحبها التوفيق والرشاد ، وأن تتم بها النعمة على البلاد والعباد ، وأكاد أعتقد أن أهداف هذه الحركة الميمونة يجب أن تكون ثلاثة أهداف هى التحرير والتطهير والتعمير ؛ ويجب أن تتم الأهداف بهذا الترتيب ، فنبدأ أولا بتحرير وادينا من الاستعبادين الداخلى والخارجى ، ونحطم الأغلال والقيود التى أحاطت بأعناقنا وأيدينا خلال الظلمات ، ونعصف بكل متأله أو جبار يريد أن يستعلى بين الناس ، أو يعيث فى الأرض فساداً ؛ لأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، فيجب ألا يتحكم مخلوق فى غيره ، أو يسلبه شيئاً من حريته ، ولذلك استنكر عمر عدوان وال من ولاته بهيبة سلطانه على فرد ضعيف أعزل فقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . . .

---

(١) ١٣ المحرم سنة ١٣٧٢ هـ — ٣ اكتوبر سنة ١٩٥٢ م .

وبعد التحرير يكون التطهير . . . يكون التنظيف والاغتسال ، تكون إزالة الفضلات وإحراق القمامات ، فنطهر الديار من آثار المجرمين ، وننظفها من أوساخ المفسدين ، ونزيل عنها البقايا العفنة المنتنة التى خلقتها عهود السافلين ، حتى لا تظل هذه البقايا كالجراثيم الخبيثة التى تتوالد وتتضاعف وتتكاثر ، فيتكاثر بها البلاء ويعم منها الشقاء ؛ والطبيب حين يفتح « الدمل » المليء بالقيح يسارع بعد فتحه إلى تنظيفه وتطهيره وتصفيته مما فيه من حديد قذر أو دم فاسد . . .

ثم يبدأ التعمير بعد التطهير ، يبدأ البناء بعد الهدم ، يبدأ التشييد بعد التحطيم . . . كنت تشكو من بناء مختل وبيل فهدمته ، وكنت تخشى وتخاف من حطام ذلك البناء فتخلصت من آثاره ، فليس من الحكمة أن تترك الساحة بعد ذلك بلقعاً جرداء ، بل أقبل وأكمل واجبك ، وشيد من البنيان ما يكون خير شاهد على أنك تبغى الصلاح والإصلاح . . .

وكذلك فعل حكيم الإنسانية ورحمة البشرية محمد صلوات الله عليه ، فقد حرر المسلمين أولا من الشرك والكفران ، ومن الأصنام والأوثان ، ثم طهرها من الضلالات والغوايات ، ونظفهم من الأهواء والشهوات ، ثم أخذ يبنى الفحول من الرجال ، ويتمم العظائم من الأعمال ، حتى أرسى لدين الله القواعد والأركان ، وترك الناس على محجة السعادة بلا زيغ أو بهتان ، وقيل الحمد لله رب العالمين . . .

وهناك أمر آخر له خطورته وجلاله ، ذلك أن الدولة قد أخذت بهمة رجالها وقادتها تنفيذ أدوار الثورة الثلاثة ، ولا يمكن أن تكمل النتائج المأمولة من ذلك التنفيذ لو بقى الشعب واقفاً موقف المتفرج ، أو موقف المتهرب من كل مسئولية أو تبعة ، ويلقى جميع الأحمال والأثقال على كاهل الدولة ،

مع أن الدولة محدودة القدرة والطاقة مهما قويت سواعدها واشتدت سواندها .
وإذن فيجب علينا نحن الأفراد أن نقوم أيضاً بثورة فردية فى نفوسنا أو أشخاصنا ، وأن يبدأ كل واحد منا مع نفسه عمليات التحرير والتطهير والتعمير . . . فليحرر كل منا نفسه من الجهالات والضلالات ، ومن سيئ الطبائع والعادات ، ومن التزلف الرخيص كباطل الرياسات ، ومن الرضا بالمذلة والهوان ؛ وليطهر كل منا عقله وقلبه وروحه من النزغات والأوهام ومن أفكار الشر ورغبات السوء ، وليعمر نفسه بعد ذلك بكل صالح يعود عليه بالنفع فى خلقه أو عقله أو جسمه « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن ثورة اليوم ثورتكم أنتم فهى منكم ولكم أجمعين ، وإن يكن قد قام بها بعضكم ، فالبعض بالبعض اكتفى ، وواجبكم أن تفنوا فى هذه الثورة وأن تعملوا لها ، وأن تحرصوا عليها وتراقبوها ، وأن ترعوها حق رعايتها حتى تظل على صراطها وطريقتها ، ولو أدى كل فرد واجبه لوجدت الثورة الجنود المخلصين ، والقادة الموجهين ، والحكماء الناصحين ، والرقباء المحذرين وبذلك نبلغ الأرب وننأى عن العطب ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مؤتمر عدم الانحياز[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الحق الداعى إلى الحق الناصر لأهله : « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز المؤمنين بفضله ، ويذل الفاسقين بعدله ، « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، رسم طريق الجهاد من أجل الخير والحق والعدل فكان إمام المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره ، والمهتمين لأعماله وأقواله وآثاره : « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : . . .

فى القاهرة : مفتاح أفريقيا ، ومعبر آسيا ، وملتقى حضارات الشرق والغرب ، والبلد الذى تلقّى مواريث العروبة والإسلام ، انعقد مؤتمر الدول غير المنحازة ، حيث اجتمع رؤساء ما يقرب من ستين دولة ، لبحث قضايا العالم ومشكلات الإنسانية ، ولرسم الطريق نحو عالم أفضل وحياة أكرم ؛ فكان هذا الاجتماع حدثاً من أحداث العصر التى يجب أن يقف أمامها المؤمن متفكراً متدبراً ، متلمساً صادق الحكم على هذا العمل فى ضوء ما يؤمن به من ملة ودين ، وما ينطوى عليه صدره من عقيدة ويقين ؛ وينبغى أن نلاحظ أولا أن معظم الدول التى تكون هذا المؤتمر دول من آسيا وأفريقيا ، وهذا يذكرنا بوثيق الصلة القديمة القائمة على المبادئ الأخلاقية والقيم الروحية بين آسيا وأفريقيا ، ففى سهول آسيا ووديانها تنزل الوحى الإلهى على الناس خيراً وبركة وهداية ، وانبثقت الرسالات السماوية على أيدى الأنبياء والمرسلين تقود العالمين إلى الحق والعدل والخير ، وكانت

---

[1] (١) ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ — ٩ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م .

إفريقيا هى أولى القارات التى تتسلم من آسيا أضواء هذه الرسالات لتهتدى بها وتستنير ، وتأخذ عنها المواريث الدينية والأخلاقية لتجعلها دوافع خير وحوافز إصلاح ، وهذه هى الجزيرة العربية ، وهى قلب آسيا — ما كاد الإسلام يعمها ويعمرها ، حتى دقت الباب برفق على مصر مفتاح أفريقيا : تسألها أن تنال مما نالت ، وأن تهتدى بما اهتدت ، وما أسرع استجابة مصر إلى هذا النداء الربانى السامى ، ومن وراء مصر فتحت أفريقيا صدرها لدعوة الحق ، فتوثق الاتصال بين آسيا وأفريقيا روحياً وحسياً ، فلا عجب إذا رأيناهما اليوم فى مجالات العمل السياسى والجهد الإنسانى يقدمان موصول الخدمات لأبنائهما من جهة ، وللبشرية الحائرة من جهة أخرى .

ولقد كان من الأهداف الأساسية التى نادى بها المؤتمر أن الاستعمار بجميع صوره وأشكاله يجب أن يرحل عن الدنيا ويزول من العالم ، وهذا هدف يباركه الدين ويدعو إليه الإيمان ، لأن الاستعمار هوان لا يليق بكرامة الإنسان خليفة الله فى الأرض ، ولأن العالم البصير لم يعد يطيق أن يستعبد شعب شعباً ، أو يستبد إنسان بإنسان ؛ وقديماً قال الإمام على : « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً » كما قال عمر بن الخطاب فى التنويه بالحرية والعزة ، والأنفة من الاستعباد والذل : « يعجبنى من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول : لا ، بملء فيه » ! . وكذلك من الأهداف الرئيسية للمؤتمر الدعوة إلى السلام ، ليعيش الناس فى أمن واطمئنان ؛ والإسلام العظيم كان سباقاً ومبرزاً فى الدعوة إلى السلام بكل وسيلة وكل أسلوب ، وحسبنا أن نعلم أن الله تعالى جعل من سمائه اسم « السلام » ، وتحية الإسلام الدائمة هى « السلام عليكم » ، وختام الصلاة التى تتكرر خمس مرات كل يوم هو : « السلام عليكم » ، والجنة التى وعد الله عباده بها المتقين يسميها القرآن دار السلام ، فيقول : « والله يدعو إلى دار السلام » . كما أن الله

تعالى يوجه القلوب والعزائم إلى السـلام العام فيقول : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » ويقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . والرسول عليه الصلاة والسلام يذكر صفات أساسية للمؤمن ويجعل من بينها قوله : « وبذل السلام للعالم » وهذا ما نعبر عنه الآن بقولنا : « السلام العالمى » أو « سلام العالم » .

ومن الأهداف الأساسية كذلك المناداة بوجوب القضاء على الفوارق البشعة بين مستويات الحياة للشعوب المتخلفة والشعوب المتقدمة ، والله الحاكم العادل لا تقبل شريعته أبداً — وهى شريعة الحق والعدل — أن تنقسم الكرة الأرضية إلى شبه قسمين : الأول منها يفوز أهله بالخيرات والنعيم والتخمة ، والقسم الآخر يبوء بالفقر والجوع والحرمان ، وخاصة إذا تذكرنا أن القسم الأول — وهو الغرب — قد ظل مئات من السنين وهو يقوم بدور اللص اللئيم الماكر الذى يمتص خيرات القسم الآخر وهو الشرق تحت ستار الاستعمار والاحتلال . والله سبحانه وتعالى يقول للبشرية : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » فينبغى ألا تكون الخيرات الكونية حكراً موقوفاً على الظلمة الطغاة ، وشيئاً محرماً على المستضعفين فى الأرض ، مع أن هؤلاء المستضعفين هم الذين بذلوا العرق والدمع والدم فى استنباط هذه الخيرات وتكوينها ، والعدالة الإنسانية لا ترضى هذا بحال من الأحوال ، والله تعالى يقول فى وجوب تحقيق العدالة بين البشر : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وينبغى أن نلاحظ هنا أن القرآن قد قال : « وإذا حكمتم بين الناس » ولم يقل : وإذا حكمتم بين المسلمين أو بين المؤمنين فقط ، ومفهوم هذا أن كتاب الله تعالى ينادى

بنشر العدالة بين الناس جميعاً بلا تفرقة أو تمييز ، بل إن الإسلام يأمر بأن يعدل الإنسان حتى مع خصومه وأعدائه ، فلا تدعوه الخصومة إلى أن يظلمهم فى شىء ، فيقول القرآن : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ! .

ولقد كان لفلسطين المغتصبة بليل الدناءة والخيانة نصيب ملحوظ فى المؤتمر ، وإذا نظرنا إلى فلسطين فى ضوء العقيدة والدين وجدناها ذات مقام مكين ، فهى أولا مولد عيسى عليه السلام ، وهى فى نظر الإسلام أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وفى عاصمتها القدس كان ختام رحلة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، ومنها كانت بداية رحلة إلى السماء فى المعراج ، وفيها المسجد الأقصى الذى يقول فيه القرآن : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . وقد جعل الرسول المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة التى يأتى على قمة بيوت الله المشرفة فى الأرض فقال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . ولقد جاء فى حديث الرسول ما يشير إلى أن المؤمنين سيقاتلون اليهود الباغين حتى إن الحجر يرشد المؤمن عمن يختبئ خلفه من اليهود ، وكأن هذا إثارة لعوامل الأمل وحوافز الإقدام ، حتى لا يرضى المسلمون بالدنية فى دينهم ، بل يحققون قول ربهم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنما دار الحديث على هذا الوجه لنقدر الأحداث قدرها ، ولنميز بين

الخير والشر ، والطيب والخبيث ، ولنزداد إيماناً بأن ديننا العظيم قد سبق فنوه بكل مبدأ من مبادئ الحق ، وكل قيمة من قيم الخير ، ولذلك كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الرائد والإمام ، والهادى إلى طرق الخير وسبل السلام وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

بناء السد[١]

الحمد لله عز وجل ، هو بديع السموات والأرض ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . أشهد أن لا إله إلا الله ، سخر للإنسان الحيوان والنبات ، والماء والهواء والأرض والسماء : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله مهد وعبد ، وبنى وشيد ، فكان خير المصلحين وإمام المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ذوى التقى ، وأصحابه أولى النهى ، وأتباعه الداعين إلى الهدى : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تشهد بلادنا فى وسط هذا الأسبوع حدثاً عمرانياً كبيراً له قيمته ومكانته ، ذلك هو البدء فى بناء السد العالى الذى قرر الخبراء أنه أكبر سد فى العالم ، وأنه سيتحول بواسطته مليون فدان من صحراء إلى أرض زراعية خصبة ، وستخرج منه قوات كهربائية هائلة ، ولقد وقف العالم يشهد كيف نخطو خطوة عملية واسعة نحو البناء والتعمير ، وكيف نحسن ما ساق الله إلينا من نعم وسخر فى وادينا من خيرات ، وكيف نحاول التحكم فى ماء هذا النهر الكبير المبارك نهر النيل ، الذى وصفه الحديث النبوى بأنه من أنهار الجنة ، وبأنه نهر مؤمن ، ولقد سمعنا كلمة الدولة فى هذا العمل ، فلنسمع عنه كلمة الدين ، فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ، وما أجمل التقاء كلمة الوطنية مع كلمة العقيدة ، وإذا كانت وجهة الحياة هى وجهة الإيمان فقد

---

(١) ١٦ رجب سنة ١٣٧٩ هـ — ١٥ يناير سنة ١٩٦٠ م .

تم استواء الطريق واستقامة الصراط : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

إن السد فى أقل عبارة : بناء يحفظ الماء ، وإذا أدركنا مكانة البناء والماء فى الإسلام عرفنا قيمة هذا العمل الجليل ، فالإسلام الذى جاء لإصلاح العالم وتعمير خرابه ، والإجهاز على عوامل الفساد والدمار فيه ، وتقوية عوامل الصلاح والإصلاح فى نواحيه ، يحثنا حثاً قوياً على بناء كل مفيد ، وتشييد كل نافع ، ويلفتنا إلى أن الهباء العديم الفائدة لا يبقى ، وأن الشيء المثمر المنتج هو الجدير بالبقاء « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ؛ ويشجع الإسلام كل عمل يؤدى إلى بناء أو تعمير ما دام القصد من ذلك إسعاد الأفراد أو الجماعات ، وما دام ذلك لا يستغل فى جبروت أو طغيان ، ولذلك أنكر القرآن على الذين يسرفون فى البناء للتكبر والتجبر ، فقال : «أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين » . ولقد نوه القرآن الكريم تنويه التقدير والتمجيد بلون من ألوان البناء الضخم ، فحدثنا عن ذى القرنين الذى أحب الله فأحبه ، ووطأ له فى الأرض ، وأتاه من كل شيء سبباً عن طريق العلم والصلاح ، وقد كان رجلا من أهل مصر كما كرر الإمام ابن جرير الطبرى ذكر ذلك وحدثنا القرآن عن السد الهائل الذى بناه ذو القرنين ليحول به دون المفاسد والفظائع التى يرتكبها يأجوج ومأجوج فى الأرض ، وقد طلب ذو القرنين من القوم أن يعينوه بما يستطيعون من قوة ليتمكن من ذلك ، واستعان بقطع الحديد والنحاس المذاب حتى أقامه وبناه ؛ وإذا كان ذو القرنين قد بنى السد ليحول دون المظالم والمآثم فنحن يجب أن نبنى السد ليكون رعاية ووقاية ، رعاية

للشعب الذى نوفر له الغذاء والكساء، ووقاية للأمة من مصائب التحكم الأجنبى والاستغلال الاقتصادى ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . .

وكذلك أعطى الإسلام عناية كبرى للماء ، فتكرر ذكره فى القرآن أكثر من ستين مرة، وحسبنا فى جلال شأن الماء فى نظر الإسلام أن نجد القرآن القرآن يقول : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ويقول : « والله خلق كل دابة من ماء » ويقول : « ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » ويقول : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . وحينما ندرك أن الماء هو سبب الزرع والنبات نتذكر قول الرسول : « إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة [نخيلة صغيرة] فليغرسها » . وليس وراء ذلك تحريض على استنبات الزرع واستخصاب الأرض وزراعة البور ، والإنسان حينما يغرس غرساً يلاحظ ما يحتاج إليه هذا الغرس لينمو ويزكو ، فلا بد أن يوفر له الماء والسماد ووجوه الرعاية الأخرى ، فكأننا مأمورون شرعاً بأن نزرع كل ما نستطيع زرعه مما حولنا من أرض ، وأن نهيئ لهذه الزروع ما تحتاج إليه من ماء وغيره ، وهذا هو الهدف الأساسى من بناء السد العالى ؛ وإنه لمن أشد الأمور على نفس الغيور أن تشهد عينه هذا المقدار الكبير الهائل من ماء النيل العذب المخصب وهو يتدفق غزيراً حتى يبتلعه البحر الأبيض المتوسط ، فيذهب هباء ويضيع هدراً ، ولقد كان تضييع هذه الكميات الغزيرة الوفيرة من ماء النيل تقصيراً معيباً ، وتضييعاً للنعمة الإلهية الكبرى ، والحمد لله أن هدنا سواء السبيل فشرعنا نتخذ ما نطيق من الوسائل للاحتفاظ بهذه الكميات لنعيد وادينا كما كان جنة من جنات الله فى أرضه ، فحينما وجه

الإمام على بن أبى طالب محمد بن بكر الصديق — إلى مصر — قال له : « إنى وجهتك إلى فردوس الدنيا » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : « من أراد أن يذكر جنة الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا ، فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها[1] » . . .

ثم إن هذا السد الذى نبنيه بسواعدنا وجهودنا ، وأعصابنا وعرقنا ليس سداً مادياً مكوناً من صخور وفجوات فقط ، ولكنه فى الحقيقة يصور سداً معنوياً آخر له عظمته وخطورته ، ذلك السد المعنوى هو سد المقاومة للأجنبى ، والتأبى على الذل ، والوقوف فى وجه الضعف ، والثورة على العوز والحاجة ؛ إنه يرمز إلى سد من العزائم المصممة والهمم الثابتة ، فطالما قيل عنا إننا لا نصلح للحياة الجادة العاملة ، ولا نثبت فى ميدان الأعمال الكبيرة ، وطالما قيل لنا إننا فى حاجة إلى وصاية من هو أكبر منا ، وإلى رعاية من هو أغنى منا ، ولكن الأمة العربية المؤمنة قد كفرت بهذه الأراجيف ، وثارت على تلك الأباطيل ، وشرعت تحقيق شخصيتها وتثبت وجودها ، وسيكون الله معها ما دامت معه مخلصة مصممة ، لأن الله ولى العاملين وناصر المؤمنين ، ونرجو أن يكون هذا السد بعون الله وتوفيقه سداً حائلا دون الفقر والبطالة ، والكسل ، ونحن لا نسمو ولا نعلو بغير العمل والاحتراف ، وهذا هو هدى الإسلام ، فالرسول يقول : « إن الله يحب العبد المحترف » وعمر يقول : « إنى لأرى الرجل فيعجبنى ، فإذا سألت عنه فقيل : لا حرفة له ، سقط من عينى » ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن هذا مقام يجل عن كلمة الباطل ، ولا يجمل به غير قولة الصدق ،

---

(١) انظر كتاب « النيل فى ضوء القرآن » ص ٧٩ و ٨٥ .

وإن الله جل جلاله الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل ، يبارك برعايته وعنايته العمل الضخم الكبير الذى يراد به خير الناس ، وأفضل الخلق أنفعهم لعباد الخالق ، وأفضل الأعمال مادام ثمره واتصل خيره ، ونحن نرجو الله من طوايا الضمائر وأعماق النفوس أن يجعل الخطوة الكبرى الذى خطوناها سعياً مباركاً حميداً نحو الخير والبر ، وتقرباً مجيداً من مواطن نعمة الله ورضاه ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . واتقو الله الذى أنتم به مؤمنون .

قضية الكونغو[١]

الحمد لله عز وجل ، خلق الناس من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو مصدر الحول والطول : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، زكى الإنسانية وحرر البشرية ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن المسلم يجب عليه أن يعيش يقظاً واعياً ، يحس بالحياة من حوله ، ويشعر بالدنيا التى يحيا فيها ، ويتفاعل مع الأحداث التى تمر به ، ويرعى على الدوام واجبه نحو نفسه ووطنه ومجتمعه والإنسانية التى ينتسب إليها ، لينال بذلك رضا ربه ويستحق خلافته فى أرضه ، والإنسانية الحرة تتعرض الآن لمحنة تتمثل فى مشكلة « الكونغو » التى تستحوذ اليوم على اهتمام الناس فى الشرق والغرب ، والكونغو هى قلب أفريقيا ، وأفريقيا هى قارتنا العذراء التى نعيش على بابها ، فبلادنا مفتاحها وغرتها ، وأفريقيا هى التى فتحت صدرها مسارعة لدعوة الإسلام الحنيف ، بعد أن انبعثت هذه الدعوة من جوف الجزيرة ، وانبثقت فى ربوع آسيا ، فلم تمض إلا عشرات قليلة من السنين على ظهور الإسلام حتى رأينا الملايين من أبناء أفريقيا فى شمالها

---

(١) ١٩ صفر سنة ١٣٨٠ هـ — ١٢ اغسطس سنة ١٩٦٠ م .

وجنوبها يسارعون إلى الإسلام ، وإذا مصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش وغيرها تصبح بلاداً إسلامية ، يتلى فيها القرآن ، ويتردد الأذان ، ويتكرر دعاء المصلين ، ويدوى زجل المسبحين ، وتعلو الكلمة التى يجب أن لا تعلو سواها ، كلمة : لا إله إلا الله ، لأنه ليس فوق جاهه جاه : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

وإذا راجعنا تاريخ الاستعمار الأوربى الغاشم وجدنا أنه قد استوفى خطته أولا فى آسيا ، فظل عشرات طويلة من السنين يفعل أفاعيله الإجرامية فى البلاد العربية الآسيوية وفى الهند وأندونيسيا وغيرها من بلاد آسيا ، ثم انطلقت صيحات التحرير مدوية تقلق جنوب المستعمرين وتزلزل قواعدهم ، ونجح الأحرار فى جهادهم بعد طول نضال ، فأخرجوا الاستعمار اللئيم الخبيث الخسيس كارها مرغماً من آسـيا ، ورحل عنها مذءوماً مدحوراً ، ولكن الاستعمار كان يعرف هذه النتيجة من قبل ، فأعد للأمر عدته ، وشرع قبل خروجه من آسيا بزمن طويل يتخذ من أفريقيا حصناً استعمارياً ثانياً له ، ولذلك رأينا إنجلترا وفرنسا ــ وهما أطغى الدول الاستعمارية وأشدهما نكاية فى الشرق والغرب والمسلمين ــ يطوقان أفريقيا بحزام استعمارى رهيب ، فتأخذ إنجلترا مستعمراتها على امتداد جانب القارة الشرقى ، وتأخذ فرنسا مستعمراتها على امتداد الجانب الغربى ، ويتوغل الاستعمار الأوربى الوقح داخل القارة ، فيقسمها كأنها تركة أبيه ، لعنة الله عليه وعلى أبيه من قبل ، ولم يكتف هؤلاء باحتلال الأماكن فى أفريقيا وامتصاص ثرواتها وإذلال أهلها ، بل عملوا على احتلال العقول والأرواح بالحملات التبشيرية الدينية التى نظموها ليخرجوا سكان أفريقيا من عقائدهم ، ويضموهم إلى عقيدة الرجل الأبيض المستعمر ، وقد أساءوا استغلال هذا التبشير الدينى كما أساءوا واستغلال

المسيحية لخدمة أغراضهم الخسيسة، وجعلوا من هذا الاستغلال التبشيرى السافر والمقنع حائلا وقف ومازال يقف أمام انتشار الإسلام ، وهو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والإسلام دين عالمى يوجب على أبنائه مناصرة الكرامة البشرية والعدالة الإنسانية فى كل مكان ، ومقاومة الطغيان الغاشم أينما كان ، وهذه هى « الكونغو » وهى دولة أفريقية تمثل حبة الفؤاد أو مركز الدائرة فى القارة السمراء ، وقد استطاعت بعد كفاح ونضال أن تنال استقلالها، وتتخلص من الاستعمار البلجيكى ولكن الاستعمار لا يريد أن يرحل منها بسهولة ، ولا يريد أن يترك المستعمرة قبل أن يدق فيها مسامير مؤامراته ، فإذا هو يصطنع من يثير فى الكونغو روح التفرق والتمزق، فيشق عصا الطاعة ويتمرد على موطنه وأمته ، حتى يجد الاستعمار مجالا للاصطياد فى الماء العكر ، ومازال دستور الاستعمار اللئيم هو « فرق تسد » ، وسيادة المستعمر هنا معناها الاحتلال والإذلال والاستغلال وسوء المآل ، لأن الكونغو تنتج نصف ما ينتجه العالم من معدن « اليورانيوم » وفى مقاطعة « كاتانجا » معادن تلزم فى صناعة القنبلة الذرية ، ولعل هذا هو السر فى حرص الاستعمار الأوربى على البقاء فى هذه البلاد ، وفوق هذا هم يريدون أن يجعلوا من أفريقيا ميدان الحرب المتوقعة بين الكتلتين الشرقية والغربية، لنكون نحن الأفريقيين حطب هذه الحرب، ووقود هذه النار ، ألا لعنة الله على هؤلاء وهؤلاء . . .

وقد يقول قائل : ولماذا نشغل أنفسنا بقضية كهذه القضية ؟ وهل يدعونا إلى ذلك خالقنا وعقيدتنا ومبادئنا ؟ ونجيب : نعم ، فإن المسلم يجب أن يهتم لكل قضية من قضايا العدالة والحرية ، والمسلم يتم إسلامه ويستقيم حين يحقق

قلبه بخفقات المشاركة الوجدانية لكل مظلوم أومهضوم أو مأزوم ، وإنما كانت حروب الإسلام فى الشرق والغرب تحقيقاً للحرية الإنسانية ، وتخليصاً للشعوب من طواغيتها ، فحرر الإسلام الفرس من طغيان الأكاسرة ، وحرر الروم من طغيان القياصرة ، وحرر الشام ومصر وشمال أفريقية من استعباد الرومان واستعمارهم ، وحينما قال عمر بن الخطاب كلمته الماجدة الخالدة الباقية على مر الزمن : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » كان يريد باسم الإسلام ألا يبغى أحد من الناس على أحد من الناس كائناً من كان ، وكلمة « الناس » هنا تشمل جميع الأجناس ، والإسلام يحمل حملته الشديدة الوطأة على البغى والظلم ، فيقول القرآن : « ولا تبغ الفساد فى الأرض » ويقول الرسول : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ويقول : « من أخذ من الأرض شيئاً بغير حق خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » ، ويجعل الإسلام مقاومة البغى والاعتداء جهاداً ، والموت فى هذه المقاومة شهادة ، وقد قال رجل للنبى : يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى . قال : لا تعطه مالك . قال : أريت إن قاتلنى . قال : قاتله . قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد ، قال : أرأيت إن قتلته . قال : هو فى النار .

ثم إن ما يصيب « الكونغو » اليوم من مؤامرات الاستعمار ودسائس الاحتلال إذا تركناه بلا معارضة أو مقاومة يصيبنا غداً مثله ، ولا نجد عند ذلك من يمد يد المعاونة أو المعاضدة ، ولذلك كان من واجب الذين يحرصون على كرامة الإنسان وحرية البشر أن يتلاقوا دائماً فى الملمات والشدائد ليتساندوا ويتكاتفوا ، لا يريدون بذلك علواً فى الأرض ولا فساداً ، بل يحققون عدالة وإصلاحاً « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » والرسول يقرر مبدأ المعاونة الإنسانية السامية ويباركها بقوله : « خير الناس أنفعهم للناس » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن قضايا الحق تشق طريقها المحفوف بالأشواك والمصاعب ، ولكنه طريق مأمون ، سيتكشف بعد قليل عن سلامة واستقامة والذين يستمسكون بالحق ويدافعون عنه هم المنصورون اليوم أو غداً ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

مؤتمر شباب آسيا وأفريقيا [1]

الحمد لله عز وجل ، أعز من اهتدى بهداه ، وأسعد من التجأ إلى حماه : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا الخلائق إلى رحابه ، وحثهم على التمسك بأسبابه : « واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ، وموحد الكلمة ، وجامع الأمة ، فعليه الصلاة والصلام ، وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأعلام ، وأتباعه المهتدين بسنته ، القائمين بدعوته : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشهد فى هذه الأيام كيف التقى فى ديارنا مئات من شباب آسيا وأفريقيا فى مؤتمر كبير ضخم ، انبسطت أيدى الإنفاق عليه واتسعت مجالات العناية به ، ولا شك أن الشباب هم معقد الأمل وموطن الرجاء ، وأغلب الأعمال العظيمة التى تمت فى التاريخ قد تمت على أيدى الشباب ، ودعوة الإسلام فى صدرها قد انتشرت على أيدى فتية آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى وآتاهم تقواهم ولقد جاء فى الأثر : « ريح الجنة فى الشباب » . ونحن نتذكر هنا أنه من ساحة آسيا ورمالها وصحرائها انبعث صوت الداعى الذى هدى إلى طريق الله وإلى سواء السبيل . وكانت أفريقيا أسرع القارات استجابة لدعوة الإسلام . ففى ربوعها انتشرت أضواء هذه الدعوة ، بعد أن أسلمت الجزيرة ، ودخل أهلها فى دين الله أفواجا ؛ وإذا كانت آسيا هى منبت النبوات ومهبط الرسالات فإن أفريقيا هى التى أنبتت موسى . واستقبلت عيسى ، واعتز فيها يوسف ، وانتشرت فيها دعــوة محمد عليهم الصــلاة والســلام .

---

(١) ٢٧ رجب سنة ١٣٣٨ هـ — ٦ فبراير سنة ١٩٥٩ م .

وهكذا انبسطت الدعوة الإلهية الســامية من السهول المترامية إلى الغابات المتكاثفة ، ومن الجبال الشامخة إلى الأنهار المتفجرة ، ومن شعاب الصحراء إلى رحاب الأودية والحقول ؛ ومن هاتين القارتين انبعثت خلال عصور التاريخ دعوات الخير والبر ، ونسمات الرحمة والسلام ، وهما مع ذلك أكبر بقعة من الأرض فيها طاقات مادية ، وفيها مناجم كبيرة لمختلف المعادن مما استغله الناس ومما لم يستغلوه بعد ، وفيها من النعم الإلهية . والإمكانيات الطبيعية والمواهب الذاتية ما يمكن معه لأبنائها أن يعيشوا فى جو من التكافل الكامل والاكتفاء الذاتى العام . . .

ولكننا رأينا من أمر هاتين القارتين فيما مضى عجباً ، إن نصف العالم الموجود فى هاتين القارتين ظل مستضعفاً مستعبداً خلال عشرات وعشرات من السنين ، والنصف الآخر فى الغرب هو الذى ظل طاغياً متجبراً طيلة هذه السنين ، وكل السيئات والمنكرات التى تقع من الأفراد المنحرفين المجرمين قد اقترفتها دول البغى والعدوان بصور جماعية واسعة النطاق ، فاغتصبت أرض الدول الضعيفة كما يغتصب قاطع الطريق مال الضعيف أو حق الأعزل واستخدم الطغاة هذه الدول الصغيرة وسخروها تسخير الأرقاء وامتصوا خيراتها وأفسدوا كل معنى كريم من معانيها بلا تورع أو استحياء ؛ واليوم جاء دور الخلاص وساعة التحرير وتقرير المصير ، لاستقبال حياة الكرامة والقوة والاستلاء ، والطريق إلى ذلك هو التقاء أبناء القارتين مؤمنين مخلصين على كلمة التضامن والتعاون ، والتجمع والاتحاد ، والرجل العربى القديم قد لحظ هذا حينما جمع أبناءه وهو على فراش مرضه ، وأعطى كلامنهم حزمة من الأعواد ليكسرها ، فلم يستطع ذلك لتجمعها ، ففرق الرجل الحزمة عوداً عوداً ، فكسر كل ابن عوده ، فقال الوالد لأولاده واعظاً ومؤدباً :

كونوا جميعاً يابنى إذا اعترى خطب ، ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا   وإذا افترقن تكسرت آحادا

ومن الواضح الظاهر أن هذا قبس مستمد من قول الحق جل جلاله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وقول الرسول : « الجماعة بركة والفرقة عذاب » وقوله : « يد الله مع الجماعة » وفى رواية « يد الله على الجماعة» وقوله : « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط » أى الجماعة . وهذا معناه أن الإسلام منبع ثراء بالحكمة ، وكنز فياض بالهدى والصواب . . .

ومما يلاحظ أن هذا المؤتمر يعقد فى عاصمة الجمهورية العربية المتحدة وهى البلد الممتاز بطبيعته وجغرافيته ومواريثه الروحية وطاقاته المادية والأدبية التى يستطيع بها أن يوجه ويقود ، ونصف هـذه الجمهورية وهو مصر واقع فى أفريقيا ، ونصفها الآخر وهو سوريا واقع فى آسيا ، فكأنها همزة وصل بين القارتين ، ولمصر وسوريا فى عصر الإسلام تاريخ وأى تاريخ ، فنحن نراهما تقودان وتسودان كلما اعتزتا بكلمة الله، واهتديتا بهديه ، وسارتا على طريقه ، وكما استطاعتا فى الماضى أن يتنقلا فى خدمة الحرية الإنسانية والكرامة البشرية تحت لواء الإسلام من نصر إلى نصر ، ومن فخر إلى فخر ، تستطيعان اليوم باسم هذا الإسلام العالمى المصلح المنصف أن تتجها بهذه الجموع إلى وجهة الأخوة الإنسانية المثلى التى أشار إليها القرآن بقوله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

ومما يستحق التنويه أن المؤتمر قد اختص قضيتى فلسطين والجزائر بمزيد من العناية والرعاية ، لأنهما مسبار الامتحان ومحك الاختبار ، فإن نكبة فلسطين ليس وراءها نكبة ، والمعركة الطاحنة الدائرة الآن فى رحاب الجزائر وشعابها امتحان جديد للمسلمين والعرب ، فإن نجحوا فيه وفازوا فقد مهدوا

الطريق للقضاء على الاحتلال الفرنسى فى الجزائر ، والاحتلال الصهيونى فى فلسطين ، والاحتلال الإنجليزى فى عدن والمحميات ، وبقية ألوان الاحتلال الأجنبى فى أجزاء من آسيا وأجزاء من أفريقيا ، وفتحوا الباب الموصل لاستعادة فلسطين ، ولقد هتف أعضاء المؤتمر فى عزيمة وقوة : « إننا عائدون يا فلسطين ، إننا عائدون » ومعنى هذا الهتاف أن الحق السليب يجب أن يعود إلى أهله ، وأن المشردين فى الأرض يجب أن يعودوا إلى وطنهم وديارهم ، وأن قضية فلسطين يجب أن تهز ضمير العالم الذى يغط فى نومه ، لكى يمسح أسوأ صفحة سجلتها يد الإجرام والطغيان ، وقد قرر المؤتمر تخصيص أسبوع لفلسطين فى كل دولة من دول آسيا وأفريقيا ، ومن محاسن الاتفاق أن يتخذ هذا القرار فى يوم ذكرى الإسراء والمعراج ، وهى الذكرى العظيمة الكريمة التى مرت علينا بالأمس ، فذكرتنا أن فلسطين الضائعة من أيدينا هى من صميم وطننا الإسلامى ، ففيها كانت خاتمة خطوات محمد على الأرض فى الإسراء ، وفيها كانت بداية صعوده إلى السماء فى المعراج ، ولن يستطيع مسلم فى الأرض أن ينسى فلسطين بلد المسجد الأقصى وكيف ينساها ، وقرآنه المجيد يتردد فى سمعه وخلده كل يوم قائلا : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ؟ ! . . .

ومن الواجب أن تمحى كلمة « إسرائيل » كما قيل فى المؤتمر ، لأنها الشوكة المسمومة الخبيثة التى تجدد فى الكيان العربى والإسلامى الجراح يوماً بعد يوم ، ولأنها هى التى شردت أبناء فلسطين ، وطغت على اسمها حتى أضاعته أو كادت ، ومما يفجر صخرى القلوب بالحزن والأسى ، والألم والشجى ، أن نسمع صـــوتاً فلسطينياً فى المؤتمر يخاطب أعضاءه قائلا :

اذكروا أيها الزملاء أن كل الوفود المجتمعة هنا ستعود إلى أوطانها بعد انتهاء المؤتمر ، ولكن وفد فلسطين لن يجد له وطنا يعود إليه ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لاشك أن لهذا المؤتمر قيمته وثمرته ، وقد تكون فيه ألوان من التوسع فى المظاهر والشكليات والاستعراضات ، ولكن الفكرة الأساسية فيه لها جلالها ومكانتها، ونحن نرجو أن يأخذ الله بنواصى المتلاقين فيه إلى طريق الهـــدى والحق ، وأن يوفقهم لكى يجعلوا الأقوال أعمالا ، ولكى يحولوا الرغبات إلى حقائق قائمات ، حتى لا نبقى ضمن الذين يقولون ولا يفعلون ، وما أقسى الحكم الإلهى على هؤلاء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

من أجل افريقية[1]

الحمد لله عز وجل ، حث على التعارف فى سبيل الحق والخير ، ودعا إلى التآلف لنصرة العدل والبر : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ». أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل يده مع الجماعة ، وأعز بتأييده أهل الاستجابة والطاعة ،والله ولى المؤمنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، فكر ودبر ، وجاهد وحرر ، فكان زعيم المصلحين وإمام المحررين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله، والمهتدين بأعماله وأقواله « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يجتمع اليوم فى رحاب القاهرة أقطاب أفريقية وزعماؤها ، ليتشاروا فى قضايا العالم بصفة عامة ، وفى قضايا أفريقية بصفة خاصة ، ومثل هذا الاجتماع صار أمراً ضرورياً وهاماً من مختلف الجهات والنواحى ، لأن هذه القارة الأفريقية أصبحت منذ حين مطمح الأنظار من الشرق والغرب ، وكانت موطن الأطماع من دهاقنة الاستعمار والاحتكار والامتصاص لدماء الأمم والشعوب ، كما أن هذه القارة تشهد الآن أعظم أعمال التحرر والانطلاق بعد أن طالت عليها ليالى الذل والهوان ، وأيام التخلف والتأخر ، ونحن كأمة مؤمنة بالله وشريعته يجب علينا أن نعنى عناية كبرى بشئون هذه القارة ، لأنها تعد المجال الفسيح لامتداد الإسلام الطبيعى خارج آسيا ، ولو استرجعنا تاريخنا لوجدنا أن أفريقية كانت القارة السباقة التى فتحت ذراعيها لكلمة الإيمان ودعوة الإسلام ، وما كادت أضواء الدعوة الإلهية تتنزل من حمى

---

(١) ١٢ المحرم سنة ١٣٨٢ هـ — ١٥ يونية سنة ١٩٦٢ م .

السماء متمثلة فى الوحى الكريم والتنزيل المجيد ، حتى رأينا هذه الأضواء تسرى فتقبس منها أفريقية ما تقبس ، وما هو إلا وقت قصير حتى افتتح الإسلام مصر ، ومصر هى باب أفريقية وعنقها ، وهى التى استقبلت الإسلام خير استقبال ، لأنه حررها وأنقذها وأحياها وأبقاها ، ومن مصر اتسعت الدعوة الإسلامية ، فشملت ربوعاً كثيرة فى أفريقية هنا وهناك ، ومازالت أفريقية إلى اليوم تعد مجالا فسيحاً لانتشار دعوة الله والاعتزاز بكلمة الله ، ومازالت جديرة بأن يخصها أبناء الإسلام بالمزيد من العناية والاهتمام . . .

ويحلو للسان دائماً أن يصف أفريقية هذه باسم « القارة العذراء » لأنها مازالت بكراً وما زالت عذراء فى كثير من طاقاتها الحسية والمعنوية ، فهى عذراء فى طبيعتها ، لأن يد الله العلى الكبير قد امتدت إليها فأمدتها بكثير من المظاهر الطبيعية التى تجعلها أقرب من غيرها إلى روح البساطة والطهارة والصفاء ، فهناك الأنهار والشلالات والمياه المتدفقة التى جعل الله منها كل شىء حى ، وهناك الأشجار والمزارع والغابات ، وهناك السهول والوديان ، والربوات والهضبات ، وهناك كثير غير هـــذا مما يذكر بالخالق الذى أبدع وصور ، فكان مجيد الإبداع والتصوير ؛ وهذه القارة عذراء فى عواطفها ومشاعرها ، فالكثير من أبنائها ما زالوا يعيشون بعواطف الفطرة ومشاعر الإنسانية التى لم تفسدها المدنيـــة ، ولم تحطمها عوامل التعقد من ناحية والتفسخ من ناحية أخرى ، وإذا كانت الإنسانية فى أوربا مثلا قد انحرفت عن سواء السبيل ، فزلت وفجرت وألحدت وأجرمت ، فما زالت الإنسانية فى أفريقية صالحة لكى تهدى وتقود وترشد بنور إيمانها وهدى ربها ؛ وهذه القارة عذراء فى طاقاتها العقلية والفكرية ، بمعنى أنها تنفض بعد ركام الهمود والركود عن عقول أبنائها لكى يبدعوا ويخترعوا ويستغلوا ملكاتهم ومواهبهم الضخمة فى مختلف نواحى التشييد والتجديد والتعمير ، وكأن الله تبارك وتعالى

قد ادخر لهذه العقول العذراء التى لم تستوعب كل نشاطها وعملها هذه الطاقات العذراء المستكنة فى جوف أفريقية وسهولها ، فى أرجاء القارة من المناجم والدخائر والإمكانيات ما يصلح أن يكون حقلا فسيحاً واسعاً تجول فيه هذه العقول وتصول ، فتأتى بالخير الوفير والإنتاج الكثير والنصيب الكبير .

ومن المصادفات اللافتة للنظر أن يجتمع أقطاب أفريقية بالقاهرة فى الوقت الذى ينتفض فيه شعب مصر انتفاضة عميقة واسعة لكى يستوعب ميثاقه الوطنى ، حتى يفحصه ويمحصه ، تمهيداً لإعلانه والإجماع عليه ، وفى هذا الميثاق تنويه بشأن أفريقية وواجبنا نحوها . فقد قرر أننا نؤمن بجامعة أفريقية كما نؤمن بالتضامن الآسيوى الأفريقى ، ولا شك أن هذا التضامن يعطى لأفريقية من القوة مثل ما يعطى لآسيا ، وقد قال الميثاق : « إن شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لأفريقيا المناضلة ، وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى . إن شعبنا ينتمى إلى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير الوطنى ، وهو سمات القرن العشرين » .

وإن مؤتمراً يعقد فى أفريقية بالقاهرة لجدير كل الجدارة بأن يذكرنا بالشريان الإلهى العظيم الضخم الذى مده الخالق الجليل خلال هذه القارة العذراء وأعنى بذلك الشريان العظيم النيل المبارك الذى يعد مظهراً بديعاً رائعاً من مظاهر قدرة الله العلى الكبير ، والذى استحق أن يمجد الرسول ذكره وسيرته فيصفه بأنه نهر من أنهار الجنة لما يسببه من خيرات وبركات ، كأنها موصولة الأسباب بما فى الجنة من نعم كريم وفردوس مقيم ، واستحق أن يصفه الرسول كذلك بأنه « نهر مؤمن » ، لأنه — كما قال الإمام ابن الأثير — يفيض على الأرض فيسقى الحرث والنسل بلا مئونة ولا كلفه ، فهو كالمؤمن فى خيره وبره ، وانتفاع الناس بفضله وثمره ، وكأن الله عزت قدرته

وجلت كلمته قد مد هذا الشريان من رأس القارة إلى قدميها ليكون رباطاً وثيقاً يجمع أبناء واديه على كلمة الوحدة والحق والخير ، فإذا استوثقوا من جمعهم وقوتهم كانوا نقطة ارتكاز وثيقة لما نتحدث عنه من « جامعة أفريقية » ومن تكتل لأبناء هذه القارة فى وجه البغى والظلم ، ومن تعاون بينهم لتحقيق الحياة السعيدة الرافهة فى هذه القارة العذراء، ولعل هذا ما جعلنى أقول فى المؤتمر الوطنى إن « كلمة وادى النيل لها رنينها الحبيب ووقعها الجميل ، وإيحاؤها المأثور ، الذى يوحى بالوحدة فى مجال تتوافر فيه العوامل الطبيعية للوحدة والتجمع ، وليتنا نستطيع فى طريق كفاحنا الممتد وبنائنا الموصول ، أن نعنى بتمهيد الطريق أمام تلاقى أبناء هذا الوادى العظيم على كلمة الوحدة ، ليكون هذا التلاقى امتداداً طبعياً فى مجال التحقيق لأهدافنا القومية السامية التى يرتضيها الجميع ويستفيد منها الجميع » .

ويذكرنا اجتماع هؤلاء الأقطاب بالعامل القوى المتين المكين الذى يؤثر فى توجيه القارة ، والذى يجب أن يكون له مكان الصدارة أو الطليعة بين العوامل المؤثرة والحوافز الدافعة ، وأعنى بذلك عامل العقيدة والإيمان ، لأننا إذا نظرنا إلى أفريقية وجدنا فيها العديد من اللغات اللهجات ، والعديد من القوميات والعنصريات ، ولكننا نجد أن العقيدة الدينية الإلهية تسيطر على عدد ضخم هائل من أبناء هذه القارة ، مما يجعلهم يتلاقون فى مشاعرهم وعواطفهم ، ويتقاربون فى خطراتهم ووجداناتهم ، وإن لم يتفقوا فى لغاتهم ولهجاتهم ، لأن من وراء الألسنة والأبدان قلوباً تنطوى على عقيدة فى الله وإيمان بدعوته ، ولا شك أن التقاء الأقطاب مثلا فى بيت الله يستمعون إلى قرآنه وحديث إيمانه يكون له من الأثر ماليس لسواه ، ومن هذا يستلزمنا واجبنا نحو قارتنا ومجتمعاتنا أن نعنى بشأن هذه العقيدة الموحدة ، وبخاصة أن القارة العذراء صالحة كل الصلاح لكى تنبثق فيها أضواء الدعوة إلى الله ،

بين أولئك الفطريين الذين لم تفســدهم آثارهم الحضارة ، ولم تخرب عقولهم مفاسد الإلحاد ولا شياطين الكفران . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الرجل الأبيض الأوربى دخل أفريقيا ليفسدها ويجعلها خراباً بعد أن يمتص منها دماءها وماءها ، وعلى الرغم من كثرة مآسيه فى أفريقية ، فإنه لم يستطع القضاء عليها ولا البقاء فيها ، فقد حمل عصاه ورحل ، وآن لأبناء أفريقية أن يعمروها ببناء الأرواح عن طريق الإيمان ، وبناء الأشباح عن الصحة والقوة ، وبناء المجتمعات عن طريق التشييد والتعمير فى كل مجال من مجالات الإنتاج والبناء . وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

القمر الصناعى[1]

أحمد الله عز وجل ، هو الخالق البارئ المصور ، « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » . أشهد أن لا إله إلا الله، « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرسله ربه بالكتاب والحكمة ، وامتن عليه بنعمة العلم فقال له : « وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

استولى على الناس فى الأيام الأخيرة حديث « القمر الصناعى » الذى أطلقته روسيا ، ولا شك أن توفيق العقل البشرى فى مثل هذا الباب يعد كشفاً هائلا ، وسبحة واسعة فى ملكوت الله رب العالمين ، وقد خيل إلى بعض الناس أن مثل هذا العمل توقح وجرأة على الله ، أوأنه مما يضعف الإيمان الدينى فى صدور العباد ، ولكن العقلاء من الدارسين يرون هذا الكشف سبباً جديداً من أسباب القوة فى الإيمان ، لأن هذا العقل الإنسانى الذى صاغه الله بقدرته ، ووهبه ما وهبه من خيره وبركته ، قد توسع فى كشف السنن الكونية التى بثها الله فى ملكوته العريض الوسيع ، وغطاها بأغطية خفيفة أو كثيفة وحرص الإنسان على البحث عن هذه السنن ورفع هذه الأغطية من فوقها ، حتى يسخرها لفائدته ورفع مستوى حياته ، فقال تبارك وتعالى :

---

(١) ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٧٧ هـ ــ ١١ اكتوبر سنة ١٩٥٧ م .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » قال : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » . وحين يتوصل الإنسان إلى كشف مستور من مساتير الطبيعة، أو يعرف حقيقة من حقائقها، أو يسيطر على قوة من قواها ، يكون ذلك فضلا من الله ونعمة ، وتوفيقاً منه ورحمة ، وتقوية للإنسانية وتكرمة ، وتحقيقاً لقوله عز من قائل : « ويخلق مالا تعلمون » ، وقوله : « علم الإنسان مالم يعلم »؛وكلما ازداد علماء الطبيعة والكون خبرة بأسرار هذا العالم واستقاموا على الطريقة ، وتخلوا عن الكبرياء والغرور ازدادوا إيماناً بالله ، ويقيناً بإبداعه ، وخشية من سلطانه ، مصداقاً لقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وكلما ازداد العالم من العلماء خبرة واطلاعاً طلب المزيد من العلم ، لأنه لا يشبع ، ولأن العلم محيط لاساحل له ، فيهتدى بهدى القرآن الكريم الذى يحرض على طلب المزيد من العلم فيقول : « وقل رب زدنى علماً » وكلما زاد العلم زاد تواضع العالم المؤمن أمام ملكوت الخالق ، لأنه يدرى من عظمته وجلالته مالا يدريه المجهول به ، فيعرف صدق القرار الإلهى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ... » .

ولا شك أن إطلاق القمر الصناعى بالصورة الهائلة التى يتحدثون عنها قفزة رائعة مدهشة من قفزات العقل الإنسانى نحو استخدام القوى المختلفة الموجودة فيما حوله ، ولكنه مع عظمته وجلاله لا يذهب بقيمة الكشوف العلمية السابقة والاختراعات المتعددة المدهشة ، فمن ذا الذى يستهين بكشف الكهرباء والطيران والإذاعة اللاسلكية وتحطيم الذرة وصنع القنبلة الهيدروجينية وغيرها من المكتشفات والمخترعات ؟ ... وإذا كنا ندرك مافى إطلاق هذا القمر الصناعى من اقتدار علمى وفنى لم يظهر له نظير حتى الآن ، فإننا فى الوقت نفسه نعده نذيراً أى نذير من الله لعباده ، ونضع أيدينا على قلوبنا خشية أن يساء استعمال هذا التوسع فى صنع القوى المادية الخطيرة ، وأن

هذه الإساءة كفيلة بجلب الخراب والدمار للبشرية جميعاً ، ومن يدرى ، فقد يغتر الإنسان بما وصل إليه أو حصل عليه من قوى ووسائل فيعبر بها عن غروره وكبريائه وسفهه ، فتكون الطامة الكبرى والله عز وجل يرسم لنا فى قرآنه المجيد صورة مذكرة مؤثرة زاجرة ، يصور فيها نتيجة الغرور الإنسانى ، وعاقبة العلو فى الأرض نهاية والاعتزاز المسرف بما فيها من قوى ، فيقول : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ! ! ...

وتدبروا أيها الناس فى قوله : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت » ... أى استعدت بكل ما يجملها ويحسنها ويقويها ، فكأنها عروس تحلت وتجلت ، ولبست كل ما استطاعت من ثياب وحلى وجواهر ، استعداداً للقاء زوجها الحبيب أول لقاء . . ثم ماذا بعد هذا ؟ . . « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » . . أى متمكنون فيها ، حاكمون لها ، متصرفون فيها ، مسيطرون عليها . . فماذا تكون العاقبة ؟ . . « أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » ، أى نزل بها أمرنا المقدر لإهلاكها وهم نائمون بالليل ، أو هم غافلون بالنهار ، فتركها كالأرض المحصودة ، التى استؤصل زرعها ، فلم يبق بها شىء قائم . وكأنه لم ينبت بها شىء من قبل ، ولم تكن فاخرة مزدهرة بالأمس ! ! ... « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » ! ! . . .

وإذن فلا بد مع هذا الاقتدار الواسع فى السيطرة على قوى الطبيعة من إيمان يعتدل بالسير فى هذه الحياة ، ولابد من وازع يمنع الإنسان من سوء

الاستغلال لهذه الطاقات الطبيعية والصناعية الهائلة ، وإلا فياسوء المصير ، ويا خيبة المسعى ، وياضلال الغاية بعد طول المطاف ! . . .فليذكر الإنسان أنه مهما قوى واستعلى عرضة للخسار والبوار إذا مال وجار ، وأنه مهما استطال واختال مقبوض بيد من لايعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ؛ ولا تنسوا هنا أن الذين أطلقوا القمر الصناعى قد توصلوا إلى صنعه وإطلاقه بفضل العلماء الألمان ، لأن روسيا وأمريكا وانجلترا تقاسموا هؤلاء العلماء بعد الحرب العالمية الثانية وبعد انكسار ألمانيا فاستولت كل دولة على فريق من هؤلاء العلماء وسخرتهم لأغراضها ، فأين الآن دولة ألمانيا التى كانت تبهر العالمين ؟ وأين عظمة الألمان الذين كانو يهزون المشارق والمغارب؟ وأين هتلر الذى دوخ العالم حيناً من الزمان ، وكان يستولى على الدول تباعاً ، كل دولة فى يوم ؟ . . انطوى كل هذا ، وأصبح جزءاً من الذكريات والتاريخ . . .

إننا نحن المؤمنين بالله ننظر إلى إطلاق القمر الصناعى على أنه منحة إلهية للعقل البشرى كى يطلعه على مافى كون الله من نظام وإبداع ، وليعرف الناس مبلغ مافى صنع الله من إحكام وإتقان : « وكل شىء عنده بمقدار » ، « إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » . . . وما القمر الصناعى بالنسبة إلى خلق الله إلا كقطرة ماء بالنسبة إلى محيط غير محدود ... أين هذا الكوكب الصناعى الصغير من خلق الله الكبير وإبداعه الجليل ؟ أين هو من الملايين التى لا تحصى من الكواكب والنجوم ؟ . . . أين هو من خلق الليل والنهار ؟ أين هو من عظمة الشمس والقمر ؟ ... « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون».

ويقول القرآن أيضاً : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره

منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » ! . . . وأين صنعة الإنسان من خلق الله لذلك الإنسان الحى المفكر العاقل الحساس ؟ . . وهل يستطيع الإنسان أن يخلق لنفسه إصبعاً ؟ . . وهلا عرف مبلغ الإعجاز فى قول الحق سبحانه : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » ؟ ! . . . حقاً إن داء الغافلين هو جهلهم بسلطان خالقهم وجلال مبدعهم : « وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » .

يا أيها المغترون بعلمكم . (يا أيها المتباهون بفنكم ... يا أيها المعجبون بسلطانكم . . . يا أيها المخدوعون بما وصلتم إليه) . . تعالوا فاستمعوا صفة الله ذى الجلال والجمال والكمال . .. « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شىء قدير ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ، له ملك السموات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حدثونى بربكم . . لقد اخترع غيرنا من الناس ما اخترعوا وصنعوا ما صنعوا فطاروا وغاصوا وفتتوا الذرة وأطلقوا الصاروخ وأطلقوا القمر الصناعى ، فماذا صنعنا نحن ؟ وما ذا اخترعنا ؟ . . جعلنا نتلهى بالأحاديث ونقتات بالكلام . . أطلقوا الصاروخ وأطلقنا الإشاعات ؛ فتتوا الذرة ونحن

فتتنا وحدة المسلمين ؛ صنعوا القنبلة الذرية ونحن لم نحسن لإبرة تشكيلا ، أطلقوا القمر الصناعى ولم نستطع نحن حتى رؤيته أو تسجيل إشاراته ، ويتحدثون عن رحيلهم إلى القمر الطبيعى ليسكنوه ويعمروه ، ونحن لم نتم تعمير الخراب أو البور من أراضينا ، فأين نحن من الدنيا أيها الناس ؟ ! ...
يا عجبا كل العجب ، إن ربنا اسمه العليم الخبير ، وإن رسولنا قد بعثه ربه ليعلم الناس الكتاب والحكمة ، وإن القرآن هو كتاب العلم والنور ، والقرآن يخبرنا بأن الذين يخشون ربهم هم العلماء ، ومع كل هـذا . . . أين نحن من العلم والبحث يا هؤلاء ؟ . . كفانا حديثاً ولهواً ، ولنتعلم ولنبحث ولنفكر ولنخترع ، والله يهدى العاملين .

فى ذكرى العدوان[1]

الحمد لله عز وجل ، يؤيد المؤمنين بنصره ، ويخذل المجرمين بقهره : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخـــذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وهب المفلحين نعمة الإيمان ، وكتب على الآثمين نقمة الخسران ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير المؤمنين ، وأصدق المجاهدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تمر علينا فى هذه الأيام ذكرى أليمة موجعة ، فيها عبرة وعظة ، وهى ذكرى ذلك العدوان الغادر الذى طاف ببلادنا على حين غرة ، يريد أن يبطش بنا البطشة الكبرى ، ليذل أعناقنا ويسلب أرزاقنا ، ولكن الله العلى القادر تلطف بنا فأنقذنا ، ورد عنا كيد أعدائنا ؛ وبغى القوى على الضعيف شىء معروف مألوف فى تاريخ البشرية ، ولكن كثيرين من المستضعفين الأقلاء انتصروا على المكثّرين الأشداء : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » . ولا شك أن الانتصار له كثير من الأسباب المادية والأدبية ، ولكن أقوى هذه الأسباب كلها هو الإيمان بالمبدأ الذى يقاتل الإنسان من أجله ويدافع عنه ، لأن الإيمان بالمبدأ هو الذى يوجد فى صاحبه الإصرار والتضحية من أجله ، فالإيمان عقيدة يرتضيها المرء ويقتنع بها ، فتستبد بمشاعره وعواطفه ، وتسيطر على حسه ونفسه ، فلو حرضه محرض على أن يتنكر لهذا الإيمان ، أحس بأن هذا تحريض له على إلغاء شخصيته

---

(١) ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٧٩ هـ — ٣ اكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

وإهدار كرامته ؛ ومن هنا خاطب الله عز وجل عباده المؤمنين بقوله : « ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . أى إن إيمانكم يقتضيكم أن تثبتوا ، ولا تضعفوا أو تجبنوا عن جهاد أعدائكم بسبب تعب أو نصب ، وألا تحزنوا إذا نالتكم شـــدة أو ملمة ، فإنكم الأعلون المرتفعون ، ولكم العاقبة بالنصر والظفر ، ما دمتم مؤمنين بحقكم مؤمنين بربكم ، معتصمين بأمره ، موقنين بنصره : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

ولقد ضرب لنا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه أروع الأمثلة فى الإيمان بالعقيدة ، والثبات على المبدأ ، والإصرار الحازم على الطريقة التى اقتنع بحقها وصوابها ، ولم يقبل فى ذلك مفاوضة أو مساومة أو مراوغة ، وحينما أرادوه على شىء من هذا تأبى وهتف فى قوة وإيمان : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهذه وسائل الإغراء تحاول أن تجد لها منفذاً إلى قلب الرسول أو أذنه ، فلا تجد سميعاً أو مجيباً ، بل يتأبى عليها ، ويعلو فوق بريقها وتشويقها ، ويظل مستمسكاً بالمبدأ الحق والدعوة الصدق ، حتى يبلغ نصر الله وينال تأييده ؛ ولقد أوفد المشركون إليه عتبة بن ربيعة — وكان سيداً فيهم — فقال يساوم الرسول : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت ، من السلطة فى العشيرة ، والمكانة فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمرعظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها . أجاب الرسول : قل يا أبا الوليد أسمع . فقال عتبة : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً

دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا [أى جنياً] تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . . .

وصبر الرسول فى حلم وحكمة حتى بلغ عتبة من الحديث وعرض المغريات غايته ، ثم قال له : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ . أجاب عتبة : نعم . فقال الرسول فاسمع منى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حـم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » . . . ومضى الرسول الأمين المبين يتلو فى صدق وعمق وإيمان ، وعتبة مأخوذ مبهور بإعجاز القرآن وروعة التنزيل ، حتى بلغ الرسول قول ربه : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » ، فلم يملك عتبة نفسه ، بل خر ساجداً ، ثم رجع إلى قومه بغير الوجه الذى تركهم به ، وأخذ ينصحهم بأن يسالموا محمداً وصحبه ، فإن دعوته سيكون لها نبأ عظيم . . فورب السماء والأرض لولا أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان على حق فى المبدأ ، وصدق فى الإيمان ، واعتصام باليقين ، لاستجاب لإحدى هذه المغريات ، وقبل من قومه هذه الشهوات ، ولكنه بقوة الإيمان أبى واستعصم ، وردد فى عزم وتصميم : « يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبـد ، لكم دينكم ولى دين » ، وبمثل هذا الإيمان ثبت أصحاب محمد فى مواطن البأساء والضراء ، تتوالى عليهم الضربات والطعنات فلا يصـدهم ألمها ، ولا يوهنهم وقعها ، بل لا يبالون أو قعوا على الموت ، أم وقع الموت عليهم ، لأنهم آمنوا بالله القوى العزيز ، وآمنوا

بقوله عز وجل : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ولو أننا حين طاف بنا طائف العدوان الأثيم ، وأراد لنا الذل والهوان ، سلمنا لباطله ، وألقينا بالزمام إليه دون إباء أو مقاومة ، لجرفنا السيل العتى الطاغى فيما جرف من أذلاء وضعفاء ، ولكننا آمنا بحقنا فى الحرية والكرامة فأبينا معرة الاستسلام ، وتراكمت علينا قوى الشر والبغى ، فوقفنا بما تهيأ لنا من عدد وعدة ، نأبى على أعدائنا أن يطئوا ثرى بلادنا لأنها حق لنا ، أويسلبونا حريتنا لأنها منحة الله إلينا ، أو يغتصبوا جانبا من حمانا لأنه نعمة الله علينـــا ، وقلنا للمغيرين الآثمين : إننا لن نسلم لكم ، بل سنقاتلكم بما استطعنا ؛ وهيأ الله جل جلاله ما هيأ من أسباب ووسائل للنجاة والفوز ، وكان فضل الله عظيماً . . . وكلما تأصلت جذور الإيمان فى صدور الأفراد والجماعات تألقت أضواء الاعتزاز بالمبادئ والقيم ، وقمة الإيمان فى هذه الحياة هى الإيمان بالله بارئ الكون وبديع السموات والأرض ، لأن من وراء الإيمان به سبحانه يأتى الإيمان بكل ما هو حق وعدل ، من حرية وعزة وكرامة ، ومن حقوق أوطان ، وواجبات أفراد وجماعات ، وهذا الإيمان هو الذى يهون على المرء زخرف الدنيا ومتاعها ، بل هو الذى يهون على الإنسان حياته ذاتها ، لأنه يعلم أنها بيد خالقها ، يستردها عند أجل معلوم وميقات محتوم ، ومن هنا رأينا المقاتل المؤمن بهذا لايخاف الطعان ولايهاب النزال ، لأن عمره بيد الله جل جلاله ، فهو يهتف :

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال : ويحك لن تراعى

فإنك لوسألـت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن اعداء الله وأعداء الوطن لا يرقبون فينا إلا ولاذمة ، ومن واجبنا دوام الإعداد والاستعداد ، وبدون قوة الإيمان لايجدى المدفع أو السنان ، فلنأخذ من العدة المادية كل ما استطعنا ، ولنجعل ، عماد ذلك وأساسه تعمير الصدور بالإيمان ، لتتزكى قوة الأرض بمدد السماء ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . . .

يوم الجزائر[١]

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يحب الأقوياء ، العزيز الذى يبغض الأذلاء : « وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، استقوى برعايته ، واستعلى بعنايته ، واهتدى بهدايته ، ففاز وانتصر : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعترته ، وأنصاره وصحابته ، والمستضيئين بنور دعوته : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

ونحن الآن فى شهر الصوم ، وأهم معنى يحققه الصوم الإسلامى الصحيح هو إيجاد الشعور الجماعى الموحد بين أبناء الإسلام كلهم ، فهم يجتمعون على هدف واحد ومقصد واحد فى الصوم ، ويمتنعون عن المفطرات فى وقت معين ويفطرون عند ميقات محدد ، فهم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فى وجهة واحدة وطريق واحد : صامت بطونهم عن الطعام ، وألسنتهم عن باطل الكلام ، ونفوسهم عن الشهوات ، وجوارحهم عن السيئات، وإذا كان الرسول يقول فى وصف المؤمنين إنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، فإن هذا الوصف يتجلى بأقوى مفاهيمه ومعانيه فى رمضان : شهر التآلف والتعاطف الناشئين عن الصوم المثير لعواطف الأخوة والرحمة والحنان . .

---

(١) ٨ ابريل سنة ١٩٥٨ م .

ونحن يمر علينا خلال هذا الصوم أسبوع قومى إسلامى أوضح خصيصة من خصائصه هو الشعور بالأخوة والمحبة والتعاون ، وهو أسبوع الجزائر ، وإذا قلنا الجزائر فقد أردنا القطر العربى الذى حاولت فرنسا الخسيسة بكل وسيلة معقولة أو مخبولة أن تخرجه عن عروبته وعن لغته فما أفلحت ، وأن تبيده عن آخره فما نجحت . . . وكذلك أردنا القطر الإسلامى الذى لا يزال معتزاً بإسلامه مؤمنا بربه موقنا بأن العزة لله ، وأن المجد للإسلام ، وأن السيادة العادلة يجب أن تكون للمسلمين المهتدين بهدى رب العالمين . . . وكذلك أردنا القطر الثائر المجاهد الذى ظل سنوات وسنوات يجاهد قوى البغى والطغيان ويجاهد أسلحة الدولار والإسترلينى والأحلاف وغيرها مما أعدت واستغلت فرنسا وإنجلترا وأمريكا ، بينما لا تملك الجزائر أسطولا ضخماً ولا جيشاً منظماً ، ولا مخازن للأسلحة ولا قنابل ذرية ، ولكنها تملك الإيمان بحقها ، والثبات على إسلامها ، والإصرار على عروبتها ، هاتفة : الحرية أو المنية ، والنصر أو القبر . . .

وقد مرت على الجزائر سنوات عجاف شداد عصيبة ، وهى فى ثورتها المصرة الدامية ثابتة رابضة مواصلة للنضال والكفاح ، حتى خسرت نصف مليون مجاهد ، أو قولوا إنها ادخرت عند ربها نصف مليون شهيد يخلد ذكرهم التاريخ ، ويتقبل عنهم ربهم أحسن ما عملوا ، ويثيبهم بثواب الخلد فى دار النعيم . . . ونحن قد نتذكر الجزائر حيناً فنقدم إليها بعض ما نستطيع ، ثم تشغلنا أمورنا وأعمالنا أحياناً فننساها ، وتظل هى صابرة مصابرة ، مجاهدة مناضلة ، إن نسيها العباد فمعها رب العباد ، وإن تقاعس عنها جموع من المسلمين ففى صدور أبنائها أنوار اليقين وإن تخاذلت عنها قوة فى الأرض فمعها قوة الله وعناية السماء : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » ، « الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ،

والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ولقد أراد المجرمون من طواغيت الاستعباد وجبابرة الاحتلال الغربى أن يجعلوا من الجزائر فلسطين ثانية ، أو فردوساً مفقوداً ثالثاً ، وضلوا ثم فشلوا ، لأن الجزائر لا يوجد بها خونة كالذين كانوا يوم ضاعت فلسطين ، ولا يوجد فيها إمارات وأمراء وفرق وطوائف كالتى كانت فى الأندلس ، يوم ضاع الفردوس المفقود وليس فيها طواغيت يستغلون الشعوب فى سبيل شهواتهم وأهوائهم ، ولا يهمهم أن يفنى الناس جميعاً مادامو هم سيبقون بطغيانهم وشهواتهم ، وكل منهم يقول ما قاله أخ لهم من قبل : نفسى نفسى ، وبعدى يكون الطوفان ! . . .

وإنما يوجد فى الجزائر شعب عربى مسلم قد انتفض انتفاضة الحياة والكرامة ، فثار لحريته واستقلاله ، وهو يعلم أن قد تهون فى الحياة حقوق ، وقد تسهل على الإنسان أمور ، ولكن لا يهون عليـــه حق لله أو الوطن أو القومية أو الشرف ، وفى انتصار الجزائر على جلاديها انتصار لهذه الحقوق كلها ، وفى نكستها – لاقدر الله – ضياع أى ضياع لهذه الحقوق جميعاً . وشعب الجزائر قد عاهد ربه على أن يمضى فى كفاحه صادق العزيمة قوى الأمل ثابت اليقين ، فإما عز وسيادة ، وإما كرامة بالموت والشهادة ، فهو يهتف :

سأحمـــل روحى على راحتى وأمضى بها فى وجوه الردى
فإما حيـــاة تسر الصـــديق وإما ممـــات يسوء العـــدا

لقد بذلت الجزائر ما بذلت ، وضحت بما ضحت من أبنائها وفلذات أكبادها ، وعتادها وجهادها . . . أفتتراجع بعد ذلك أو تركع ؟ . . معاذ الله

ومعاذ الإسلام العزيز ومعاذ أمجاد العروبة ! . . . بل ستمضى بإذن الله وستسطع وستنتصر وترجع كما كانت وكما يريد لها ربها عربية مسلمة أبية . . . وهى تمضى قدماً فى ساحة الجهاد لا يوئسها أن تلقى ما تلقى من الشدائد والمصاعب ، فهى إما أن تفوز بنصر تعلى بواسطته كلمة الله والحق بين الناس ، وإما أن تفنى فى سبيل حريتها وكرامتها فتلقى عند ربها الحسنى والجزاء الأوفى ! . .

ومن واجب المسلمين هنا أن يذكروا وأن يتذكروا . . فإذا كانوا يستقبلون الربيع حلواً جميلا فى بلادهم ، فيشهدون الحدائق الناضرة والبساتين المزهرة ، ويشمون الهواء الرقيق الصافى ، فليذكروا أن أبناء الجزائريستقبلون الآن ربيعهم الأحمر الدامى ، ويشمون هواء المعركة الطاحنة الذى يمتلئ بالدخان ورائحة الرصاص ودوى المدافع وأزيز الطائرات . . . وإذا كان أبناء الأمة الإسلامية يجلسون إلى موائدهم الشهية فى رمضان ، فيفطرون على مالذ وطاب من الطعام والشراب ، فليذكروا أن أشقاءهم فى أرض الجزائر يقتاتون بالخبز القفار وفتات الطعام وأعشاب الأرض . . . وإذا كان هناك أطفال للمسلمين يهزون فى أيديهم « فوانيس » رمضان ويسيرون على أضوائها الملونة البهيجة فلنذكر أن أطفال الجزائر يسيرون على أضواء رهيبة من لهب المجازر ونيران الحرائق وسعير الحرب . . . وإذا كان هناك أطفال للمسلمين يلهون فيقولون فى رمضان : « وحوى يا وحوى » فلنذكر أن أطفال الجزائر ينادون الآية « يا حرية ، يا عروبة ، يا إسلام ، يا ألله » ! . . وإذا كان هناك فتيات يعبثن فيرددن : « يامه القمر ع الباب » فلنذكر أن بنات الجزائر الحرائر المجاهدات يهتفن الآن : يا عرب ، إن فرنسا على الباب ، إن الأعداء على الأبواب ، إن الاحتلال الأثيم يهدد الشيوخ والشباب ، إن حرب الإبادة ستحيل الجزائر الخضراء إلى خراب ويباب ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا كنا نهتف للعروبة ونعمل لوحدة الأمة العربية فلن تكمل هذه الوحدة ولن تؤتى ثمارها إلا إذا تحررت الجزائر . . وإذا كان المسلمون فى وثبة ونهضة فلن تجدى الوثبة ولن تتم النهضته إلا إذا استقلت الجزائر ؛ فواجب العرب اليوم أن يتكتلوا لمناصرة الجزائر ، وواجب المسلمين اليوم أن يهبوا لنصرة الجزائر . . على الحكومات العربية والإسلامية أن تمد الجزائر بالسلاح لتجاهد به ، وبالمئونة لتشد بها ظهور ثوارها ، وبالذخيرة لتحرر بها جزءاً غالباً من أرض الوطن الأكبر . . على كل فرد أن يؤدى ما يستطيع لثورة الجزائر ؛ فليقدم المال لمعونتها قل هذا المال أو كثر ، أوفليقل الكلمة الطيبة المشجعة يثبت بها عزائم المناضلين ، أو فليردد الدعوات المخلصة ليعجل الله يوم النصر القريب : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

عائد من الجزائر[١]

أحمد الله تبارك وتعالى ، هو الخالق من العدم ، والباعث للأمم : « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو المعين فى الشدائد والأزمات ، الهادى فى دياجى الحيرة والظلمات : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » وأشهد سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد وصبر ، وأتقن فانتصر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن سلك طريقه إلى يوم الدين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إنى عائد إليكم من الجزائر المسلمة التى قدمت مليوناً ونصف مليون من الشهداء ، لكى تحرر أرضها وتسترد حريتها ، فى معركة طويلة ثقيلة شرسة عنيفة ، استمرت سبع سنوات ، وتوجت هذا الجهاد بالنصر المبين والعزة القعساء ، والجزائر هى الأرض الفسيحة الخضراء ، المليئة بالزروع والنباتات والأشجار ، والتى اتخذها الاستدمار الفرنسى ، عليه وعلى كل استدمار لعنة السماء والأرض — بقرة حلوباً نحو مائة وثلاثين عاماً ، وقد قضيت فى الجزائر أكثر من أسبوعين ألقيت فيهما عدداً من المحاضرات والخطب فى العاصمة ومختلف المدن مثل : بجاية وسطيف وقسنطينة وعنابة وجالمة والبليدة ، وأذكر أنى خرجت خلال هذه الزيارة لرحلة ليوم حافل بالسحب ، والجزائر كثيرة الأمطار شديدة البرد فى الشتاء ، وكنت فى صحبة ما يقرب من مائتين من شباب جامعة الجزائر المعتزين بالإسلام ، وما كادت السيارات

---

(١) ٢٤ صفر سنة ١٣٩٣ هـ — ٣٠ مارس سنة ١٩٧٣ م .

الضخمة تستوى على الطر ق حتى انبعث أصوات هؤلاء الشباب تشق‌عنان السماء ، يرددون أناشيد كلها إسلامية ، وافتتحوها بقولهم :

ربنـــا إياك ندعو ربنـــا آتنـــا النصر الذى وعدتنا
إننا نبغى رضـــاك ربنـــا ما ارتضينا غير ماترضى لنا

وترقرق الدمع فى عينى وساءلت نفسى : أى نصر يريد هؤلاء الأشقاء ؟ لقد انتصروا واستردوا حريتهم واستقلالهم ؟ ! وسارعت فتنبهت إلى أن هؤلاء لا يكتفون بالنصر الجزئى ولا بالحرية المبتورة ، إنهم يريدون نصراً كاملا لأمتهم الإسلامية إنهم يريدون النصر لمصر وفلسطين وسورية والأردن ، فالرسول يقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

وأخذت كلمات هؤلاء الشباب الدينية تتوالى ونحن على الطريق الطويل ، وكل شاب مسلم منهم يبدأ كلمته بقوله : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم » وكلما مررنا على بلدة فى الطريق نزلوا بنا فزرنا مسجدها وحييناه بركعتين ، وبعد الغداء تحدثت إليهم طويلا عن الإسلام ، ثم صعدنا قمة ربوة عالية مليئة بالخضرة ، وهناك أذن أحدهم للصلاة ، وصلينا على بساط الخضرة ، وجمعنا وقصرنا ، وليس حولنا إلا الخضرة والهواء والسماء ، فكانت صلاة لا تنسى .

وزرت الجامعة فإذا طوائف وطوائف من الشباب ، فيهم المتدين ، وفيهم المتردد ، وفيهم الحائر ، وفيهم المنطلق ، كالشأن المعهود فى أكثر وطننا الأكبر ، وأذكر أن شاباً منهم سألنى كالعادة : ما الدليل على وجود الله ؟ . فأردت أن أستدرجه إلى الجواب بطريق غير مباشر ، فأجبته : ومن قال لك إن الله موجود ؟ . واهتز الشباب لغرابة الجواب ، وسارع فقال

بفطرته : فمن الذى خلقنا إذن ؟ فسارعت قائلا : اسأل نفسك ، فهذا هو الجواب على سؤالك ، فخضع الشاب واقتنع ، ثم ذكرت قصة المدرس الملحد الذى أراد أن يضلل فريقاً من فتيان المسلمين فى إحدى المدارس ، فقال لهم : هل ترون الله ؟ فأجابوه قائلين : لا . فقال لهم المدرس الملحد : إذن فالله غير موجود . ووقف أحد التلاميذ وأبوه من العلماء ، فقال لزملائه مشيراً إلى المدرس : أيها الزملاء . هل ترون عقل المدرس ؟ فأجابوه : لا ، فقال لهم : إذن فعقل المدرس غير موجود .

ولاريب فى أن الجزائر المسلمة تبنى نفسها اليوم بجد ونشاط ،وتستعيد شخصيتها الإسلامية العربية يوماً بعد يوماً ، ومرحلة فى إثر مرحلة ، وكل مسلم غيور يتمنى لهذه الدولة الشقيقة أن تستكمل هذه الشخصية فى أقرب وقت ممكن وطالما دعوت لها قائلا ،اللهم كما جعلت هذه الدولة الإسلامية مثلا يحتذى فى النضال والجهاد، اجعلها تستكمل بناء نفسها لتصبح حصناً من حصون الإسلام ، ودرعاً واقية للمسلمين يارب العالمين . فما زالت فى هذا القطر العزيز الغالى أمور نتمنى زوالها عما قريب ، فهناك مثلا رواسب فرنسية مازالت باقية فى الحديث والعادات ، وكثير من أشقائنا هناك لا يتقنون الحديث باللغة العربية ،والعطلة الأسبوعية هى يوم الأحد لا يوم الجمعة — مع الأسف — والكتاب العربى الإسلامى قليل ويحتاج إلى تكثير وتمكين ، والصحف الفرنسية ما زالت تزحف إلى الجزائر ، وإن كانت هناك صحيفة يومية عربية تصدر فى العاصمة وتسمى « الشعب » . ونرجو من صميم قلوبنا أن يضاعف أشقاؤنا هناك جهودهم الموصولة السريعة لإصلاح هذه الأمور حتى يحكموا إغلاق الباب تماماً أمام كل تسلل استدمارى يأتى من الخارج ، وحتى ينعموا بتلك

الخيرات العظيمة التى خص الله بها بلادهم . وحتى ينهضوا بواجبهم نحو عزة الإسلام ونصرة المسلمين .

وهناك — والحمد لله — بشائر تدل على السير فى هذا الطريق القويم ، فهم يبدون نشاطاً ملحوظاً فى التعمير والبناء ، وفى إنشاء والمدارس والمعاهد الإسلامية ، وهم يبنون الجديد من هذه المعاهد الدينية فى ضخامة وسعة ، فالمعهد منها أكبر حجماً من الكلية الجامعية ، لأنهم يحسبون حساب المستقبل وهذه المعاهد الإسلامية يتعلم فيها الطلبة والطالبات ، ولكن كل معهد مقسوم قسمين ، أحدهما للطلاب والآخر مستقل للطالبات ، ومصر الإسلامية تقوم بالنصب الأكبر فى هـــذا المجال ، فأســاتذة هذه المعاهـــد من الأزهر الشريف ، ولمصر فى الجزائر الآن ما يزيد عن أربعة آلاف مبعوث للتعليم والتدريس ، وهم قد حولوا الكنائس أغلب الكنائس هناك إلى مساجدومدارس وقد كانت فرنسا تقيم فى كل ناحية كنيسة ضخمة ، على أرض الجزائر ، وبأموال الجزائر ، وبدماء الجزائر ، وكان لهذه الكنائس نشاط خطير فى تثبيت أقدام الاستدمار وفى مقاومة الإسلام ولغة القرآن فى الجزائر ،لارد الله هذا الاستدمار ، ولا أبقى منه بقية .

وحركة « التعريب » تخطو فى طريقها بخطوات قد تحتاج إلى سرعة ، ولكنها موصولة ، ولقد كنت أسأل كل من ألقاه من هؤلاء الأشقاء : هل تعرف العربية ؟ فإذا أجاب بنعم فرحت ، وإذا قال : لا أعرف أو أعرف قليلا ، قلت له : يجب علينا نحن المسلمين جميعاً أن نتعلم لغة القرآن ، لغة الإسلام ، لغة سيدنا ومولانا ورائدنا وقائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد حدثتكم بأقل القليل عن الجزائر المسلمة ، لأنها قطعة من وطنكم

الإسلامى الأكبر ، ولأن أبناءها إخوة لكم فى الإسلام والعروبة ، وقد فعلت ذلك استجابة لتوجيه رسول الله الذى يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . ولأنه يجب علينا أن نزداد فى الله أخوة وتآلفا ، حتى يستعيد أبناء الإسلام وحدتهم وعزتهم ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . وهو العزيز الرحيم .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

عائد من بنغازى[1]

الحمد لله جلا جلاله ، هو الخالق الرازق : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . وهو الباعث الوارث : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا ترجعون » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص حياته لربه ومولاه ، وآثر أخراه على أولاه ، فكان خير العابدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وأتباعه وأهل دعوته ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنى عائد إليكم من ليبيا بعد أن قضيت فيها أياماً حزينة باكية ، فقد دعيت إليها لأشارك فى تأبين المجاهد الشهيد المرحوم صالح مسعود أبو نصير الذى كان مثلا من أمثلة العمل لخدمة الإسلام والعروبة ، والذى قضى حياته مهاجراً مناضلا ، ومات شهيداً ، ولقد عدت إلى القاهرة لأنتقل من حزن إلى حزن ، ومن بكاء إلى بكاء ، وكأن القدر المؤدب يتابع لهذه الأمة المضيعة المسكينة آلامها وأحزانها ، جزاء بما ضيعت وفرطت ، وتفرقت وتمزقت ، « وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . فقد وجدت أمامى أبناء المأساة المخجلة ، أو المهزلة الفاضحة ، وهى مذبحة لبنان ، فى بيروت وصيدا ، حيث رأينا كيف تجرأ أعداؤنا وتوقحوا ، فاقتحموا البيوت والمخادع ، وقتلوا من قتلوا ، ونهبوا ما نهبوا ، وعادوا وكأنهم فى رحلة

---

(١) ١٠ ربيع الاول سنه ١٣٩٣ هـ - ١٣ ابريل سنة ١٩٧٣ م .

صيد أو نزهة خلوية ، مما ذكرنا بما جاء فى السنة الصادقة : « ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا » والحديث يقول : « عقر دار الإســلام الشام » ولبنان جزء من الشام ، فيا للضياع وياللعار .

ولقد وقفت فى بنى غازى أمام مقبرة الشهداء من ضحايا الطائرة الليبية الشهيدة التى نسفتها أيدى الخسة والنذالة من اليهود منذ أسابيع ، فرأيت أمامى صفين متجاورين من القبور المتواضعة جداً ، تضم أربعة وخمسين شهيداً من أبناء ليبيا ، كانوا فى الطائرة ، وسقطوا منها شهداء ، ورأيت كل قبر لا يعلو عن سطح الأرض إلا بمقدار أصابع اليد ، وليس على القبور أسماء لأصحابها ولا كتابات أخرى ، وإنما أخذت القبور أرقاماً متتابعة من رقم واحد إلى رقم أربعة وخمسين ، ودلونى على قبر المجاهد الشهيد ، وهو يحمل رقم تسعة وأربعين عليه رحمة الله ، وقد ذكرنى تواضع هذه القبور بما حدثتكم عنه حين عدت من الجزائر من التواضع الذى رأيته فى قبر إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس خليفة الإمام البشير الإبراهيمى عليهما الرضوان وهذا أمر له صلته بهدى الإسلام فى القبور . فالمقصود من الدفن فى تعاليم الإسلام هو مواراة الميت فى حفرة تحجب رائحته حينما تتغير ، وتصون جسم الميت من جوارح الطيور والوحوش ، ولقد علمتنا السنة ألا يرفع القبر عن الأرض أكثر من شبر . والمقصود من رفعه فى حدود هذا المقدار هو أن يعرف أنه قبر ، فلا يوطأ ولا يداس عليه ولا يجلس عليه ، ولقد أرسل الإمام على بن أبى طالب رجلا اسمه أبو الهياج الأسدى إلى بعض البلاد وقال له : إنى أبعثك على ما بعثنى عليــه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً [عالياً] إلا سويته بالأرض . وأجاز

الفقهاء أن توضع على القبر علامة من حجر أو خشب ، ليعرف بها القبر ، واستدلوا على جواز ذلك بأن الرسول وضع صخرة عند قبر الصحابى الجليل المجاهد الصابر على الأذى عثمان بن مظعون رضوان الله عليه[1] .

ولقد وقفت أمام هذه القبور لا تكاد تحملنى قدماى ، وتذكرت أننا جميعاً فى طريقنا إلى هذا المصير ، لا يخرج عنه أحد ولا يبعد منه إنسان : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، فتذكرت قول من قال :

ما أسرع الأيام فى طينـــا ، تمضى علينا ثم تمضى بنـــا
فى كل يوم أمـــــل قد نأى مرامه ، مع أجل قد دنـــا
أنذرنا الدهـــر ومـــا نرعوى كأنما الدهر سوانا قـــد عنى
لا معـــدم يحميـــه إعدامـــه ولا يقى نفس الغـــنى الغـــنى

وهناك فى بنى غازى شاب واحد نجا من الموت فى حادث الطائرة الشهيدة : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » ، وقد روى هذا الشاب أنه قبيل وقوع الكارثة للطائرة الشهيدة بدقائق وقف المجاهد الشهيد صالح مسعود أبو نصير ، بين الركاب وأخذ يثبت عزائمهم بلغة المؤمن وثبات الموقن ، ويقول لهم : « لا تجزعوا ، ولا تفزعوا ، فإننا إذا متنا فسنموت شهداء » وما هى إلا لمحة البصر ، وهوت الطائرة الشهيدة محترقة ، وكأن القدر قد أبقى هذا الشاب

---

(١) راجع تفاصيل بطولته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ٣٤٧ وما بعدها .

لينقل إلينا هذه الرسالة البليغة الواعظة ، لكى نتعلم أن المؤمن لا يخاف من الموت ، ما دام سائراً على طريق ربه ، متمسكاً بشرعة كتابه ، وهى شرعة الجهاد الكريم العزيز الذى يفضل المنية على الدنية ، ويؤثر الموت على الذل ، لأن الذل والإيمان لا يجتمعان ، ولو كان للمسلمين عزة أو قوة أو وحدة لدفنوا ضحايا الطائرة حيث سقطوا شهداء فى أرض سيناء ، فقد قال رسول الله : « ادفنوا القتلى فى مصارعهم » ولقد أمر الرسول بقتلى غزوة أحد الذين نقلهم أهلوهم من أرض المعركة بأن يردوا ليدفنوا فى أماكن استشهادهم رضوان الله عليهم أجمعين .

ولو عرف أبناء الإسلام طريق الإيمان لعرفوا أن الجهاد والغزو هو سبيل الله، وكذلك روى فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا تسعة عشرة غزوة ، وكان الصحابى يفخر فيقول : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الغزو شعار الرجال والنساء ، ولذلك روت السنة فقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء ، وروت فقالت : كان الرسول يغزو بأم سليم . وكان المسلمون يفضلون موتة الشهادة على موتة المرض والفراش ، ولقد تمنى رسول الله أن يجاهد فى سبيل الله ، فيقتل ، ثم يبعث ويقاتل فيقتل ، ثم يبعث ويقاتل فيقتل ، وأخبر النبى أن الشهيد وحده هو الذى يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليتكرر فيه الجهاد والاستشهاد ، وذلك لما يرى من عظمة الشهيد عند الله ، وهذا عمر كان يدعو فى أخريات أيامه فيقول : اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وقلت حيلتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك عليه الصلاة والسلام، ولكن لمن نقول القول ، والأمة قد غطت فى نومها غطيطاً ينذر بالفناء والزوال :

لقد أسمعت لو ناديت حيـاً ولـكن لا حيـاة لمن تنادى
ولو ناراً نفخت بهـا أضاءت ولـكن أنت تنفخ فى رمـاد

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من يدرى . لعل نفحة من نفحات رسول الله فى شهر مولده : ربيع الشهور ، تدرك هذه الأمة فتنبعث من سباتها ، وتعود إلى حياتها ، وتبحث عن وحدتها ، وتسترد سالف عزتها وحريتها ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء .

عائد من غزة[1]

الحمد لله عز وجل ، « بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » ، ألا إلى الله تصير الأمور » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد المؤمنين بعزته وفضله ، ويخذل المجرمين بنقمته وعدله ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان وطيد الثقة بربه ، عميق اليقين بنصره ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنى عائد إليكم من قطاع غزة ، بعد أن شاركت فى رحلة نظمها المجلس الأعلى للفنون والآداب ، لدراسة أحوال اللاجئين هناك ، للشروع فى التصوير لمأساتهم ، والتعريف بقضيتهم ، والمطالبة بديارهم ؛ وغزة بلد عربى إسلامى له ذكريات تاريخية معطرة بالمجد والفخار ، ففى غزة دفن هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهاشم هو رئيس مكة على عهده ، وهو المشرف على الكعبة والحرم ، وهو صاحب السيادة والرفادة والسقاية والسدانة ، وهو الذى نظم رحلة الشتاء والصيف لقريش . وهو الذى آوى اللاجئين وأعان المشردين وأطعم الجائعين ، وكان يطعم الطعام حين يستبد بالناس الفقر والاحتياج ، وفى غزة نزل عبد الله أبو النبى حين خرج فى التجارة إلى الشام ، بل ويرجح بعض المؤرخين أن النبى نفسه نزل بها فى أثناء رحلته ، وغزة هى التى عاش فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ردحاً من الزمن ، يعمل ويتاجر ، ويعلم العرب كيف يغلبون أعداءهم فى الاقتصاد حتى لا يستعبدوهم اقتصادياً فسياسياً ، فكان يقول لهم : « لا يغلبنكم الروم

---

(١) ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٦٠ م .

فى التجارة فإنهـا ثلث الإمارة » . ويقول : « الفتوة حلى الأحرار » .
وغزة هى البلدة التى ولد فيها الإمام الشافعى سنة ١٥٠ ، والشافعى هو الرجل الأبى الثائر على الذل والضيم ، فكان يقول : « لو علمت أن شرب الماء البارد يثلم مروءتى ما شربته » ، ويقول الرجل سأله أن يوصيه : « إن الله تعالى خلقك حراً فكن حراً كما خلقك » . وينشد :

أمطرى لؤلؤاً سماء سرنديب وفيضى جبال تكرور تـبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قـبرا
همتى همة الملـوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا !

وغزة هى التى مر عليها المسيح مع أمه الطاهرة ، واستراحا وقت القيلولة هناك تحت شجرة من أشجار الجميز فيها ، وغزة كانت محط الرحال فى رحلة العرب إلى الشام فى الصيف ، وهى إحدى الرحلتين اللتين امتن الله بهما على قريش حيث قال : « لإيلاف قريش إيلا فهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وغزة بعد هذا كله هى الجزء الحر الباقى من فلسطين ، وهى مفتاح الانتقال بين آسيا وأفريقيا ، وهى نقطة البدء وقاعدة الارتكاز فى استخلاص المغصوب من الوطن العربى ؛ ولهذا كله لم يكن عجيباً أو غريباً أن يعنى المسئولون بغزة ، وأن يسعوا إليها دارسين أو محصنين . ومما يطمئن القلب أننا وجدنا أن الروح المعنوية فى غزة ما زالت قوية ، وأن الإيمان بعودة فلسطين مازال يعمر الأفئدة ويسيطر على العقول ، وأن العزم على ذلك واضح ظاهر ، يبدو فى الكلام وفى الأمل ، وفى الهتاف الذى يرددونه ويؤكدونه : « إننا عائدون » . وفى المؤتمر الذى شهدناه بغزة فى ذكرى وعد بلفور المشئوم خرجت غزة عن بكرة أبيها ، برجالها ونسائها ، وفتيانها

وفتياتها ، وأطفالها الذكور والإناث ، ووقفوا فى ساحة الجندى المجهول ساعتين تحت قطرات المطر وفى مهب الرياح ، يستعيدون قضية فلسطين ، ويؤكدون العزم على استردادها . ويتلمسون الوسيلة العملية لذلك الاسترداد ، ويتمنون وجود هذه الوسيلة بقلق ملحوظ ولهفة زائدة ، وهذا بشير خير ، لأن الشعب المؤمن إذا أراد كانت إرادته من إرادة الله ، ويسر له الأسباب عن قريب لتحقيق ما يريد :

إذا الشعب يوماً أراد الحيـــاة فلا بد أن يستجيب القـــدر
ولا بـــد لليـــل أن ينجـــلى ولا بـــد للقيـــد أن ينكسر !

ولقد ذهبنا إلى الحدود الموهومة المصطنعة بين قطاع غزة والأرض المحتلة من فلسطين ، وفى هذه الأرض شاهدنا بلدة « المجدل » وغيرها من قرى فلسطين المغتصبة ، ورأينا العصابة المحتلة تسرح وتمرح فى أرض ليست لها وليست منها ، بينما أصحاب هذه الأرض يهيمون على وجوههم بلا وطن ولا سكن :

أحـــرام على بلابـــله الدوح حلال للطير من كل جنس ؟

وكنا نريد الاقتراب لنشهد التراب المغصوب ، ولنملأ أعيننا جيداً من ديارنا التى سلبوها ، ولكن ضابط البوليس الدولى جاء ومعه جنوده فأساء الخطاب ، وأمر بأن نرجع إلى الوراء خمسين متراً ، وكان غير مهذب فى لفظه وإشارته ، حتى فكر بعضنا فى الاصطدام به ، ولكن الباقين فضلوا أن يمر الموقف بسلام حتى لا يساء استغلاله ، وتأخرنا ثم اعتلينا ربوة وأخذنا نتطلع إلى الأرض المنهوبة فى غيظ وألم ، وكان معنا لاجئ فلسطينى كان من قبل رئيساً لبلدية « المجدل » يوم كانت المجدل بأيدى أهلها ، ولكن إجرام اليهود وأعوانهم أخرجه من وطنه ووظيفته وبيته وبيارته [حديقته

ومزرعته] ، وبينما نحن نتطلع فى صمت ورهبة ، ونستعيد فصول المأساة : كيف وقعت وكيف يمكن الخلاص منها ، مدالرجل يداً معروقة ترتجف أصابعها وأشار بها نحو « المجدل » وقال بصوت متهدج : أترون ذلك البيت الأبيض الكبير الذى هناك ؟ . إنه بيتى . أترون هذه « البيارة » الممتدة المخضرة ؟ . إنها بيارتى ! . ومادت الذكرى بالرجل فهاجت نفسه ، وارتعش جسمه ، وانفجر باكياً وهو يقول : هذه دارى ، إنها تنادينى ، هذه بيارتى إنها تبتسم لى وتدعونى ! . وانفجرت مع الرجل فى البكاء وشاركنا غيرنا ، وكانت لحظة من لحظات الذكرى الأليمة الموجعة التى تعصر الفؤاد عصراً ، وتهصر الكيان هصراً ، وتزلزل الإنسان قسراً :

وقالوا : قد جننت فقلت : كلا وربى مـا جننت ولا انتشيت
ولـكنى ظـلمت فكدت أبـكى من الظـلم المبين ومـا بكيت
فإن المـاء مـاء أبى وجـدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت !

وعاد الرجل يقول والدموع تبلل كلماته وتغذوها باللوعة والأسى : إننى أرتاد هذا المكان كلما استطعت لأرى دارى ومزرعتى ، ولأجدد العهد على أننا عائدون ، وأنا أصحب ولدى معى فى هذا الارتياد لأقول له فى كل مرة : هذه دار أبيك يا بنى وهى دارك ، وهذه مزرعة والدك يا بنى وهى مزرعتك ، لا تنسها يا بنى ، وأعد نفسك وعاهد ربك على استردادهما مع وطنك السليب فلسطين ، بساعدك وسواعد أمثالك من شباب العروبة والإسلام . . .

وهل لديكم رصيد من الاحتمال أيها الناس لأحدثكم عن معسكرات اللاجئين ، وعن هؤلاء الأشقاء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وأسلمهم الكيد الاستعمارى والبغى الصهيونى والغدر الأشعبى للريح تعبث

بهم ، والجوع يطغى عليهم ، والمرض يفتك فيهم ، والقلق يسيطر عليهم ، وإذا رأيتموهم حسبتموهم أشباحاً أو تماثيل ، فهم يفجرون الأسى والحزن فى أقسى القلوب وأغلظ الأكباد . . . وارحمتاه لأولئك اللاجئين المشردين!

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا جيداً أن الاستعمار حينما صنع إسرائيل فى قلب الوطن الكبير قد أراد أن تكون شوكة فى جنب العرب والمسلمين ، وأن تكون قاعدة له تنبعث منها أفاعيه حينما يستطيع ، ولن يقر لجانب فى هذا الوطن الكبير قرار ما دامت هذه الشوكة المسمومة هناك ، فلنذكر فلسطين ، ولنذكر أبناءها المشردين ، ولنذكر أنفسنا نحن ، فإننا سنظل فى هم مقعد مقيم إذا لم تعد فلسطين ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

نهاية الاستعمار[1]

الحمد لله عز وجل ، شرع لعباده طريق العزة والسيادة ، وجعلهم أهل التوجيه والقيادة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » : أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل ميراث المؤمنين اعتماداً عليه واستمداداً منه واعتزازاً به : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، علم أتباعه طريق الرفعة والمنعة ، فكان خير الهادين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى صدر الأسبوع الماضى مرت علينا ذكرى الجلاء التى استعرضنا فيها بخواطرنا كيف وفقنا واهب التوفيق سبحانه لإجلاء العدو الغاصب من بلادنا ، بعد أن ظل كابوسه الأثيم على صدورنا أكثر من سبعين عاماً ، وقبيل هذه الذكرى جاءت لجنة تصفية الاستعمار إلى القاهرة قلعة الأحرار ، لتسمع أصوات المناضلين من أبناء العروبة والإسلام ، وهم يطالبون بالإجهاز على ما تبقى من آثار الذئاب الاستعمارية الباغية ، بعد أن قطع النضال الثورى ذيولها ، وخلع أنيابها . واليوم — وهو الرابع والعشرون من شهر يونية — يكون قد مضى عام كامل على جريمة استعمارية قذرة ، ارتكبتها بريطانيا الاستعمارية العجوز ، فى إمارة الشارقة ، وهى إحدى الإمارات السبع التى تقع على ساحل عمان فى الخليج العربى ، وتمثلت جريمة بريطانيا فى اختطافها

---

(١) ٤ يونية سنة ١٩٦٦ م مسجد الرفاعى القاهرة .

لحاكم إمارة الشارقة الشيخ صقر القاسمى ، وعزله عن حكمه الشرعى ، ونفيه خارج الإمارة بقوة الحديد والنار ، ثم جاءت بمن ارتضاها هواها فأقامته مكانه ، وقالت له : كن حاكما فكان . وكأن إمارة الشارقة العربية الإسلامية جزء من ممتلكات بريطانيا ، أو ضيعة من ضياعها ، فلها مطلق التصرف فى عزل من لا ترضاه ، وتنصيب من تهواه .

ولو أننا عرفنا ظروف هذه الجريمة لازددنا بالاستعمار الخبيث علماً ، ولازددنا بمهازله سخرية وضحكا ، وشر المصائب ما يضحك ، فمنذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، تولى أمير الشارقة حكم بلاده التى ابتليت منذ قرابة قرن ونصف بالاستعمار البريطانى ، دون أن يقوم هذا الاستعمار اللئيم بأى جهد للنهوض بالشارقة أو تطويرها ، بل استغل أرضها وموقعها وطاقاتها لتثبيت أقدامه الدنسة ، ومقاومة حركات التحرر والثورة فى الوطن العربى . وما كادت الثورة العارمة تشتعل نارها ويشب أوارها فى أرض الكنانة ، وعلى ضفاف النيل حتى مدت الإمارة العربية يدها عن طريق حاكمها إلى الأحرار الثائرين ، ترجو عوناً وتضامناً ، بروح الأخوة ونزعة الحرية وأمل الوحدة ، وإذا الكنانة — رعاها الله وحماها — تستقبل اليد الشقيقة بالمؤازرة والتأييد ، وعلى مر الأيام أخذت أشعة النهوض والتطوير والتثقيف تمتد فى الإمارة ، فتقيم الدليل بعد الدليل على أن الأمة العربية المؤمنة تنطوى على طاقات وهبات حال الاستعمار اللئيم دهراً طويلا من الزمان دون انطلاقها وانبثاقها ، وأن هذه الطاقات والهبات حين تتحرر من القيود واصطناع الحدود وكبت الجهود ، سترى الدنيا بأسرها أن هذه الأمة المؤمنة تزدان بفضائلها وتفى لها وتحرص عليها ، ليست بعاجزة عن التمكن من الصدارة فى مجال السيادة والقيادة بين العالمين .

وفى وسط العام الماضى أرادت جامعة الدول العربية أن تقوم بجانب من واجبها نحو إمارات ساحل عمان ، فقام وفد منها بزيارة هذه الإمارات ، مبتدئاً بالشارقة ، وقوبل هناك مقابلة الأخوة والمحبة ، وانتهى اللقاء بتقرير معاونة مالية من الجامعة للنهوض بهذه الإمارات ، وفتح مكتب رئيسى لهذا الغرض بالشارقة التى سارع حاكمها بتقديم موافقة كتابية على ذلك للجامعة ، وأقنع حكام الإمارات بأن يفعلوا مثل ذلك فاستجابوا ؛ وهنا جن جنون الاستعمار البريطانى ، فعمد إلى حديده وناره ، وفعل فعلته التى فعل وكان من الآثمين ، وفى ظلام الإرهاب وظلال الخراب اختطف حاكم الشارقة ونفاه ، وأغلق دونه بلده وحماه ، وإذا القاهرة بلد الأحرار تتفتح منها أمامه الأبواب ، ليناضل معها وتناضل معه ، حتى يلفظ الاستعمار اللئيم آخر الأنفاس ، فنستريح منه ويستريح معنا سائر الناس .

إنه يلوح لنا أن الاستعمار البريطانى مازال يعيش بعقلية قرون مضت أو أجيال سلفت ، وعلى الرغم من أن بعض شياطين الاستعمار يحاولون اصطناع أساليب أو ألاعيب تبدو فى صورة مموهة لاستعمار جديد ، فإن هذا الاستعمار الإنجليزى قد فاته أن الشعوب قد استيقظت لحقوقها ، وأن الأمم قد انبعثت لواجباتها ، وأن ما كان ممكناً للاستعمار بالأمس فى ظل التمويه والخداع والاحتيال ، لم يعد ممكناً فى دنيا الحرية والكفاح والنضال ؛ وهذه بريطانيا مثلا ، كأنها توهم نفسها بأنها تضحك على العرب وعلى الناس ، فتزعم أنها ستمنح الجنوب العربى المحتل استقلاله بعد عامين ، ثم نراها فى الوقت نفسه تعد عدتها لنقل قاعدتها الحربية وقواها الاستعمارية وأسلحتها العدوانية إلى البحرين والشارقة وساحل عمان ، وكأنها تنقل بغيها من ركن فى الدار العربية إلى ركن آخر منها . فأى عربى حر أبى يرضى عن ذلك الخداع الخسيس اللئيم ، وكيف يرضى أبناء هذه البقاع العزيزة الغالية أن

يقبلوا لأنفسهم ما أباه أشقاؤهم من تبعية وخضوع للاستعمار الدخيل ؟ وإذا كانت الشهوات أو المطامع تغوى أفراداً أو تضل آحاداً ، فإن الشعوب الأبية فى أقطار الأمة العربية تناديها عروبتها وعقيدتها بألا تسكت على الضيم ، أو تنام على الذل : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . وإن من واجب كل فرد فى الأمة المعتزة بربها ، البصيرة بكتابها ، أن يضع يده فى أيدى إخوته الثوار الأحرار فى جنبات هذا الوطن الكبير ، ليجهزوا على بقايا الاستعمار فى نواحيه ، مصممين على إحدى الحسنيين ، فإما حرية تؤدى إلى عزة وسيادة ، وإما جهاد تزينه تضحية وشهادة ، وكل منهم يردد قول الله سبحانه وتعالى : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » .

يقول الشاعر :

سأحمل روحى على راحتى وأمضى بها فى طريق الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يسوء العدى

وهذا هو الطريق الكريم الذى تختطه كل أمة كريمة جديرة بنصر الله وتأييدها : « لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن أمتنا المؤمنة أمة واحدة ، هكذا شاء ربها جل جلاله : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وإن قضايانا كلها متضامنة متساندة ، هكذا قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد

بعضه بعضا » . وإن آلامنا تجمعنا وتصهرنا ، مهما كان مبعثها ، فإذا صرخ منكوب بالاستعمار على ضفاف الخليج استجاب له بالغوث والنجدة أشقاء له على ضفاف النيل : كما قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقال الشاعر :

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقى علـى أشجانـه

كلمـا أن بالعـراق جريح لمس الشرق جنبه فى « عمانه »

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الاستعمار الذى يفسد فى الأرض ، ويهلك الحرث والنسل فى الجنوب المحتل والشارقة وساحل عمان ، يجب أن يلفظ آخر أنفاسه ، فقد كفانا منه ما لقينا على أيديه الأثيمة من آلام ونكبات ، وإذا كنا نشكو مر الشكوى من رواسب الفساد فى العلاقات الاجتماعية بيننا فإن من واجبنا أن نتذكر أن الاستعمار البغيض هو الذى عاون على إيجاد هذا الفساد ، وهو الذى دفع بأعوانه وعملائه إلى سوء الاستغلال وخبث الانحراف ، وإذا كنا نجاهد

لإصلاح الفساد الذى أصاب هذه العلاقات فى الداخل ، فإننا لن نتوانى عن اقتلاع جذوره وبذوره الباقية فى شخص الاستعمار ، والله ولى المجاهدين .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين ، اللهم إنا نسألك بفضلك أن تؤيد الإسلام والمسلمين ، وأن تعز بحولك كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين العاملين . . . الخ . .

فى ذكرى الجلاء[1]

الحمد لله عز وجل ، هو ولى المؤمنين ، وقاهر المجرمين : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بالصدق واعتز بالحق ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، والمستمسكين بدعوته وسنته : « لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا الآن نحيا على مقربة من ذكرى الجلاء ، حيث استطعنا منذ سنوات بعزيمتنا ووحدتنا أن نطرد أعداءنا من بلادنا ، وأن نطهر الأرض التى وصفت بأنها كنانة الله فى أرضه ممن فرضوا عليها الذل والهوان ، وسعوا فيها بالفساد والإجرام ، وبهذا تحقق الجلاء الذى طالما رددته الشفاه ، وتعلقت به الهمم ، وتطلعت إليه الآمال ، وجعلته الأمة مفتاح عزتها ، وعنوان كرامتها ، حتى أخذ قائلها يردد :

والله ما دون الجلاء ويومه يوم تسمية الكنانة عيدا !

ومما يجب أن يستقر فى أذهاننا ، ويتمكن من صدورنا ، ويسيطر على تفكيرنا أن الإسلام العظيم هو ذخيرتنا وعدتنا ، وأن تاريخه المجيد هو قدوتنا وأسوتنا ، وأن سيرة نبيه الأمين هى مددنا وشعلتنا ، ولو رجعنا البصر ، إلى صدر الإسلام حيث كان يعلم الدنيا أستاذها محمد عليه الصلاة والسلام ، لرأينا أجدادنا قد ضربوا لنا القدوة فى هذا المجال ، فقاموا بإجلاء أعدائهم

---

(١) ٩ صفر سنة ١٣٨٤ هـ — ١٩ يونية سنة ١٩٦٤ م .

الأخساء أكثر من مرة لتسلم لهم دعوتهم ويستقر كيانهم ويمضوا فى تأسيس المجتمع المثالى الفاضل الذى يقوم على التوحيد والوحدة ، وعلى الأخوة والمحبة ، وعلى الكرامة والعدالة ؛ فهؤلاء هم المسلمون يبدءون حياتهم فى المدينة عقب الهجرة ، وهذا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه يرى اليهود فيها طائفة لها عددها وعدتها ، وعلى الرغم من أنه يعلم بنور النبوة وضياء اليقين أنهم أهل غدر وخيانة ، فقد أراد أن يطوقهم بطوق من فضله واختياره ، فيعطيهم فرصـــة لعلهم يحسنون استخدامها ، وإلا فإنها تكون الدليل على خستهم ولؤمهم ؛ فعقد معهم معاهدة ضمن لهم فيها حريتهم وحمايتهم بشرط ألا يغدروا أو يفجروا ، ولكن لؤمهم لم يدعهم يسيرون على الصراط ، فأخذوا يدسون للإسلام ، ويثيرون الشبهات حوله ،ويكيدون للرسول ، ويتجسسون على المسلمين لحساب المشركين ، وينقضون العهود المؤكدة والمواثيق المشددة ، وكان الذين تولوا كبر هذا الإثم فى أول الأمر منهم هم بنو قنيقاع ، فرأى الرسول أنهم يحاولون العصف بالمجتمع الإسلامى الناشئ ، ويقوضون بلؤمهم بنيان الدعوة الطاهر ، وأنه لابد من القضاء على دسائسهم ومفاسدهم ، فحاصرهم وأرغمهم على الجلاء بعد أذن لهم أن يأخذوا ما يستطيعون حمله من أموالهم ما عدا السلاح ، وتم بهذا أول جلاء حققه المسلمون فى مجتمع المدينة .

ولكن الأفعى التى رحلت تركت من خلفها أختاً لها تمثلت فى « بنى النضير » وهم من اليهود الذين كان بينهم وبين المسلمين معاهدة ، وذهب الرسول إليهم مع عشرة من أصحابه لينفذوا شرطاً من شروط هذه المعاهدة ، وهناك دبروا مؤامرة لاغتيال الرسول وهو ضيف فى ديارهم ، وأعلمه الله بذلك وكتب له النجاة ، ولم يكتف المجرمون بذلك بل كان زعيمهم يفحش فى هجاء الرسول وشتمه ، واتصل جماعة منهم بالمشركين وتآمروا معهم ضد

الرسول والمسلمين ، فأعلن الرسول إلغاء العهد بينه وبينهم ، واستعد لقتالهم ، وأعطاهم مهلة قدرها عشرة أيام ليفارقوا جواره ، ويبتعدوا عن حماه ، ولكنهم اغتروا بأنفسهم وتحصنوا بحصونهم ، فحاصرهم النبى ما يقرب من شهر ، ولما يئسوا من معاونة المنافقين لهم نزلوا على شروط المسلمين ، فأخذوا كل ما استطاعت دوابهم أن تحمله غير السلاح ، ولو أنهم تلكأوا لساء بهم المصير : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار » . ولقد تركوا من خلفهم أموالا لها قيمتها ، ومغانم لها مكانتها ، فانتهز الرسول عليه الصلاة والسلام الفرصة ، ووزع هذه الغنائم على المهاجرين الفقراء الذين ضاعت أموالهم وديارهم فى مكة ، حتى يقتربوا فى الحالة المادية من إخوانهم الأنصار الذين كانوا مستقرين فى أموالهم وديارهم بالمدينة ، وبذلك تحققت مرحلة هامة من مراحل العدالة الاجتماعية فى الإسلام . ولقد تجلى هنا الموقف الكريم الرائع الذى وقفه الأنصار ، فعلموا به الدنيا كلها كيف تعلو همم الرجال ، وكيف تسمو الأخوة بين الأبطال ، وكيف يصوغ الإيمان النفوس صياغة جديدة شعارها التضحية وعمادها الإيثار ، فقد قال النبى للأنصار : إن شئتم قسمت للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم نقسم لكم شيئاً من الغنيمة . فقالوا : بل تقسم لهم يارسول الله من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة فلا نشاركهم فيها ! . وأصغت الدنيا لتتعلم ، والتفت الزمان ليتلقى ويتفهم ، وتردد تكريم الله العلى الأعظم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

ثم يأتى الجلاء الثالث الكبير ، فقد ذهب بقايا اليهود إلى المشركين ، وحرضوهم على قتال المسلمين ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم ، وإن دينكم — وهو عبادة الأصنام ! — خير من دين محمد — الذى يدعو إلى التوحيد ! —

وأنتم أولى بالحق منه . ومن وراء هذا أخرجت القبائل كلها ، فكانوا أكثر من عشرة آلاف ، وأقبلوا نحوا المدينــة كالجراد المنتشر ، وسمع المسلمون بالحملة الآثمة ، وإنهم الثلاثة آلاف فقط ، فتشاوروا فاهتدوا إلى رأى سلمان الفارسى بحفر الخندق ، وسارع الجميع إلى العمل فيه ، لم يتخلف عنه كبير ولا صغير ، وشارك النبي بنفسه ، فحفر بالفأس ، وحمل التراب ، ورفع الأحجار ، وحطم الصخور ، واحتمل البرد والجوع ، وربط على بطنه من قلة الغذاء ، وجاءت الأحزاب الكافرة فطوقت المدينة من كل جانب ، وعظم البلاء ، واشتد الخوف : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شــديداً » حتى قال بعض المنافقين : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لايأمن أن يذهب إلى الغائط . وظهر اللؤم اليهودى على أصــله ، فنقضت ، بنو قريظة عهــدها مع المسلمين ، وقطعت المدد والزاد عنهم ، وفتحت باباً أمام الأحزاب لتدخل منه المدينة فتقضى على المسلمين القضاء الأخير ، لولا لطف الله العليم الخبير ، فقد أقبلت عناية الله لتنفيذ المسلمين ، فإذا الرياح والأمطار والغبار والرعود والبروق وجنود لله كثيرة لا ترى قد اقتلعت الخيام ، وحطمت القدور ، وزلزلت الأحزاب ، وردتهم على أعقابهم خاسرين : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خــيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً » . ثم جاء دور التأديب للخونة الغادرين ، فحاصرهم الرسول واستسلموا بعد قليل ، ونفذ فيهم رسول الله حكم من اختاروه وهو سعد بن معاذ حيث قضى بأن يقتل المقاتلون منهم ، وتسبى ذريتهم ، وتؤخذ أموالهم ، ويرحلوا عن الأرض الطاهرة حتى تستريح من لؤمهم وغدرهم وخبيث مسعاهم بين المؤمنين ، وكذلك كان !...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا كان أجدادنا قد فرضوا الجلاء على أهل الخيانة والغدر ثلاث مرات ، واستطعنا منذ سنوات أن نفرض الجلاء على الذين احتلوا بلادنا وأذاقونا البلاء والعذاب ، فيجب علينا أن نتطلع إلى يوم قريب نفرض فيه الجلاء على من دمغونا بالذل والعار . واغتصبوا فلسطين فى ليل الدناءة والخسة ، يوم تحقق هذا يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى ذكرى معركة النصر(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو خير الهادين ، وأقوى الناصرين « وكفى بربك هادياً وناصراً » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله « يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة وقائد الملحمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهر من آله وذريته ، والمخلصين من أهل رفقته وصحبته ، والصادقين من أتباع دينه وطريقته « فأولئك تحروا رشدا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن للنصر روعة ، ولذكراه متعة . والذكرى تنفع المؤمنين ، وإذا كنا نعيش هذه الأيام فى نسمات الذكرى الأولى لمعركة العاشر من رمضان (السادس من أكتوبر) فإننا نتذكر — والأمل ملء قلوبنا ، يعمر جوانحنا — أن القرآن الكريم الذى حثنا حثاً قوياً على الجهاد والنضال والصبر : قد حدثنا أيضاً عن النجاح والفوز والنصر ، فهو يفتح أبواب الرجاء الحلو أمام المؤمنين المناضلين فيقول لهم مثلا : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . ويتحدث عن بشرى النصر وجلوة الفتح ، فيقول : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » . ويصور روعة الفوز والتوفيق ، وما ينبغى أن يصحبها من شكر لله ، وتحدث بنعمته ، فيقول سبحانه : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

---

(١) أكتوبر سنة ١٩٧٣ م .

ومن جميل صنع الله تعالى بعباده وبلاده أن جاءت معركة العاشر من رمضان (السادس من أكتوبر) كموعد مع الأقدار ، لتكون إيذاناً بجولة كبرى فى ميدان الحق والصدق ، تكون فيها بإذن الله تحرير للديار وأخذ بالثأر ، ممن بغوا علينا وطغوا فى البـــلاد فأكثروا فيها الفساد ، فإذا بكتائب العلم والإيمان ، تخرج إلى ساحة النضال ، أرواحها على أكفها ويقينها فى قلوبها ، وربها من فوقها ، لا تبالى أو قعت على الموت أم وقع الموت عليها ، وإذا النصر يواكب هذه الكتائب منذ الساعات الأولى ، وإذا هى تتخطى القيود وتتحدى السدود ، وتتابع خطواتها على طريق الرجولة والبطولة ، لتثبت للعالم أجمع أنها من سلالة أولئك الأجداد الذين أضاءوا بالإيمان والنور مشارق الأرض ومغاربها .

وإذا كان أتباع محمد عليه الصلاة والسلام قد رفعوا فى صدر الإسلام رايات العزة وألوية الكرامة ، ولم يكتفوا فى ذلك بأن يحرروا أنفسهم وأوطانهم ، بل انطلقوا بعد هذا يمكنون الضعفاء من القوة ، والمستذلين من العزة ، والمغلوبين على أمرهم من القيادة والسيادة ، فإن أخلافهم حتى اليوم وإلى ماشاء الله قادرون بفضل الله ، على أن يتابعوا مسيرة الأسلاف ، وأن يحققوا من النصر ما هو جدير بأنصار الإيمان واليقين ، تحقيقاً لوعد الله الذى لا يتخلف : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وإذا كنا قد تعودنا منذ أمد طويل أن نلقى ظلال التكريم والتعظيم على معارك الإسلام الأولى — وهى بذلك جديرة — فمن حقنا أن لا نيأس من روح الله لأنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ومن حقنا ألا نبخس أنفسنا

نصيبها من الثقة وحسن الظن، ومن حقنا أن نعتقد وجود الخير فى أمتنا، فنثق أننا بفضل الله وتوفيقه قادرون على أن نفعل الكثير ونصل إلى الكثير، ولعل معركة العاشر من رمضان (السادس من أكتوبر) تعطينا برهاناً على أن نور الحق فى صدورنا باق قائم، وأن الطريق إلى النصرمفتوح ممدود، وأن وعد الله واضح لا يتخلف، فهو يهب نصره لمن يقبل عليه، ويستعين به، ويعد كل ما يطالب به من أسباب للتمكين والتأييد، فهو القائل لعباده : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بعد عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » . وإذا ما بذل المؤمن جهده، وجاهد جهاد الصادقين كتب الله له النصر والأجر، ولذلك قال عز من قائل : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »، ويقول : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » .

ولعله من صنع الله العجيب، الدقيق الرمز، العميق الإشارة أن تقع معركة العاشر من رمضان (السادس من أكتوبر) خلال الشهر الجليل العظيم الذى وقعت فيه أكثرمن أربعة عشر قرناً غزوة بدر الكبرى، وهى أول معركة كان فيها الصدام الحربى بين كتائب الرحمن وعصائب الشيطان، فقد كانت هذه الغزوة الباهرة خلال شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، حيث رأينا فيها أمثال ذلك الصحابى المجاهد الذى يقول فى أول المعركة : والله لئن بقيت حتى آكل التمرات إنها لحياة طويلة، وينطلق حيث موطن الشهادة وهو يردد قوله فى إيمان ويقين :

سعياً إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

ولعل الله جلت قدرته وعلت حكمته قد أراد بذلك أن يربط الحاضر بالماضى ، وأن يربط الأخلاف بالأسلاف ، حتى يتصل الخير والنصر فى هذه الأمة المؤمنة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان فضل الله علينا عظيماً ، حينما كتب لنا هذا الموقف الصادق فى معركة العــاشر من رمضــان ، وهو يوم له ما بعــده بإذن الله ، وأكبر الظن بهذه الأمة أن تظل على درب الكفاح حتى تستكمل حريتها وعزتها ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الامام أبو حنيفة[1]

الحمد لله عز وجـــل، أعز دينه بالأخيار من خلقه ، وأوسع لهم الطيبات من آلائه ورزقه،والله ذو الفضل العظيم . أشهد أن لا إله إلا الله، يهدى إلى الرشد ، ويقود إلى الحكمة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سيد الداعين وإمام المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هناك من يكيد للدين (بخبث الشياطين) فيحاول التهوين من شأن الفقه الإسلامى ، ويقول إن أئمـــة المذاهب الأربعة بشر كبقية الناس يخطئون وينحرفون ، ولا ينبغى أن نسلم بآرائهم وأقوالهم ، وهذا سعى خفى خبيث يراد منه فى الواقع هدم ذلك التراث الإسلامى الضخم الذى بناه أولئك الأئمة الأعلام فى صبر وجلد ، وبنور وإيمان ، وباستمداد قويم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ؛ كما يراد منه التهوين من شأن هؤلاء الأئمـــة حتى لا يقعوا من نفوس المسلمين موقع التجلة والاحترام ، وبذلك التهوين يهون فى نظر الناس ما اشتغل به هؤلاء الأئمة من فقه وتشريع ، والكثيرون منا لا يعرفون شـــيئاً ذا بال عن ســـير أولئك الأعلام ، مع أنهم هم الذين قعدوا الفقه ، وفصلوا الشريعة ، ومهدوا الطريق أمام المسلم ليعرف تفاصيل الأحكام فى الأصول والفروع ، وفى العبادات والمعاملات ، ومن واجبنا أن نحيط علماً بجوانب من حياتهم ، لنعرف قدرهم ، ونحاول التشبه بهم : إن التشبه بالرجال فلاح .

---

(١) ٢٢ شوال سنة ١٣٨٤ هـ ــ ٦ مارس سنة ١٩٦٤ م .

وأول هؤلاء الأئمة من ناحية الميلاد والسبق فى الزمن هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الذى عاش أكثر من سبعين عاماً يتلو كتاب ربه ويتدبر آياته ، ويطلب سنة الرسول ويعمل بهديه ، ويقدح زناد فكرة تأملا فى حياة الناس وأمورهم ليستخرج لها ما يضبطها من أحكام إسلامية مستمدة من هدى الله والرسول ، والذى كان يضرب به المثل فى الاجتهاد ودقة الرأى وعمق الذكاء وقوة الحجة ، حتى قيل إنه لو أراد أن يقيم الدليل على أن العمود فى المسجد من ذهب لاستطاع ، وهذا كلام لا يراد به حقيقته ، وإلا كان الأمر تمويها وتضليلا ، وإنما يراد به المبالغة فى تصوير ذكائه وألمعيته .

وعلى الرغم من هذه العبقرية لم يكن أبو حنيفة كما يزعم المفترون مبتدعاً أو قائلا فى الدين ماليس منه ، بل كان متبعاً متمسكاً بأصول دينه وقواعد ملته ، وحسبنا أن نسمعه يقول : « آخذ بكتاب الله تعالى ، فما لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا لم أجد فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول أصحابه ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم فهم رجال ونحن رجال » .

وكان رجلا مخلصاً للعلم أميناً فيه ، لا يغتر برأيه ولا يتعصب لفكرته ، بل كان يبحث عن الحق جاهدا ، فإذا عرفه بقدر طاقته واجتهاده أعلنه ثم لايحسب بعد ذلك أنه معصوم على يقين ، بل كان يقول عن مذهبه : « قولنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » .

ولقد شاهد أبو حنيفه بعض الذين يتجادلون ويحرص كل منهم على أن ينتصر ، وعلى أن يظهر خطأ مجادله ، فعاب ذلك الحرص على الانتصار فى الجدل ، وفضل عليه الحرص على الاهتداء إلى الحق ولو كان عن طريق

الخصم المجادل ، فقال لهم : « كنا نناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا (أى من يجادلنا ويناظرنا) وأنتم تناظرون وتريد ون زلة صاحبكم ، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه » وهو يريد من يستحل هذا ويصر عليه ويلج فيه لجاج الفاسقين .

وكان أبو حنيفة مثالا من أمثلة الورع ، فهو مثلا يحرص على أن يأكل من ثمرة جهده وسعيه ، وأن يجمع إلى إمامته فى الفقه والدين حرفة يرتزق منها ، فكان يتاجر أميناً فى تجارته ، عفيفاً فى كسبه ، لا يخدع شـــارياً ولا يخون مساوماً، بل يظهر مافى سلعته من عيب ويرشد المشترى إلى ماهو خير له .

ولقد وكل أبو حنيفة إلى شريك له فى التجارة أن يبيع ثياباً فيها عيب ما ، واشترط أبو حنيفة على الوكيل ألا يبيعها ، إلا بعد أن يظهر عيبها لمن يريدها ، وحدث أن باع الوكيل هذه الثياب ولم يذكر عيب بعضها ناسياً ، وصعب على أبى حنيفة أن يعرف مشتريها ، فتصدق بالثمن كله لوجه الله تعالى . ومن دلائل حرصه على التقوى ورضا الله عز وجل والفرار من الإثم والسحت أنه كان يقول : « إذا ارتشى القاضى فهو معزول وإن لم يعزله الإمام » ، .

ولقد حدث نزاع ذات يوم بين الخليفة المنصور وزوجته ، فاحتكما إلى أبى حنيفة ليحكم بينهما ، وكان الحق فى جانب الزوجة ، فأبانه الإمام ووقف فى جانب الزوجة ولم يجبن عن مخالفة المنصور ، فلما انصرف أبو حنيفة بعثت إليه الزوجة برسول يحمل له بعض الهدايا ، فردها الإمام كارها لها وقال للرسول : « أقرئها سلامى وقل لها : إنما ناضلت عن دينى ، وقمت ذلك المقام لله ، لم أرد بذلك تقرباً إلى أحد ، ولا التمست به دنيا » .

ولقد طلب منه المنصور أن يتولى القضاء ، فخاف الإمام من ذلك ، لأنه خشى أن يعجز عن الوفاء بحقوق هذا المنصب الخطير ، أو يتأثر فيه بغير الحق المطلق ، فرفض ، فحلف الخليفة عليه أن يفعل ، فحلف الإمام أن لا يفعل ، فقال له صاحب الخليفة : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ فقال : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر منى على كفارة أيمانى ؟ . . فأمر المنصور بحبسه ، ودعاه بعد مدة وعرض عليه المنصب فقال : إنى لا أصلح له . فقال له : كذبت . فسارع أبو حنيفة قائلا : قد حكمت على بأنى لا أصلح ، لأنك نسبتنى إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً كما وصفتنى فالكاذب لا يصلح للقضاء ، وإن لم أكن كاذباً فقد صدقتك فى أنى لا أصلح له ! . ومع هذا الجواب المفحم ذاق أبو حنيفة من الأذى أهوالا ، وظل يقول للخليفة المنصور : يامنصور ، اتق الله ولا تول إلا من يخاف الله تعالى ، والله ما أنا مأمون فى الرضا فكيف أكون مأموناً فى الغضب ؟ !

وهكذا أرانا أبو حنيفة من نفسه رجلا ورعاً تقياً يتحرز من الخطأ ، ويعتصم بحبل الهدى ، ولا عجب فهو الذى كان يحيى ليله بقرآن ربه والصلاة لخالقه ، حتى كان جيرانه يسمعون فى جوف الليل بكاءه وهو يناجى الله تعالى ويعبده ، ولقد قضى إحدى لياليه ، يردد قول القرآن : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » وكلما رددها بكى وتضرع ، وفى ليلة أخرى يكرر قول القرآن : « فمن الله علينا فوقانا عذاب السموم » وظل يرددها حتى مطلع الفجر .

ومع هذا الصلاح وهذه الاستقامة وتلك الجهود الجبارة التى قدمها الإمام الأعظم وخدم بها قرآن ربه وسنة نبيه وأحكام شريعته ، عاش وهو غرض لسهام المتطاولين وافتراءات الآثمين وحقد الحاقدين وبغى الكائدين ، ولكن الإمام يصبر ويتحمل بالإيمان واليقين ، ويدرك أن هذه سنة الأحياء ،

فهم مولعون بهدم القمم ومناهضة النابغين ، ولذلك كان الإمام يردد :

إن يحســـدونى فإنى غــير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فــدام لى ولهم ما بى ومــا بهــم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد ! ! !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تلك لمحة عاجلة (عن إمام من أئمتكم) ليس فيها الإحصاء أو الاستقصاء ، ولكن فيها لفت الأبصار وتنبيه البصائر ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وإن لهذا الإمام قرناء ونظراء جاهدوا فى سبيل الحق ، وناضلوا نضال الصدق ، ومن واجبنا أن نتعرف إليهم ، وأن نقتدى بهم ، وأن نزداد لهم تقديراً وتمجيداً ، ليتصل بيننا حبل الارتباط بهدى الله ، ويمتد أمامنا طريق التفقه فى دين الله ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

الامام الشافعى[1]

الحمد لله عز وجل ، نصر دينه بالأخيار من عباده ، وأيدهم بفيض نعمته وإرشاده : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل الذكر ووعد بحفظه ، وشرع الدين وتكفل ببقائه ، والله خير الحافظين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ضرب لنا القدوة وأوضح الأسوة ، فكان خير مبعوث إلى العالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وجنده وصحابته ، والناشرين لدعوته : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد سبق أن عرفنا لمحة عن الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان أول أئمة الفقهاء فى التاريخ ، وكان ذلك بمناسبة ما يدبره أعداء الإسلام تحت جنح الظلام من كيد أثيم للتراث العظيم المتمثل فى مذهب هؤلاء الأعلام ويجدر بنا اليوم أن نعرف لمحة مماثلة عن الإمام الثانى محمد بن إدريس الشـــافعى الذين يحلو عنه الحديث ويطول ، حتى يمتد أمامنا السبيل ، لأن الشافعى ولد فى غزة ، وهو من أسرة فلسطينية رقيقة الحال ، وفلسطين هى اللحن الحزين الباكى فى أسماع المسلمين ، وهى الفلذة العزيزة الغالية المقتطعة من أكباد المؤمنين ، وفيها أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وإليها كان الإسراء ، ومنها بدأ معراج سيد المرسلين إلى الله رب العالمين .

والعجيب أن أسرة الشافعى كانت أسرة فقيرة مشردة ، ضاقت عليها رحاب دارها فهاجرت ولجأت إلى غير موطنها ، ولكنها اتخذت من شرف أصلها وطيب عملها وحسن أملها فى الله خير عوض عما فاتها من جاه الحياة

---

(١) ٦ ذى القعدة سنة ١٣٨٣ هـ ــ ٢٠ مارس سنة ١٩٦٤ م .

وعز المكانة ، ولقد نشأ الشافعي يتيما يواجه المتاعب والمصاعب منذ بداية الطريق بلا والد ، حتى إنه كان يضطر إلى الكتابة على قطع العظام ، ومع ذلك هيأ له إيمانه ويقينه أن يصير بعد ذلك أحد الأئمة الأعلام الذين يزدان بهم تاريخ الإسلام ، وحفظ الله عليه ماء وجهه وشمم إبائه وعزته ، حتى كان يردد :

أمطرى لؤلؤا سماء سرنديب وفيضى جبال تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

ولقد عرف الشافعي من العلوم ما عرف ، وتألق من ذهنه ما تألق ، وفتح الله عليه من أبواب النبوغ ما فتح ، ومع ذلك ظل متبعاً لا يبتدع ، وبقى متقيداً بسنة خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، خادماً للحديث النبوى فى غيرة وصدق وأمانة ، حتى لقبه معاصروه بذلك اللقب الجميل الجليل فقالوا عنه إنه « ناصر الحديث » ، وكان الشافعي يقول : « إذا صح الحديث فهو مذهبى » ويقول : « أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أقل : نعم على الرأس والعينين » ؟ ويقول : « مهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل ، فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولى » .

وهذا التقيد المتين بالسنة النبوية لم يمنع الشافعي أن يصول ويجول فى ميادين الفقه ، حتى استطاع أن يترك من خلفه هذا المذهب العظيم الذى تتبعه الملايين فى شرق البلاد وغربها ، وأن يبلغ مرتبة المجدد فى الإسلام حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : « يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم

أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها ، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الثانية » وجاء الإمام السيوطي بعد ذلك فنص صراحة على أنه الشافعي في كتابه « تحفة المهتدين في طبقات المجددين » .

وكان الشافعي مثلا من أمثلة الاجتهاد في الخير والانتفاع بالوقت ، فهو يقضي نهاره في عمل دائب من أجل دينه ودنياه ، ثم يقسم ليله ثلاثة أقسام ، فثلث لكتابته الفقه ، وثلث للصلاة والتعبد ، وثلث للنوم ، وهو دائماً يعتصم بحبل الله القوي المتين ، ويلجأ من التقوى والورع إلى حصن حصين .

ويظهر أنه قد انتفع بوصية الإمام مالك بن أنس حين قال له : « إن الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية ، واتق الله فإنه سيكون لك شأن » واستجاب الفتى الناشئ في طاعة الله لدعوة الخير ونصيحة الحق ، فجعل بينه وبين اللهو والباطل حجاباً كثيفاً ، ومضى إلى غايته النبيلة لا يلتفت إلى سواها ، فكان من شأنه ما كان ، وهداه الله تعالى بفضل تقواه إلى كثير من الخير والفضل ، وأشار إلى بعض هذا حين تحدث عن أمره مع الإمام وكيع بن الجراح ، فقال :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأفهمني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي !

وأكثر الناس يخلدون إلى الأرض التي ولدوا فيها لا ينتقلون منها ولا يرحلون عنها ، فتظل حياتهم ضيقة هينة ، ولكن الشافعي كان رحالة يدرك أن السير في الأرض والتنقل بين الأقطار مما يورث الخبرة والفطنة وصدق التجربة ، ولذلك ظل خلال حياته يتنقل من فلسطين إلى الحجاز

إلى اليمن إلى العراق إلى مصر ، وهو فى كل جولة يستفيد علماً ، أو يستنبط حكماً ، أو يكتسب سعة أفق ، وكانت همته من وراء هذا التنقل تحفزه على احتمال المشقات والأزمات ، وتربط بصره ببعيد الآمال والغايات ، ولذلك كان شعاره فى الارتحال قوله :

سأضرب فى طـول البلاد وعرضها   أنال مرادى ، أو أموت غريبـا
فإن تلفت نفسى فلله درهـــا   وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ولم تستطع هذه الأسفار باختلاف أجوائها وأحيائها وأهوائها أن تنال من أخلاق الشافعى أو استقامته ، بل كان يقول : « والله لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته » ، وكان يحرص على طلب الحق أينما كان ، بلا جدال أو مراء ، بل يفرح إذا ناظر أحداً وهداه هذا المناظر إلى ما لا يعلم أو انتصر عليه ، ولذلك قال الشافعى : « وددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الله تعالى الحق على يديه » . ولا عجب فى أن يقول الشافعى هذا ، فقد هيأ الله تعالى نفساً كريمة تفيض بالحكمة وتنبض بالرفعة .

ولذلك نقل عنه التاريخ كلمات تعتبر أصولا عريقة فى مكارم الأخلاق ، كأن يقول : « ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته » ويقول : « من صدق فى أخوة أخيه قبل علله ، وسد خلله ، وغفر زلله » . ومع كل هذه الجهود التى بذلها الشافعى فى سبيل الله والدين والأمة كان شديد الخوف من حساب الله وعقابه ، ولقد قال له الربيع وهو على فراش الموت : كيف أصبحت ؟ فأجاب الشافعى : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولإخوانى مفارقاً ، ولكأس المنية شاربا ، ولسوء أعمالى ملاقياً ، وعلى الكريم وارداً . ثم بكى . ولم يمكث إلا قليلا حتى لقى ربه رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن التشبه بالرجال فلاح ، وهذا إمام من أئمتكم فيه لكم قدوة صالحة وأسوة طيبة ، فلنقرأ سير أولئك الرجال ، ولنستمسك بالذى استمسكوا به من هدى الرسول ودعوة الإسلام ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

مالك بن أنس[1]

الحمد لله عز وجل ، يزكى بفضله الأخيار المتقين ، ويؤيد بقوته الأبرار المجاهدين : « وإن جندنا لهم الغالبون » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، ماز الخبيث من الطيب : « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم » ؟ . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بالحكمة والعلم المبين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته ، وأهل صحبته ، وجنود دعوته : « أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا كنا قد عرفنا من قبل لمحات سريعة عن إمامين من أئمة الفقه والهدى ، وهما أبو حنيفة والشافعي ، فما أجدرنا بأن نواصل التعرف على بقية أولئك الأعلام الذين كانوا رواداً على طريق الاجتهاد والاستنباط لأحكام الإسلام العظيم ، ونحن الآن نقبل على إمام دار الهجرة ، وجامع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه ، وهو الذى شاب شيبة مباركة فى خدمة الإسلام ، وعاش قرابة تسعين عاماً ، زانها بالقول الطيب والعمل الصالح ، فانطبق عليه قول النبي : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

ولقد نشأ مالك محباً للعلم مقبلا عليه مغترفاً منه ، على الرغم من فقره ورقة حاله ، حتى اضطر أن ينقض سقف بيته ، ويبيع خشبه ، ليستطيع مواصلة التعلم ، ولكن الله أكرمه بعد ذلك ، فأقبلت عليه الدنيا بعد أن اعتز بالدين ، فكان يتمتع بالحلال الطيب فى الطعام والثياب والشراب

---

(١) ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٨٣ هـ — ١٠ ابريل سنة ١٩٦٤ م .

والطيب ، وكان يحرص على إظهار نعمة الله عليه استجابة لهدى الحق سبحانه : « وأما بنعمة ربك فحدث » وهدى نبيه صلوات الله عليه : « إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

ولقد ظهر النبوغ مبكراً فى الإمام مالك ، واستطاع بعد سنوات موصول ليلها بنهارها فى طلب العلم أن يجلس للتدريس والإفتاء ، وهو شاب ، يافع ، ولم يجلس هذا المجلس حتى شهد له سبعون شيخاً من أهل العلم أنه جدير بذلك ، وهذا يدلنا على أن أولئك الأئمة لم يتهجموا على القول فى دين الله تهجماً ، ولم يقتحموا باب الفتوى اقتحاماً ، بل أعدوا أنفسهم لهذا الأمر الخطير أحسن إعداد ، والتزموا فيه الحق والصدق والأمانة والإخلاص ، ولم يطلبوا به الدنيا أو الزلفى ، بل طلبوا به عزة الإسلام وجميل الثواب عند الله ، ولذلك أكرموا عالم الدين عن أن يهان ، وصانوه خير صيانة ، وترفعوا به عن مواطن التذلل والإهانة .

وهذا هو مالك بن أنس يبعث إليه هارون الرشيد يقول له : « يا أبا عبد الله ، ينبغى أن تختلف إلينا [أى تزورنا] حتى يسمع صبياننا منك الموطأ » والموطأ هو الكتاب الذى ضمنه مالك أحاديث الرسول ، فرد عليه مالك بقوله : « أعز الله أمير المؤمنين ، إن هذا العلم منكم خرج ، فإن أنتم أعززتموه عز ، وإن أذللتموه ذل ، والعلم يؤتى ولا يأتى » . فرضى الرشيد بهذا ، وقال لولديه : اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس . فقال مالك : بشريطة ألا يتخطيا رقاب الناس ، ويجلسا حيث ينتهى بهما المجلس ، فحضرا على هذا الشرط . وكذلك لما حج الرشيد وكان مالك بالمدينة ، طلب منه الخليفة أن يحمل إليه كتاب الموطأ ليسمعه ، فذكره مالك بأن حق هذا العلم أن يسعى إليه طالبه ، فقال هارون : « والله لا نسمع إلا فى بيتك » .

وكان مالك يخص الحديث النبوى الشريف بمزيد من التوقير والإجلال ، فإذا جاء الناس يريدون الدرس فى الفقه والفتوى والعلوم خرج إليهم وتحدث معهم ، ولكنه إذا أراد الخروج لرواية الحديث الشريف والسنة النبوية المطهرة اغتسل وتطيب ولبس ثياباً نظيفة ، وتعمم وخرج بوقار وخشوع ، وتحدث بهيبة وخشية ، حتى قيل إن عقرباً لدغته وهو يملى حديثاً للنبي فاحتمل ذلك ولم يقطع الحديث ، ولما سئل فى هذا قال : « صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان يرى أن رفع الصوت فى درس الحديث النبوى أمر لا يليق بالمسلم ، ويقول فى ذلك : « قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) فمن رفع صوته عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم فكأنما رفع صوته فوق صوت الرسول صلى الله عليه وسلم » . وكان من تعظيمه للسنة النبوية لا يخرج عنها فى الإفتاء ، فإذا وجد فيها نصا فى المسألة ضرب عرض الحائط بما سوى ذلك من رأى أو اجتهاد ، ثم هو يجتهد فيما لا نص فيه ، ويطيل التفكير فى المسألة قبل أن يفتى فيها ، ويقول : « ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى » بل لقد شغلته إحدى المسائل حيناً طويلا من الزمن دون أن يقطع فيها برأى وقال : « إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن » .

ولقد سأله رجل عن مسألة وقال له : هذه مسألة خفيفة . فغضب مالك من ذلك وقال متعجباً : « مسألة خفيفة ؟! ليس فى العلم شيء خفيف ، أما سمعت قول الله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة » . وكان لا يتردد أبداً فى أن يقول : لا أدرى ، عما لا يدريه ، ورضوان الله عليه يوم قال : « ينبغى أن يورث

العالم جلساءه قول لا أدرى ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى » ! .

ومن بين الأمور الكثيرة التى تعجبنى فى الإمام مالك أنه كان يثنى عن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، لأنه عاد بالحكم إلى هدى الخلافة الراشدة ، وتشبه بجده الفاروق عمر بن الخطاب ، ورد المظالم ، وحفظ الحقوق ، وعدل بين الناس ، وتعب فى سبيل الأمة ؛ ولذلك كان مالك يعجب به ، ويتحدث عنه كثيراً ، ويروى جوانب من سيرته للناس ، ومن إعجابه بخامس الراشدين أن سائلا سأله عن حكم الله فى الخارجين على الخليفة ، أيجوز قتالهم ؟ فأجاب مالك : « إن خرجوا على مثل عمر ابن عبد العزيز فقاتلهم » فقال السائل ، فإن لم يكونوا مثل عمر ؟ . فقال مالك : « دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما » .

ولقد عاش الإمام مالك عمره الطويل المبارك فى المدينة المنورة ، لم يتركها إلا للحج ، فقد كان من حبه للرسول عليه الصلاة والسلام يحرص على مجاورة روضته المباركة وجدثه الطهور ، وكان من لطيف أدبه مع النبى ، وبليغ ذوقه وتوقيره لمكانة الرسول ، يحرم على نفسه أن يركب أى دابة فى أى مكان من المدينة ، فإذا سئل عن سبب ذلك قال : إننى أستحى أن أركب دابة تطأ أرضاً يضم ترابها جسد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم يكن هذا هو اللون الوحيد الذى عبر به مالك عن تعظيمه وتوقيره لحرمة الرسول ، بل كان معه أو قبله ألوان وألوان . فمالك قد اهتدى بهدى الرسول فى الكثير والقليل : آمن بدعوته ، وخضع لكتاب ربه ، وجمع ما استطاع من حديثه وسنته ، وجاور قبره يبث علم الدين من حوله بين الألوف الوافدة للحج والزيارة ، ثم أحاط شخصية الرسول بالتكريم

والتعظيم فى سائر الجهات والجوانب ، لأنه يوقن تمام اليقين أن هذا النبي الكريم هو رحمة الله للعالمين ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هؤلاء هم أجدادكم ، وهؤلاء هم أئمتكم الذين يقولون لكم الآثمون عنهم : لا تعتمدوا على مذاهبهم ، ولا تأخذوا من فقههم ؛ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كـذبا ؛ فلنستمسك بالذى جاءنا من الحق ، ولنحفظ حقوق أئمتنا كما حفظوا لنا شريعة خالقنا جلا جلاله ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

أحمد بن حنبل[1]

الحمد لله عز وجل ، يكلأ المؤمنين برعايته ، ويؤيد المتقين بعنايته : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق ويبطل الباطل ، وهو على كل شيء شهيد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ضرب المثل الأعلى فى الثبات واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه السابقين ، وأتباعه الموقنين : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نقبل الآن على التعرف برابع الأئمة من الفقهاء : الرجل الصالح ، قدوة أهل السنة ، الصابر فى المحنة ، الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، الذى نشأ يتيما رقيق الحال ، حتى اضطر إلى التقاط بقايا الزرع بعد استئذان أصحابه ، وإلى أن يكتب للناس بالأجرة ، وأن ينسج الثياب ويبيعها ، وأن يؤجر نفسه أحياناً للحمل فى الطريق ، وكل هذا لكى يتعلم علوم الإسلام ويتفقه فى الدين ، ويهدى الناس إلى سواء السبيل .

ولقد ظل الإمام ابن حنبل يتعلم ويطلب العلم طيلة حياته ، على الرغم من أنه صار إماماً عظيماً ، ولقد قال له بعض الناس : إلى متى تطلب العلم وقد بلغت هذا المبلغ وصرت إماماً للمسلمين ؟ . فأجاب بقوله العظيم : مع المحبرة إلى المقبرة ! . وكان يقول : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وهذا اهتداء منه بهدى الإسلام الجليل الذى علمنا أن نطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وقالت لنا حكمة فيما قالت : منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال .

---

(١) ٥ ذى الحجة سنة ١٣٨٣ هـ ــ ١٧ أبريل سنة ١٩٦٤ م .

وكان ابن حنبل أميناً على العلم مدققاً فيه ، فهو لا يعتمد على حافظته فيما يتلقى أو يحفظ ، بل يقيد كل ما يسمع ، ولا يملى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من كتاب ، ولقد يذكر الحديث من الأحاديث لتلاميذه ، فإذا أرادوا أن يكتبوه أمرهم أن ينتظروا وقال : « الكتاب أحفظ شيء » ثم يتناول الكتاب ويملى منه ، حتى لا يقع خطأ فى قليل أو كثير ، وهكذا تكون دقة الفقهاء وأمانة العلماء ! .

ولقد كان الإمام ابن حنبل شديد التقيد بأحكام الله لا يزيغ عنها ، ولا يقطع أسبابه منها ، فهو يجد مفزعه الأصيل وملجأه الأول فى كتاب الله عز وجل ، ثم هو يفىء إلى روضة الرسول الطاهرة ، ويستمسك بسنته الهادية ، ويضرب صفحاً عن غيرهما مادام الهدى فيهما والحكم بادياً منهما ، ولذلك كان يكره الجدل فى الدين والقول بالرأى فى الشريعة ، حتى لقد قيل له إن عبد الله بن المبارك كتب شيئاً من كتب الرأى فقال : « ابن المبارك لم ينزل من السماء ، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق » وهو يقصد الأخذ عن رسول الله الموحى إليه من عند الله رب العالمين ، ولعل هذه النزعة النبيلة كانت أقوى الأسباب التى دفعته إلى جمعه أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه « المسند » الذى ضم أربعين ألف حديث ، والذى اعتز به ابن حنبل كثيراً حتى قال : « ما اختلفتم فيه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا إليه ، فإن وجدتموه ، وإلا فليس بحجة » ! .

وإذا كان كتاب « المسند » هو أخلد الآثار الإسلامية العلمية للإمام ابن حنبل ، فإن أخلد الحوادث فى حياته هو موقفه الرائع الباهر فى محنة القول بخلق القرآن ، فقد أراد بعض الحاكمين أن يحملوه على القول بخلق القرآن — وهو مؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى ، وكلام الله صفة من

صفاته ، وهو جل جلاله قديم لا أول له ، فتكون صفته قديمة مثله — فرفض ذلك ، ولما قيل له : ما تقول فى القرآن ؟ . أجاب : هو كلام الله . قيل له : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد على ذلك .

وأصر ابن حنبل على موقفه ، فقيدوه وسجنوه وعذبوه وفعلوا به الأفاعيل ، وهو ثابت لا يتزلزل ، مؤمن بعقيدته لا يتبلبل ، مستقر على رأيه لا يتخلخل ، وظل هكذا حتى تولى المتوكل الخلافة ، فحاول إزالة الآثار السيئة للفتنة والمحنة ، وعامل ابن حنبل بالتكريم والتوقير ، واستفاضت شهرة ابن حنبل بين الناس ، وصار مثلا من أمثلة الإيمان ، وعنواناً على الاحتساب والاحتمال والصبر ، حتى قال على بن المدينى المحدث الفقيه : « إن الله عز وجل أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبعمر ابن عبد العزيز حين رد المظالم ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » .

وحق له أن يقول هذا ، فقد كانت المحنة سوداء ، وكانت الفتنة شعواء ، ولم يقتصر الأمر على اختلاف فى الرأى ، أو تعدد فى اتجاه التفكير ، بل كان أساس المشكلة هو إرهاب الناس فى عقيدتهم ، وإرغامهم على غير ما يؤمنون به ، فكان المجتمع يومئذ بحاجة إلى من يصرخ فى وجه الجبروت قائلا : قف مكانك ، فلن يخضع الإيمان للطغيان . وكان هذا الصارخ هو الإمام أحمد بن حنبل ، ولذلك قيل لبشر الحافى حين ضرب أحمد بن حنبل — وبشر الحافى هو من هو — : لو قمت يابشر فتكلمت كما تكلم أحمد بن حنبل؟ فأجاب : لا أقوى على ذلك ، إن أحمد بن حنبل قد قام فى ذلك مقام الأنبياء ! .

وحق لبشر أن يقول فى ابن حنبل هذا ، فقد كان الإمام موقناً بأن واجبه يقضى عليه بأن يظل مجاهراً بكلمة الحق مهما كانت العواقب ، ولذلك

كان يردد قوله : « إذا سكت العالم تقية [خوفاً] ، والجاهل يجهل ، فمتى يظهر الحق » ؟ .

ولقد ابتلى ابن حنبل بعد محنة القول فى خلق القرآن بمحنة أخرى ، هى محنة الشهرة التى لو عرضت لغيره كما عرضت له لقضت عليه ومحقت عمله ، فلقد صبر ابن حنبل على اليتم والفقر ، وصبر على متاعب طلب العلم حتى إنه كان لا يجد أجرة السفر ليتعلم ، فيؤجر نفسه فى الطريق بما يبلغه غايته ، وصبر على أداء العبادات والطاعات ، وصبر عن الأهواء والشهوات ، وصبر فى محنة خلق القرآن ، ثم جاءه ابتلاء آخر ، هو تلك الشهرة الواسعة البراقة الخلابة التى أقبلت عليه تجر أذيالها الفضفاضة ، فخاف منها ، وجاهد للتغلب عليها ، وجعل يقول : « أريد أن أكون فى بعض الشعاب بمكة حتى لا أعرف ، قد بليت بالشهرة ، إنى أتمنى الموت صباح مساء » .

ولعل هذا هو الذى دفعه إلى العزلة والإقلال عن لقاء الناس كبارهم وصغارهم ، حتى قال فيه مصعب الزبيرى : « من فى ورع أحمد وعبادة أحمد ؟ يرتفع على جوائز الخلفاء حتى يظن أنه الكبر ، ويكرى نفسه مع الحمالين حتى يظن أنه الذل ، ويقطع نفسه من مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم أنساً بالوحدة ، فلا يراه الرائى إلا فى مسجد ، أو عيادة مريض ، أو حضور جنازة ، ولم يقض لنفسه بعض ما قضيناه من شهوات » . وقضى الإمام ابن حنبل حياته هكذا عابداً قارئاً ، خادماً لكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفقه شريعته الغراء .

ومع كل هذه التقوى كان ابن حنبل يخاف الله ولا يغتر بعمل ، ولقد يدل على هذا أنه كان ينشد فيقول :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل: خلوت ، ولكن قل : على رقيب

ولا تحسبن الله يغفــل مــا مضى ولا أن الذى تخفى عليــه يغيب
لهــونا عن الأيام حتى تتــابعت ذنــوب على آثارهن ذنــوب
فيــاليت أن الله يغفــر ما مضى ويأذن لى فى تــوبة فأتــوب !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هكذا كان أئمة الفقهاء ، وهكذا سار الأعلام على طريق الحق ، يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، فما أحوجنا إلى الاقتداء بهم ، والسير على منوالهم ، ليصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أمر أولها ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى مولد الرفاعى[١]

الحمد لله عز وجل ، بسط العبر وضرب الأمثال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل التذكير وظيفة الداعين ، وجعل التذكر صفة الخاشعين : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير قدوة للناس فى سائر الأعمال والأحوال ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد جرت عادة الناس فى كثير من بلاد الإسلام على إقامة الموالد فى مناسبات مختلفة ، كمولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وموالد الكرام من آل بيته ، وموالد الأولياء الصالحين ؛ ومع أن هذه الموالد لم تكن معروفة فى صدر الإسلام ، فإنه من الممكن إقامتها على سواء السبيل ، والانتفاع بها فى أكثر من وجه ، لأنها فى لبها الخالص لون من الوفاء للأخيار الأبرار من السابقين ، وفيها فرص للاجتماع وتجديد الأخوة فى الله ، و « يد الله مع الجماعة » و « إنما المؤمنون أخوة » ، وفيها استحضار لتاريخ هؤلاء الأخيار ، وتأمل فى مواقفهم للعظة والاعتبار ، ولا يكون لهذا التأمل فائدة كبيرة ، إذا لم يؤد إلى التشبه والاقتداء ، ولا شك أن كل مستقيم فى العقيدة والدين من هؤلاء قد اهتدى بهدى الرسول واقتدى بسنته ، والرسول هو مثلنا الأعلى فى القدوة والأسوة ، والله يخبرنا بذلك ويأمرنا به

---

(١) ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠ هـ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٦٠ م .

حيث يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . .

والآن يحتفل الناس بمولد الرفاعى فتكون إقامته فرصة للنظر فى تاريخه والاعتبار به ، إذ فيه كثير من العبر والعظات ، ولو أن كل منتسب إلى هذا الرجل تدبر سيرته وعمل بها لصار مثلا كريماً للمسلم؛ فقد كان رجلا يأخذ التصوف على أنه مراقبة وإخلاص ، وخضوع لله فى السر والعلن ، وتقيد بالشرع والعبادة ، والتزام لما جاء به الصادق المصدوق صلوات الله عليه وسلامه ، وذلك لعلمه أن الشريعة هى الأساس وهى العماد : يؤمن الإنسان فى عقله وقلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فذلك هو الإيمان ، ثم يظهر المؤمن حقيقة هذا الإيمان فى عمله وقوله بأن ينطق بالشهادتين ، ويصلى ويصوم ويزكى ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، فذلك هو الإسلام ، ثم يحاول بكل ما استطاع أن يؤدى هذه الأعمال بحيوية وروح وإخلاص ومراقبة لله تعالى ، فذلك هو الإحسان ، وهو ما عرفه الرسول حين قال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . والهدف الأعلى للصوفى المستقيم هو أن يتحلى بهذا الإحسان فى أحواله وأعماله ، وهذا الإحسان هو الذى يسمى بالحقيقة عند الصوفية ، ولا يتحقق هذا على وجهه إلا إذا اقترن الإسلام بالإيمان بالإحسان ، ولذلك قال الواعون من الصوفية : « من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق » .

ولقد كان الرفاعى رجلا ينادى فى كثير من المناسبات بأن الصوفى لا يكون صوفياً إلا إذا تقيد بالشريعة ، فهو يقول مثلا : « كل حقيقة بلا شريعة فهى زندقة » ويقول عن الشيخ عند الصوفية : « الشيخ ظاهره الشرع وباطنه الشرع » ويقول : « الشيخ من يلزمك الكتاب والسنة ،

ويبعدك عن المحدثة والبدعة » . ولذلك يقول أتباع الرفاعى فى وصفه « إنه الجامع بين الشريعة والحقيقة » . ولو جمع كل متصوف بينهما كما ينبغى لكان من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك هم خير البرية .

وهم يقولون فى وصف الرفاعى إنه « أبو العلمين » والسبب فى ذلك أن نسبه من جهة أمه ينتهى إلى الحسن رضى الله عنه ، ونسبه من جهة أبيه ينتهى إلى الحسين رضى الله عنه ، فهو إذن سليل الحسن والحسين . والحسن والحسين علمان خفاقان فى تاريخ الإسلام ، وللسلالة الطاهرة أثرها فى الذرية والأحفاد ، ونحن لا ننسى أن عاصم بن عمر بن الخطاب تزوج الفتاة التقية التى عصت أمر أمها فى خلط اللبن بالماء ليلا لأن الله يراها ، فكان لهما من هذا الزواج بنت صارت أماً لخامس الراشدين وعادل الحاكمين عمر بن عبد العزيز الذى تبدت فيه طهارة الأصل والسلالة ؛ ولقد ضرب الحسن والحسين مثلين كريمين من أمثلة العمل الصالح الخالد ، أما أولهما وهو الحسن فقد تنازل لمعاوية عن منصب الحكم محاولا بذلك إطفاء نار الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وأما ثانيهما وهو الحسين فقد ضحى بنفسه فى سبيل عقيدته ومبدئه ، حين اعتقد أن هذه التضحية هى السبيل إلى إظهار الفارق بين الحق والباطل ، وإلى تمييز الطيب من الخبيث ، فكان الحسين بذلك أبا الشهداء كما يقص علينا التاريخ . .

ولقد تجلت فى تاريخ الرجل صفات وأعمال لو تحلى بها الشخص لازداد رفعة وسمواً عند الله وعند الناس . فقد كان مثلا رجلا اجتماعياً يحب الخدمة الاجتماعية لقومه وبنى جنسه ويسهم فيها بنصيب وافر ، فكان يألف خدمة اليتامى والأرامل والعجزة والمساكين والأطفال . وإذا سمع بكاء من طفل تأثر وبكى ، وكان من رقته يعنى بأمر الحيوانات الضالة والمريضة ، وكان يفعل هذا فى تواضع وإخلاص ، ومن وضوح تواضعه أنه كان لا يرى

فى نفسه ما تتميز بها على تلاميذه أو مريديه ، فهو يتبسط معهم ، ويعاملهم معاملة الصديق للصديق ، لا معاملة القائد المسيطر للجنود الخاضعين ، وكان يردد : « حشرت مع قارون وهامان وفرعون إن ظننت لنفسى تقدماً على هؤلاء ، أو إن ظننت أننى شيخ لأحد » ويردد : « إننى ما استصغرت أحداً إلا وجدت نقصاً فى دينى ومعرفتى » ، ولعله فى هذه السبيل كان يعتبر بقول خالقه تبارك وتعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

وكذلك كان رجلا يعنى بإصلاح نفسه وتطهير قلبه ، فيشغله ذلك عن تتبع عيوب غيره وعن التطلع إلى عورات سواه ، وكان يقول فى ذلك : « عميت لى عين أنظر بها إلى عيب إخوانى » ، وكان يقول أيضاً : « المتلفت لا يصل » ولعله يقصد بالمتلفت الذى ينظر يميناً وشمالا ، فيشغله شأن هذا من الناس ، وعيب ذاك منهم ، ونقص ذلك فيهم فتتبعثر همته وطاقته فى هذا التلفت الشاغل الملهى الموبق ، فلا يوفق للحصول على ما يريد من غنم وتوفيق ، ولا ريب أن هذا القول منه يستضىء بنور قول الله عز وجل : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ونور قول الرسول : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » . ولو شغل كل إنسان بعيبه فأصلحه لما وجد متسعاً لتتبع العيب عند غيره ، ولو وفق الجميع فى إصلاح عيوبهم لما بقيت هناك عيوب ! .

ولقد كان كما يحدثنا تاريخه رجلا يخاف ربه ويراقبه فى السر والعلن ، وفى الاجتماع والانفراد ، وقد روى عنه أن شيخه أعطاه وهو شاب سكيناً ودجاجة ، وأمره بذبحها فى مكان لا يراه فيه أحد ، فمضى الشاب ثم عاد والدجاجة حية بيده . فسأله شيخه : لم لم تذبحها ؟ فأجاب : يا سيدى ، لقد شرطت على خلو المكان ، وأينما ذهبت وجدت الله حاضراً معى ناظراً إلى . . . « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع

عليم » . . . ولكن هذا الرجل الذى يخاف ربه كل هذا الخوف كان لا يهاب الجبارين ولا يخشى الحاكمين ، فهو يكتب إلى الخليفة العباس المستنجد بالله يقول له : « إن أنت نفذت أحكام الله تعالى فى نفسك نفذت أحكام كتبك فى ملكه ، وإن عظمت أمر الله عظم الناس أعمالك وولاة الأمور من قبلك . . . » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الذكرى تنفع المؤمنين ؛ وإنما تنفعهم حين يحسنون استماعها ، ويحسنون الاعتبار بها ، ويحسنون الاتباع لها والسير على هديها ، وإن النفحات التى تتلألأ فى تاريخ أسلافنا من الصديقين والشهداء والصالحين الذين استضاءوا بكتاب ربهم ، واهتدوا بسنة نبيهم ، واعتصموا بالحق والعدل والإيمان والعمل فى حياتهم ، كفيلة بأن تجعل من الضال مهتدياً ، ومن الفاسق مرتدعاً ، ومن البليد الإحساس رجلا مشبوب الوجدان نبيل العاطفة والشعور إذا تحقق الاعتبار والاستجابة والتزام الطريق ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أبو العباس المرسى[1]

الحمد لله عز وجل ، من على الأخيار من عباده بالتوفيق ، وجعلهم منارات تهدى إلى الطريق ، وهو صاحب الفضل العظيم . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربى للأجيال صفوة الرجال ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى يوم الاثنين القادم يكون قد مضى سبعمائة عام على وفاة علم من أعلام الإسلام والتربية الصوفية وهو أبو العباس المرسى ضجيع الإسكندرية منذ سبعة قرون ، وقد قررت الإسكندرية الاحتفال بهذه الذكرى ، وهى سنة طيبة نرجو منها المزيد ، ونتمنى لها التوفيق والتأييد ، لأن فيها التفاتاً إلى الاحتفال بذكريات أبطال الدين والأخلاق والتهذيب الروحى بعد أن شغلتنا زمناً طويلا العناية بذكريات رجال السياسة والأدب .

وأبو العباس المرسى رجل من سلالة الصحابى الجليل سعد بن عبادة الأنصارى الذى وقف الوقفات المشهودة فى معاونة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد ولد أبو العباس فى مدينة « مرسيه » من بلاد الأندلس : الفردوس الإسلامى المفقود الذى أضاعه أبناء العروبة والإسلام بسبب الفرقة والشتات ، بعد أن نسوا قول الله جلا جلاله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب

---

(١) ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٨٦ هـ ــ ٣ مارس سنة ١٩٦٧ م .

ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين » ، وبعد أن قضى أبو العباس سنوات من عمره فى بلدته ذات الأشجار والثمار ، والخضرة النضرة ، والتى كانوا يسمونها « مصر الأندلس » تشبهاً لها بمصر كنانة الله فى أرضه ، خرج مع أبيه وأمه وأخيه فى رحلة إلى الحج سنة ٦٤٠ هـ ، وركبوا سفينة غرقت فى الطريق ، فمات الوالدان ، ونجا الأخوان ، فأقاما مدة فى تونس ، واشتغل أخوه بالتجارة ، واشتغل أبو العباس بالعلم والتربية ، فتألق نجمه وعمق فهمه وأفاد علمه ، والعجيب أنه بدأ بتعليم الأطفال فافتتح مكتباً لتربية الصبية ، ثم انتهى به توفيق ربه إلى تعليم الفحول من الرجال والأبطال من أمثال تلميذه الصوفى الجليل ابن عطاء الله السكندرى ، ولا عجب فقد كان أبو العباس تلميذاً لإمام كبير هو أبو الحسن الشاذلى الذى تعلم منه أبو العباس وتزوج ابنته ، وهكذا تنقلت أنوار الهداية والرعاية من كابر إلى كابر ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .

ولقد كان فى هجرة أبى العباس المرسى من الأندلس إلى تونس ثم إلى مصر معنى الارتباط بين ثلاثة أقطار من أقطار العروبة والإسلام ، وفى عهده لم تكن هناك فى العالمين العربى والإسلامى تلك الحواجز المصطنعة ، أو الحدود المفتعلة ، أو القيود المعقدة للتنقل بين تلك الرحاب ، فحيثما كانت اللغة العربية فهناك وطن العربى ، وفى أى مكان ترددت كلمة : لا إله إلا الله ، ففيه وطن المسلم ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ولم تكن هجرة أبى العباس لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، وإنما كانت للتعليم والتعلم . ولذلك لم يستقر مقامه فى الإسكندرية ، بل أخذ يطوف ويجول فى المدن والقرى ، يعظ ويرشد ، ويوجه ويسدد ، ولقد ظل أكثر من أربعين عاماً ، يربى ويهذب ، ويقوم ويؤدب ، ويهدى الناس إلى طريق ربهم بالقدوة الصالحة والأسوة الحسنة والكلمة الطيبة ، حتى

كثر من حوله التلاميذ والرواد والأتباع ، وصارت له قيادة شعبية ومكانة اجتماعية ، اعتمد فى تكوينها على التبشير بالإيمان والصفاء ، والسلام والإخاء ، والإقبال على الله الذى تطمئن بذكره القلوب[1] .

وإذا كان أبو العباس المرسى قد توسع توسعاً ملحوظاً فى الجانب الروحى من حياته ، بصورة يعز منالها على عامة الناس ، لأنها غير مفروضة عليهم من جهة ، وغير مستطاعة لأمثالهم من جهة أخرى ، فإنه لم يغفل الناحية المادية فى الحياة ، ولم يدع الناس إلى إهمالها أو التفريط فيها ، بل كان يدعو إلى القيام بواجبات الحياة ، والاجتهاد فى إنتاج ما تصلح به وتقوى ، وله فى ذلك كلمات نوابغ ، كأن يقول لأصحابه : « عليكم بالسبب [أى العمل] ، وليجعل أحدكم مكوكه سبحته ، أو قادومه سبحته ، أو تحريك أصابعه فى الخياطة أو الضفر سبحته » وكأنه بهذه الكلمات الحاثة على السعى والإنتاج والكسب ، يلقى على العمل الدنيوى المادى هالة من القداسة ، ويدخله ساحة العبادة وحمى التقرب إلى الله ، لأنه جعل آلة العمل كأنها « سبحة » يذكر الإنسان بها ربه ، ولو أن كل فرد فى المجتمع نظر إلى عمله أو واجبه هذه النظرة لما شكونا ضعفاً ولا تخلفاً . ويضيف أبو العباس إلى عبارته السابقة عبارة أخرى يقول فيها : « نحن لا نقول لمن يأتينا اترك سببك [أى صنعتك] وتعال لنا ، وإنما نفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تقرير كل إنسان على ما هو عليه من الحرفة وغيرها ، ولكن نأمرهم بعدم الغش كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولا ننسى هنا أن أبا العباس المرسى هو الذى قال تلك العبارة الدقيقة : « الغنى الشاكر خير من الفقير الصابر » وكأنها حث قوى بليغ للإنسان على أن لا يرضى بالفقر أو يسكت عليه ويقول

---

(١) توفى ابو العباس المرسى فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ٦٨٦ هـ .

إنى صابر ، بل يتحرك ويسعى ويعمل وينتج ويكسب ، فيقوى ويغنى ، فيحمد ربه ويشكره ، ويؤدى من الخدمات لعباد الله تعالى مافيه خير كثير ، فيكون ذلك أفضل مما لو بقى فى إسار عجزه وضعفه ، وصلوات الله وسلامه على رسوله يوم قال : « إن الله يحب العبد المحترف » وحين قال عن اليد العاملة الكاسبة المتعبة : « هذه يد يحبها الله ورسوله » .

ولقد كان أبو العباس نفسه يشتغل بالتجارة إلى جوار اشتغاله بالعلم ، وكان مع اجتهاده فى العبادة والذكر ، لا يحرم على نفسه شيئاً من طيبات الحياة ، وكان على الدوام صاحب ثياب نظيفة وهيئة حسنة ، وكان يأكل السمك والعسل والقطائف واللحم وغير ذلك من نعم الله تعالى فى كونه ، ومع ذلك كان يخاف الحرام خوفاً شديداً ، ويتحرز منه تحرزاً عميقاً ، وكان لا يسلك مسلك المتنطعين أو المرائين الذين يطيلون الصلاة ليشتهروا بذلك بين الناس وهم فى صلاتهم غافلون ، ولذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى عن صلاة أبى العباس : « كانت صلاته موجزة فى تمام » ، وكأنه يريد أن يقول ما رآه بعض العلماء من أن المراد بالصلاة الوسطى هى الصلاة المعتدلة المستوفاة الأركان والشروط ، التى لم يسرع فيها صاحبها فيخل بها ، ولم يطل فيها طولا يخرج بها إلى حد الإملال ، وأبو العباس الذى يعتدل هذا الاعتدال هو الصوفى الموصول السبب بربه ، الذى يقول فيه تلميذه ابن عطاء « إذا تلا تقول : الكون كله مستمع إليه » ويقول عنه : « كان شيخنا أبو العباس لا تجلس بين يديه إلا والرعب قد ملك قلبك » . ولا عجب فى ذلك فقد سار أبو العباس على الصراط ، ولم يخف إلا الله ، ولم يقبل الانحراف فى أى صورة من صوره حتى لقد قال : « من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم » . وهكذا يكون أخيار الرجال فى هذه الحياة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إذا كانت حياة المادة بسعارها وغبارها تستحوذ علينا فى أغلب الأوقات فلابد لنا بين الفينة والفينة من ترويحة نجلو بها قلوبنا ، وغشاوة عقولنا ، حتى تظل أسبابنا موصولة برحمن الدنيا والآخرة ، فلا نضل ولا نشقى ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى ذكرى المجاهد الشهيد صالح مسعود ابو بصير[١]

الحمد لله عز وجل ، جعل الحاضر وليد الماضى ووالد المستقبل : « يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يتقبل من عباده أحسن ما عملوا ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله جاهد فى الله حق جهاده ، وكافح من أجل عباده وبلاده ، فكان خير المناضلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعترته ، والفائزين بشرف صحبته ، والماضين على هديه وسنته ، « إنما يتقبل الله من المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا كان للأمة الحق فى أن تنوه بمفاخرها، وأن تستعيد ذكرياتها الباسمة ، فإن من الواجب عليها ألا تنسى أحداثها الأليمة التى مرت بها فأشجتها وأحزنتها ، فإن من لا يحس بالآلام لا يحسن الاستمتاع بالآمال والأحلام ، واليوم يمر عام كامل على الفاجعة الحزينة والجريمة الدنيئة التى ارتكبتها عصابة البغى والإجرام فى إسرائيل ، وهى نسف الطائرة المدنية الليبية التى كانت تحمل أكثر من مائة شهيد ، وكان فيهم المجاهد الشهيد المرحوم صالح مسعود أبو نصير الذى وقف قبل نسف الطائرة بدقائق يثبت عزائم رفاقه فى الطائرة ويقول لهم كما روى الناجون لنا : لا تخافوا من الموت ، فإننا إن متناهنا فسنموت شهداء نلقى الله بنعمة الشهادة . ولقد كان هذا المجاهد الشهيد أحد الأبطال القلائل الذين حاربوا الصهيونية فى كل مكان بكل ما استطاع ، حتى اعتقدنا واعتقد الكثيرون أن المقصود بنسف الطائرة الشهيدة كان هو القضاء على حياة هذا المجاهد المقدام رضوان الله عليه ، ولقد كان عالماً فذاً من

---

(١) ٣٠ المحرم سنة ١٣٩٤ هـ — ٢٢ فبراير سنة ١٩٧٤ م .

علماء الأزهر الشريف ، وممن جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وممن آتاهم الله بسطة فى دنياهم فسخر ماله لخدمة قضايا العروبة والإسلام ، وكان صاحب الفضل فى إنشاء اللجنة الإسلامية لرعاية أبناء الشهداء من أهل فلسطين ، ودافع عن أهل فلسطين أروع دفاع فى كتابه « جهاد شعب فلسطين » الذى طبع عدة مرات ، وكان آخر ما نشر له قبل وفاته بقليل كتاب عنوانه « العروبة والإسلام بين الهزيمة والنصر » تحدث فيه المجاهد الشهيد إلى أمته العربية المسلمة حديثاً تاريخياً مجيداً ، استلهم فيه الماضى لتوجيه الحاضر والمستقبل ، وضمنه الكثير من العبر والعظات ، والدروس والتوجيهات ، وأداره على فكرة أساسية ، هى أن الهزيمة مهما فدحت لا يجوز أن تكون طريقاً إلى اليأس أو القنوط ، لأن الليل من ورائه نهار ، ولأن الهزيمة يمكن أن يعقبها انتصار : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

ويتساءل الكاتب المؤمن : من نحن ؟ ويجيب بأننا كنا فى الماضى قبل الإسلام قبائل متفرقة وطوائف متمزقة ، فجاء خاتم المرسلين محمد فأنقذ الأمة وكشف الغمة وجمع الكلمة ، وأخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ، وجعلنا بدعوته وطاعة خير الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

والعبرة الأولى التى نأخذها من تاريخ الجهاد الإسلامى ، هى أن الله تعالى أراد لرسوله أن يكون بشراً يعرف معنى الهزيمة والنصر ، ويذوق مع أصحابه لذة الفوز ومرارة الإنكسار ، وذلك لتعلم أتباعه أن الحياة شدة ورخاء ، وأفراح وأتراح ، وهزائم وانتصارات ، فنى بدر كان نصر ، وفى أحد كان

كسر ، ولكن الثبات دائم مستقر ، مع الهزيمة ومع النصر ، والشهداء يتقاطرون فى ميادين الجهاد : شهيداً وراء شهيد ، ليصنعوا الحياة المجاهدة الصامدة ، وليس فى التاريخ أروع من استشهاد القادة الثلاثة تباعاً فى غزوة مؤتة ، وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم تأتى من ورائهم لحظة الإنقاذ بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

ومن العبرة فى تاريخ الجهاد الإسلامى أن الكتمان هو سر النجاح ، حتى قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». وأن المفاجأة هى الخطوة الأولى فى اكتساب النصر ، وجاءت غزوة الفتح لمكة برهاناً على ذلك حتى كان الرسول يدعو فيها قائلا : اللهم خذ الأسماع والأبصار عن قريش حتى نبغتهم فى ديارهم » . ويقول الحق جل جلاله عن اليهود لئام الخلق : « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنون فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

ومن العبر الواعظة فى تاريخ الجهاد الإسلامى أن أعداء الإسلام لا يسكتون علينا ولا يكفون عنا ، مهما كانت الأحوال أو تبدلت الأوضاع ، هذا قدرنا وهذا مسيرنا ، إن هؤلاء الأعداء نصيبهم الهزيمة بعد الهزيمة ، ولكنهم يعاودون طغيانهم وعدوانهم ، وإذا ما انفردوا بجماعة من المسلمين أذاقوها ألوان العذاب وأنواع البلاء ، فإذا اشتدت سواعد المسلمين وانتصفوا لأنفسهم تظاهر هؤلاء الأعداء باللين الاستسلام ، ولكنهم دائماً كالحية الرقطاء ، الناعمة الملمس الخطيرة الداء ، وطالما كرر أعداء الإسلام العدوان على أهليه فى مختلف الصور : أحياناً كسروية ، وأحياناً قيصرية . وأحياناً تتارية ، وأحياناً صليبية ، وأحياناً صهيونية ، وحديث الأفاعى طويل المدى .

ومن العبر فى تاريخ الجهاد الإسلامى أن المسلمين يمنون وهم منتصرون أقوياء بالعفو على أعدائهم وهم أذلاء ضعفاء ، فهذا مثلا إمبراطور الروم فى القسطنطينية يخرج بجيش عرمرم ، لاحتلال بلاد الإسلام فى الشام والعراق ، فيتصدى له المجاهد المسلم « ألب أرسلان » بجيش لا يزيد على خمسة عشر ألف مجاهد ، ويرى الأمير المسلم كثرة الأعداء بالنسبة إلى جيشه القليل . فيضن بجنوده على الفناء ، فيعرض الهدنة على الإمبراطور فيأبى اغترارا بعدد جيشه الضخم ، وهنا يبرز موقف علماء المسلمين الأفذاذ ، حيث تقدم إمام الجيش وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك النجارى وقال للأمير المسلم : « إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره ، وأرجو أن يكون الله قد كتب هذا الفتح باسمك ، فالقهم يوم الجمعة بجنودك بعد الزوال ، حيث تكون ساعة الاستجابة » . وامتثل الأمير لنصيحة الفقيه المجاهد ، وأدى المجاهدون الصلاة ، ثم تضرع الأمير إلى الله ، حتى بكى خشوعاً منه وتقرباً إليه ، ثم لبس البياض بعد أن تحنط استعداداً للشهادة ، ثم قال لجيشه : « إن استشهدت فلا تشغلوا أنفسكم بي ، وواصلوا جهادكم ودعونى ، فإن ساحة الميدان ستكون قبرى » .

وبدأت المعركة ، وثبتت القلة المؤمنة أمام الكثرة الباغية ، وفى مساء يوم الجمعة آخر ذى القعدة سنة ٤٦٣هـ انتصر المسلمون على أعدائهم وأسروا إمبراطور الروم جريحاً ، وهنا قال له الأمير المسلم : ألم أرسل إليك أعرض عليك الهدنة فأبيت ؟ فأجاب الإمبراطور : دعني من التوبيخ وافعل بى ماتريد فقال له الأمير ، ماذا كنت تفعل لو أسرتنى . فأجاب : كنت أفعل بك أقبح الأفعال . قال الأمير المسلم : فماذا تظن أنى فاعل بك ؟ . فأجاب الإمبراطور : إما أن تقتلنى ، وما أن تشهر بى فى بلاد الإسلام ، والأخيرة بعيدة وهى العفو . فقال الأمير المسلم المنتصر القوى ، والله ما عزمت على غير العفو .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا بعض ما نستفيده من حديث المجاهد الشهيد صالح أبو بصير فى كتابه « العروبة والإسلام بين الهزيمة والنصر » ولقد مضى إلى ربه شهيداً مجيداً ، وكأن هتاف الحق قد استقبله عند ربه بقوله : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » ، وما نزكى على الله أحداً ، ولكنه حسن الظن بالله وجميل الرجاء . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

النيل فى القرآن[١]

الحمد لله ، أكرم البشرية وأحسن إليها ، وأفاض النعم وحاسب عليها « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، منك الإبداع والتدبير ، وإليك الانتهاء والمصير « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من صان آلاءك وشكر نعماءك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى روحه الطاهرة ، وعصبته الظاهرة ، وجماعته الشاكرة ، « أولئك هم الوارثون » ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . .

نحن أمة مسلمة ، تهتدى فى أمورها بهدى ربها ، وتستضىء فى مشكلاتها بنور كتابها ، وهى قد تعطى أمور الدنيا أو مطالب الحياة بعض اهتمامها أو عنايتها ، ولكنها تنطوى فى صميمها وأعماق طبيعتها على توقير كلمة الدين وتقديم واجب اليقين ، فكيف إذا كان الأمر من الأمور جامعاً لحرمة الدين وعظمة الدنيا ؟ . . . إنها إذن من غير شك ترتجيه وتفتديه : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » . . والناظر الآن فى أمورنا بعين التحقيق يرى أن موضوع « النيل » هو موضوع الساعة الذى يجب أن تتجه إليه العيون والقلوب ، وأن تقلق من أجله الخواطر والجنوب ، وأن تتلاقى عنده الأهواء والمشارب ، وإلا كانت الذلة والمسكنة وغضب الجبار . .

---

(١) ١٣ رمضان سنة ١٣٧١ هـ — ٦ يونية سنة ١٩٥٢ م .

ولو أننا تغاضينا عن الميزات الجغرافية والاقتصادية والزراعية للنيل ، ولو تناسينا مؤقتاً أنه وريد الحياة وشريانها ، وأن مصر هبة ذلك النيل ، وهي بدونه قطعة من الصحراء ، لازرع فيها ولا ماء ولا أحياء ؛ لو تناسينا كل هذا لكان من واجبنا ونحن أمة قرآنية أن نتذكر دائماً أن هذا النيل ميراث من الله وضعه فى أيدينا ، وتضييعنا له تضييع لوديعة إلهية غالية ؛ ولو أننا ألقينا على القرآن الكريم نظرة فاحص لوجدنا للنيل فيه ذكراً عاطراً يأسر الألباب .

إن النيل ماء عذب طهور ، والقرآن يعلى مكانة الماء ويزكيها : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » ، « والله خلق كل دابة من ماء » . ويجعل القرآن الماء نعمة مقصورة فى الآخرة على أهل النعيم : « ونادى أصحاب النـــار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » . والنيل نهرمبارك الغدوات والروحات ،والقرآن الكريم يتحدث عن الأنهار ممتناً بها فى مواضع كثيرة : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً » . وقد جعل الأنهار فى طليعة الآلاء التى يتمتع بها الفردوس المقيم : « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ولقد أعطانا القرآن وثيقة لا تقبل الجدال فى أن النيل لمصر ، وأنه كان لها بفروعه وواديه من سحيق الزمان ؛ يقول القرآن : « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون» ومعنى هذا أن فرعون — بغض النظر الآن عن كفره وطغيانه — قد نادى فى قومه مجاهراً بتقرير حقيقة واقعة فقال : « أليس لى ملك مصر » ثم عبر تعبيراً صريحاً قوياً عن وحدة وادى النيل ، وأن النيل لا يتجزأ ، وأن ماءه

يجرى فى ملك مصر وتحت سلطان حاكمها من أقدم العصور فقال : « وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . وهو يقصد بالأنهار الفروع التى تنبثق من النيل العظيم كالنيل الأبيض والنيل لأزرق وبحر الغزال وغيره ؛ ثم اعتمد فرعون فى التدليل لذلك على حجة محسوسة ملموسة فقال : « أفلا تبصرون » أفلا تشاهدون ؟ فأنا لا أحدثكم عن غائب ، ولكنى أحدثكم عن أمر مشاهد قريب غير بعيد .

والقرآن الكريم يصور فى بلاغة معجزة قيمة الخيرات المنبثة فى وادى النيل ، ووجوب الاعتزاز بها والشكر لبارئها وعدم جحودها ، وإلا زالت كما زالت بالأمس عن قوم فرعون الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، فحرمهم من نعمة النيل الكبرى وما يتبعها من بركات ، وأعطاها لمستحقيها ومقدريها من عباده الصالحين ، فذلك حيث يقول : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

والقرآن المجيد قد كرم النيل فى القديم أفضل تكريم حينما جعل واديه مستراداً ومأوى لموسى وعيسى ومريم البتول ، وحينما جعله حاملا لموسى وهو رضيع ، فصان أمانته ورعى وديعته ، حتى بلغت مأمنها ، وانبثق نور الله منها : « وأوحيناً إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا بعض الحديث عن النيل كما توحيه آيات القرآن المبين ، والنيل بعد ذلك هو سر بقائكم وسبب حياتكم ومعقد عزتكم ، واليوم تدور أمور

ونجرى شئون قد يتقرر فيها مصير النيل لأجيال ، فتذكروا جيداً وعلى الدوام أن نيلكم هبة الله لكم ، وأنه نعمة الله الكبرى بين أيديكم ، وأنه قد أعطاهم وثيقة إلهية فى قرآنه بأنه من صميم أملاككم ، فإن توانيتم فى استخلاصه وصيانته ، فقد استوجبتم النقمة من ربكم ، والسبة فى تاريخكم ، واللعنة من أحفادكم « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » واتقوا الله الذى أنتم به تؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

لقاء على ضفة النيل[1]

الحمد لله عز وجل ، هو ولى العاملين ، وناصر المؤمنين : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل عزة عباده فى التوحيد والوحدة : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، جمع بين الأشباح وألف بين الأرواح ، وقال : « يد الله مع الجماعة » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحابته ، وأتباعه وجنود دعوته : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

جاء فى الحديث : « إن لله فى أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها ، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبداً » . وإن القلب المتعلق بفضل ربه ليتطلع إلى حماه راجياً أن يجعل فى هذه الأيام التى نعيشها الآن نفحة من تلك النفحات ، إذ يلتقى خلالها القادة فى شمال وادى النيل بالقادة فى جنوبه ، للتشاور فيما يهم هذين الشطرين الجليلين من وادى النيل ، عملا بهدى القرآن المجيد الذى يصف المؤمنين بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » . والروابط بين الشمال والجنوب فى وادى النيل المبارك كثيرة متعددة ، قديمة متجددة ، فهناك صلات الدم والأرض والدين واللغة والأخلاق والآلام المتشابهة والآمال المتماثلة والجهاد المشترك ضد الطغيان والاستعمار فى الماضى والحاضر ؛ وهناك بعد هذا أو قبله — تلك الصلة المحسوسة القوية التى هيأتها يد الله القوى القادر ، وأبرزتها فى ذلك الشريان الإلهى الزكى ، شريان النيل الذى يفيض على الوادى بخيراته ونفحاته ، ويربط بين أرجائه وأنحائه ، وتتسلسل قطراته

---

(١) ٢٨ المحرم سنة ١٣٨٠ هـ — ٢٢ يولية سنة ١٩٦٠ م .

آخذة سبيلها إلى أبناء الوادى ، فينال كل منهم نصيبه فيها ، شاعراً أنه يشارك بقية إخوته اقتسام نعمة إلهية كبرى ، لولاها لكان هذا الوادى جزءاً يابساً من تلك الصحراء الشاسعة التى تحف به عن يمين وشمال .

والنيل كما قال عمرو بن العاص نهر مبارك الغدوات ميمون الروحات ؛ فإذا أقبل فيضانه بذر أهلوه الحب ، ورجوا النماء من الرب ، ويفلق الله بحكمته وقدرته الحب والنوى ، ويخرج الحى من الميت ؛ فإذا الأرض التى كانت هامدة قد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وإذا الحقول عامرة مزهرة ، وإذا نعمة الله غامرة باهرة ، وإذا الشاكرون للنعمة يذكرون فضل الله عليهم ، فيلقون على طاعته وفى ساحته إخواناً متحابين ، متعاونين على البر والتقوى ، مجاهدين للإثم والعدوان ؛ ذاكرين خير الذكر أن الاعتصام بحبل التجمع والتضامن والاتحاد قوة ونصر : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وأن التفرق أو التنازع باب إلى الذل والهوان : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

وإن هذا الماء الطهور ليتنزل من السماء نقياً صافياً ، فيتخذ مجراه فى الأرض خلال الوادى المنبسط الوسيع ، فتنشأ على ضفتيه الحياة بالخصب والزراعة والمدينة ، وييسره الله لرى الأبدان وطهارة الحواس وإخراج النبات ونشر ألوان الحياة : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . والذين يعيشون على ضفتى هذا النهر الجليل الخالد ، وينتفعون منه ، لابد لهم أن يقدروه ، فيذكروا جيداً أن النيل بمعناه اللغوى وحقيقته المشاهدة هو فيض الله ونوال السماء ، أى عطيتها التى ينالها أهلوها ، فيسعدون بها ويشكرون خالقهم عليها برعايتها وصيانتها والدفاع عنها ، وحسن استثمارها والانتفاع بها ، ليستوجبوا بذلك زيادة النعمة من ربهم ، ويحذروا غضبه عليهم : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

بل لقد ضمخ الإسلام ذكر النيل بشذى عاطر، وزينه بظلال رمزية رائعة ، فجاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النيل نهر من أنهار الجنة ، كما جاء فى حديث الإسراء والمعراج ما يفيد أن النيل موصول الأسباب بسدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى ، وحدثنا القرآن بأن هذا النيل هو الذى حمل نبى الله موسى رضيعاً حين ألقته أمه داخل التابوت فى اليم ، فصانه تياره حتى بلغ قصر فرعون فنجا وسلم، وهذا النيل هو الذى احتمى بواديه عيسى ، واعتز فيه يوسف ثم سرت فى نواحيه دعوة محمد فجمعت شتاته وأحيت مواته ، وبقى للإسلام فى هذا الوادى الممرع الخصيب صوته المسموع ومكانه المرفوع إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله بإذن الله ، وهذا الذكر الحميد المجيد للنيل فى الإسلام يحملنا على التقدير الدائم لتلك النعمة الكبرى ؛ وتقديرها يكون بالتقائنا تحت ظل الله الذى خلقنا من نفس واحدة، وباعتزازنا بأخوتنا وروابطنا التى وحدت جموعنا ووجهتنا وجهادنا فى سبيل الحق والعدل : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

النيل الذى يجمع بيننا ، ويقوم مقام الوالد الكبير منا ، ويحنو حنو الأم الرءوم علينا ، ويفيض فينا ماؤه النمير كثدى مبارك طاهر يشترك فى الرضاع منه جميع أبناء الوادى ، فيدركون أنهم إخوة لأب واحد وأم واحدة وثدى واحد ، هذا النيل نهر أمين يفيض فى كل عام ، ويأتى على ميعاد فى انتظام ووفاء ، ويكون من وراء هذا الفيضان وهذا الوفاء خصب عظيم وخير عميم ، وكأن الله تبارك وتعالى يعلمنا بوفاء هذا النيل أن نكون نحن كذلك أوفياء ، نكون أوفياء لله والعقيدة ، وأوفياء للحمى الذى نشأنا منه وعشنا فيه ، وأوفياء للمبادئ والمثل التى تؤمن بأن فيها حريتنا وعزتنا وكرامتنا ، وفيها كذلك خير الإنسانية وسلام العالم ؛ والوفاء خلق جليل من أخلاق الإسلام : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » ، « وأوفوا بالعهد إن العهد كان

مسئولا » ، « ومن أوفى بعهده من الله » ، « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

ويجب علينا أن نتذكر جيداً ودائماً أن أعداءنا يغيظهم أن يروا الإخوة الأشقاء فى وفاق واتفاق ، ويحاولون بكل ما استطاعوا أن يبذروا بينهم بذور الفرقة والشقاق ، ولكن هؤلاء الإخوة الذين رضعوا ماء النيل المبارك كلما عرض لهم أمر ، أو شغلهم موضوع ، تنادوا باسم الروابط الوثيقة والأرحام المشتركة ، وجلسوا على ضفة نهرهم ، وشربوا من مائه ، وطعموا من غذائه ، وتبادلوا الرأى والمشورة ، وقضوا على نزغ الشيطان بينهم ، ونهضوا من جلستهم الأخوية وقد ذهب الخلاف والنزاع وتوطد الإخاء والاجتماع ، وإذا كان الأعداء قد اضطرتهم ظروف الحياة إلى التعاون والتعاهد فكيف بالأشقاء والأولياء ، وإذا كان الذين فرقوا بينهم وكانوا شيعاً استطاعوا أن يتلاقوا ويتحالفوا ، فكيف بالذين يجمعهم إيمانهم بربهم ، والذين ينهض دينهم على دعامتين هما كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ؟ وكان الذين تناءت بهم الأوطان وشطت بينهم الديار قد تواصلوا وتكافلوا ، فكيف بأبناء الوادي الكريم الموصول الأواصر المتلاحم الأجزاء ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى ظلال التآخي والتفاهم والرغبة فى الخير يسهل كل صعب ، ويتيسر كل عسير ، ويدنو كل بعيد ، وبإخلاص النية وصدق الإيمان تتحقق الآمال والأحلام : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى وفاء النيل[١]

الحمد لله عز وجل ، تضاعفت نعماؤه ، وتواصلت آلاؤه : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحاسب بالعدل ، ويجود بالفضل ، وهو العلى الكبير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صان عهده ، وحفظ وعده ، وقال : « إن حسن العهد من الإيمان » ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الأتقياء من آله ، والسابقين من صحابته ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الوفاء شيمة الكرام ، وهو خلق من أخلاق الإسلام ، فقد علم الإسلام أتباعه أن يوفوا بعهودهم ، وأن يصدقوا فى وعودهم ، فوصف القرآن الصالحين من عباد الله تعالى بقوله : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » ، وقال فى صفات المؤمنين : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » ، وطالب العباد بالوفاء فقال : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » وقال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ، وجعل الوفاء صفة من صفات الخالق جل جلاله فقال : « ومن أوفى بعهده من الله » . وكان رسول الله عليه صلوات الله أوفى الأوفياء ، وهو المثل الأعلى فى التقيد بالإسلام ، والتطبيق لأحكامه وتعاليمه ، وفيه يقول القائل :

وإذا أخــذت العهــــد أو أعطيته فجميــع عهـــدك ذمة ووفاء !

وفى هذه الأيام نشهد آثار صنع إلهى كبير ، إذ فاض النيل المبارك ،

---

(١) ٧ صفر سنة ١٣٧٨ هـ ــ ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٨ م .

وغمر الأرض بمائه وغرينه [طميه] ، وفيضان النيل أمر يذكرنا بالمعنى الجليل النبيل ، معنى الوفاء بالعهود والصدق فى الوعود ؛ وإذا كان النيل يفى وهو الذى لا يملك عقلا يفكر به ، ولا قلباً يشعر به ، فهل تعلمنا منه الوفاء لله وللرسول وللإنسانية ولكريم المبادئ والعقائد وللنيل نفسه ؟ . .

وهل التفتنا حق الالتفات إلى « وفاء النيل » وتدبرنا معناه ، وتأملنا مغزاه ، واحتفلنا بمقدمه الاحتفال الزكى الطهور الذى ينبغى أن يكون ؟ . .

الاحتفال المعتاد بوفاء النيل احتفال شكلى، فهناك عطلة فى يوم الوفاء مقصورة على مدينة القاهرة ، وكأنها هى التى تنتفع بالنيل وحدها ، أو هى التى تحس وحدها ببركة النيل ، ثم تقام رسوم الاحتفال فى مظهر آلى كأنه يراد به التخلص من تبعة ، مع أن الواجب علينا غير هذا ، إذ من واجبنا أن نجعل الاحتفال بوفاء النيل يوماً مشهوداً فى تاريخنا الإسلامى والقومى ، وأن يكون هذا الاحتفال وثيق الصلات والأسباب بالروح الدينية ، والصبغة الإسلامية والتعرض للنفحات الإلهية ، فإن لله جلا جلاله فى أيامنا نفحات وبركات سعد وفاز من تعرض لها لينال من خيرها وبرها .

ولقد كان الاحتفال بوفاء النيل فى العصور الإسلامية المزهرة احتفالا واسعاً شاملا ، ويصف المؤرخون يومه بقولهم : « هو يوم مشهود ، وموسم معدود ، ليس له نظير فى الدنيا ، وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر الأقطار » . وقد قال بعض المفسرين إن يوم وفاء النيل هو المقصود بيوم الزينة فى قول القرآن : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » فكان أبناء وادى النيل فى هذا العيد يتزينون ويتجملون ويتطيبون ويظهرون الفرح والاحتفاء بكل أسلوب ، وولاة الأمور فى الوادى منذ أقدم العصور لا يجبون الضرائب ، ولا يستوفون الحقوق، ولا يشرعون فى

الأعمال الجليلة الهامة إلا بعد تحقيق وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعاً ، لأن الوفاء يعد دائماً بشير خير وفاتحة إسعاد ، ولقد جف النيل مرة فشاع القحط والجدب ، حتى أكل الناس الجيف ، بل قيل إن بعضهم أكل بعضا ، ومات منهم بسبب القحط عشرات الألوف ؛ وهذا معناه أن النيل كما قيل هو وريد الحياة وشريانها ، ولا عجب فبلادنا هبة هذا النيل ، وهو كما وصفوه سيد الأنهار وماؤه أعذب المياه ، وهو يفيض حين لا يفيض سواه من الأنهار ؛ وهو يجرى صيفاً حين يتطلب الناس الماء بينما يجرى غيره شتاء فى زمن البرد والزهد فى الماء ، وللنيل المبارك صبغته الدينية وظلاله الربانية ، فهو أكرم نعمة من الله عز شأنه فى هذا الوادى ، وهو الذى حمل ماؤه تابوت موسى الوليد ، وهو الذى عاش على ضفتيه يوسف الصديق حيناً من الزمان ، وخطا فوقها عيسى المسـيح ، ووطئتهما أقدام الصحابة الغر الميامين من جيش الإسلام الأول الذى سعى إلى مصر بالهدى والنور ففتحها بالإيمان واليقين . . .

وإنما يعرف نعمة النيل على وجهها من سار فى بلاد الدنيا ، ورأى كيف يقل الماء فى جوانب منها أو ينعدم ، فيقل الزرع أو ينعدم ، فتغلظ الحياة ويقسو العيش ، ويلاقى الناس ما يلاقون من العسف والخسف ، والتعب والنصب ، وكم فى الماء من نعم وكرم ، ولذلك عنى القرآن بتقديره والتنويه به ، فذكره فى نحو ستين موضعاً ، وكان مما قاله : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » وقال : « والله خلق كل دابة من ماء » وبالماء تحيا الأرض ، وينفلق الحب والنوى ، ويظهر الزرع والنبات ، ويوجد متاع الإنسان والحيوان ، وتبدو الحدائق ذات بهجة ، ويتجلى فضل الله فى نعمة الماء « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلبا ،

وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم » . وفى الحديث النبوى أن النيل نهر من أنهار الجنة ، وهذا تمجيد للنيل ، أى تمجيد ، وتخليد لذكره أى تخليد ، وما أجدر أبناء النيل بأن يحمدوا ربهم دائماً على هذه النعمة العظيمة الموصولة الدائمة ، وأن يتعلموا منها الوفاء بالعهود والصدق فى الوعود ؛ وربما قيل إن النيل يشح حيناً أو يتخلف مرة عن موعده ، ولكن هذا كالشذوذ الذى يثبت القاعدة ، وفيه تذكير بقيمة النعمة وتحذير من الغفلة عنها أو التفريط فيها ، أو التنكر لها حتى لا تضيع ، وإنما يقدر الناس النعمة حق قدرها حين يفتقدونها ، وقد قيل إن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، ونحن نستعمل الماء فى الصباح والمساء ، وقد نغفل عن جلال قيمته ما دام بين أيدينا ، ولكن نظامنا يختل ، وحياتنا تعتل ، ودنيانا تتزلزل حين ينقطع عنا هذا الماء ولو لبضع ساعات ! ! . . .

فلنحتفل إذن بوفاء النيل احتفالا إسلامياً مباركاً نقياً طهوراً يباركه ربنا ، ويرضاه رسولنا ، ويقره ديننا ، وننتفع به فى أولانا وأخرانا ، وفى حسنا ونفوسنا ، نتذكر فيه نعمة الله ، ونشكر فيه آلاء الله ، ونحسن الانتفاع فيه بهدى الله ؛ ولنتذكر أن الدولة تحتفل مثلا بعيد الأم ، وتبذل فيه ما تبذل ؛ والنيل هو أم هذه الديار ، وسبب النماء فيها والازدهار ؛ والدولة تحتفل بعيد القطن وعيد الحصاد وعيد الربيع ، وتعنى بأمثال هذه الأعياد عناية مقصودة ملحوظة ، ولولا هذا النهر الذى أفاضته يد الخالق المقتدر ، وأجرته عناية الرازق الوهاب ، لما كان فى الوادى قطن ولا قمح ولا حصاد .. فلنستدم النعمة بذكرها وشكرها وتقديرها وحسن الانتفاع بها وإلا لم نكن أهلا لها : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

وإذا كان النيل المبارك الغدوات الميمون الروحات قد وفى ففاض بحول الله فيضه العميم وسال بفضل الله سيله الكريم فما أجدر أبناءه من منبعه إلى المصب بأن يكونوا درعاً واقية له مدافعة عنه فيكونوا يداً واحدة ووجهة واحدة ، وإذا كانت أحداث الحياة وزعازع الأهواء قد دخلت عليهم بما دخلت وثبت بينهم عقارب الفرقة ، فإن دينهم هو دين الوحدة والتوحيد يقسو عليهم فى حكمه إذا لم يرأبوا الصدع ويصونوا الجمع « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

فاض النيل

الحمد لله عز وجل ، هو واسع الكرم وذاهب النعم : « وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حث على تقدير الفضل وشكران النعمة : « وأما بنعمة ربك فحدث » ؛ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان أصدق الذاكرين وخير الشاكرين ، فكان رحمة للعالمين ، وقدوة للخلق أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أئمة الهدى ، وأصحابه السابقين إلى صراط الحجا ، وأتباعه القائمين بدعوة التقى : « ومن أحسن قولا مما دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين » ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن شكر النعمة برهان على استحقاقها والجدارة بها ، وإنما يأتى شكرها على وجهه إذا سبقه عرفانها وتقديرها ، والذى يجهل قدر النعمة ولا يعرف مكانتها لا يكون أهلا للانتفاع بها ، ولا يدرى أيضاً كيف يشكرها أو يستبقيها ، وأحق النعم بالشكران والحمد هى نعم الخالق جل علاه ، لأنه قد وهبها ابتداء وهو مبدعها ومنشئها ، ولأنه يهب مالا يستطيع سواه أن يهبه ، ولأن كل نعمة لغيره مستمدة من خلق قدرته وفيض نعمته ؛ وكما جعل الله الشكر قيداً للنعمة وحارساً لها ، جعله باباً للمزيد منها ، فقال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . . .

ولقد هلت بواكير فيضان النيل وبدت تباشيره ، وتطلعت العين المؤمنة إلى طلائع هذا الماء الأحمر الجارى الذى يفيضه رب القدرة والرحمة فى

كل عام ، فيكون فى فيضانه الخير والبركة والهناء ، فهل فكرنا فى أن نفزع حيث كنا إلى شاطئ النيل لنقف عنده وقفة التدبر والتذكر والشكران ، مشاهدين لنعمة الله ، ذاكرين فضله ، مقدرين يده الكبرى على هذه الديار ، التى لولا جريان هذا الشريان الإلهى فيها لكانت صحراء بلقعاً أو خراباً يبابا ؟ ؛ إن الله عز وجل قد أسبغ نعمة النيل على أهله ، ثم عطر ذكره ، وأعلى فى التاريخ قدره ، فجعله يحمل موسى عليه السلام وهو وليد ، وجعله مفخرة فرعون الكبرى دون أن يكذبه فيها : « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون » ؟ وأخبرنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأن النيل نهر من أنهار الجنة وفى ذلك تمجيد له وتخليد ، وجاء الكاتبون ما بين ناثرين وناظمين فترجموا عن جلال هذه النعمة الإلهية ، وصاغ « شوقى » مثلا قصيدته الكبرى فى النيل المبارك ، وافتتحها بقوله :

من أى عهد فى القـــــرى تتدفق ؟ وبأى كف فى المدائن تغـــدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجـــرت من عليا الجنـــان جداولا تترقـــرق ؟

ولقد تأخر فيضان النيل قليلا فى هذا العام ، فوجفت القلوب وفزعت المشاعر ... ويا للعجب فى أمر هذا النيل ؛ يتأخر فيضانه قليلا فترجف الأفئدة ، وترتعش الجسوم ، ويخاف الناس بلوى القحط والجدب ، ويظلون يسألون ربهم خاشعين خاضعين ألا يعرضهم لتلك المحنة ، فإنهم عباده ، وهو بعباده رءوف رحيم ؛ وقد يفيض النيل ويزداد فيضانه قليلا فترجف الأفئدة أيضاً وترتعش الجسوم ، وتقوم الدنيا وتقعد ، ويجأر الخلق بالدعاء لربهم أن يجنبهم كارثة الغرق ونكبة الفيضان ؛ وهكذا النعمة ، لابد لها من طريق معتدل سواء ، لا إسراف فيه ولا تقتير ، ولا إفراط فيه ولا تفريط ، وصدق العلى الكبير : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، فسبحان

من لو شاء لجعل النيل جدباً يبابا ، وسبحان من لو شاء لجعله طوفاناً مدمراً ، وسبحان الذى أقام أمر عباده على الحكمة الحكيمة تبدو لنا أحياناً وتختفى عن أبصارنا الكليلة وبصائرنا العليلة أحياناً أخرى ، وسبحان من يذكرنا بحكمته وقدرته من حين إلى حين فيخزنا وخزات خفيفة عن طريق التخويف بقلة ماء النيل ، لنعلم علم اليقين أننا بدون الله ضعفاء ، وأننا بعونه أقوياء : « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » . . .

والله إنها لعظة أى عظة ، وعبرة أى عبرة ، فبين الزيادة والنقصان يستقيم أمر هذا النهر فينفع ويفيد ، ويجنب أهله ويلات القحط كما يجنبهم ويلات الغرق والتلف ، وما أكثر الويلات التى يذوقها الناس بسبب القحط والطوفان ، ومنذ حين حدث فيضان جزئى فى اليابان كان من نتيجته تدمير عشرين ألف بيت، ووفاة مائة وخمسين شخصاً ؛ ونحن نذكر جيداً أن يوماً قريباً انقطع فيه الماء عن مدينة القاهرة كان كافياً لإقلاق الجنوب وبلبلة الخواطر وإحداث المتاعب . . . نعم إنه يوم واحد فقط اضطرب فيه نظام الماء فكان كافياً لإيجاد سلسلة من المضايقات تعاونت الدولة بمختلف شعبها على علاجها وتخفيف حدتها ، فكيف بفضل الله العلى الكبير الذى يجرى لنا هذا الماء الكثير بلا انقطاع وبلا امتناع ، وفى توسط واعتدال ، دون أن يذيقنا ما يذوقه سوانا فى الشرق والغرب من نكبات الفيضان والطوفان ، أو من نكبات القحط والجدب ، سبحانك سبحانك يا رحمن الدنيا والآخرة، نحن لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك : « تبارك الله رب العالمين » ! . . .

وهناك عبرة أخرى فى هذا الماء . . . إن هذا السائل الرقيق اللين قد جعله الله مصدر الحياة ومنبع النماء ، فقال : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » ، وهو يروى الظامئ ويلطف الجو ، ويبعث البهجة ويذهب الحزن ،

ولكن هذا الماء نفسه يصير مخرباً ومدمراً فى بعض الأحيان ، فيحطم الصم الجلاميد ، ويهدم القصور الشوامخ ، ويحيل العمران إلى صحراء جدباء ، ومعنى هذا أن الله العلى الكبير قد يجعل الشيء من الأشياء مصدر خير وبركة حينما يرضى وينعم ، ثم يجعل الشيء نفسه مصدر بلاء ونكبة حينما يغضب وينتقم ، والماء الذى أبدع به الخلاق بدائعه فى الإنسان والحيوان والنبات هو نفسه الذى غمر به الأرض فى طوفان نوح فطهرها من جموع الطاغين المجرمين « وقيل بعداً للقوم الظالمين » ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

إن التنويه المتكرر بنعمة النيل فى هذا المكان الدينى واجب إسلامى ، لأن التذكير بالنعمة باب إلى شكرها ، وبالشكر تدوم النعم ، وكفران النعمة بنسيانها أو سوء استعمالها مفتاح لسلسلة من الشرور والبلايا ، كما أن الدعوة إلى تكرار الوقوف على شاطئه وقفات الاعتبار والادكار دعوة إلى لون من العبادة والابتهال ، لأن المتعبد المؤمن يحس بقربه من ربه ، ودخوله فى محرابه ، ولذته فى مناجاته ، ومتعته فى صلاته ، إذا كان داخل محراب من محاريب الطبيعة ، فإذا كان الإنسان فى نطاق هذا المحراب تحيط به آيات ربه الخلاق من الماء والهواء والسماء والأشجار والحقول أحس فى عمق بأنه يشهد الأدلة الحسية الملموسة القائمة على أن للكون مبدعاً سبحانه :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولله جل جلاله كتابان أو قرآنان ، أحدهما يقرأ ويسمع ، وهو كلام الله المعجز البليغ الذى يضمه المصحف : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ، والثانى يرى ويشاهد ، وهو هذه الطبيعة التى صاغتها يد المبدع العظيم ، فإذا كان المسلم داخل روضة من رياض هذه الطبيعة ، وأخذ فى صلاة له ، فقد جمع بين قرآن يردده ويرتله ، وقرآن آخر حسى يشاهده

ويطالعه ، فتجتمع الكلمة المنطوقة مع الآية الحسية المخلوقة ، فيكون هناك اتساق وائتلاف ، ويكون هناك إحساس عميق بروح التعبد ولذة المناجاة ، وهذا أمر يدركه أهلوه بالتجربة والمزاولة، ولا يكفى فيه التعبير بالكلام ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد فاض النيل ، ولم يخلف الله وعده ، وبقى أن يفيض الخير من أيدينا ، كما أفاض بارئنا الخير على وادينا ، وبقى أن نفى بعهودنا ووعودنا « إن العهد كان مسئولا » ، وسبحان من لو شاء لهدانا أجمعين إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

فلسطين مثوى الشهداء[١]

لك الحمد ياناصر المستضعفين ومؤيد المؤمنين ، وقاهر الجبارين ومذل المتكبرين ، سبحانك سبحانك ، خضعت لهيبتك الرقاب ، وتقاصرت عن كنهك الألباب ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، كل عظمة بجوار عظمتك تزول ، وكل قدوة بجوار قدوتك تحول ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ونجيك وحبيبك ، الذى شرحت له صدره ، ووضعت عنه وزره ، ورفعت فى العالمين ذكره ، وأعليت بين المرسلين قدره ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه الأبطال الفاتحين ، وأتباعه الصابرين المحتسبين ، أولئك لهم عند ربهم جنات النعيم ، « دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليس للعرب والمسلمين اليوم من حديث سوى حديث فلسطين ، فهم يتكلمون عنها فى كل مكان وكل زمان ، ويعطونها من العناية والاهتمام مالا يعطونه لأى أمر جليل أو خطير فى هذه الحياة ، وحق لهم أن يكون أمرهم كذلك فإن فلسطين قلب العروبة وكبدها الحرى ، ومركز دائرتها ، ومبدأ نهضتها ونقطة ارتكازها ، وعلى ثرى فلسطين المضمخ بدماء الأبطال سيتقرر مستقبل العروبة والإسلام لعدة أجيال ؛ وإن قصة فلسطين لعجيبة غريبة ، فهى قطعة صغيرة محدودة من قطع الوطن الإسلامى ، ولكنها كلفت المسلمين فى الذياد عنها والاحتفاظ بها كثيراً من الدماء والضحايا ، وكأن الله جلت حكمته وتعالت كلمته قد أراد ذلك لمعنى يجب أن لا يغفل عنه أبناء

---

(١) ١٢ يونية سنة ١٩٤٨ م .

الإسلام هؤلاء هم المسلمون الأولون فى عهد أبى بكر يحملون نور الله ولواء محمد إلى فلسطين ، يوم كانت جزءاً من الشام ، وتقف طواغيت البغى والفساد ، لتصد هذا النور الربانى عن الحيارى فى هذا الكون فيضحى المسلمون بنفوسهم وأرواحهم ، ويسقط منهم الشهداء فى كل ركن من أركان فلسطين ، لتوثق دماؤهم وقبورهم الروابط بين المسلمين وبين فلسطين ، ثم يوجه عمر فى عهده جيشاً عرمرماً نحو فلسطين باسم الإسلام ، وتحت لواء السلام ، لا باسم الاحتلال والاستعباد ، وعلى الرغم من هذه النية الخالصة تلاقى جيش المسلمين مع جيش الروم عند أجنادين ، واشتد القتال وتتابع سقوط الأبطال ، وعاد المسلمون يغرسون فى كل شبر من أرض فلسطين فلذة من أكبادهم ، أو زهرة من أولادهم ، وانتهى الأمر بفوز المسلمين ، واستولوا على يافا وعكا وغيرهما ، ثم انتهوا إلى القدس وحاصروها أربعة أشهر ، وكان القتال رهيباً عنيفاً ، وقاسى المؤمنون شدائد من البرد وقلة الزاد ، ثم استسلم الأعداء المعاندون أخيراً ، وذهب عمر فصالحهم ، وبنى مسجد الصخرة ، وكان عفيفاً كريماً ، فلم يهلك حرثاً ولا نسلا ، ولم يبغ الفساد فى الأرض كشأن الغزاة الفاتحين ! .

وفى العصور الوسطى للمسلمين مرت عليهم فترات عصيبة تحزبوا فيها وتفرقوا ، واختلفوا وتشققوا ، وصار فى كل إقليم أمير ، فذلوا وهانوا وضعفوا واستكانوا وطمع فيهم من كان لا يؤبه له . وجاء البطل العظيم صلاح الدين وقد استولى الصليبيون المجرمون على بيت المقدس قلب فلسطين ، وقتلوا من شهداء المسلمين فيها ما لا يعرف حده أو يحصى عدده ، وأخذت الأرض المقدسة تسقى من جديد بدماء الشهداء ، وأخذ صلاح الدين يقاتل بأبطاله ورجاله أولئك الصليبيين ، وجعل يقتل منهم ويقتلون منه ، ولا يعلم إلا الله كم من المسلمين سقطوا سقطة الأطهار الأبرار ، وخاصة حينما نعلم

أن الغدر فى الماضى كان طبيعة فى الصليبيين كما هو اليوم فى الصهيونيين ، ومن أمثلة ذلك أن الصليبيين هجموا على قافلة إسلامية كبيرة لا شأن لها بالقتال فنهبوا مالها ، وقتلوا رجالها ، وهتكوا أعراضها ، وأسروا بقيتها ، وكان فى القافلة بنت صلاح الدين ، فثار ومار ، وخرج إليهم بجيشه كله ، ودحرهم فى موقعة « حطين » بالقرب من عكا وفى الجهة المقابلة للؤم الصليبيين وغدرهم ، نجد أن أحد المسلمين قد أسر طفلا لامرأة صليبية ، فحزنت عليه ، ولجأت إلى صلاح الدين تطلب منه فك إساره ، فأمر صلاح الدين برد طفلها ، فوجد أن آسره قد باعه . فدفع صلاح الدين ثمنه من جيبه ، ورده إلى أمه ، وقال لها : « إننا نحارب قوماً طلبوا حربنا ، ولسنا نحارب بنى الإنسان » ! !

ثم جاء القائد الإسلامى المظفر أبو الفتوح الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر ، فنشبت الحرب بينه وبين الصليبيين فى فلسطين مرة أخرى ، ودامت مشتعلة الأوار عشر سنوات ، وتستطيعون أن تتصوروا كم ضمت أرض فلسطين من طبقات فوقها طبقات من شهداء المجاهدين خلال هذه العشر سنوات ! ! .

ومنذ سنة ١٩٣٦ م ونار الكفاح والجهاد متقدة بين العرب والمسلمين من جهة وبين الصهيونيين أنجاس العالم من جهة أخرى وقد مرت هذه السنوات تباعاً دون أن يخلو يوم فيها من دم زكى يسيل غزيراً أو يسيراً ، ثم تنمر الأرذال أخيراً فارتكبوا ما عرفتموه من منكرات حينما خلا لهم الجو ، وانفردوا بالأطفال والشيوخ والنساء حتى بلغ عدد الذين أزهقت أرواحهم خلال هذه المذابح الوحشية الأثيمة مليونين من الشهداء ، ما بين صغير وكبير ، ورجل وامرأة ، وأخذت الأجسام المحمدية الكريمة تغطى أرض فلسطين بطبقة جديدة من أجداث الشهداء ، وإلى الآن لا تزال جيوشنا

الظافرة المنصورة المؤيدة برعاية الله وعنايته وتوفيقه ، تحرر فلسطين شبراً بعد شبر ، وركناً بعد ركن ، ولابد لكل تحرير من ثمن ، ولا بد لكل وطن يسترد من دم يسقى به ، فكأن باب الشهادة فى فلسطين لا يزال مفتوحاً يلجه السعداء الأحياء حقاً من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ! ! .

بالله ويا للعجب ! . . كل هذه الملايين من الشهداء فى القديم والحديث تضمها أرض فلسطين على الرغم من صغر مساحتها ، وكل هذه المعارك يصطليها المسلمون بسببها !؟ . . لم كل هذا ، وما الحكمة فى ذلك يا أولى الألباب ؟ . . الحكمة فى ذلك أن الله يريد أن يذكر المسلمين دائماً بقيمة فلسطين ، وجلال قدرها عند الله ، فهى الأرض الطاهرة المقدسة التى ولد فيها عيسى ، واستقر بها موسى ، وأسرى إليها محمد ، واجتمع فيها الأنبياء والمرسلون ، وجعلها الله مبدأ الصعود إلى السماء فى رحلة خاتم الأنبياء ، يوم عرج به إلى سدرة المنتهى ، ليرى ما يرى من آيات ربه الكبرى ، فكأن الله قد اختارها لتكون البرزخ بين الأرض والسماء ، وبين الهبوط والعلاء ، وبين الخلود والفناء ، وبين الأولى والآخرة ، فجعلها مستقر الشهداء ، وكتب لكل سعيد من عباده أن يذوق ميتة الشرف فى ركن من أركان فلسطين العزيزة الغراء ! ! . .

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أراد توكيداً لهذا المعنى ، ولفتاً لأبصار المؤمنين إليه ، وتذكيراً لهم به ، أن يتوجه هؤلاء المسلمون فى صلواتهم وهم فى المدينة إلى بيت المقدس ، قبل أن تتحول القبلة إلى الكعبة بيت الله الحرام ، ثم زاد هذا المعنى توضيحاً وإظهاراً حين حدد إسراء رسوله ذلك التحديد البين الذى نص على أن المسجد الأقصى فى فلسطين قطعة من صميم الوطن الإسلامى الذى يجب أن تبذل فى صيانته المهج والأرواح ، فقال عز من قائل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ومن واجب كل مسلم يعتز بدينه وقرآنه أن يقف طويلا أمام قول الحق تبارك وتعالى : « الذى باركنا حوله » ليدقق ويحقق ويتأمل هذا التعبير ، وذلك التمييز ، فإذا كان المسجد الأقصى مكاناً قدسياً مطهراً مباركاً هو وما حوله ، ودين الإسلام هو الدين الأخير الخالد الباقى ما دامت السموات والأرض ، والمسلمون هم القوام على الأمم ، وهم الوراث لما سبقهم من الديانات والعقائد ، وهم الأمة الوسط الشهيدة على غيرها من الناس ، فمعنى هذا أن أولئك المسلمين من حقهم، بل من واجبهم أن يكون بيت المقدس وما حوله وما اتصل به تحت أيديهم ليظللوه بلواء الله العزيز الحميد ، ولينعموا ويهيئوا طريق النعمة والتمتع لغيرهم بما لله فى هذا الحمى من آلاء وبركات ! ! . .

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وجمع له الأنبياء والمرسلين من هنا ومن هناك ، وأقام له تلك الحفلة الاستقبالية العظمى داخل المسجد الأقصى ، وقدم لهم تلك المائدة الربانية الشهية وهى الصلاة ، وكتب لمحمد شرف الإمامة والزعامة فى تلك الصلاة ليشير إلى هذا المعنى من طرف خفى أو طرف جلى ! ! . . الحق أقول لكم إن فلسطين فى الأرض هى البرزخ بين الدنيا والآخرة ، فمن كتب له الشهادة فوق أرضها فقد فاز فوزاً عظيما ! ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن أنوار الإسراء والمعراج تلوح فى الأفق فتغمر الكون كله بفيض من الجلال والجمال ، وترفع أبصار الناس عن الماء الآسن والتراب الرخيص إلى صفحة السماء ، ليدركوا معنى السمو والعلاء ، وفى ظلال هذه الذكرى تتصل القلوب والأرواح بخالقها الكريم العظيم ، فتسأله مدداً من رعايته ،

حتى تعرف الحق فتتمسك به ، وتعرف الباطل فتبتعد عنه ، وكما سرى محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس يحمل فى ركابه الأمن والسلام ، والرحمة والوئام لكل الأنام ، تزحف جيوشنا المنصورة الآن لتعيد الحق إلى نصابه ، وتستخلص الحمى لأصحابه ، وتطهر الوطن من كلابه ، وما تبغى فتحاً ولا توسعاً بزحفها هذا ، بل تريد القضاء على الفتنة ، والاحتراس من المحنة ، وتوطيد العدل والإنصاف ، وكأننى ألمح الآن فى ذكرى الإسراء والمعراج مواكب الملائكة تتنزل جماعات من كل سماء بعمائمها البيضاء ، وخيولها الشهباء ، يحف بها النور والضياء ، من جميع الأرجاء ، لتبارك جهاد المجاهدين فى فلسطين ، وتهتف بهم أنها مثوى الشهداء ، ومستقر الذين باعوا نفوسهم لربهم صاحب الجود والعطاء ؛ فتداركوا أمركم رحمكم الله ، وصلوا أسبابكم بفلسطين ومن فيها ، فهم القوم لا يشقى رفيقهم أو صديقهم ، وسارعوا إلى مشاركتهم ومعونتهم بتبرعاتكم ، وهداياكم ، ونفحاتكم ، وخالص دعواتكم ، فإنما يجاهدون من أجلكم وأجل إخوانكم فى الله ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! !

قال عليه الصلاة والسلام : « من رد عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » .

بيان الى المسلمين عن فلسطين[١]

الحمد لله ، يعد فلا يخلف الميعاد ، ويعظ فليس وراء وعظه إرشاد ، ويضرب الأمثال للناس وهو بكل شيء عليم ، ويقدم المثلات للتأديب والتقويم . . . نشهد أن لا إله إلا أنت ، حذرت وأنذرت ، ووعدت وأوعدت ، « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عـــذاب النار الذى كنتم به تكذبون ؛ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ، ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، رفعت قدره فى الأرض والسماء ، وفضلته على سائر المرسلين والأنبياء ، فخصصته بالإسراء والمعراج ، آية منك وتكرمة « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصـــير » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين حفظوا الميراث فما ضيعوه ، وأصحابه الذين جاهدوا فى سبيل الإسلام حتى أيدوه ورفعوه ، وأتباعه الذين أعزوا لواء الملة ورفعوه : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن فلسطين الشهيدة المضيعة جزء من صميم الوطن الإسلامى الأكبر ، وقطعة من تراثنا العربى المجيد ، أكسبها الله منذ القدم صفة الطهارة وروح القداسة ، فجعلها موطن المسجد الأقصى وبارك فيها ومن حولها ، وأنبت

---

(١) ٢٢ يونية سنة ١٩٥١ م .

فيها المرسلين ، وبعث منها قديماً نوره المبين ، ثم جعلها نهاية لرحلة رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه فوق الأرض فى حادث الإسراء ، وبداية رحلته نحو السماء فى حادث المعراج ، فكأنه أراد أن يشعرنا بأن فلسطين هى واسطة العقد فى تراث المسلمين ، وأنه يجب عليهم أن يبذلوا فى سبيل حفظها والذود عنها المهج والنفوس ، كما أنه سبحانه جعل المسجد الأقصى مقترناً إلى الأبد بتاريخ العروبة والإسلام ، حيث أنزل فى شأنه قرآناً يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . وأيد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم هذا الاقتران حين قال فى حديثه الصحيح : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

ولقد افتتح الإسلام بنوره الوضاء فلسطين على يد أمير المؤمنين العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لا ليقيم المسلمون فى فلسطين دولة ، أو يكسبوا مغنما ، أو يستعبدوا أمة ، بل لينشروا نور الله فى الآفاق ، وليشركوا معهم فلسطين المقدسة فى نعمة الله الكبرى وهى الإسلام ، ومنذ دخل الإسلام أرض فلسطين أصبح أهلوها بنعمة الله إخواناً ، بعد أن دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وامتلأت صدورهم بيقين الإيمان ، ونسوا كل شىء إلا أنهم مسلمون فى أرض مسلمة ، تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، واعتز المسلمون بفلسطين اعتزازاً كبيراً ، وكانوا يرون كأنها امتداد لحرم الله فى الأرض ، وما استطاعت الأحداث لا والنكبات التى تتابعت على المسلمين تتابع المطر الذى لا ينقطع ، أن تؤثر فى ذلك الاعتزاز الإسلامى بالبقعة المطهرة والأرض المباركة فلسطين ، وعند ماشاءت الأقدار لحكمة يعلمها الحكيم الخبير أن يقتحم أرض فلسطين جماعات الغاصبين جاء بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبى فاستنقذها فى عزة المؤمنين وإخلاص الموقنين وإقدام الصادقين ؛ وتم له ذلك فى يوم ذكرى من ذكريات الإسراء والمعراج . .

ولقد تمتعت الطوائف والديانات هناك فى ظلال العهود الإسلامية بحريات واسعة وحرمات مصانة ، مما لم تشهده فلسطين قبل الإسلام ، ولم تعرفه إبان سيطرة الصليبيين عليها ، حتى قال الذين نالهم العسف والاضطهاد من المسيحيين على أيدى إخوانهم الغاصبين من غير المسلمين : إن حكم الإسلام أفضل ألف مرة من حكم الصليبيين ! . . .

هذه لمحة عاجلة عن تاريخ فلسطين الشهيدة التى استطاعت شرذمة من عصابات اليهود شذاذ الآفاق ونفاية الأمم أن يقبلوا فى العصر الأخير ، فينتهزوا غفلة المسـلمين وتفرقهم ، وتصارعهم حول المغانم الرخيصة والشهوات الخسيسة والأهواء الدنيئة ، فيثبتوا أقدامهم فى أرض فلسطين العربية الإسلامية الغالية ، ثم ينتزعوا أرضها من أيدى أبنائها المسلمين ، ثم ينشئوا فيها المنشئات من المصانع والمعاهد والمعسكرات . . وأخيراً وبعد تهاون عجيب من المسلمين وتقصير مؤسف لا نستطيع الإفاضة هنا فى تفصيل مظاهره وأسبابه ، استطاع أولئك الدخلاء أن ينشئوا لهم دولة فى فلسطين وأن يطردوا العرب المسلمين من صميم أوطانهم ، وأن يستبدوا بخيرات البلد المقدس يأكلونها أكلالما ، ويقرضوا معالم المقدسات الدينية والمعابد الإسلامية ، ويعدوا العدة لينقضوا غداً على بقايا العالم الإسلامى ليبتلعوه ، قطعة بعد قطعة ، وجزءاً وراء جزء ، حتى يحققوا حلمهم الإسرائيلى القديم ، وهو استرداد ملك سليمان وتكوين دولة إسرائيل ، التى لن تكتفى بفسلطين فحسب ، بل ستمتد فتشمل وادى النيل وحوض النهرين ، وغيرهما من أقطار الإسلام العزيزة ، لاقدر الله ذلك أبداً ولا كان...

* * *

والآن أيها المسلمون . . . ماذا أنتم فاعلون ؟ . . إنكم تتعرضون من هذا البلاء اليهودى الصهيونى المهاجم لخطر الموت والفناء ، إن لم تجمعوا

أمركم فى حزم وعزم وإخلاص على أداء واجبكم نحو فلسطين ، بلا تأخير أو تسويف ، وكفى ما كان فى الماضى من زلات ، وكفى ماجره التخاذل والإهمال من نكبات ، وكفى ما أصاب العروبة من طعنات ، وكفى مالحق بالمسلمين من مذلات ، حتى أصبحوا مضغة فى كل فم ، وضحكة لكل أمة ، ومثالا يضرب فى كل موطن عن مواطن الهوان . . . وواجب المسلمين رعاة ورعية يتلخص الآن فى ثلاثة أمور يجب أن يبذل فى سبيلها النفوس والنفائس :

أولا : التعجيل بإنقاذ المشردين الفلسطينيين من المهاجرين واللاجئين والفارين من براثن الجوع والتشرد ، والعمل السريع على إعادتهم إلى ديارهم سالمين آمنين ، حتى لا يظلوا فرائس للفقر والتسول .

ثانياً : توطيد الحراسة العسكرية الوثيقة لحفظ ما بقى فى أيدى العرب من أرض فلسطين ، وخاصة بيت المقدس والمسجد الأقصى ، حتى لا يقتطع الصهيونيون هذه الأجزاء القليلة يوماً بعد آخر .

ثالثاً : إعداد العدة وتجهيز العتاد واتخاذ الأهبة لتعبئة الجيش المسلم المؤمن المطبوع على حب الشهادة والموت ، وكراهية الحياة والطمع ، لإنقاذ فلسطين كلها ، ورد المعتدين على حريتها حيث كانوا ، ولا يصدنا عن ذلك واقع الحال ولا وطأة الأثقال ، فإن الأمر أمر حياة أو موت ، فإذا أراد المسلمون أن يعيشوا فعليهم أن يفعلوا ذلك ولو عظمت منهم التضحية وطال بهم الشوط ، وإلا فليحفروا قبورهم من الآن ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد أعذر من أنذر ، وهذا هو النذير العريان يصبحكم ويمسيكم ، فلا مجال للتسويف أو التخلص ، من التبعة ، فأقدموا وخذوا فى أداء واجباتكم ، كل

فى ناحيته ، وعلى المرء أن يسعى ، وليس عليـــه أن تتم المطالب ، واذكروا على الدوام قول الحق تبارك وتعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . وقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » ... وفق الله المسلمين رعاة ورعايا لأداء واجبهم نحو فلسطين والعروبة والإسلام ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

لماذا ضاعت فلسطين[1]

لله الحمد ، يحاسب على الفتيل والقطمير ، ويحصى على المرء كل كبير وصغير « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا تضل ولا تنسى ، وأنت الرقيب فى الآخرة والأولى « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً» ونشهد أن هادينا ومرشدنا ، وقدوتنا وإمامنا ، وزعيمنا وقائدنا ، وسيدنا ومولانا ، محمداً عبدك ورسولك ، عاقب بعدلك ، وانتقم من أجلك ، فوعظ وزجر ، وأدب من فجر ، فاستقامت لدعوته الأمور ، وخنع من هيبة دعوته وسلطان شريعته شيطان الفجور ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وجنده وأحبابه ، واللائذين بجنابه والواقفين ببابه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أى عربى أو مسلم يسمع اليوم اسم « فلسطين » ولا يثور فيه اللحن الحزين والألم الدفين ؟ . أى عربى أو مسلم لا يردد الزفرات ويتابع الحسرات ويواصل الأنات حينما يرى « فلسطين » وقد صارت إلى ماصارت إليه من الضياع والهوان ؟ . فلسطين القصة المبكية المفجعة والمأساة المخزية الموجعة ، فلسطين البلد الذليل الثاكل النائح الذى أراده الله محكا لهمة المسلمين وعزيمة العرب ، فأبوا وقد أضلتهم طواغيتهم وشياطينهم إلا أن يكون مصداقاً لذلتهم

---

(١) ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٠ م .

العجيبة ، وعنواناً على خيبتهم الغريبة ؟ . . لقد ضاعت فلسطين أيها الناس كما تعلمون من أيدى العرب والمسلمين ضياعاً حسياً ومعنوياً ، ملموساً ومفهوماً ، واحتلها نفاية الأمم وحثالة الشعوب من أبناء صهيون ، وأصبحت إسرائيل « المزعومة » دولة معلومة مرهوبة الجانب ، تهدد بعدتها وعتادها وجيوشها من تشاء ، وتفرض كلمتها طوعاً أو كرهاً على من تشاء ، وتسرف فى تنظيماتها وأحلامها وآمالها ومطامعها كما تشاء ، ولم لا تفعل هذا وأكثر من هذا وقد أعطت درساً بليغاً لاينسى لسبعة جيوش عربية من ورائها سبع دول طوال عراض ؟ ! .

ومابنا الآن من رغبة فى البكاء والرثاء، فذلك أسلوب الأذلاء من الجبناء أو الأرامل من النساء ، ولكننا نريد أن نعرف كيف ضاعت فلسطين لعلنا نتعظ ونتكلم ، ومن الذى يتولى كبر الإثم وتبعة الجريمة فى ذلك المصاب العربى الأليم ، ونريد أن نسائل من بيدهم المقاليد : لماذا لايساق إلى ساحة المحاسبة والمحاكمة والمعاقبة أولئك الذين خدعوا وضيعوا ، وذلوا وخنعوا ، ودلسوا على الشعوب وأفسدوا ، واستغلوا وانتهزوا ، حتى أضاعوا من أيدينا فلسطين الشهيدة ، وقد كان بيننا وبين إدخالها فى حمى الوطن العربى الصميم مسيرة أيام معدودات ، إن لم تكن ساعات معدودات ، وما أحدثكم عن تاريخ قديم أومجهول بل التاريخ منكم قريب معلوم ! ! .

لقد ضاعت منا فلسطين أيها الناس لعدة أسباب ، وكل سبب منها يحتاج إلى البحث وإمعان النظر ، فمن أسباب ضياع فلسطين أننا تأخرنا فى الدفاع عنها حتى تمكن أبناء صهيون منها ، وثبتوا دعائمهم فيها ، وحصنوا أماكنهم داخلها ، ولقــد كانت النذر خلال ما يزيد عن عشر ســنوات تقرع أسماعنا منادية : هلموا أيها العرب والمسلمون إلى إنقاذ فلسطين ، فإن شراً قريباً أو بعيداً يراد بها ، وهى مركز الدائرة فى حياتكم ، فإذا

ضاعت فضياعها فاتحة لضياعكم ولكن الآذان صماء والقلوب عمياء ، والرعاة غافلون أو متغافلون ، يربطون أعناقهم ما استطاعوا بعجلات بريطانيا السفلى التى ليس للعرب ولا للمسلمين بل ولا للشرقيين عدو سواها فى هذا الوجود ، فهى التى جعلت بمكايدها وأساليبها تمكن أقدام اليهود من فلسطين ، وتضحك على ذقون العرب والمسلمين ، وتوقع بين صفوفهم العداوة والبغضاء وتفرق بينهم بالدس الوضيع والكيد اللئيم ، وتضرب بعضهم ببعض لتسود عليهم ، وتضمن ضعفهم بشتاتهم وتفرقهم وتمزق وحدتهم القوية الغلابة ، وقد نجحت بريطانيا السفلى فعلا فى سياستها ، ورأينا المر والعلقم من ذلك ، فشاهدنا الدول العربية لاتدخل أرض فلسطين لإنقاذها أو تحريرها لأهليها فى يقين وإخلاص ، بل حركت أغلبها إلى ذلك شهوات ورغبات وأطماع ، فكل من هذه الأكثرية يرقب صيدا ، وكل يستريد لنفسه مجداً مادياً أو معنوياً ، واستطاع البعض أن يكتم أغراضه أو أمراضه ، وعجز البعض الآخر أن يكتم مطامعه الأشعبية فأبدى الشقاق وأظهر النفاق ، وتمرد على أخوة الإسلام وإجماع العرب ، وكان ذلك الكفران والبهتان من الرءوس الكبيرة سبباً فى ضعف روح الجهاد ونزعة الاستشهاد فى نفوس الجنود وخاصة الصفوف النظامية الرسمية منها ، فكانوا كما يخيل إلينا يحاربون وكأنهم ينهضون بمهمة رسمية شاقة ثقيلة بغيضة ، لولا خوف العقاب الصارم لولوا الأدبار وآثروا الفرار . ولم لا وقد كادوا يؤمنون بأنهم لا يحاربون فى معركة الرحمن والقرآن والأوطان ، بل يحاربون فى معركة عمادها أهواء الرءوس ومطامح الإنسان ؟ .

ومن أسباب ضياع فلسطين أن الجهلة من رعاتنا فى ذلك الوقت كانوا وهم لا يحسنون شيئاً من أمور القتال أو شئون النضال يتحكمون فى المعركة بالتوجيه والتعديل ، والتأجيل والتعجيل ، على خلاف ما تقتضيه الخبرة

الميدانية المبنية على التخصص والمشاهدة ، وبينما كانت ساحة الميدان تحتدم بالأسود المتحرقين إلى الجهاد وتعجل النصر أو الاستشهاد ، كان تجار السياسة والمحترفون للحكم والمسيطرون على الناس من مكاتبهم يأبون إلا أن تدار المعركة بآرائهم وأوامرهم ، فشلوا حماس الجيش المصرى وغيره وحطموا قوة المجاهدين المتطوعين بالهدنة التى قبلوها مرة ومرة فكانت بداية البوار وهاوية الحسار ، وكم تضايق من ذلك التحكم قواد وجنود ، وكم رغب أقطاب إلى رجال السياسة والحكم أن يمكنوا القساور فى الميدان من حقهم ودوائر اختصاصهم ، فلم يسمع لهم قول ولم تنفذ نصيحة . . ولم تقف جناية هؤلاء المحترفين للحكم على الجيش النظامى الرسمى ، بل تعدته إلى كتائب المتطوعين المتبرعين بدمائهم للوطن ممن بعثتهم الهيئات الإسلامية والجمعيات الدينية والوطنية ، فحرموا هؤلاء المتطوعين المؤمنين المخلصين كثيراً من الميزات والحقوق ، وكانوا يضنون عليهم بمـــا يجب لهم من تأييد وتعضيد وتمجيد فإذا ماجد الجد وضاقت الحلقات واشتدت الأزمات فزعوا إلى نفس أولئك المتطوعين المخلصين المؤمنين يحتمون بظهورهم ويتقون بهم المهالك والمخاطر. ويدفعون بنجدتهم وحميتهم وبسالتهم البـــلاء النازل والرعب المحدق ، وكم من موقف سبق فيه المجاهدون المتطوعون فى فلسطين إلى مواطن البأس والخطر جياعاً إلى المجد، عطاشاً إلى دماء الأعداء منتظرين جزيل الأجر والثواب من رب السماء، بينما كان غيرهم من المغمورين بالنعيم هنا وهناك — ولا نحدد ولا نسمى — يشربون الخمر ، أو يدخنون الحشيش أو يخنعون لشهوة النساء أو يتقاسمون الغنائم والأسلاب ، أو يرسمون الخطط لحظوظ اليوم ومطامع المستقبل .

وإننا لنقول هذا القول والدم يفور فى الأعضاء ، وما بنا والله من حقد أو ضغينة أو تحيز ، فالكل أبناء الوطن وكم نحب لكل فرد منهم الخير

الكامل والصلاح الشامل وما ننقد حين ننقد بروح العصبية أو الطائفية أو الحزبية أو العداوة الشخصية أو الحزازة النفسية ، فإن هذا الصوت الذى يرتفع بتلك الصيحة يبرأ إلى الله وهو فى مقام مشهود من الحزبية والطائفية والعصبية والضغينة الشخصية ، وما كان ذلك الصوت يوماً من الأيام — ونرجو أن لا يكون — مطية لطائفة أو لساناً لحزب أو مسخراً لهيئة أو جماعة أو ناحية ، فإنه بفضل الله وحمده ، ومنه وكرمه ، أعز من ذلك وأطهر ، ومن الواجب أن يكون لسان الداعية الإسلامى على الدوام أعز من ذلك وأطهر ، فلا يعرف هذا الصوت أحزاباً أو جماعات ، ولكنه يعرف ربا خلقه فهو يعبده وينصر دعوته ورسولا هداه فهو يتبعه ويحفظ سنته ، وإسلاماً أعلاه فهو يحرص عليه ويؤيد دعوته ، وليس وراء ذلك من مأرب له أو مطمع أو سبيل ، اللهم إلا إذا استجابت أسماع الناس وعقولهم للافتراء والتحريف وسوء التأويل فهناك ستشوه كل حقيقة ويتهم كل منصف ، وقد قال الحكيم الأول : إن قول الحق لم يدع لى بين الناس صديقاً ؟ .

ومن الأسباب التى أضاعت فلسطين أيضاً أن رعاتنا فى ذلك الوقت — — كان الله لحسابهم — شغلتهم أحقادهم وأضغانهم الداخلية عن التفرغ الكامل لقضية الوطن الإسلامى الجريح ، وكان من الممكن إيجاد هذا التفرغ بالاتحاد الصحيح وتناسى الخصومات ، وبالحكمة والرشاد فى التصرف والسداد فى التفاهم والانصاف فى الأمور ، ولكنهم تركوا فلسطين فى محنتها ، تحترق وتسلم بقية روحها والتفتوا باغين مسرفين إلى الانتقام الظنين والتشفى الأعمى والتنكيل الأثيم والتشريد السافر والحقد الدفين المكشوف وإذا بنا إبان ذلك نصدم أشد صدمة حين نسمع أن فريقاً كبيراً من المتطوعين المتبرعين المحتسبين يعتقلون وهم فى الميدان بملابس الجهاد لاعلاقة لهم بأحقاد الداخل ولاصلة لهم باضطراباته ، وإذا بهؤلاء المتطوعين المعتقلين يجازون

جزاء سنمار ، وكأن هذا الاعتقال هو ثمن جهادهم وتركهم لأوطانهم وأسرهم ووظائفهم ومستقبلهم وتضحيتهم بدمائهم فى سبيل الإسلام والعروبة ، وإذا بالأحكام العرفيـــة والسلطات المطلقة تستخدم لإخفات صوت التحرر والمجاهدة، فيصدم العالم كله بحل أكبر هيئة إسلامية فى العالم بأسلوب شاذ ووضع غريب ، مما زعزع النفوس الآمنة وزلزل القواعد المكينة ، ويستغل ظلام الاستبداد لاغتيال أكبر زعيم إســـلامى فى العالم عليـــه رحمات الله ورضوانه ، بعد أن يجرد من كل وسائل المقومات الشخصية والحوافظ الفردية ، ويغتال ذلك الرجل الأعزل فى ليلة لا تنسى أبد الدهر ، بصورة يلعنها ويلعن أصحابها أهل الأرض وأهل السماء ، وإذا باغتيال الرجل على هذه الصورة يعطف على مصرعه قلوب الأعداء والمخالفين مع قلوب الأصدقاء والمتابعين ، وإذا بفتنة داخلية شملت الجميع وهزت المبادئ والأخلاق والنفوس والروابط هزاً عنيفاً ، وإذا ببعض حراس البيد ينقلبون إلى قطاع طرق ، وإذا برعاة القطيع الجاهل الجائع الحائر ينقلبون إلى ذئاب تبطش بالقطيع نفسه وتنهش فيه ، وإذا بنا نصطلى بنيران مظالم ومآس ومهازل لا تنسى أبداً عند الله أو عند الناس ، وكيف وقد شهد الناس وهم فى القرن العشرين صورة لهمجية القرون الوسطى واستبداد طغاة الإقطاع ؟ . وحينما نقل من بيدهم المقاليد ميدان المعركة من فلسطين إلى شوارع البلد وسراديب التعذيب وساحات المعتقلات ومخادع الأسر ومعاهد التعليم وأماكن العبادة ، انتهز أبناء صهيون الفرصة فابتلعوا فلسطين الشهيدة لقمة سائغة دون أن يجدوا من يذرف عليها دمعة رثاء ! ! .

هكذا ضاعت فلسطين يا جماعة المسلمين ، وقد طوت عهود الإرهاب والاستبداد ألوية ظلماتها ومخزياتها فلنطالب اليوم ببيان شامل كامل عن مأساة فلسطين ، نريد أن نعرف كيف بدأت المأساة وكيف انتهت ، ومن المسئول

عن ضياع فلسطين . . ونريد أن نحاسب هؤلاء المسئولين أعسر الحساب بلا تفريط أو تسويف . . لقد جمعت لفلسطين نقود من فقراء ، وحلى من سيدات ونساء ، وتطوع من أجلها أحرار أبرار ، وأريقت فوق ساحاتها دماء ، وسقط من أجل الدفاع عنها شهداء ، وبذلت فى سبيل قضيتها عشرات وعشرات من ملايين الجنيهات ، ثم ضاعت فلسطين . فأتونا بمن أضاعوا فلسطين « وقفوهم إنهم مسئولون » وحاسبوهم فانهم يستحقون ، ولايمنعكم من ذلك غلظ رقاب أو لومة لائم ، فإن الحق لا يعرف كبيراً ولا صغيراً ، وما يرضى الإسلام أبداً أن يؤاخذ الضعيف الأعزل على سفاسف الأمور وحقير التصرفات ومفتعل الافتراءات ثم يعلوا الشريف على المؤاخذة والحساب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أقسم لكم بالله الذى لا يقسم بسواه ، إن هذا الصوت الذى يصافح آذانكم صوت مخلص مستقل ، لا يدين بحزبية ولا يؤمن بعصبية ، وما يريد إلا الحق ، فطالبوا ولاتكم العادلين المنصفين بهذا الحساب فى عزم وتصميم وإلا فأنتم شركاء فى تضييع فلسطين ، وإن عظام الأبطال من شهدائكم فى فلسطين لن يريحها نصب أو تذكار ، ولكن يريحها تحرير فلسطين ، وتأديب من كانوا السبب فى ضياعها وإن دماء الأعزاء من أبنائكم فى أغوار فلسطين لن تهدأ إلا إذا خلص الحمى من كلاب الأعداء ، فارضوا ربكم ووطنكم بهذه المطالبة فى صدق وإخلاص ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أراد أسامة حبيب الرسول أن يشفع عنده فى حد فقال له غاضباً : أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقامو عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

كاد تراث محمد يضيع[1]

لك الحمد أيها المنتقم الجبار ، العزيز القهار ، نحن لا نحمد على المكروه سواك ، ولا نسأل فى الشدائد إلا إياك ، تعالت كلمتك وعزت قدرتك . نشكو إليك أيها الخالد الأعظم سوء الحال وغلبة الضلال واستئناث الرجال ، ونشهد أن لا إله إلا أنت ، تتفضل بالنعمة على فريق ، وتصب النقمة على فريق ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك الهادى إلى أقوم طريق ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله السابقين إلى مواطن الفخار ، وأصحابه الذين توجهم حسن جهادهم بإكليل الفوز والانتصار ، وأتباعه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلى يوم القرار !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

« عاش اليهود ، وتحيا الصهيونية » ؟ . . هكذا يهتف الإنسان الحليم إذا نفدت حيلة ، وعيل صبره ، وضاق صدره الرحيب بهذا الهوان المخجل المخزى الذى ترتضيه الحكومات العربية ، وتطمئن إليه وتسبح فيه ، ثم تحاول أن تضحك على ذقون رعاياها وتخدع شعوبها فتوهمهم أنها قوية ، وأنها تملك زمام الموقف ، وأنها ستنقذ فلسطين بالسيف الذى أسكت القلم . ولكن الشعوب قد تنبهت وتعلمت أيتها الحكومات الواهمة ، وأصبحت لا تنخدع بذلك الطنين والرنين ، والجعجعة التى لا ترى من خلفها طحناً ، ولولا أن الشعوب عزلاء لا سلاح بأيديها لخلفتكم فى لهوكم ، وسبقتكم إلى الميدان ! .

نعم « عاش اليهود ، وتحيا الصهيونية » ! .. فقد أثبت اليهود أنهم رجال عمليون ، وأناس مكافحون ، احتملوا مرارة الصبر والتشرد والتنقل ،وذاقوا

---

(١) ٨ مايو سنة ١٩٤٨ م .

الأهوال والشدائد ألواناً ولكن على الرغم من ذلك كله أخذوا يتجمعون ويتعاونون ، وأقبلوا زرافات ووحدانا على فلسطين كما يقبل الإعصار المهلك على الخميلة الغناء ، وبدءوا يسلحون أنفسهم بالبنادق والمدافع والطائرات ، والمصــفحات والمدرعات، ويقيمون خطوط الدفاع ومناطق الهجوم فى الجو وفوق الأرض ، وفى الأقبية والأعماق ، ويفعلون كل هذا بلا خطب ومآدب ، أو مؤتمرات ومشاورات ، أو وعيد وتهديدات بينما العرب — رحمهم ربهم وغفر لهم سيئات أعمالهم — يلوكون الكلام المسئوم لوكا ، ويغترون بكبرائهم وحكامهم اغتراراً واسعاً ، ويجترون ذكريات أسلافهم كأنهم يظنون أن خالداً أو طارقاً أو صلاحاً سيبعث من أجلهم ليحرر لهم بلادهم التى منها يأكلون ، وبثمراتها يتمتعون ! .

وصدر قرار التقسيم اللئيم بعد أن ذاق العرب على أيدى الإنجليز الوضعاء من جهة ، وأيدى اليهود الحقراء من جهة أخرى ، صنوفا لا تحصى من العنت والإرهاق فكتبنا وخطبنا ، وقلنا لحكوماتنا إنك تزيد عن سبع حكومات عربية ولكل دولة جيش منظم مدرب بالسلاح ، فلتسارع كل حكومة بتوجيه فرقة من جيشها تدخل الأرض المقدسة من جهتها ، وبذلك نضع اليهود أمام الأمر الواقع ، ونحفظ لفلسطين عروبتها وكرامتها ولو أن الحكومات العربية استجابت لذلك النداء المخلص لكفى الله المؤمنين القتال ، ولكنها أعرضت وتغافلت ، وكم من دعوات صالحات ضاع صداها بين أولئك الغافلين ، واكتفى القوم بمهازل الخطب والمظاهرات والتبرعات ، وباتوا يحلمون بعريض الآمال، بينما كان اليهود فى فلســطين وغيرها يبذلون كل شىء استعداداً ليوم الكريهة والنزال ! .

وبدأت المعارك بين اليهود والعرب ، وكلما ربحنا انتصاراً جزئيا هللنا

وكبرنا ، وخيل إلينا أن الأمر قد انتهى كما نحب ولكننا فوجئنا أخيراً بالأخطبوط الصهيونى الفظيع يتحرك ماداً أنيابه ومخالبه ، مزمجراً بحديده وناره وعدده وسلاحه ، مشعلا ناراً تكتسح فى سبيلها العباد والبلاد . وإذا بنا نرى القرى المنكوبة والحقوق المغصوبة ، والدماء المسفوكة والأغراض المهتوكة ، والأطفال الميتمين والعجزة المشردين والنساء العاريات والأرامل الثاكلات ، وكلما طفحَ الكيل وزاد الويل سارع ولاة الأمور فينا الذين يملكون الربط والحل ، وتحت أيديهم الجيوش والسلاح ، ولهم القدرة على التنفيذ والعمل فتبادلوا المراسلات والمذكرات والزيارات والاتفاقات ، ثم تنجلى تلك الزوبعة عن لاشىء ، فلا يزال اليهود غالبين منتصرين ، ولا زالوا يحتلون البلدان العربية قرية بعد قرية ومدينة فى إثر مدينة ، ولا زال عرب فلسطين يصرخون ويستغيثون ، ويطالبون النجدة بالطعام والثياب ، والمال والسلاح ولا زالت تلك البقاع العربية الإسلامية يتلطخ ثراها بأقذر جريمة صهيونية عرفها التاريخ ، فالأسر مشردة ، والنساء مسبية والمساجد مهدمة ، والشعائر معطلة والعروبة تبكى حظها ، وتغص بشجاها مع أنها كانت هام الدنيا وتاج الشعوب :

معادن العز قد مال الرغام بهـــا	لو هان فى تربه الإبريز ما هانوا
مررت بالمسجد المحزون أســـأله	هل فى المصلى أو المحراب مروان ؟
تغير المسجد المحزون ، واختلفت	على المنـــابر أحرار وعبدان ! !
فـــلا الأذان أذان فى منـــارته	إذا تعالى ، ولا الآذان آذان !

ولست أدرى والله أى سر عجيب ذلك الذى جعل للجيش الأردنى الصدارة والسبق فى الزحف نحو فلسطين ، وأخيراً طلعوا علينا بمشروع جديد نتمنى أن يكونوا فيه صادقين ، فقالوا إن أوامر قد صدرت للجيوش العربية

بالزحف نحو فلسطين ، وأن ملك شرق الأردن سيقود جيشه بنفسه لتحريرها من الأعداء ، وأن جيشه سيكون أسبق الجيوش وأولها فى ذلك الميدان ، فتى السير ياهادى المحجة ؟ ومتى نفى بالعهود والوعود أيها المحيطون بالحدود ؟!

مع أن هذه الشقيقة العزيزة علينا الكريمة لدينا الحبيبة إلينا وهى «شرق الأردن» لا تزال راسفة فى أغلال الأسد البريطانى ولا تزال أسيرة لغدره ومكره ، وإن خدعها بما يسميه معاهدات ومحالفات ، وليت شعرى أتزحف الجيوش حقاً لتحرير فلسطين ، وتخليصها من الصهيونيين أم أنها ستكتفى باحتلال المناطق العربية فحسب ، وبذلك تساعد هيئة الأمم الغادرة على تنفيذ التقسيم « وكأننا يابدر لا رحنا ولا جينا » ! ؟ ؟ الواقع أيها الإخوان أننا فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ولسنا ندرى متى يكون الخلاص ! ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة السلام :

الحال فى فلسطين موئسة ، فالعرب فى هم وبلاء ، وهزيمة وانحدار ، واليهود يفعلون بهم الأفاعيل ، ومآسى التاريخ تتكرر اليوم ، وكأنما فلسطين أندلس جديدة تقام فيها المجازر والمذابح للقضاء على الإسلام والمسلمين ، بلا تورع أو استحياء .

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات ؛ وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
قواعد كن أركان البلاد ، فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟!
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أسلمت ، ولها بالكفر عمران
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان!

تلك المصيبة أنست ما تقدمها | وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها الملك البيضاء رايتــه | أدرك بسيفك أهل الكفر، لا كانوا
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم | أسرى وقتلى ، فما يهتز إنسان
ألا نفوس أبيــات لهـــا همم | أما على الخير أنصار وأعوان ؟
يامن لذلة قوم بعــد عزهم | أحال حالهم كفر وطغيــان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم | عليهم من ثيــات الذل ألوان
يارب أم وطفل حيــل بينهما | كما تفرق أرواح وأبدان !
لمثل هذا يذوب القلب من كمد | إن كان فى القلب إسلام وإيمان !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقولون إن اليأس إحدى الراحتين ، فدعونا نيأس من أنفسنا إذا لم يكن قد بقى فيها بقية صالحة لحياة عزيزة كريمة ، وإلا فكيف يرضى ولاة الأمور فينا بهذا الهوان ثم لايتحركون بل يظلون يعدون ويغررون ؟ إن هتاف امرأة سجينة كان سبباً لفتح عمورية بجيش إسلامى على رأسه أمير المؤمنين ، واليوم تستغيث ألف امرأة مهتوكة العرض فى فلسطين ولا من سامع أو مجيب ، وإن ضرب امرأة عربية كان سبباً فى تحطيم ملكه بأيدى العرب ، واليوم تضرب وتسبى آلاف النساء ، وتقتل آلاف الصبيان والشيوخ ، ولا من نخوة تثور أو دماء تفور ، فما بقاؤنا فى الحياة ؟ . . سلوا الله أن يبعث قلوبنا أو يقبضنا إليه واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ! .

سئل سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : على أى شىء بايعتم النبى

صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؟ . فقال : « على الموت !!» . وقال عليه الصلاة والسلام : « شر مافى الرجل شح هالع ؛ وجبن خالع ! ! » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينتزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن قلوبكم الوهن . قالوا وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت ! ! » .

العفو والمغفرة

الحمد لله المطلع على السرائر ، الخبير بالنفوس والضمائر ، الذى يمهل ولا يهمل ، ويؤخر ولا ينسى ، ويحصى على المرء اللفتات والتنهدات ، والرموز والإشارات ، فكيف بالجرائم وعظام الخبيثات ؟ . أشهد أن لا إله إلا هو القادر المقتدر ، المعز المذل ، بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله ، جاءنا بالهدى وبالكتاب المنير ، فدعانا إلى المحبة ، وكرهنا فى العداوة ، وزهدنا فى المنافرة والبغضاء ، فقال صلوات الله وسلامه عليه مامعناه : « لا يتم إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وتلا علينا قول ربه « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . اللهم فصل وسلم على نبيك الكريم ورسولك الأمين الذى جاهد حتى أصبحت أمته الكبرى معتصمة بحبل الله القوى المتين ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . .

أما بعد فيا أيها الإخوان :

جميل جداً أن يغضب الواحد منا إذ تجرح كرامته أو يخدش عرضه ، فإن الرجل الذى لا يغضب فى موضع الغضب حمار أو ديوس ، وجميل أن يقتص الإنسان ممن اعتدى عليه ، فقد قال الدين : « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

ولكن يجب أن نعلم بجوار ذلك أن الغضب شعلة من النار ، وأن النار هى منبت الشيطان . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه :

---

(١) ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٤ م .

« إن الغضب جمرة توجد فى القلب ، ألم تروا انتفاخ عروق الغضبان وحمرة عينيه ؟ فإذا غضب أحدكم فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يذهب غضبه فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء » ! . .

وقد حدثت بينكم فى هذه الأيام فتنة الواقف فيها خير من السائر ، والنائم خير من اليقظان ، والغائب عنها خير من الشاهد . حدثت بينكم فتنة إن دلت على شيء فإنما تدل على خلو قلوبكم من الإيمان ، وانغلاق أسماعكم عن مواعظ القرآن ، وابتعادكم عن رأفة الرحيم الرحمن . وعلى أنكم رجعتم بعد طول التهذيب ومديد الإرشاد وكثير المواعظ ، إلى همجيتكم ووحشيتكم .. وخيل إليكم أنكم عمرتم الأرض وبسطتم سلطانكم عليها ، وأنكم قادرون على تصريفها ، وامتلاك رقاب أهليها ، والتمتع بخيراتها ونواحيها ، ولكنكم نسيتم الجبار ، نسيتم من بيده الملك ، الذى يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، نسيتم القوى الذى إن شاء أرسل عليكم من السماء صاعقة تخسف بكم الأرض ، أو يختصكم بالعلل والآفات والكوارث فلا يترك فيكم غنياً ولا قوياً ، بل يجعلكم شيعاً تهيمون على وجوهكم فى الأرض فلا تجدون القوت ، وتلتمسون العيش الأسود فلا تحصلون عليه .

ما للأجساد منا قد تضخمت وغلظت ، وكان من حقها أن تسقم وتضعف فى عبــادة الله والخوف من عقابه ؟ وما للقلوب فينا قد قست وتحجرت فهى كالصخر الأصم ، وكان من حقها أن ترق وترحم وتتقطع عندما تسمع صرخة صارخ ، أو استغاثة مستغيث ؟ وما للأرواح منا قد سفلت ونذلت ، وكان جديراً بنا أن نرفعها إلى سماء الأملاك وأفق الطاهرين المخلصين . ؟

وما لكم قد تكبرتم وسعيتم فى الأرض بالشر والفساد ، وأعلنتم على الضفاف منكم الحرب والعدوان وأعد كل واحد عدته ، وجمع كل فريق جيشه ، وحشد كل جانب جنده ؟ . . من هذا الساعى بالكبر ، المتظاهر بالقوة ، المدعى للغلبة ، الطالب للنصرة ؟ ما هو والله إلا الجلف الغليظ المجرم ، ما هو والله إلا المطرود من المجتمع ، المكروه من الناس ، المتربص به الشر فى كل مكان وموضع ، وما ببعيد أن تقبض روحه شر قبض، وأن تنزع حياته أشـــد نزع ، وأن يذهب بعد ذلك فيلاقى الجبار العزيز الذى قال له من قبل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وقال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

وعلام تثيرون الأرض الهادئة وتقلبونها ، وتعلنون تلك الثورة الحامية بينكم ؟ . أفيكم من كفر فقمتم تحاربونه وتجاهدونه ؟ . أفيكم من زنى فقمتم ترجمونه وتلعنونه ؟ أفيكم أجنبي استباح داركم فأردتم أن تصدوه عنها ؟ . لا شيء من ذلك ولكنها العزة الكاذبة والنفخة الفارغة والتطاول الشاذ والتكبر الفاحش ، يأبى على الواحد منكم أن يتأخر عن واحد فى الجلسة ، أو يكون أدنى موضوعاً منه فى الحفلة ، أو يكون أقل منه فى الأنصـــار والأتباع لقد ألهاكم التكاثر والتفاخر ، حتى زرتم المقابر ، وحتى أصبحتم تقتلون وتريقون الدماء لأن رجالا منكم — مثلا — أراد أن يظهر فى ثوب نعمة فأردتم معاكسته ومحاربته ، أو لأن رجلا شتم واحداً منكم فحسبتموها كبيرة من الكبائر لا تغتفر ، أو لأن رجالا منكم مر على آخر فلم يقم له إجلالا . . ياللخبال وياللضلال ! تعلنون القتال والمفاخرة لأتفه الأشياء ، وهناك من الجرائم والذنوب ما يفعل بينكم جهاراً، ومقترف ذلك يستحق شديد العقاب والعذاب ، ومع ذلك تخافونه وتخشونه والله أحق أن تخشوه . . إن الزانى

بينكم ليدخل بيت الرجل منكم فيزنى بامرأته ، ويعلم الزوج بذلك ، ولايحرك ساكناً ولا يثير هادئاً ، ويبقى ديوساً محرماً ، كأنه فقد الأحساس والشعور ... إن القوى فيكم ليغتصب أرض الضعيف أو ماله أو جداره أو بيته ، ويستنجد بكم فلا تنجدونه ، ويستعين بكم فلا تعينونه ويطلبكم لأداء الشهادة مثلا فتخافون بطش القوى وسلطة الغنى فتنكرون الشهادة أو تقلبونها زوراً ، ومع ذلك تعيشون فى أمن ودعة ؟ . . لاقد قربت ساعتكم ، ودنت نهايتكم ، وما يريد الله بهـــذه الحرب يوقعها بينكم إلا أن يقضى على الفاسقين والظالمين منكم ، ولو أنكم تحاببتم وتآخيتم فى الله لأنزل سكينته عليكم ، وأحاطكم بالعناية والرعاية ، ولكنكم قول تجهلون .

يقول الظالم منكم : إننى أقتص ممن اعتدى على كرامتى ، وجرح شعورى ، ولكنى أقول لذلك الغشوم لو كنت مسلماً حقاً ،مؤمناً صدقاً ، لتدبرت معى قول الله تبارك وتعالى يصف المؤمنين : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » وقوله : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » وقول الحسن رضى الله عنه : « من علامات المسلم قوه فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين وعلم فى حلم ، واقتصاد فى غنى ، وتجمل فى فقر ، وإحسان فى قدرة ، وعفو عند غلبة ، وصبر فى شدة ، ولا يغلبه الغضب ، ولا تستخفه الحمية ، ولا تميل به الشهوة ، ينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ويعفو عن الذنب ، ويغفر للظالم » .

يقول الواحد منكم : قد جرحت كرامتى ، وما قالها من قبله رسول الله صلى الله عليه وســـلم ــ وهو أشرف مخلوق ، فقلد جاء قومه بالنـــور والحكمة والسعادة فحاربوه وعاكسوه وعذبوه حتى أجرم أحدهم يوماً فوضع أحشاء ذبيحة عليه وهو يصلى ، وتجمع عليه يوماً طائفة من الصبيان فجعلوا يقذفونه بالحجارة حتى احتمى فى دار رجـــل كافر ، وأرغموه على الهجرة

من بلده إلى بلد آخر ، وحاربوه فى مواقع عديدة ، وكان بعضهم يفتش عن النبي ليقتله وهو يقول : « أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا » وشاء الله أن ينتصر محمد ، وأن يتغلب على معذبيه ومخرجيه ومطارديه ، فهل حدثته نفسه بأن ينتقم . . ؟ هل حدثته نفسه أن يأخذ المذنب بذنبه ؟ لا والله ، لقد جمع قريشاً وقال لها : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! . فقال : لاإله إلاالله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ... ذلك سيد الخلق ، وأشرف الأنبياء ، فما قيمتكم أنتم بجواره ، وماشأنكم أمام شأنه ؟ ألا تعتبرون بأفعاله فتقتدون به ؟ ألا تسيرون على نهجه الذى يقول : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ويقول : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ؟

يا أيها الظالم المعتدى على غيرك ، المتطاول على سواك ، المفتخر بقوتك وكثرة مددك وطول باعك وتعدد أتباعك ، غداً تموت وتأتى الجبار ، ويقفلك بين يديه للحساب ، فترى أشخاصاً لا يعدون قد أحاطوا بك وتدفقوا عليك ، فواحد يقبض على يدك ، وآخر يقبض على رقبتك ، وثالث يمسك بتلابيبك وهذا يقول لك : لقد شتمتنى أو ضربتنى ، وهذا يقول : لقد غبنتنى ، وهذا يقول : لقد خذلتنى ، وهذا يقول : لقد غششتنى ، وهذا يقول لقد ضيعت جوارى ، وهذا يقول : إنك لم تراع أخوتى ، وهذا يقول لقد كنت محتاجاً فلم تعنى ! . . وتحاول أيها الظالم أن تتخلص من خصمائك فلا تستطيع ، وتمد عنق الرجاء إلى مولاك وربك وخالقك ، وإذا بك يقرع سمعك قول الجبار جل جلاله : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ! » .

تمتع قليلا أيها الظالم بلهوك وغيك فى هذه الحياة فما متاعها إلا قليل ،

وما زينتها إلا اختبار وخدعة ، وغداً تفلس وتبحث لك عن عمل صالح قدمته فلا تجد . قال رسولك لصحابته : « هل تعلمون من هو المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، وإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

أيها الاخوان : إن نابتة السوء نبتت بينكم فأوردتكم شر الموارد وساقتكم إلى شر العواقب ، وما يجمل بكم كمسلمين أن تتركوا الخرق يتسع ، والخلل ينتشر ، والفساد يذيع ، فأستحلفكم بالإسلام الذى رضيتموه ديناً وبالله الذى اتخذتموه رباً ، أن تتقوا الله فى نفوسكم ، وأن تراقبوا ربكم فى أعمالكم ، واستعملوا الصبر والحلم وكظم الغيظ والعفو عن المسيء والمذنب ، واعلموا أن الكرامة والعظمة فى هذه الحياة ليست بقوة الجسم ولا بكثرة الأنصار ، ولا بالغلبة فى القتال ، وإنما هى بحسن الأخلاق وسهولة الطبع ، وكرم النفس ونبل الشيم . فاتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

قاطعوا الصهيونيين ..![1]

حمداً لله الذى أبدع الكون ، ولم يشاركه فى فطرته فاطر ، ولم يعنه فى خلقه قادر ، هو الذى صدق فى ميعاده ، وتعالى عن ظلم عباده ، وما ربك بظلام للعبيد ، وأشهد أن لا إله إلا هو ، نصير المؤمنين ، ومؤيد المخلصين ، وإن ربك لهو العلى الكبير ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، الذى لجأ إلى ربه فآواه ونصره ، وأعزه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله الخيرة الأبرار ، وصحابته من المهاجرين والأنصار ، وأتباعه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكتب لهم عقبى الدار ! . .

أما بعد فيا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أرادت جامعة الدول العربية فى الأيام الأخيرة أن تخرج من دائرة الكلام والأحلام ، إلى دائرة العمل والإقدام ، فرأيناها تتأهب للقيام بمشروعات عملية تنقذ بها أرض فلسطين العربية ، منها تحسين أحوال الفلاحين العرب فى فلسطين ورفع مستواهم حتى لا يضطروا إلى بيع أراضيهم ، ومنها شراء الأراضى المهددة بالبيع ، ومنها إنشاء شركة عربية مساهمة تتولى استثمار الأراضى لفائدة العرب ، ثم رأينا مجلس الجامعة يصدر أخيراً ذلك القرار الصريح الواضح ، الناجع الناجح ، ألا وهو مقاطعة البضائع والسلع اليهودية الصهيونية فى سائر البلاد العربية ، حتى يقضى على ذلك الجشع الصهيونى الفظيع ، وتبقى أموال العرب للعرب ، ورأينا كيف قام الساسة والشباب ، والنساء والفتيات ، فى كل قطر عربى بتنظيم الحرب السلمية والمقاطعة الكاملة

---

(١) ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٥ م .

لكل ما يصدر عن اليهود الصهيونيين ، وتفضيل المواطنين العرب عند البيع والشراء ، وبقى أن نقوم بواجبنا نحن المصريين فى هذا الميدان المشكور ! .

ولقد أراد مجلس الجامعة أن يحتاط للظروف ، وأن يبالغ فى التنبيه على حسن نيته ، وطهارة طويته ، فأعلن فى قراره أن هذه المقاطعة مقصورة على اليهود الصهيونيين الذين يريدون تهويد فلسطين واستعمارها ، أما اليهود المواطنون الذين يندمجون فى العرب ، ويعاونوهم ويتفقون معهم ، فهم بمنجاة من المقاطعة والعداء ! . . .

ولكن هذا الاستثناء إن صح استعماله مع بعض اليهود فى سوريا ولبنان والعراق ، ممن أظهروا تضامنهم مع العرب ، وسخطهم الجاد على الحركة الصهيونية ، فإنه يجب ألا يشمل الكثير من اليهود فى مصر ، لأنهم إلى اليوم لم يقفوا موقفاً صريحاً يدل على أنهم مخلصون لقضية العرب ، مضحون فى سبيلها كما يضحى سائر المواطنين ، ولقد ثار الشعب المصرى بالأمس من أجل فلسطين ، وتوقعنا أن يشاركنا هؤلاء اليهود فى ثورتنا ، وطالبناهم فعلا بهذه المشاركة فى صحفنا وخطبنا ، ولكنهم أيضاً ظلوا ساكتين ، بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، إذ هضمونا كل حقوقنا ، وبخلوا علينا حتى بالمجاملة ، فلندخلهم إذن فى نطاق هذا القرار ، ولنلجئهم إلى الفرار من هذه الديار ، لا بالسيف والنار ، ولكن عن طواعية واختيار ، بأن نستعمل معهم ذلك السلاح السلبى المشروع ، وهو سلاح المقاطعة والإعراض ، وهنا أيها المصريون يتبين الأصيل منا والدخيل ، ويتميز المخلص لبلاده من الغادر الخئون ، وهنا سيكون امتحان لعزائمنا وأخلاقنا وثباتنا ، فإما أن نكون هنا رجالا لهم بطولتهم وفحولتهم ، وإما أن نضرب على أنفسنا الذلة التى لا نعرف العزة بعدها فى يوم من الأيام ! .

ها قد دقت الساعة ، وحل الميعاد ، فلتعلنوها كلمة صادقة جامعة ، ولتجعلوها ثورة مسالمة من أجل أوطانكم ودينكم ، بأن تقاطعوا أولئك الصهيونيين المستترين أياً كانوا ، فلا تشتروا منهم ولا تعاملوهم ولا تجالسوهم ، وفروا من كل ما هو يهودى صهيونى فراركم من الأسود الضارية والأمراض الخبيثة المعدية ، فإن أولئك اليهود هم الذين يسقون أشقاءكم فى فلسطين عذاب الذل والهوان بالحديد والنار ، والظلم والعدوان ! . . .

إن مما يحزن الوطنى المخلص أيها الإخوان أن يسير فى شوارع أولئك اليهود فيرى متاجرهم عامرة ، وحركتهم دائبة سائرة ، وأموالهم كبيرة باهرة ، ويسير فى شوارع التجار المصريين والمسلمين فيرى تجارتهم خاسرة ، وبضاعتهم بائرة ، وما كان ذلك أيها الإخوان إلا لأنكم تفضلون أولئك اليهود الدخلاء فى المعاملة والشراء على التجار المصريين والمسلمين ، فتزدحمون أمام محلاتهم ، وتنخدعون بإعلاناتهم ، وتملئون بنقودكم خزاناتهم ، ولعلكم لم تنسوا بعد مأساة البطاقات الخاصة بمواد التموين ، فأنتم حينما تراجعون تقييد هذه البطاقات تجدون الأغلب الأعم منها كان من نصيب اليهود ، فإذا ما سألت المصريين : لماذا آثرتم اليهود وهجرتم إخوانكم فى الدين والوطن ، مع أنهم أولى بتأييدكم وتشجيعكم ؟ أجابوا إجابة العاجز الكسول قائلين : إن أولئك اليهود أسهل فى المعاملة ، وأبرع فى الصنعة ، وأجود فى السلعة ! .

وأنا أعترف مع هؤلاء العجزة بأن اليهودى فيه جانب من ذرابة اللسان وحلاوة الكلام وتجميل السلعة ، وأن التاجر المصرى فيه كثير من المعايب ، ولكن الواجب علينا فى هذه الحال ألا نترك هذه المعايب تزيد وتتفشى حتى تقضى على كل فضيلة فى التاجر المصرى ، بل يجب أن نصبر عليها حيناً من الزمان ، ونحاول تخفيفها وإصلاحها حتى يستقيم أمره ، ونشجعه بإقبالنا عليه ، ونصحنا الرشيد له ، وتوجيهنا الصالح لأخلاقه ، لأنه كلما قوى

وتطهر كان قوة لنا ، وعتاداً لوطننا ، فخيره خيرنا ، وشره شر لنا ، ومثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ! . . .

لقد أكل أكبادنا أولئك اليهود ، فأحسنوا الجمع ولم يحسنوا القسمة ، وأجادوا الابتزاز ولم يجيدوا التوزيع ، وأتقنوا الدعاية وأساليب الالتواء ، حتى فازوا بعريض السمعة وفاحش الثراء ، ولو شاهدت ما بينهم لوجدتهم يتعصبون لدينهم وطائفتهم وإخوانهم أشد التعصب ، حتى لقد حدث أن جماعة من اليهود جلسوا يتناولون الغداء ، وبعثوا أحدهم بورقهم ليشترى لهم عنباً فغاب عليهم ، وبعد زمن طويل عاد إليهم بالعنب ، فسألوه عن سبب تأخره فقال : لقد مررت على أحد عشر تاجراً يبيع العنب ، ولكنى لم أجد بينهم يهودياً واحداً حتى أشترى منه ، ولما وصلت إلى التاجر الثانى عشر وجدته يهودياً فاشتريت منه ، ثم عدت إليكم ! . . وهكذا فليكن الإسراف فى التعصب والاتحاد ! . . وبمثل هذه العصبية ملك أولئك الأرذال الأنذال ما ملكوا من عقار وأموال ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد طال حديثى معكم عن فلسطين وعن اليهود ، ولعل فى كلام اليوم ما يكون قد سمعتموه منى من قبل ، ولكنها مشكلة الساعة ، ومحنة الأمة العربية قاطبة ، ولا بد لنا فيها من الإعادة والتكرار ، حتى لا يعتذر منا معتذر بجهل أو نسيان ، « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

ولقد وضح الطريق أمامكم ، وأعطاكم القادة فيكم إشارة البدء فى الجهاد المشروع ، الذى لا يعتمد على السيوف والرماح ، بل يعتمد على قوة النفوس والأرواح ، وهو لا يقتضيكم أن تريقوا دماً ، أو تهدموا داراً ، أو تزهقوا

روحاً ، أو تقدموا مالا ، وإنما يكلفكم جانباً من سلطان الضمير ، ويقظة الإحساس ، والشعور بالكرامة ، والحرص على الحمى ، والغيرة من أجل الحرمات ، وبذلك تنقذون فلسطين الشقيقة ، وتنقذون أوطانكم العزيزة ، وتكتبون لأنفسكم مستقبلا حافلا بالحرية والاستقلال ، فلعون كل من اشترى من يهودى أو صهيونى ، وملعون كل من لبس ثياباً يهودية ، أو أكل أطعمة يهودية ، أو استعمل سلعة يهودية ، وملعون كل من فرط فى تشجيع الصناعة الوطنية ، والتجارة العربية ، نعم إنه لملعون عند الله وعند الناس ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكف على ضيعته ، ويحوطه من ورائه .

وقال عليه الصلاة والسلام :

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

يوم فلسطين[1]

الحمد لله عز وجل ، هو القوى المحب للأقوياء ، العزيز المؤيد للأعزاء : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يصدق وعده ، ويحفظ عهده : « ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اعتز بعزته ، ولم يقنط من نصره ورحمته : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطاهرين الطيبين من آله ، والصادقين الصابرين من صحابته ورجاله ، والمهتدين بأنوار أعماله وأقواله : « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من المقرر عند الحكماء وعلماء الاجتماع أن المصائب هى التى تعجم الأعواد وتختبر الرجال وتبلو الهمم والعزائم ، وتكون أشبه بالنار التى يعرض عليها الذهب وفيه أخلاط وأوشاب ، فتميز النار بين الطيب والخبيث منه ، وتفصل الطارئ الغريب عنه ، وقد مرت علينا بالأمس ذكرى أليمة وجيعة حزينة ، يعلوها الغبار والدخان ، ويرويها العرق والدموع والدماء ، وهى ذكرى اغتصاب فلسطين بلد العروبة وبلد الإسلام ، ومولد المسيح ومسرى محمد عليهما الصلاة والسلام ، وقد مر على هذا الاغتصاب الأثيم الأليم عشرة أعوام سود ، وفى كل عام نستقبل هذه الذكرى الوجيعة بترديد كلمات الأسى والأسف ، وصب سيول الشتائم على من اغتصبوا فلسطين ومن

---

(١) ٢٧ شوال سنة ١٣٧٧ هـ — ١٦ مايو سنة ١٩٥٨ م .

أضاعوا فلسطين ، دون أن نعمل شيئاً جدياً لإزالة العار الذى لحقنا ، أو تطهير أرضنا من نجس عدونا ، ومع أن الكلام القوى المستقيم له فائدته وقيمته ، ومع أن السابقين قالوا : « فإن الحرب أولها كلام » ندعو ربنا ونرجوه أن يأخذ بنواصينا قريباً إلى مواطن العمل ومواقف الجد والجهاد ، حتى لا نظل نتكلم دون أن نعمل ، فيحق علينا وعيد خالقنا : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . . .

نعم كانت ذكرى اغتصاب فلسطين تمر علينا فى الأعوام السابقة السوداء فلا نكاد نجد بصيصاً من الأمل أو الرجاء فى إصلاح الوضع أو غسل العار ، ولكن الذكرى تمر علينا اليوم وقد حدث تغير جوهرى خطير فى الكيان القومى العربى ، وهو قيام الجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا ، وهما القطران اللذان يحفان بفلسطين من جنوب وشمال ، والتوحد هو مفتاح القوة والعزة ، وباب الصلاح والإصلاح ونحن نرتجى أن يكون البدء العملى فى هذه الوحدة خطوة هامة فعالة نحو استخلاص الأجزاء السليبة من الوطن العربى المسلم . « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولسنا نرتجى محالا أو نتطلب أمراً عسيراً « إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً » وإنما نرتجى أن يعيد التاريخ نفسه — وما أكثر إعادة التاريخ لنفسه — فنرى فلسطين كما كانت فى عصور تاريخنا العربى الإسلامى ، حيث ظلت فى هذه العصور قطعة غالية كريمة حرة من صميم بلادنا المؤمنة ، فقد كانت فلسطين فى عهد الأمويين تتبع دمشق الشام ، ودمشق اليوم هى العاصمة الثانية للجمهورية المتحدة ، وكانت فلسطين قطعة من مصر فى عهد

ابن طولون والإخشيديين والفاطميين والمماليك والعلويين ، أى ظلت قرابة سبعمائة سنة وهى فى مكانها الطبيعى الكريم ، ومنذ فجر التاريخ الإسلامى والوحدة العقيدية والمادية والأدبية تظلل القطرين بظلالها ، ومن أمثلة ذلك أن المفخرة التاريخية الفنية لفلسطين ، وهى قبة الصخرة قد بنيت بأموال مصرية . إذ بناها عبد الملك بن مروان من خراج مصر فى بضع سنين ، والمسجد الأقصى قد أصلح عدة مرات بأموال مصرية وخبرات مصرية ، ومدينة « الرملة » العظيمة التى يحتلها الأنجاس الآن بدأ بناءها سليمان بن عبد الملك ، وأقام فيها قصره ، واختط خطة مسجدها وبنى منه جانباً ، وجاء بعده الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وهو ابن مصر والجامع فى خلافته بين مصر والشام وغيرهما من بلاد العروبة والإسلام ، فأكمل المسجد وفتح باب البناء وأذن للناس فيه فتسارعوا وتوسعوا ، وكان من شأن « الرملة » ما كان . . .

وفى أثناء اتحاد فلسطين مع مصر رحل ألوف وألوف من ديار المسجد الأقصى إلى مصر فاستوطنها واندمجوا فى أهليها ، كما رحل ألوف وألوف من المصريين فاستوطنوا فلسطين وامتزجوا ببنيها ، وتبين أثر هذا الارتحال والاندماج فى العروق والقبائل والعائلات المصرية التى استوطنت غزة ويافا والرملة واللد ونابلس والقدس والخليل وغيرها من بلاد الإسراء والمعراج ، وإلى عهد قريب جداً كانت الروابط بين مصر وفلسطين لا تشعر أحداً بانفصال أو انعزال ، حتى كانت الحوالات المالية والمعاملات البريدية والمصرفية وما أشبهها نافذة المفعول متحدة الإجراء فى مصر وفلسطين على السواء . . .

وحتى فى أيام الشدة والعناء كانت هذه الوحدة المؤمنة ملاذاً ومعاذاً ، ففى القرن الخامس الهجرى غزا الصليبيون سوريا وفلسطين ، ومكثوا فى الأرض الطاهرة تسعين عاماً ، ثم جاء الجيش الإسلامى من مصر بقيادة البطل الإسلامى صلاح الدين الأيوبى فدحر الدخلاء وطهر مسرى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فليس بعجيب ولا ببعيد — ورب الكعبة — أن نرقب اليوم القريب الذى نسترد فيه فلسطين ونعز فيها كلمة العرب والمسلمين ؛ ورب قائل يقول : ولكن جيوشاً عربية سبعة دخلت فلسطين منذ عشرة أعوام لتنقذها فلم تفلح وارتد جنودها على أعقابهم فاشلين . . .

والجواب الحق المبين هو أنهم فشلوا وخسروا لأنهم كانوا جيوشاً سبعة ، ولو كانوا جيشاً واحداً مؤمناً مخلصاً لمضى إلى غايته ، وانتصر وغلب ، ولا ريب أنه كان فيهم مخلصون ، وكان بين أيديهم متطوعون محتسبون ، ولكن ابن الحرام — كما يقول الناس — لم يترك لابن الحلال مجالا طهوراً فى المعركة ، فما بذله المخلصون من جنود ومتطوعين أضاعه الآثمون المجرمون بالغدر والخيانة ، المأساة معلومة مفهومة ، وما يوم حليمة بسر ! ! . .

وكيف يعقل أيها الناس أن سبعين مليوناً يخلصون فى الدفاع عن مقدساتهم وأعراضهم وديارهم ثم تغلبهم شرذمة من شذاذ الآفاق تجمعت من هنا وهناك ؟ . . . إن جمال الدين الأفغانى قد خاطب أهل الهند قبل استقلالها فقال لهم : « لو مسخكم الله يا أهل الهند ، وجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القاع ، وعدتم إلى هندكم أحراراً » . . . ولقد تحررت الهند ، وخرجت منها بريطانيا العظمى ، وصارت العظمى سفلى ، وأصبح الهنود المستضعفون أحراراً ، ولو مسخ الله السبعين مليوناً من العرب فجعل كلا منهم سلحفاة وزحفوا على إسرائيل لجروها إلى البحر فأغرقوها وعادوا إلى فلسطين آمنين مطمئنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا جيداً وداثماً أن جمهوريتكم ستظل فى خطر ما دام بين شطريها هذا السرطان أو هذا الأفعوان إسرائيل، فلنؤمن بأنه من مصلحتنا المادية فوق أنه من واجبنا القومى الإسلامى أن نعمل جادين جاهدين لاسترداد فلسطين ، وليس ذلك حلماً بعيداً ، ولا خيالا واسعاً ، بل هو الواجب المحتوم مهما تكاثرت عوامل التعويق أو التفريق : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

امريكا وفلسطين(١)

الحمد لله عز وجل ، يحب الأقوياء الشرفاء ، ويمقت الضعفاء الأذلاء : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » أشهد أن لا إله إلا الله واهب الأجر ومانح النصر : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى الله حق الجهاد ، حتى حرر العباد والبلاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمؤتمين بأعماله وأقواله : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما كادت زيارة رئيس الاتحاد السوفيتى لبلادنا تنتهى حتى سارع رئيس وزراء إسرائيل بالاستجابة لدعوة الجمهورية الأمريكية بالزيارة ، وكأن الزيارة الثانية جاءت رداً على الزيارة الأولى ، وهناك أعطى الرئيس الأمريكى للصهيونى المتسول وعداً بأن تدافع أمريكا عن إسرائيل إذا تعرضت للهجوم ، ومفهوم هذا أن أمريكا ستحارب العرب والمسلمين إذا ما حاولوا أن يستردوا فلسطين . وقد أصدر الرئيس الأمريكى قراراً بإرسال كبار العلماء فى أمريكا إلى فلسطين المحتلة التى تسمى إسرائيل لينفذوا فيها المشروعات المائية ، وقال إنه يعتبر المحافظة على حدود إسرائيل من الأمور البالغة الأهمية بالنسبة لأمريكا. ولم تكتف أمريكا بالوعود تبذلها لإسرائيل ، ولا بالعلماء والخبراء يمدونها بالمشورة والتدبير ، بل تعطيها المعونة المالية مثنى وثلاث ورباع ، وتعطيها الأسلحة الخافية والبادية كى تتسلح بها ضد العرب والمسلمين . والسر فى تحمس الرئيس الأمريكى لخدمة إسرائيل يجب أن يعرف ، فقد قفز جونسون

---

(١) ٢ صفر سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٢ يونية سنة ١٩٦٤ م .

إلى مقعد الرئاسة قضاء وقدراً بعد مصرع سلفه كيندى ، ومعركة الانتخاب لرياسة الجمهورية هناك على الأبواب ، واليهود يتحكمون فى مصاير أمريكا ، وفى تسخير رأيها العام لأهوائهم بحكم تسلطهم على البنوك والصحف ومجالات الاقتصاد الأخرى ، فهو يريد أن يقدم الرشوة إلى اليهود حتى يساعدوه ، فيجعلوه رئيساً للجمهورية فى المعركة القادمة .

وأمريكا هذه تقول إنها تدين بالمسيحية ، وتؤمن بالإنجيل ، وتتبع عيسى بن مريم عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ، فهل نسى هؤلاء المسيحيون — أو المتمسحون بتعبير أدق ما فعله اليهود بالمسيح وأم المسيح ؟ هل نسوا أن اليهود هم الذين اتهموا مريم البتول العذراء بالفاحشة والرذيلة ؟ وهل نسوا أن اليهود هم الذين اضطهدوا المسيح وحاولوا قتله وفعلوا به الأفاعيل ؟ وهل نسوا أن كتاب الإسلام الأعلى وهو القرآن المجيد قد دمغ اليهود باللعنة ، ومد أسباب المودة إلى أتباع المسيح فقال : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون » ؟ . ومن العجيب أن تتظاهر أمريكا بمناصرة اليهود ، وتزعم أنها تفعل ذلك حرصاً على العدالة الإنسانية ، ودفعاً للمظالم البشرية ، فهلا استحت أمريكاوخجلت من نفسها، فأنصفت قبل زعمها هذا أولئك السود المنبوذين المساكين الذين يذوقون على يديها كل يوم لوناً من ألوان العذاب والاضطهاد بسبب التفرقة العنصرية والتمييز بسبب اللون ، مما يعد أكبر سبة فى جبين الذين يدعون المدينة والحضارة والغيرة على حقوق الإنسان .

ومن الواجب علينا أن نتذكر دائماً وأبداً أن الكفر كله ملة واحدة ، وأنه قد ينقسم على نفسه فيما بينه وبين أهله ، ولكنه حينما يقف أمام الإسلام يقف جبهة واحدة متماثلة فى عداوتها لدين الله رب العالمين ، وفى ظلمها

وجورها على عباده المسلمين ، وأحداث التاريخ ووقائع الماضى والحاضر شريط موصول من الأدلة والبراهين على ما نقول ، وهذه على سبيل المثال هى بريطانيا تشعل النار فى الجنوب العربى الإسلامى ، وتهلك فيه الحرث والنسل ، وتدمر البلاد والعباد ، وتحاول إرغام المواطنين على طاعتها والرضا بذلها ، وهـــذه أمريكا تناصر اليهود ضـــد العرب والمسلمين ، وهـــذه فرنسا تعاون الخارجين على الثورة فى الجزائر ، وتدس الدسائس وتكيد المكائد من وراء جدر أو من وراء حجب وأستار ، وإذا كنا مطالبين كمسلمين ومواطنين أن نهتم بكل قضية من قضايا العروبة والإسلام ، فإن قضية فلسطين يجب أن يكون لها الصدر والمقام الأول ، فنى حلها على الوجه الذى يرضى الله والدين حل لكثير من القضايا ، وفى إزالة عار الاغتصاب لها تطهير لإثم كبير يدمغنا بذل عميق ، وفلسطين هى أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومولد عيسى ، ومسرى محمد ، ومصعد جبريل ليلة الإسراء ، وهى البقعة التى امتلأت بآلاف الشهداء حتى ضاقت بجثثهم الأرجاء ، وهى الفلذة الغالية التى اقتطعت من كبد الوطن المؤمن فى ليل الخيانة والغدر ، فى سنة ١٩٤٨ تمت أحقر مؤامرة سياسية وأدنأ مكيدة استعمارية تعاون فيها السلاح الإنجليزى ، والدولار الأمريكى ، واللؤم اليهودى ، والتخاذل العربى ، ورأينا سبعة جيوش عربية هزيلة تدخل فلسطين تزعم تحريرها ، وليس عندها إيمان بالهدف ، ولا توحيد للقيادة ، ولا اتفاق فى الكلمة ، فما يبنيه هذا الجيش يهدمه ذاك ، حتى ضاعت فلسطين بعد قليل ، ووقفنا نتطلع إليها وهى تؤخذ من أيدينا وتعطى لأعدى أعدائنا ونحن لا نملك غير البكاء والرثاء ، وليس بعد ذلك مصيبة أو بلاء .

وقالوا قد جننت فقلت : كلا وربى مـــا جننت ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكـــدت أقضى من الظـــلم المبين ، وقد بكيت

فإن المـــاء مـــاء أبـــى وجـــدى   وبئرى ذو حفرت وذو طويت

حدث كل هذا فى الماضى ، ويحدث كل ما ذكرناه فى الحاضر ، فماذا فعل العرب والمسلمون من أجل فلسطين ؟ إن عددهم فوق السمّائة مليون ، وإن بلادهم فسيحة واسعة ، وإنهم يسيطرون على منافذ حيوية فى الشرق والغرب ، وفى بلادهم يتدفق الذهب الأسود : النفط وهو (البترول) الذى يتحكم اليوم فى مصير الحرب ومصير السلام ، ولو أنهم اجتمعوا واتفقوا واتحدوا وتعاونوا لقذفوا بإسرائيل إلى البحر ثم عادوا إلى بلادهم آمنين ، ولكنهم نيام عن الحق والواجب ، لا ينشطون إلا فى مجال الخلافات التى تمتد وتشتد وتحتد ، وإذا كان الحكماء قد قالوا الحق فوق القوة ، فلا بد لهذا الحق من قوة حتى يسود ويقود ، لأن الحق الأعزل يظل مجهولا أو معزولا كالجوهرة الثمينة تضيع بين طيات التراب ، فهى حقاً لم تفقد خصائصها الذاتية ، ولكن لا أحد يدرى بها أو يهتم لها ما دامت مطمورة مجهولة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول إمامكم وزعيمكم ورسولكم : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » فواجبنا يقتضينا أن ندرس قضايانا ، وأن نحذر الغفلة والتفريط فيها ، وأن نتذاكر حقوقنا ، وأن نعمل لعزتنا ، وأن نثأر لكرامتنا « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . .

المسجد الأقصى يحترق(١)

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، سبحانه كتب الضياع والهوان على الأذلاء الحقراء أهل الجبن والهلع ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز المؤمنين الأقوياء ، ويخذل الفاسقين الجبناء ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان نبي الملحمة ومؤدب الظلمة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

واحزنا على مقدسات الإسلام وحرمات المسلمين ، واحزنا على كيان العروبة ، وكرامة العرب ، إن صلاة الجمعة الحاشدة لن تقام اليوم فى المسجد الأقصى قلب القدس التى هى عاصمة فلسطين بلد العرب والمسلمين ، وأنتم تعلمون السبب . . . لأن المسجد الأقصى يحترق ، ولو فرضنا وأقيمت صلاة الجمعة اليوم فى المسجد الأقصى ، فستكون صلاة حزينة ممزوجة ببقايا اللهب وقطع الخشب ، وفتات الحجارة ، ورماد النار ، لأن المسجد الأقصى يحترق ، وما أجدر المسجد الأقصى اليوم بأن يقال فيه ما ردده الشاعر :

مررت بالمسجد المحزون أسأله : هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون ، واختلفت على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان

نعم لن تقام صلاة الجمعة اليوم فى المسجد الأقصى كما كانت تقام منذ قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهو المسجد الذى جعله رب العزة القبلة

(١) ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ ـ ٢٢ اغسطس سنة ١٩٦٩م، بمناسبة احراق اليهود للمسجد الاقصى .

الأولى للإسلام والمسلمين ، فظل الرسول يتوجه إليه فى صلاته سبعة عشر شهراً ليربط بين قداسته وقداسة بيت الله الحرام ، ولذلك لم يصرح القرآن بغير اسمى هذين المسجدين فى آياته، فذلك حيث يقول : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، وهو ثالث ثلاثة مساجد خصها الله بالتكريم والإكبار ، فشرع الرحلة إليها بنية العبادة والتقرب إلى الله . فقال رسول الله عليه صلوات الله : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى فى بيت المقدس ومسجدى هذا بالمدينة » ، وهو المسجد الذى اختاره رب العزة من بين معابد الدنيا ليكون واسطة العقد فى رحلة سيد الأنبياء محمد فى معجزة الإسراء والمعراج ، فكان ختام الرحلة المحمدية فى الأرض ، وبدايتها فى السماء ، ثم كان ختام رحلة العودة من المعراج ، وبداية رحلة العودة من الإسراء ، وهناك فى داخل الحرم القدسى ، وفى جنبات المسجد الأقصى جمع الله لرسوله الأمين جموع الأنبياء والمرسلين ليؤمهم فى الصلاة ، حتى تكون هذه الصلاة إيماء إلى انتهاء مقاليد النبوات والرسالات إلى النبى الخاتم الجامع محمد حفيد إسماعيل بن إبراهيم جد العرب الأول عليهم الصلاة والسلام ، ورحمة الله على شوقى حينما خاطب الرسول فقال :

أسرى بك الله ليـــلا إذ ملائــكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم
لمـــــا خطرت به التفوا بســـيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كــل ذى خطر ... ومن يفـــز بحبيب الله يأ تمـــــم

ومما يؤكد هذا الميراث الإلهى الدينى الذى أراده رب العزة لرسوله أن الرسول فى رحلة الإسراء صلى فى مكان ، فقال له سفير الرحمن جبريل : أتدرى أين صليت ؟ . قال : الله تعالى أعلم ، قال : صليت فى طور سيناء

حيث كلم الله موسى . ثم صلى النبي فى مكان آخر ، فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟ قال : الله تعالى أعلم . فقال جبريل : صليت فى بيت لحم حيث ولد المسيح عيسى بن مريم ، ثم انتهى به جبريل إلى حرم المسجد الأقصى فصلى من جوانبه حيث شاء . ثم كانت إمامته لجميع الأنبياء .

هذا هو المسجد الأقصى الذى يحترق ، وهو المسجد الذى اشترك فى بناء أحد أركانه عمر بن الخطاب بنفسه فى السنة الخامسة عشرة للهجرة ، فكان يحمل التراب فى ردائه وقبائه تكريماً وتعظيماً ، ولم لا يفعل وهو مشعر مطهر من مشاعر الله الحرام ، ومسجد مقدس فى اعتقاد أهل الإسلام ، وقد جاء الحديث الشريف بأن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة فى غيره ، باستثناء المسجد الحرام ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو قلب بيت المقدس الذى روى فى شأنه أن من مات فى بيت المقدس فكأنما مات فى السماء ، وقال أنس بن مالك إن الجنة تحن شوقاً إلى بيت المقدس .

هذا هو المسجد الذى أحرقته عصابات الصهاينة المجرمين الآثمين بالأمس، على مرأى ومسمع من الحيارى المساكين الضائعين أهل القدس المسلمين ، الذين توالت عليهم الضربات وهم صابرون ، وتكررت منهم الصرخات ، وأكثر المنتسبين إلى الإسلام زوراً وبهتاناً كأنهم صم بكم عمى فهم لايسمعون ولا يستجيبون ، ولو أن الطاغية الإنجليزى اللئيم اللورد اللنبي عاد إلى الدنيا من الجحيم الذى مضى إليه ، وتذكر كلمته القذرة التى قالها يوم دخل فلسطين مغتصباً سنة ١٩١٧وهى :« اليوم انتهت الحروب الصليبية » لو عاد لأدرك أن طواغيت الصهيونية قد أشعلوا ناراً أقذر من نار الحروب الصليبية ، وإذا كان صلاح الدين الأيوبى البطل الإسلامى الغيور قد استطاع بإيمانه ويقينه أن يسترد المسجد الأقصى مع القدس من أيدى الصليبيين فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ أى منذ أكثر من ثمانمائة عام ، فإن

ملوك المسلمين وحكامهم يرون اليوم المسجد الأقصى وهو يحترق ، يرونه وهو يحترق بأيدى يهودية قذرة لا يبلغ عدد أصحابها عشر الصليبيين الذين استرده منهم صلاح الدين ، فماذا سيصنع هؤلاء الملوك والحكام من أجل مقدسات الإسلام ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

المسجد الأقصى يحترق ، وقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن ذى الأصابع قال : قلنا يا رسول الله ، إن ابتلينا بعدك بالبناء أين تأمرنا ؟ قال : عليك ببيت المقدس ، فلعل أن ينشأ لك ذرية تغدو إلى المسجد وتروح . . . وهذا المسجد الذى أراده الرسول يحترق الآن ، فهل من ضربات رادعة للانتصاف والانتقام تنبعث من ضفة قناة السويس وضفة نهر الأردن ومرتفعات الجولان ؟ . لقد وجب إعلان الجهاد الدينى والحرب المقدسة لإنقاذ المسجد الأقصى الذى يحترق ، فهل نحن سامعون ؟ . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

دم الشهداء وذهب الأغنياء[1]

لك الحمد يا ولى الهداية والتوفيق ومانح الإرشاد إلى أقوم طريق ، سبحانك سبحانك ، لولا أنت ما اهتدى السائر فى الظلمات ، ولا استبصر التائه فى بيداء المشكلات ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين ، وجار المستجيرين ، وعون المستضعفين وناصر المرابطين ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، الذى بعثته لجميع الناس نعمة ورحمة ، وأنطقته بجوامع الكلم وروائع الحكمة ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين كانوا المثل الأعلى لكل إنسان ، وأصحابه الذين عملوا فسبقوا ففازوا من ربهم بالنعيم والرضوان ، وأتباعه اللذين استنوا بسنته فما حادوا يوماً عن شرعة القرآن . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

دعونى بربكم أكثر لكم من الحديث عن فلسطين ، فإنها اليوم نقطة الارتكاز فى ميدان الجهاد الإسلامى ، وقضيتها فاتحة القضايا العربية ، وساحتها محطة اختبار لقوة العرب وغيرتهم على أوطانهم وذمارهم ، وقصتها الدامية تتفرع إلى غصون وشجون حتى تشمل الكثير من الشئون ؛ ولست أدرى أية قوة غيبية قذفت فى روعى أن أعود إلى الحديث عن الشهداء ، مع أن هذا الحديث يختلط فيه الشجا بالرضا ، والتهنئة بالتعزية ، ويوجد فينا لوناً من الخشية والجلال ؛ وأى إنسان لا يحس بعاطفة الروعة والرهبة حينما يستحضر بخياله مرأى أولئك الأبطال الذين سارعوا إلى ربهم ودماؤهم على ثيابهم ، وأبدانهم لم ترفع ، لتبقى وساماً فوق صدورهم ، يلقون به

---

(١) أول مايو سنة ١٩٤٨ م .

ربهم يوم القيامة ، فإذا ريحه ريح المسك ، وإن كان لونه لون الدم ، وإذا بالإذن الإلهى يهبط من لدن الحق تبارك وتعالى : أن أدخلوا الشهداء من عبادى جنة عالية فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! . .

دعونى لأبين لكم وجوه الشبه بين دم الشهداء فى فلسطين وذهب الأغنياء الأشحاء البخلاء فى مصر المهينة المسكينة ، فلون كل من الدم والذهب أحمر ، ولكن حمرة الدم الشهيد الزكى تبعث فى نفس المؤمن عند رؤيته شهامة وشجاعة ، وفى قلبه فتوة وقوة ، وفى عزيمته اقتداراً وابتدارا ، ولكن حمرة الذهب أو صفرته الداكنة تبعث فى الإنسان حب الدنيا والتكالب عليها ، والتعلق بها والفناء فيها ، وتحدثه بالغش والاحتيال ، والباطل والضلال ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » ! . . .

وكل من دم الشهداء وذهب الأغنياء يسيل ويتجمد ، ولكن دم الشهيد يسيل لغرض نبيل وقصد جميل ، ويتساقط من جسم صاحبه بعد أن مات الميتة الكريمة الغالية ، فيتجمد جزء منه على أرض الحمى ليكون شاهد صدق على أن الأوطان العزيزة لا تكتب وثيقة حريتها واستقلالها إلا بقطرات زكيات من دماء الأحرار من الرجال ، ويتجمد باقيه على جسم الشهيد وثيابه ، فلا يغسل منه ، ولا يكفن بثياب جديدة ؛ ثم يبعث الشهيد يوم الفزع الأكبر ، وقد تجمد هذا الدم حوله ، فإذا هو نطاق يمنعه من العذاب ، وحرز حريز يحول بينه وبين العقاب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

أما ذهب الأغنياء الأشحاء ، فإنه يسيل دمعاً وعرقاً ، ودماً فى أول الأمر من أولئك الفقراء البائسين ، والفلاحين الكادحين ، والعمال المغبونين ، والصناع المظلومين ، نتيجة محتومة لبغى القادرين وعنتهم وإرهاقهم ، ثم ينحدر هذا السائل البشرى المرتخص إلى خزائن الأغنياء ، فإذا وصل إليها تجمد فيها « بقدرة قادر » ، وتحول إلى ذهب إبريز ، ولزم هذه الخزائن فلا يبرحها ، ليظل عنواناً صارخاً على ظلم أصحابه ، وبغى جامعيه ، وشح كانزيه ! ! . .

وكل من دم الشهداء وذهب الأغنياء رفيق يرافق صاحبه فى دنياه ، ولكن شتان بينهما فى هذه الرفقة ، فدم الشهيد يجرى فى عروقه قوياً حاراً نابضاً بالحياة ، فيحرضه على كلمة الحق ، ويدفعه إلى ميادين الصدق ، ويثير فى نفسه عواطف العزة والإباء والنخوة والعلاء ؛ أما ذهب الغنى فهم مقعد مقيم بالليل والنهار ، وثقل ثقيل يرهق صاحبه ويشقيه ، وإن ظن وهماً وباطلا أنه يسعده ويعليه ؛ نعم يشقيه فى جمعه واكتسابه ، وحفظه والحرص عليه والاستكثار منه والتفكير فيه ؛ وتعس عبد الدينار وعبد الدرهم الذى يجمع مالا ينفع ، ويحرس مالا يفيد ! .

وكل من دم الشهداء وذهب الأغنياء معد لينفق فى سبيل من السبل وطريق من الطرق ، ولكن دم الشهداء ينفق فى سبيل الرحمن ، وإعزاز كلمة الواحد الديان ، وتحرير البلاد والأوطان ، وأما ذهب الأغنياء فينفق — إن أنفق — فى سبيل الطاغوت والشيطان ، وعلى غرائز الجسد ومطالب الأبدان ، دواعى الهوى والفسق والفجور ، فكلما بنى الشهداء بجماجمهم حصناً للعقيدة والأخلاق ، جاء المترفون بفسقهم وخناهم فدمروا ما بنى هؤلاء ، وبذلك لا يتم إصلاح :

متى يبلــغ البنيــان يوماً تمامــه   إذا كنت تبنيــه وغــيرك يهدم ؟.

وكل من دم الشهداء وذهب الأغنياء الأشحاء البخلاء سيكون جزاء وفاقاً لصاحبه ، وشيئاً مدخراً لأهليه ، وعملا مسجلا مسطوراً يلقونه حينما يلقون رب العالمين ، « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » ، فأما دم الشهداء الأبرار فسيكون لهم « جواز المرور » إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وسيكون نعم الثواب عند أوفى الأوفياء ، وأولى الأولياء ، وأغنى الأغنياء وأكرم الكرماء ، فاطر الأرض والسماء ، الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وصدق الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم حين يقول : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار : الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » ! . .

وأما ذهب الأغنياء الأشحاء البخلاء الذين لا يؤدون من أموالهم ما فرضه العلى الكبير فيها من حق معلوم يؤدى للسائل والمحروم ، فسيكون أيضاً « جواز مرور » ولكن إلى عذاب السعير ، وسيكون جزاء حقاً ، ولكنه جزاء الهون والعذاب ، وصدق الحق إذ يقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هــذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ! . وسيتحول هذا المال المكنوز يوم القيامة كما قال الصادق المصدوق إلى ثعبان خبيث أقرع ، قد امتلأ رأسه بالسم ، ثم يلتف حول رقبة صاحبه ، ويأخذ بفكيه لادغاً معذباً ، وهو

يصرخ به : أنا مالك ، أنا كنزك ، ويظل كذلك حتى يلقى من الهم والغم ما الله به عليم ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

والله لو كانت القلوب أرضاً ميتة لأحياها هدى القرآن ، ولو كانت النفوس أحجاراً لصهرتها نار الإيمان ، وقد جاءتكم بصائر من ربكم ، فيها ضياء للأبصار ، وشفاء لما فى الصدور ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، واللبيب الأريب من حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، ومن تخفف من أثقاله قبل أن يزداد الحمل عليه ، فلا يستطيع من تبعاته خلاصاً يوم يحاسب على ما قدمت يداه ، فيسأل عن الفتيل والقطمير ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » .

قال عليه الصلاة والسلام :

« اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » ! . .

وقال جابر رضى الله عنه : جىء بأبى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد مثل به [بعد أن قتل فى سبيل الله] ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف وجهه ، فنهانى قومى فسمع صوت نائحة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لم تبكى ؟ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع ! . . .

الفهرس